أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الشنقيطي

[طبع هذا الكتاب لانتفاع طلبة العلم به]

الجزء السادس

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
لصاحبها على صبح المدني

[حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾

ظاهر هذه الآية الكريمة : أن كل زانية وكل زان : يجب جلد كل واحد منهما مائة جلدة ، لأن الألف واللام فى قوله ﴿ الزانية والزانى ﴾ إن قلنا : إنهما موصول وصلتهما الوصف الذى هو اسم الفاعل الذى هو الزانية والزانى ، فالموصولات من صيغ العموم .

وإن قلنا : إنهما للتعريف لتناسى الوصفية ، وأن مرتكب تلك الفاحشة يطلق عليه اسم الزانى ، كإطلاق أسماء الأجناس ، فإن ذلك يفيد الاستغراق ، فالعموم الشامل لكل زانية وكل زان ، هو ظاهر الآية ، على جميع الاحتمالات .

وظاهر هذا العموم شموله للعبد ، والحر ، والأمة ، والحرة ، والبكر ، والمحصن من الرجال والنساء .

وظاهره أيضا : أنه لا تغرب الزانية ، ولا الزانى عاما مع الجلد ، ولكن بعض الآيات القرآنية دل على أن عموم الزانية يخصص مرتين .

إحداهما : تخصيص حكم جلدها مائة بكونها حرة ، أما إن كانت أمة ، فإنها تجلد نصف المائة وهو خمسون وذلك فى قوله تعالى فى الإماء ﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ والمراد بالمحصنات هنا : الحرائر

والعذاب الجلد ، وهو بالنسبة إلى الحرة الزانية : مائة جلدة والأمة عليها نصفه بنص آية النساء هذه ، وهو خمسون . فآية ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ مخصصة لعموم قوله ﴿ الزانية والزانى ﴾ الآية بالنسبة إلى الزانية الأنثى .

وأما التخصيص المرة الثانية لعموم الزانية فى آية النور هذه فهو بآية منسوخة التلاوة ، باقية الحكم ، تقتضى أن عموم الزانية هنا مخصص بكونها بكراً .

أما إن كانت محصنة ، بمعنى أنها قد تزوجت من قبل الزنى ، وجامعها زوجها فى نكاح صحيح فإنها ترجم .

والآية التى خصصتها بهذا الحكم الذى ذكرنا أنها منسوخة التلاوة باقية الحكم هى قوله تعالى : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .

وهذا التخصيص إنما هو على قول من يقول : لا يجمع للزانى المحصن بين الجلد والرجم ، وإنما يرجم فقط بدون جلد .

أما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص ، وإنما فى آية الرجم زيادته على الجلد ، فكلتا الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى ، وسيأتى إيضاح هذا إن شاء الله غير بعيد وأقوال أهل العلم فيه ومناقشة أدلتهم .

أما الزانى الذكر فقد دلت الآية التى ذكرنا ، أنها منسوخة التلاوة ، باقية الحكم على تخصيص عمومه ، وأن الذى يجلد المائة من الذكور ، إنما هو الزانى البكر ، وأما المحصن فإنه يرجم ، وهذا التخصيص فى الذكر أيضاً إنما هو على قول من لا يرى الجمع بين الجلد والرجم ، كما أوضحناه قريباً فى الأنثى .

وأما على قول من يرى الجمع بينهما فلا تخصيص ، بل كل واحدة من الآيتين أثبتت حكماً لم تثبته الأخرى .

وعموم الزانى فى آية النور هذه ، مخصص عند الجمهور أيضاً مرة أخرى ، بكون جلد المائة خاصاً بالزانى الحر ، أما الزانى الذكر العبد فإنه يجلد نصف المائة وهو الخمسون .

ووجه هذا التخصيص : إلحاق العبد بالأمة فى تشطير حد الزنى بالرق ، لأن مناط التشطير الرق بلا شك ، لأن الذكورة والأنوثة بالنسبة إلى الحدود وصفان طرديان ، لا يترتب عليهما حكم ، فدل قوله تعالى فى آية النساء فى الإماء ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أن الرق مناط تشطير حد الزنى ، إذ لا فرق بين الذكر والأنثى فى الحدود ، فالمخصص لعموم الزانى فى الحقيقة : هو ما أفادته آية ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ وإن سماه الأصوليون تخصيصاً بالقياس ، فهو فى الحقيقة تخصيص آية بما فهم من آية أخرى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن رجم الزانيين المحصنين ، دلت عليه آيتان من كتاب الله ، إحداهما نسخت تلاوتها ، وبقى حكمها ، والثانية : باقية التلاوة والحكم ، أما التى نسخت تلاوتها ، وبقى حكمها فهى قوله تعالى : الشيخ والشيخة إلى آخرها كما سيأتى . وكون الرجم ثابتاً بالقرآن ثابت فى الصحيح .

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : فى باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت :

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى إبراهيم بن سعد ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس قال : كنت أقرىء رجالا من المهاجرين منهم : عبد الرحمن بن عوف ، فبينما أنا فى منزله بمنى ، وهو عند عمر بن الخطاب فى آخر حجة حجها ، إذ رجع إلى عبد الرحمن فقال : لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم ، فقال يا أمير المؤمنين هل لك فى فلان يقول : لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً فوالله ما كانت بيعة أبى بكر إلا فلتة فتمت ، فغضب عمر ثم قال : إنى إن شاء الله لقائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم . الحديث بطوله .

وفيه : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل الله آية الرجم ، فقرأناها ، وعقلناها ، ووعيناها : « رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم فى كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف » انتهى محل الغرض من صحيح البخارى .

وفيه أن الرجم نزل فى القرآن فى آية من كتاب الله ، وكونها لم تقرأ فى المصحف ، يدل على نسخ تلاوتها ، مع بقاء حكمها كما هو ثابت فى الحديث المذكور .

وفى رواية فى البخارى من حديث عمر رضى الله عنه « لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، ألا وإن الرجم حق على من زنى ، وقد أحصن إذا قامت البينة ، أو كان الحمل ، أو الاعتراف » .

قال سفيان : كذا حفظت « ألا وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده » .

وقال ابن حجر فى فتح البارى فى شرحه لهذه الرواية الأخيرة ، وقد أخرجه الإسماعيلى من رواية جعفر الفريابى ، عن على بن عبد الله شيخ البخارى فيه ، فقال بعد قوله : أو الاعتراف ، وقد قرأناها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجمنا بعده ، فسقط من رواية البخارى من قوله : وقد قرأناها إلى قوله : ألبتة ، ولعل البخارى هو الذى حذف ذلك عمداً ، فقد أخرجه النسائى عن محمد بن منصور ، عن سفيان كرواية جعفر ثم قال : لا أعلم أحداً ذكر فى هذا الحديث : الشيخ والشيخة . . . غير سفيان ، وينبغى أن يكون وهم فى ذلك .

قلت : وقد أخرج الأئمة هذا الحديث من رواية مالك ، ويونس ، ومعمر ، وصالح بن كيسان ، وعقيل ، وغيرهم من الحفاظ عن الزهرى .

وقد وقعت هذه الزيادة فى هذا الحديث من رواية الموطأ عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : لما صدر عمر من الحج ، وقدم المدينة خطب الناس فقال : أيها الناس ، قد سنت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ثم قال : إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم ، أن يقول قائل : لا نجد حدّين فى كتاب الله ، فقد رجم رسول الله ، ورجمنا والذى نفسى بيده ، لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها بيدى : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة . قال مالك : الشيخ والشيخة : الثيب والثيبة .

ووقع فى الحلية فى ترجمة داود بن أبى هند عن سعيد بن المسيب عن عمر : لكتبتها فى آخر القرآن .

ووقعت أيضاً فى هذا الحديث فى رواية أبى معشر الآتى التنبيه عليها ، فى الباب الذى يليه فقال متصلا بقوله : قد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، ولولا أن يقولوا : كتب عمر ما ليس فى كتاب الله ، لكتبته قد قرأنا : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم .

وأخرج هذه الجملة النسائى وصححه الحاكم ، من حديث أبى بن كعب قال : ولقد كان فيها أى سورة الأحزاب ، آية الرجم : الشيخ فذكر مثله .

ومن حديث زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الشيخ والشيخة مثله إلى قوله : ألبتة .

ومن رواية أسامة بن سهل أن خالته أخبرته قالت : لقد أقرأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الرجم، فذكره إلى قوله : ألبتة ، وزاد بما قضيا من اللذة .

وأخرج النسائى أيضاً أن مروان بن الحكم قال لزيد : ألا تكتبها فى المصحف قال : لا ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان ولقد ذكرنا ذلك فقال عمر : أنا أكفيكم فقال : يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اكتبنى آية الرجم فقال: لا أستطيع.

وروينا فى فضائل القرآن لابن الضريس من طريق يعلى وهو ابن حكيم ، عن زيد بن أسلم أن عمر خطب الناس فقال : لا تشكوا فى الرجم فإنه حق ، ولقد هممت أن أكتبه فى المصحف ، فسألت أبيّ بن كعب ، فقال : أليس أتيتنى ، وأنا أستقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعت فى صدرى وقلت: استقرئه آية الرجم ، وهم يتسافدون تسافد الحمر ، ورجاله ثقات وفيه : إشارة إلى بيان السبب فى رفع تلاوتها ، وهو الاختلاف .

وأخرج الحاكم من طريق كثير بن الصلت قال : كان زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص يكتبان فى المصحف ، فمرا على هـذه الآية فقال زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الشيخ والشيخة فارجموها ألبتة ، فقال عمر : لما نزلت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : أكتبها فكأنه كره ذلك فقال عمر : ألاترى أن الشيخ إذا زنى ، ولم يحصن جلد ، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم

فيستفاد من هذا الحديث السبب فى نسخ تلاوتها لكون العمل على غير الظاهر من عمومها . انتهى بطوله من فتح البارى .

وفيه الدلالة الظاهرة على ما ذكرنا من أن آية الرجم منسوخة التلاوة ، باقية الحكم ، وأنها مخصصة لآية الجلد ، على القول بعدم الجمع بين الرجم والجلد ، كما تقدم .

ولكن ما أشار إليه ابن حجر من استفادة سبب نسخ تلاوتها من بعض الأحاديث المذكورة غير ظاهر ، لأن كثيراً من الآيات يبين النبى صلى الله عليه وسلم تخصيص عمومه ، ويوضح المقصود به وإن كان خلاف الظاهر المتبادر منه ، ولم يؤد شيء من ذلك إلى نسخ تلاوته كما هو معلوم ، والآية القرآنية عند نزولها تكون لها أحكام متعددة ، كالتعبد بتلاوتها ، وكالعمل بما تضمنته من الأحكام الشرعية ، والقراءة بها فى الصلاة ، ونحو ذلك من الأحكام . وإذا أراد الله أن ينسخها بحكمته فتارة ينسخ جميع أحكامها من تلاوة ، وتعبد ، وعمل بما فيها من الأحكام كآية عشر رضعات معلومات يحرمن ، وتارة ينسخ بعض أحكامها دون بعض ، كنسخ حكم تلاوتها ، والتعبد بها مع بقاء ماتضمنته من الأحكام الشرعية ، وكنسخ حكمها دون تلاوتها . والتعبد بها كما هو غالب ما فى القرآن من النسخ .

وقد أوضحنا جميع ذلك بأمثلته فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ الآية . وله الحكمة البالغة فى جميع مايفعله من ذلك .

فآية الرجم المقصود منها إثبات حكمها ، لا التعبد بها، ولا تلاوتها ، فأنزلت وقرأها الناس ، وفهموا منها حكم الرجم ، فلما تقرر ذلك فى نفوسهم نسخ الله تلاوتها ، والتعبد بها ، وأبقى حكمها الذى هو المقصود . والله جل وعلا أعلم .

فالرجم ثابت فى القرآن وماسيأتى عن على رضى الله عنه أنه قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا ينافى ذلك ، لأن السنة هى التى بينت أن حكم آية الرجم باقٍ بعد نسخ تلاوتها فصار حكمها من هذه الجهة ، فإنه ثابت بالسنة . والله تعالى أعلم .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى أبو الطاهر ، وحرملة ابن يحيى قالا : حدثنا ابن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أنه سمع عبد الله بن عباس يقول : قال عمر ابن الخطاب ، وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها ، وعقلناها : فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان ، أن يقول قائل : ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل ، أو الاعتراف اه منه .

فهذا الحديث الذى اتفق عليه الشيخان، عن هذا الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ دليل صريح صحيح على أن الرجم ثابت بآية من

كتاب الله ، أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأها الصحابة ، ووعوها ، وعقلوها وأن حكمها باق ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله والصحابة رضى الله عنهم فعلوه بعده .

فتحققنا بذلك بقاء حكمها مع أنها لاشك فى نسخ تلاوتها مع الروايات التى ذكرنا فى كلام ابن حجر ، ومن جملة مافيها لفظ آية الرجم المذكورة ، والعلم عند الله تعالى .

وأما الآية التى هى باقية التلاوة والحكم فهى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ على القول بأنها نزلت فى رجم اليهوديين الزانيين بعد الإحصان ، وقد رجمهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصة رجمه لهما مشهورة ، ثابتة فى الصحيح ، وعليه فقوله ﴿ ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ أى عما فى التوراة من حكم الرجم ، وذم المعرض عن الرجم فى هذه الآية ، يدل على أنه ثابت فى شرعنا ، فدلت الآية على هذا القول أن الرجم ثابت فى شرعنا ، وهى باقية التلاوة .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : أجمع العلماء : على أن الرجم لا يكون إلا على من زنى ، وهو محصن .

ومعنى الإحصان : أن يكون قد جامع فى عمره ، ولو مرة واحدة فى نكاح صحيح ، وهو بالغ عاقل حر ، والرجل والمرأة فى هذا سواء ، وكذلك المسلم ، والكافر ، والرشيد ، والمحجور عليه لسفه ، والدليل على أن الكافر إذا كان محصنا يرجم الحديث الصحيح الذى ثبت فيه « أن النبي صلى الله عليه وسلم رجم

يهوديين زنيا بعد الإحصان » وقصة رجمهما مشهورة مع صحتهما كما هو معلوم .

الفرع الثانى : أجمع أهل العلم على أن من زنى ، وهو محصن يرجم ، ولم نعلم بأحد من أهل القبلة خالف فى رجم الزانى المحصن ، ذكراً كان أو أنثى إلا ماحكاه القاضى عياض وغيره عن الخوارج ، وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه . فإنهم لم يقولوا بالرجم ، وبطلان مذهب من ذكر من الخوارج ، وبعض المعتزلة واضح من النصوص الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعده كما قدمنا من حديث عمر المتفق عليه ، وكما سيأتى إن شاء الله .

الفرع الثالث : أجمع العلماء على أن الزانى ذكراً كان أو أنثى ، إذا قامت عليه البينة ، أنهم رأوه أدخل فرجه فى فرجها كالمرود فى المكحلة : أنه يجب رجمه إذا كان محصناً ، وأجمع العلماء أن بينة الزنى ، لايقبل فيها أقل من أربعة عدول ذكور ، فإن شهد ثلاثة عدول ، لم تقبل شهادتهم وحدوا ، لأنهم قذفة كاذبون ، لأن الله تعالى يقول ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ ويقول جل وعلا ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾ الآية ، وكلتا الآيتين المذكورتين صريحة فى أن الشهود فى الزنى ، لايجوز أن يكونوا أقل من أربعة ، وقد قال جل وعلا ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذلم يأتوا بالشهداء فأولائك عندالله هم الكاذبون ﴾ وقد بينت هذه الآية اشتراط الأربعة كما فى الآيتين المذكورتين قبلها ، وزادت أن القاذفين إذلم يأتوا بالشهداء الأربعة هم الكاذبون عند الله .

ومن كذب فى دعواه الزنى على محصن أو محصنة وجب عليه حد القذف كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله .

وما ذكره أبو الخطاب من الحنابلة عن أحمد والشافعى من أن شهود الزنى ، إذا لم يكملوا لاحد قذف عليهم ، لأنهم شهود لا قذفة ، لا يعول عليه ، والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا .

ومما يؤيده قصة عمر مع الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة فإن رابعهم لما لم يصرح بالشهادة على المغيرة بالزنى ، جلد عمر الشهود الثلاثة جلد القذف ثمانين ، وفيهم أبو بكرة رضى الله عنه ، والقصة معروفة مشهورة ، وقد أوضحناها فى غير هذا الموضع .

وجمهور أهل العلم أن العبيد لا تقبل شهادتهم فى الزنى ، ولا نعلم خلافاً عن أحد من أهل العلم ، فى عدم قبول شهادة العبيد فى الزنى ، إلا رواية عن أحمد ليست هى مذهبه وإلا قول أبى ثور .

ويشترط فى شهود الزنى : أن يكونوا ذكوراً ولا تصح فيه شهادة النساء بحال ، ولا نعلم أحداً من أهل العلم خالف فى ذلك ، إلا شيئاً يروى عن عطاء ، وحماد أنه يقبل فيه ثلاثة رجال وامرأتان .

وقال ابن قدامة فى المغنى : وهو شذوذ لا يعول عليه ، لأن لفظ الأربعة اسم لعدد المذكورين ، ويقتضى أن يكتفى فيه بأربعة،ولا خلاف أن الأربعة إذا كان بعضهم نساء لا يكتفى بهم ، وأن أقل ما يجزىء خمسة ، وهذا خلاف النص ، ولأن فى شهادتهن شبهة لتطرق الضلال إليهن ، قال الله تعالى : ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ والحدود تدرأ بالشبهات انتهى منه .

ولا خلاف بين أهل العلم أن شهادة الكفار كالذميين لا تقبل على المسلم بالزنى .

واختلف هل تقبل على كافر مثله ؟ فقيل : لا ، والنبى صلى الله عليه وسلم « إنما رجم اليهوديين باعترافهما بالزنى لا بشهاد شهود من اليهود عليهم

بالزنى . والذين قالوا هذا القول زعموا أن شهادة الشهود فى حديث جابر : أنها شهادة شهود مسلمين ، يشهدون على اعتراف اليهوديين المذكورين بالزنى. وممن قال هذا القول : ابن العربى المالكى .

وقال بعض أهل العلم: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض إن تحاكموا إلينا .

وقال القرطبى : الجمهور على أن الكافر لا تقبل شهادته على مسلم ، ولا على كافر لا فى حد ولا فى غيره ، ولا فرق بين السفر والحضر فى ذلك . وقيل : شهادتهم جماعة من التابعين ، وبعض الفقهاء إذا لم يوجد مسلم ، واستثنى أحمد حالة السفر إذا لم يوجد مسلم .

وأجاب القرطبى عن الجمهور عن واقعة اليهوديين بأنه صلى الله عليه وسلم نفذ عليهم ما علم أنه حكم التوراة وألزمهم العمل به ظاهراً لتحريفهم كتابهم ، وتغييرهم حكمه أو كان ذلك خاصا بهذه الواقعة .

وقال ابن حجر بعد نقله كلام القرطبى المذكور كذا قال : والثانى مردود ، ثم قال : وقال النووى الظاهر أنه رجمهما بالاعتراف ، فإن ثبت حديث جابر فلعل الشهود كانوا مسلمين وإلا فلا عبرة بشهادتهم ، ويتعين أنهما أقرا بالزنى .

ثم قال ابن حجر قلت : لم يثبت أنهم كانوا مسلمين ، ويحتمل أن يكون الشهود أخبروا بذلك بقية اليهود ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم كلامهم ، ولم يحكم فيهما إلا مستنداً لما أطلعه الله تعالى عليه ، فحكم بالوحى ، وألزمهم الحجة بينهم كما قال تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ وأن شهودهم شهدوا عليهما عند إخبارهم بما ذكر ، فلما رفعوا الأمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم استعلم القصة على وجهها فذكر كل من حضره من الرواة ما حفظه فى ذلك ، ولم يكن مستند حكم النبى صلى الله عليه وسلم إلا ما أطلعه الله عليه . انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر فى فتح البارى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى رجحانه بالدليل ، هو مذهب الجمهور من عدم قبول شهادة الكفار مطلقا لأن الله يقول فى المسلمين الفاسقين (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) . وإذا نص إليه جل وعلا فى محكم كتابه على عدم قبول شهادة الفاسق ، فالكافر أولى بذلك كما لا يخفى ، وقد قال جل وعلا فى شهود الزنا ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) فخص الأربعة بكونهم منا ، ويمكن أن يجيب المانع بأن أول الآية فيه من نسائكم ، فلا تتناول نساء أهل الذمة ونحوهم من الكفار ، وأنه لا تقبل شهادة كافر فى شىء إلا بدليل خاص كالوصية فى السفر ، إذا لم يوجد مسلم ، لأن الله نص على ذلك بقوله (أو آخران من غيركم) الآية .

والتحقيق أن حكمها غير منسوخ ، لأن القرآن لا يثبت نسخ حكمه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، والآيات التى زعم من ادعى النسخ : أنها ناسخة لها كقوله : (ذوى عدل منكم) وقوله (ممن ترضون من الشهداء) وقوله (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) أعم منها .

والجمهور على أن الأعم لا ينسخ الأخص خلافا لأبى حنيفة .

أما حديث جابر المشار إليه الذى يفهم منه قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض فى حد الزنى . فقد قال فيه أبو داود رحمه الله فى سننه : حدثنا يحيى بن موسى البلخى ، ثنا أبو أسامة قال مجالد : أخبرنا عن عامر عن جابر بن عبد الله ، قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا فقال : ائتونى بأعلم رجلين منكم . الحديث . وفيه : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشهود ، فجاءوا بأربعة فشهدوا بأنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما انتهى محل الغرض منه .

وظاهره المتبادر منه : أن الشهود الذين شهدوا من اليهود كما لا يخفى فظاهر الحديث ، دال دلالة واضحة على قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض ، فى حد الزنى، إن كان صحيحا، والسند المذكور الذى أخرجه به أبو داود لا يصح لأن فيه مجالدا وهو مجالد بن سعيد بن عمير بن بسطان بن ذى مران بن شرحبيل الهمدانى أبو عمرو ، ويقال أبو سعيد الكوفى ، وأكثر أهل العلم على ضعفه ، وعدم الاحتجاج به ، والإمام مسلم بن الحجاج ، إنما أخرج حديثه مقرونا بغيره ، فلا عبرة بقول يعقوب بن سفيان ، إنه صدوق ولا بتوثيق النسائى له مرة ، لأنه ضعفه مرة أخرى ، ولا بقول ابن عدى إن له عن الشعبى ، عن جابر أحاديث صالحة ، لأن أكثر أهل العلم بالرجال على تضعيفه ، وعدم الاحتجاج به أما غير مجالد من رجال سند أبى داود فهم ثقات معروفون ، لأن يحيى بن موسى البلخى ثقة ، وأبو أسامة المذكور فيه هو حماد بن أسامة القرشى مولاهم ، وهو ثقة ثبت ربما دلس وكان بأخرة يحدث من كتب غيره ، وعامر الذى روى عنه مجالد هو الإمام الشعبى وجلالته معروفة .

والحاصل : أن مثل هذا السند الذى فيه مجالد المذكور ، لا يجب الرجوع إليه عن عموم النصوص الصحيحة المقتضية، أن الكفار لا تقبل شهادتهم مطلقا ، والله تعالى أعلم .

الفرع الرابع : اعلم أن أهل العلم قد اختلفوا فى اشتراط اتحاد المجلس لشهادة شهود الزنا ، وعلى اشتراط ذلك لو شهدوا فى مجلسين أو مجالس متفرقة ، بطلت شهادتهم ، وحدوا حد القذف . وعلى عدم اشتراط اتحاد المجلس تصح شهادتهم ولو جاءوا متفرقين ، وأدوا شهادتهم فى مجالس متعددة ، وممن قال باشتراط اتحاد المجلس : مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه ، وأحمد وأصحابه . وممن قال بعدم اشتراط اتحاد المجلس : الشافعى ، وعثمان البتى ، وابن المنذر .

قال فى المغنى : وإنما قالوا بعدم اشتراط ذلك لقوله تعالى : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) ولم يذكر المجلس . وقال تعالى : (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت) ولأن كل شهادة مقبولة ، إن اتفقت تقبل إذا افترقت فى مجالس كسائر الشهادات ، ولنا أن أبا بكرة ، ونافعا ، وشبل ابن معبد شهدوا عند عمر رضى الله عنه على المغيرة بن شعبة بالزنى ولم يشهد زياد فحد الثلاثة ، ولو كان المجلس غير مشترط لم يجز أن يحدهم ، لجواز أن يكملوا برابع فى مجلس آخر ، ولأنه لو شهد ثلاثة فحدهم ، ثم جاء رابع فشهد لم تقبل شهادته ، ولولا اشتراط اتحاد المجلس لكملت شهادتهم ، وبهذا فارق سائر الشهادات .

وأما الآية فإنها لم تتعرض للشروط ، ولهذا لم تذكر العدالة ، وصفة الزنى ولأن قوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم) لا يخلو من أن يكون مطلقا فى الزمان كله أو مقيداً ، ولا يجوز أن يكون مطلقا ، لأنه يمنع من جواز جلدهم ، لأنه ما من زمن إلا يجوز أن يأتى فيه بأربعة شهداء ، أو بكاملهم إن كان قد شهد بعضهم فيمتنع جلدهم المأمور به ، فيكون تناقضا ، وإذا ثبت أنه مقيد فأولى ما قيد به المجلس ، لأن المجلس كله بمنزلة الحال الواحدة ، ولهذا ثبت فيه خيار المجلس ، واكتفى فيه بالقبض فيما يعتبر القبض فيه إذا ثبت هذا ، فإنه لا يشترط اجتماعهم حال مجيئهم ، ولو جاءوا متفرقين واحداً بعد واحد فى مجلس واحد ، قبلت شهادتهم .

وقال مالك وأبو حنيفة : إن جاءوا متفرقين فهم قذفة ، لأنهم لم يجتمعوا فى مجيئهم ، فلم تقبل شهادتهم ، كالذين لم يشهدوا فى مجلس واحد ولتناقضة المغيرة ، فإن الشهود جاءوا واحداً بعد واحد وسمعت شهادتهم ، وإنما حدوا لعدم كمالها .

وفى حديثه أن أبا بكرة قال : أرأيت إن جاء آخر يشهد أكنت ترجمه ؟ قال عمر : إى والذى نفسى بيده ، ولأنهم اجتمعوا فى مجلس واحد أشبه مالو جاءوا وكانوا مجتمعين ، ولأن المجلس كله بمنزلة ابتدائه لما ذكرناه ، وإذا تفرقوا فى مجالس فعليهم الحد ، لأن من شهد بالزنى ، ولم يكمل الشهادة يلزمه الحد لقوله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) انتهى من المغنى لابن قدامة .

وقد عرفت أقوال أهل العلم فى اشتراط اتحاد المجلس لشهادة شهود الزنى وما احتج به كل واحد من الفريقين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى دليلا هو قبول شهادتهم ، ولو جاءوا متفرقين فى مجالس متعددة ، لأن الله جل وعلا صرح فى كتابه بقبول شهادة الأربعة فى الزنى ، فإبطالها مع كونهم أربعة بدعوى عدم اتحاد المجلس إبطال الشهادة العدول بغير دليل مقنع يجب الرجوع إليه ، وما وجه من اشترط اتحاد المجلس قوله به لا يتجه كل الاتجاه ، فإن قال : الشهود معنا من يشهد مثل شهادتنا ، انتظره الإمام ، وقبل شهادته ، فإن لم يدعو زيادة شهود ولا علم الحاكم بشاهد أقام عليهم الحد ، لعدم كمال شهادتهم ، هذا هو الظاهر لنا من عموم الأدلة ، وإن كان مخالفا لمذهب مالك ، وأبى حنيفة ، وأحمد ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــــه

اعلم أن مالكا وأصحابه يشترط عندهم زيادة على أداء شهود الزنى شهادتهم فى وقت واحد ، أن يكونوا شاهدين على فعل واحد ، فلو اجتمعوا ونظر واحد بعد واحد ؛ لم تصح شهادتهم على الأصح من مذهب مالك ، لاحتمال تعدد الوطء وأن يكون الزانى نزع فرجه من فرجها بعد رؤية الأول ، ورأى الثانى إيلاجا

آخر غير الإيلاج الذى رآه من قبله ، لأن الأفعال لا يضم بعضها إلى بعض فى الشهادة عندهم ، ومتى لم تقبل شهادتهم حدوا حد القذف . ومشهور مذهب مالك أيضاً : وجوب تفرقتهم أعنى شهود الزنى خاصة ، دون غيرهم من سائر الشهود .

ومعناه عندهم : أنه لابد من إتيانهم مجتمعين ، فإذا جاءوا مجتمعين فرق بينهم عند أداء الشهادة فيسأل كل واحد منهم دون حضرة الآخرين ، ويشهد كل واحد منهم ، أنه رآه أدخل فرجه فى فرجها ، أو أولجه فيه ، ولابد عندهم من زيادة كالمرود فى المكحلة ونحوه ، ويجوز للشهود النظر إلى عورة الزانيين ، ليمكنهم أن يؤدوا الشهادة على وجهها ، ولا إثم عليهم فى ذلك ، ولا يقدح فى شهادتهم لأن وسيلة إقامة حد من حدود الله ، ومحل هذا إن كانوا أربعة فإن كانوا أقل من أربعة لم يجز لهم النظر إلى عورة الزانى إذ لا فائدة فى شهادتهم ، ولأنهم يجلدون حد القذف .

وقال بعض المالكية : لا يجوز لهم النظر إلى عورات الزناة ، ولو كانوا أربعة ، لما نبه عليه الشرع من استحسان الستر ، ويندب للحاكم عند المالكية سؤال الشهود فى الزنى عما ليس شرطاً فى صحة الشهادة ، كأن يقول لكل واحد من الشهود بانفراده ، دون حضرة الآخرين على أى حال رأيتهما وقت زناها ، وهل كانت المرأة على جنبها الأيمن ، أو الأيسر ، أوعلى بطنها ، أو على قفاها ، وفى أى جوانب البيت ونحو ذلك ، فإن اختلفوا بأن قال أحدهم : كانت على قفاها ، وقال الآخر : كانت على جنبها الأيمن ونحو ذلك بطلت شهادتهم ، لدلالة اختلافهم على كذبهم ، وكذلك إن اختلفوا فى جانب البيت الذى وقع فيه الزنى .

ولا شك أن مثل هذا السؤال أحوط فى الدفع عن أعراض المسلمين ،

لأنهم إن كانوا صادقين لم يختلفوا ، وإن كانوا كاذبين علم كذبهم باختلافهم ، وقد قدمنا ما يستأنس به لتفرقة شهود الزنى ، وسؤالهم متفرقين فى قصة سليمان وداود فى المرأة التى شهد عليها أربعة ، أنها زنت بكلبها فرجمها داود فجاء سليمان بالصبيان ، وجعل منهم شهوداً ، وفرقهم وسألهم متفرقين عن لون الكلب الذى زنت به ، فأخبر كل واحد منهم بلون غير اللون الذى أخبر به الآخر ، فأرسل داود للشهود ، وفرقهم وسألهم متفرقين عن لون الكلب الذى زنت به ، فاختلفوا فى لونه كما تقدم إيضاحه .

واعلم أن كلما يثبت به الرجم يثبت به الجلد فطريق ثبوتهما متحدة لا فرق بينهما كما لا يخفى .

الفرع الخامس : اعلم أنه إذا شهد اثنان : أنه زنى بها فى هذا البيت ، واثنان : أنه زنى بها فى بيت آخر ، أو شهد كل اثنين عليه بالزنى فى بلد غير البلد الذى شهد عليه فيه صاحباها ، أو اختلفوا فى اليوم الذى وقع فيه الزنى . فقد اختلف أهل العلم هل تقبل شهادتهم ، نظراً إلى أنهم أربعة شهدوا بالزنى ، أولا تقبل ، لأنه لم تشهد أربعة على زنى واحد ، فكل زنى شهد عليه اثنان ، ولا يثبت زنى باثنين ؟

قال ابن قدامة فى المغنى : الجميع قذفة وعليهم الحد ، وبهذا قال مالك ، والشافعى ، واختار أبو بكر أنه لا حد عليهم ، وبه قال النخعى وأبو ثور وأصحاب الرأى ، لأنهم كملوا أربعة ، ولنا أنه لم يكمل أربعة على زنى واحد ، فوجب عليهم الحد كما لو انفرد بالشهادة اثنان وحدها . فأما المشهود عليه ، فلا حد عليه فى قولهم جميعاً ، وقال أبو بكر : عليه الحد ، وحكاه قولا لأحمد ، وهذا بعيد ، فإنه لم يثبت زنى واحد بشهادة أربعة ، فلم يجب الحد ، ولأن جميع ما تعتبر له البينة يعتبر فيه كمالها فى حق واحد ، فالموجب للحد أولى ، لأنه مما

يحتاط فيه ويدرأ بالشبهات ؛ وقد قال أبو بكر : إنه لو شهد اثنان أنه زنى بامرأة بيضاء، وشهد اثنان أنه زنى بسوداء فهم قذفة ذكره القاضي عنه ، وهذا ينقض قوله انتهى منه ، ثم قال : وإن شهد اثنان أنه زنى بها فى زاوية بيت ، وشهد اثنان أنه زنى بها فى زاوية منه أخرى، وكانت الزاويتان متباعدتين، فالقول فيهما كالقول فى البيتين وإن كانتا متقاربتين كملت شهادتهم ، وحد المشهود عليه ، وبه قال أبو حنيفة ، وقال الشافعى : لا حد عليه ، لأن شهادتهم لم تكمل ، ولأنهم اختلفوا فى المكان ، فأشبه مالو اختلفا فى البيتين ، وعلى قول أبى بكر تكمل شهادتهم ، سواء تقاربت الزاويتان ، أو تباعدتا ، ولنا أنهما إذا تقاربتا أمكن صدق الشهود ، بأن يكون ابتداء الفعل فى إحداها وتمامه فى الأخرى أو ينسبه كل اثنين إلى إحدى الزاويتين لقربه منها فيجب قبول شهادتهم كما لو اتفقوا ، بخلاف ما إذا كانتا متباعدتين ، فإنه لا يمكن كون المشهود به فعلا واحداً .

فإن قيل : فقد يمكن أن يكون المشهود به فعلين ، فلم أوجبتم الحد مع الاحتمال ، والحد يدرأ بالشبهات ؟

قلنا : ليس هذا بشبهة ، بدليل مالو اتفقوا على موضع واحد ، فإن هذا يحتمل فيه والحد واجب ، والقول فى الزمان كالقول فى هذا ، وأنه متى كان بينهما زمن متباعد لا يمكن وجود الفعل الواحد فى جميعه ، كطرفى النهار لم تكمل شهادتهم، ومتى تقاربا كملت شهادتهم انتهى من المغنى :

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له ؛ قد رأيت كلام أهل العلم فى هذا الفرع والظاهر أنه لا تكمل شهادة الأربعة إلا إذا شهدوا على فعل واحد فى مكان متحد ووقت متحد ؛ فإن اختلفوا فى الزمان أو المكان حدوا ، لأنهما فعلان ،

ولم يشهد على واحد منهما أربعة عدول ، فلم يثبت واحد منهما ، والقول بتلفيق شهادتهم ، وضم شهادة بعضهم إلى شهادة بعض لا يظهر ، وقد علمت أن مالكا وأصحابه زادوا أن تكون شهادة الأربعة على إيلاج متحد ، فلو نظروا واحداً بعد واحد مع اتحاد الوقت والمكان لم تقبل عنده شهادتهم حتى ينظروا فرجه في فرجها نظرة واحدة في لحظة واحدة ، وله وجه .

الفرع السادس : إن شهد اثنان أنه زنى بها في قميص أبيض ، وشهد اثنان أنه زنى بها في قميص أحمر ، وشهد اثنان أنه زنى بها في ثوب كتان ، وشهد اثنان أنه زنى بها في ثوب خز .

فقد اختلف أهل العلم هل تكمل شهادتهم أو لا ؟ فقال بعضهم : لا تكمل شهادتهم ، لأن كل اثنين منهما تخالف شادتهما شهادة الاثنين الآخرين ، وممن روى عنه ذلك الشافعي ، وقال بعضهم : تكمل شهادتهم قائلا : إنه لا تنافي بين الشهادتين ، لإمكان أن يكون عليه قميصان فذكر كل اثنين أحد القميصين ، وتركا ذكر الآخر ؛ فيكون الجميع صادقين ؛ لأن أحد الثوبين الذي سكت عنه هذان هو الذي ذكره ذانك كعكسه : فلا تنافي ، ويمكن أن يكون عليها هي قميص أحمر ؛ وعليه هو قميص أبيض كعكسه أو عليه هو ثوب كتان ، وعليها هي ثوب خز كعكسه فيمكن صدق الجميع ؛ وإذا أمكن صدقهم فلا وجه لرد شهادتهم ؛ وبهذا جزم صاحب المغني موجها له بما ذكرنا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لنا في هذا الفرع هو وجوب استفسار الشهود ؛ فإن جزم اثنان بأن عليه ثوباً واحداً أحمر ، وجزم الآخران عليه ثوبا واحداً أبيض لم تكمل شهادتهم لتنافي الشهادتين ، وإن اتفقوا على أن عليه ثوبين مثلا أحدهما أحمر ، والثاني أبيض ، وذكر كل اثنين أحد

الثوبين فلا إشكال فى كمال شهادتهم ، لاتفاق الشهادتين ، وإن لم يمكن استفسار الشهود لموتهم ، أوغيبتهم غيبة يتعذر معها سؤالهم . فالذى يظهر لى عدم كمال شهادتهم ، لاحتمال تخالف شهادتيهما ، ومطلق احتمال اتفاقهما لايكفى فى إقامة الحد ، لأن الحد يدرأ بالشبهات ، فلا يقام بشهادة محتملة البطلان ، بل الظاهر من الصيغة اختلاف الشهادتين والعمل بالظاهر لازم مالم يقم دليل صارف عنه يجب الرجوع إليه .

والذى يظهر أنهم إن لم تكمل شهادتهم يحدون حد القذف . أما فى الشهادة المحتملة فإنه قبل إمكان استفسارهم ، فلا إشكال فى عدم إمكان حدهم وإن أمكن استفسارهم ، فإن فسروا بما يقتضى كمال شهادتهم حد المشهود عليه بشهادتهم ، وإن فسروا بما يوجب بطلان شهادتهم . فالظاهر أنهم يحدون حد القذف كما قدمنا . والعلم عند الله تعالى .

الفرع السابع : إن شهد اثنان أنه زنى بها مكرهة ، وشهد اثنان أنه زنى بها مطاوعة ، فلا حدّ على المرأة إجماعا ، لأن الشهادة عليها لم تكمل على فعل موجب الحد ، وإنما الخلاف فى حكم الرجل والشهود .

قال ابن قدامة فى المغنى : وفى الرجل وجهان .

أحدهما : لا حدّ عليه ، وهو قول أبى بكر ، والقاضى وأكثر الأصحاب ، وقول أبى حنيفة ، وأحد الوجهين لأصحاب الشافعى ، لأن البينة لم تكمل على فعل واحد ، فإن فعل المطاوعة غير فعل المكرهة ، ولم يتم العدد على كل واحد من الفعلين ، ولأن كل شاهدين منهما يكذبان الآخرين ، وذلك يمنع قبول الشهادة ، أو يكون شبهة فى درء الحد ولا يخرج عن أن يكون قول واحد منهما مكذبا للآخر إلا بتقدير فعلين تكون مطاوعة فى أحدهما ، مكرهة فى الآخر ، وهذا

يمنع كون الشهادة كاملة على فعل واحد ، ولأن شاهدى المطاوعة قاذفان لها ، ولم تكمل البينة عليها ، فلا تقبل شهادتهما على غيرها .

والوجه الثانى : أنه يجب الحد عليه ، اختاره أبو الخطاب ، وهو قول أبى يوسف ومحمد ، ووجه ثان للشافعى ، لأن الشهادة كملت على وجود الزنى منه ، واختلافهما إنما هو فى فعلها لا فى فعله ، فلا يمنع كمال الشهادة عليه .

وفى الشهود ثلاثة أوجه :

أحدها : لاحدّ عليهم ، وهو قول من أوجب الحد على الرجل بشهادتهم .

والثانى : عليهم الحد ، لأنهم شهدوا بالزنى ، ولم تكمل شهادتهم فلزمهم الحد كما لو لم يكمل عددهم .

والثالث : يجب الحد على شاهدى المطاوعة ، لأنهما قذفا المرأة بالزنى ، ولم تكمل شهادتهم عليها ، ولا تجب على شاهدى الإكراه لأنهما لم يقذفا المرأة ، وقد كملت شهادتهم على الرجل ، وإنما انتفى عنه الحد للشبهة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: قد رأيت خلاف أهل العلم فى هذا الفرع ، وأظهر أقوالهم عندى فيه : أن الرجل والمرأة لاحدّ على واحد منهما ، وأن على الشهود الأربعة حد القذف . أما نفى الحد عن المرأة ، فلا خلاف فيه ، ووجهه ظاهر ، لأنها لم تكمل عليها شهادة بالزنى . وأما نفى الحد عن الرجل فلأن الاثنين الشاهدين بالمطاوعة يكذبان الشاهدين بالإكراه كعكسه ، وإذا كان كل اثنين من الأربعة يكذبان الآخرين فى الحالة التى وقع عليها الفعل لم تكمل شهادتهم على فعل واحد ، فلم تكمل على الرجل شهادة على حالة زنى واحد ، لأن الإكراه والطوع أمران متنافيان ، وإذا لم تكمل عليه شهادة بفعل واحد على

حالة واحدة فعدم حده هو الأظهر ، أما وجه حد الشهود فلأن الشاهدين على المرأة بأنها زنت مطاوعة للرجل قاذفان لها بالزنى ، ولم تكمل شهادتهما عليها فحدهما لقذفهما المرأة ظاهر جداً ، ولأن الشاهدين بأنه زنى بها مكرهة قاذفان للرجل بأنه أكرهها فزنى بها ، ولم تكمل شهادتهم ؛ لأن شاهدى الطوع مكذبان لهما فى دعواهما الإكراه فحدهما لقذفهما للرجل ، ولم تكمل شهادتهما عليه ظاهر ، أما كون الأربعة قد اتفقت شهادتهم على أنه زنى بها ، فيرده أن كل اثنين منهما يكذبان الآخرين فى الحالة التى وقع عليها الزنى ، هذا هو الأظهر عندنا من كلام أهل العلم فى هذا الفرع . والعلم عند الله تعالى .

ومن المعلوم : أن كل ما يثبت به الرجم على المحصن يثبت به الجلد على البكر ، فثبوت الأمرين طريقة واحدة .

الفرع الثامن : اعلم أنه إن شهد أربعة عدول على امرأة أنها زنت وتمت شهادتهم على الوجه المطلوب ، فقالت إنها عذراء لم تزل بكارتها ونظر إليها أربع من النساء معروفات بالعدالة ، وشهدن بأنها عذراء لم تزل بكارتها بمزيل . فقد اختلف أهل العلم ، هل تدرأ شهادة النساء عنها الحد أولا ؟ فذهب مالك وأصحابه إلى أنها يقام عليها الحد ولا يلتفت لشهادة النساء ، وعبارة المدونة فى ذلك : إذا شهد عليها بالزنى أربعة عدول فقالت : إنها عذراء ونظر إليها النساء ، وصدقنها لم ينظر إلى قولهن وأقيم عليها الحد . انتهى بواسطة نقل المواق فى شرحه لقول خليل فى مختصره ، وبالبينة فلا يسقط بشهادة أربع نسوة ببكارتها ، وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن شهادة النساء ببكارتها تدرأ عنها الحد وهو مذهب الإمام أحمد ، قال ابن قدامة فى المغنى وبه قال الشعبى ، والثورى ، والشافعى ، وأبو ثور وأصحاب الرأى ووجه قول مالك ، وأصحابه بأنها يقام عليها الحد ، هو أن الشهادة على زناها تمت بأربعة عدول ، وأن شهادة النساء لا مدخل لها فى

الحدود ، فلا تسقط بشهادتهن شهادة الرجال عليها بالزنى ، ووجه قول الآخرين بأنها لا تحدّ هو أن بكارتها ثبتت بشهادة النساء ، ووجود البكارة مانع من الزنى ظاهراً ، لأن الزنى لا يحصل بدون الإيلاج فى الفرج ، ولا يتصور ذلك مع بقاء البكارة ، لأن البكر هى التى لم توطأ فى قبلها ، وإذا انتفى الزنى لم يجب الحد ، كما لو قامت البينة بأن المشهود عليه بالزنى مجبوب .

وقال ابن قدامة فى المغنى : ويجب أن يكتفى بشهادة امرأة واحدة ، لأنها مقبولة فيما لا يطلع عليه الرجال ، يعنى البكارة المذكورة انتهى . وأما الأربعة الذين شهدوا بالزنى فلا حدّ عليهم لتمام شهادتهم وهى أقوى من شهادة النساء بالبكارة .

وقال صاحب المغنى : وإنما لم يجب الحد عليهم لكمال عدتهم ، مع احتمال صدقهم لأنه يحتمل أن يكون وطئها ، ثم عادت عذرتها ، فيكون ذلك شبهة فى درء الحد عنهم . وأما إن شهدت بينة على رجل بالزنى فثبت ببينة أخرى أنه مجبوب ، أو شهدت بينة على امرأة بالزنى فثبت ببينة أخرى أنها رتقاء فالظاهر وجوب حد القذف على بينة الزنى ، لظهور كذبها ، لأن المجبوب من الرجال والرتقاء من النساء لا يمكن حصول الزنى من واحد منهما كما هو معلوم .

المسألة الثانية : اعلم أن العلماء أجمعوا على ثبوت الزنى ، ووجوب الحد رجما كان أو جلدا بإقرار الزانى والزانية ، ولكنهم اختلفوا هل يثبت الزنى بإقرار الزانى مرة واحدة ، أو لا يكفى ذلك به حتى يقربه أربع مرات ؟ فذهب الإمام أحمد ، وأبو حنيفة وابن أبى ليلى والحكم : إلى أنه لا يثبت إلا إذا أقر به أربع مرات وزاد أبو حنيفة وابن أبى ليلى : أن يكون ذلك فى أربع مجالس ، ولا تكفى عندهما الإقرارات الأربعة فى مجلس واحد. وذهب مالك ، والشافعى ، والحسن وحماد وأبو ثور ، وابن المنذر إلى أن الزانى يثبت بالإقرار مرة واحدة .

أما حجج من قال يكفى الإقرار به مرة واحدة ، فمنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأنيس فى الحديث الصحيح المشهور « واغد ياأنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها » وفى رواية فى الصحيح «فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت » قالوا : فهذا الحديث المتفق عليه من حديث أبى هريرة ، وزيد بن خالد الجهنى رضى الله عنهما ظاهر ظهوراً واضحاً فى أن الزنى يثبت بالاعتراف به مرة واحدة ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم فيه «فإن اعترفت فارجمها»: ظاهر فى الاكتفاء بالاعتراف مرة واحدة ، إذ لو كان الاعتراف أربع مرات لا بد منه لقال له صلى الله عليه وسلم : فإن اعترفت أربع مرات فارجمها ، فلما لم يقل ذلك عرفنا أن المرة الواحدة تكفى ، لأنه لايجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، كما هو معلوم .

ومن أدلتهم على الاكتفاء بالاعتراف بالزنى مرة واحدة مائبت فى الصحيح من حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما : « أن امرأة من جهينة أتت النبى صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنى ، فقالت : يانبى الله أصبت حداً فأقمه علىّ ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى بها ففعل فأمر بها النبى صلى الله عليه وسلم فشكت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلى عليها يانبى الله وقد زنت ؟ : فقال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » هذا لفظ مسلم فى صحيحه ، وهو نص صحيح فى أنه صلى الله عليه وسلم؛ أمر برجمها بإقرارها مرة واحدة لأنها قالت: إنى أصبت حداً مرة واحدة وأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر برجمها من غير تعدد الإقرار لأن الحديث لم يذكر فيه إلا إقرارها مرة واحدة .

ومن أدلتهم على ذلك أيضاً : مائبت فى الصحيح من قصة الغامدية التى

جاءت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله(صلى الله عليه وسلم) إنى قد زنيت فطهرنى ، وأنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يارسول الله لم تردنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً ، فوالله إنى لحبلى فقال « أما لا فاذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته قال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت . هذا يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفرلها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها فسمع النبى صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : مهلا ياخالد ، فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفرله ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت »هذا لفظ مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، وهو من أصرح الأدلة على الاكتفاء بإقرار الزانى بالزنا مرة واحدة لأن الغامدية المذكورة لما قالت له صلى الله عليه وسلم : لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا ، لم ينكر ذلك عليها ، ولو كان الإقرار أربع مرات شرطا فى لزوم الحد لقال لها إنما رددته ، لكونه لم يقر أربعا .

وقد قال الشوكانى فى نيل الأوطار بعد ذكره لهذه الواقعة : وهذه الواقعة من أعظم الأدلة الدالة على أن تربيع الإقرار ، ليس بشرط للتصريح فيها ، بأنها متأخرة عن قضية ماعز ، وقد اكتفى فيها بدون أربع كما سيأتى . اهـ منه

وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث سليمان بن بريدة ، عن أبيه مانصه : قال ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت : يارسول الله طهرنى ، فقال « ويحك ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه فقالت : أراك تريد أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك ! قال : وما ذاك ؟ قالت : إنها حبلى من الزنا ، فقال آنت؟

قالت : نعم فقال لها : حتى تضعى ما فى بطنك ، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية ؛ فقال إذا لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه ، فقام رجل من الأنصار فقال إلى رضاعه يانبى الله قال فرجمها » اهـ منه .

وهذه الرواية كالتى قبلها فى الدلالة على الاكتفاء بالإقرار مرة واحدة إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على عدم اشتراط تكرر الإقرار بالزنا أربعاً ، وأما حجة من قالوا : يشترط فى ثبوت الإقرار بالزنا ، أن يقر به أربع مرات ، وأنه لا يجب عليه الحد إلا بالإقرار أربعاً ، فهى ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه المتفق عليه قال « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من الناس وهو فى المسجد فناداه : يارسول الله إنى زنيت يريد نفسه ، فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم فتنحى لشق وجهه الذى أعرض قبله ، فقال : يارسول الله إنى زنيت فأعرض عنه ، فجاء لشق وجه النبى صلى الله عليه وسلم الذى أعرض عنه ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبك جنون؟ قال : لا يارسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : أحصنت ؟ قال : نعم قال: اذهبوا فارجموه» الحديث . هذا لفظ البخارى فى صحيحه ، ولفظ مسلم فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهبوا به فارجموه » اهـ

قالوا : فهذا الحديث المتفق عليه فيه ترتيب الرجم على أربع شهادات على نفسه : أى أربع إقرارات بصيغة ترتيب الجزاء على الشرط ، لأن لما مضمنة معنى الشرط وترتيب الحدّ على الأربع ترتيب الجزاء على شرطه ، دليل على اشتراط الأربع المذكورة ، والرجل المذكور فى هذا الحديث ، هو ماعز بن مالك وقصته

مشهورة صحيحة ، وفى ألفاظ رواياتها ما يدل على أنه لم يرجمه ، حتى شهد على نفسه أربع شهادات كما رأيت فى الحديث المذكور آنفاً ، وقد علمت مما ذكرنا ما استدل به كل واحد من الفريقين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر قولى أهل العلم فى هذه المسألة عندى هو الجمع بين الأحاديث الدالة على اشتراط الأربع ، والأحاديث الدالة على الاكتفاء بالمرة الواحدة ، لأن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن ، لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، ووجه الجمع المذكور هو حمل الأحاديث التى فيها التراخى ، عن إقامة الحد بعد صدور الإقرار مرة على من كان أمره متلبساً فى صحة عقله ، واختلاله ، وفى سكره ، وصحوه من السكر ، ونحو ذلك . وحمل أحاديث إقامة الحد بعد الإقرار مرة واحدة على من عرفت صحة عقله وصحوه من السكر ، وسلامة إقراره من المبطلات ، وهذا الجمع رجحه الشوكانى فى نيل الأوطار .

ومما يؤيده أن جميع الروايات التى يفهم منها اشتراط الأربع كلها فى قصة ماعز ، وقد دلت روايات حديثه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يدرى أمجنون هو أم لا ، صاح هو أو سكران . بدليل قوله له فى الحديث المتفق عليه المذكور آنفاً : أبك جنون وسؤاله صلى الله عليه وسلم لقومه عن عقله ، وسؤاله صلى الله عليه وسلم أشرب خمرا ، فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر ، وكل ذلك ثابت فى الصحيح ، وهو دليل قوى على الجمع بين الأحاديث كما ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن الظاهر اشتراط التصريح بموجب الحد الذى هو

الزنى تصريحاً ينفى كل احتمال ، لأن بعض الناس قد يطلق اسم الزنى على ما ليس موجباً للحد .

ويدل لهذا قوله صلى الله عليه وسلم لماعز لما قال : إنه زنى « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت؟ قال : لا. قال : أفنكتها لا يكنى قال : نعم. قال فعند ذلك أمر برجمه » وهذا ثابت فى صحيح البخارى وغيره من حديث ابن عباس ، ويؤخذ منه التعريض للزانى بأن يستر على نفسه ، ويستغفر الله فإنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

الفرع الثانى : اعلم أنه إذا تمت شهادة الشهود الأربعة بالزنى فصدقهم الزانى المشهود عليه ، بأن أقر أنه زنى مرة واحدة فصارت الشهادة تامة ، والإقرار غير تام عند من يشترط أربعاً .

فأظهر قولى أهل العلم عندى : أن الحد يقام عليه لكمال البينة خلافاً لمن زعم أنه لا يقام عليه الحد ، لأن شرط صحة البينة الإنكار، وهذا غير منكر .

وقال ابن قدامة فى المغنى : إن سقوط الحد بإقراره مرة قول أبى حنيفة اهـ . وكذلك لو تمت عليه شهادة البينة وأقر على نفسه أربع مرات ، ثم رجع عن إقراره ، فلا ينفعه الرجوع لوجوب الحد عليه بشهادة البينة ، فلا حاجة لإقراره ولا فائدة فى رجوعه عنه ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثالث : اعلم أن أظهر قولى أهل العلم عندى : أنه إذا أقر بزنى قديم قبل إقراره ، ولا يبطل الإقرار بأنه لم يقر إلا بعد زمن طويل ، لأن الظاهر اعتبار الإقرار مطلقاً ، سواء تقادم عهده ، أو لم يتقادم ، وكذلك شهادة البينة ، فإنها تقبل ، ولو لم تشهد إلا بعد طول الزمن ،لأن عموم النصوص يقتضى ذلك ، لأنها ليس فيها التفريق بين تعجيل الشهادة وتأخيرها ، خلافاً

لأبي حنيفة ومن وافقه في قولهم ، إن الإقرار يقبل بعد زمن طويل والشهادة لا تقبل مع التأخير .

وقال ابن قدامة في المغني : وإن شهدوا بزنى قديم أو أقر به وجب الحد ، وبهذا قال مالك ، والأوزاعي ، والثوري ، وإسحاق ، وأبو ثور .

وقال أبو حنيفة : لا أقبل بينة على زنى قديم وأحده بالإقرار به ، وهذا قول ابن حامد ، وذكره ابن أبي موسى مذهبا لأحمد اهـ منه .

أما قبول الإقرار بالزنا القديم ووجوب الحد به فلا وجه للعدول عنه بحال ، لأنه مقر على نفسه ، ولا يتهم في نفسه .

وأما شهاد البينة بزنا قديم ، فالأظهر قبولها ، لعموم النصوص كما ذكرنا آنفاً . وحجة أبي حنيفة ، ومن وافقه في رد شهادة البينة على زنا قديم ، هو أن تأخير الشهادة ، يدل على التهمة فيدرأ ذلك الحد .

وقال في المغني : ومن حجتهم على ذلك ما روى عن عمر أنه قال : أيما شهود شهدوا بحدّ لم يشهدوا بحضرته فهم شهود ضغن ، ثم قال رواه الحسن مرسلا ، ومراسيل الحسن ليست بالقوية اهـ منه .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على مراسيل الحسن . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الرابع : اعلم أنه إن أقر بأنه زنى بامرأة وسماها فكذبته وقالت : إنه لم يزن بها .

فأظهر أقوال أهل العلم عندي : أنه يجب عليه حد الزنى بإقراره ، وحد القذف أيضاً ، لأنه قذف المرأة بالزنا ولم يأت بأربعة شهود فوجب عليه حد القذف .

وقال فى المغنى : وقال أبو حنيفة ، وأبو يوسف: لا حدّ عليه ، لأنا صدقناها فى إنكارها فصار محكوماً بكذبه .

قال مقيده عفا الله عنه ، وغفر له : وجوب الحد عليه باقراره لا ينبغى العدول عنه ، ولا يمكن أن يصح خلافه لأمرين .

الأول : أنه أقر على نفسه بالزنا إقراراً صحيحاً ، وقولهم إننا صدقناها ليس بصحيح . بل نحن لم نصدقها ، ولم نقل إنها صادقة ، ولكن انتفاء الحد عنها إنما وقع ، لأنها لم تقر ، ولم تقم عليها بينة ، فعدم حدها لانتفاء مقتضيه لا لأنها صادقة كما ترى .

الأمر الثانى : ما رواه أبو داود فى سننه : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، ثنا طلق بن غنام ، ثنا عبد السلام بن حفص ، ثنا أبو حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن رجلا أتاه ، فأقر عنده أنه زنى بامرأة سماها له ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المرأة ، فسألها عن ذلك ، فأنكرت أن تكون زنت فجلده الحد وتركها اهـ منه . وعبد السلام المذكور فى هذا الإسناد وثقه ابن معين ، وتوثيقه له أولى من قول أبى حاتم الرازى : إنه غير معروف ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

والحديث المذكور نص فى أن المقر يقام عليه الحد وهو واضح ، لأن من أقر على نفسه بالزنا لا نزاع فى وجوب الحد عليه . وأما كونه يحد مع ذلك حد القذف فظاهر أيضاً ، ويدل عليه عموم قوله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) الآية . والأخذ بعموم النصوص واجب ، إلا بدليل مخصص يجب الرجوع إليه ، وكون حديث سهل بن سعد الساعدى الذى ذكرناه آنفا عند أبى داود ليس فيه أن النبى حد الرجل المذكور

حد القذف ، بل حد الزنا فقط لا يعارض به عموم النصوص .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار : وحده للزنا والقذف معا هو ظاهر لوجهين :

الأول : أن غاية ما فى حديث سهل : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحد ذلك الرجل للقذف وذلك لا ينتهض للاستدلال به على السقوط ، لاحتمال أن يكون ذلك لعدم الطلب من المرأة أو لوجود مسقط إلى أن قال :

الوجه الثانى : أن ظاهر القذف العموم فلا يخرج من ذلك إلا ما خرج بدليل ، وقد صدق على كل من كان كذلك أنه قاذف اه منه . وهو الظاهر الذى لا ينبغى العدول عنه ، وكذلك ما جاء فى بعض روايات حديث ماعز بن مالك أنه عين الجارية التى زنا بها ، ولم يحده النبى صلى الله عليه وسلم لقذفها بل حده للزنا فقط ، فإن ترك حده له يوجه بما قدمنا قريبا .

وعلى كل حال فمن قال : زنيت بفلانة فلاشك أنه مقر على نفسه بالزنا ، وقاذف لها هى به ، وظاهر النصوص مؤاخذته بإقراره على نفسه ، وحده أيضا حد القذف ، لأنه قاذف بلاشك كما ترى .

ومما يؤيد هذا المذهب ما رواه أبو داود فى سننه : حدثنا محمد بن يحيى ابن فارس ، ثنا موسى بن هارون البردى ، ثنا هشام بن يوسف عن القاسم ابن فياض الأبناوى ، عن خلاد بن عبد الرحمن ، عن ابن المسيب ، عن ابن عباس : أن رجلا من بنى بكر بن ليث أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأقر أنه زنى بامرأة أربع مرات ، فجلده مائة وكان بكرا ، ثم سأله البينة على المرأة ، فقالت : كذب والله يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجلده حد الفرية ثمانين اه منه .

فإن قيل : هذا الحديث ضعيف ، لأن فى إسناده القاسم بن فياض الأبناوى

الصنعانى ، قال فيه ابن حجر فى التقريب : مجهول . وقال فيه الذهبى فى الميزان : ضعفه غير واحد منهم عباس عن ابن معين ، فالجواب من وجهين :

الأول : أن القاسم المذكور قال فيه أبو داود ثقة ، كما نقله عنه الذهبى فى الميزان ، والتعديل يقبل مجملا ، والتجريح لا يقبل مجملا كما تقدم .

الثانى : أن حديث ابن عباس هذا الذى فيه الجمع بين حد القذف ، وحد الزنا إن قال : إنه زنى بامرأة عينها فأنكرت ، معتضد اعتضاداً قوياً بظواهر النصوص الدالة على مؤاخذته بإقراره ، والنصوص الدالة على أن من قذف امرأة بالزنى ، فأنكرت ولم يأت ببينة أنه يحد حد القذف .

فالحاصل : أن أظهر الأقوال عندنا أنه يحد حد القذف وحد الزنا ، وهو مذهب مالك ، وقد نص عليه فى المدونة خلافا لمن قال يحد حد الزنا فقط ، كأحمد والشافعى ، ولمن قال : يحد حد القذف فقط ، ويؤيد هذا المذهب الذى اخترناه فى هذه المسألة ما قاله مالك وأصحابه : من أن الرجل لو قال لامرأة : زنيت فقالت له : زنيت بك أنها تحد للقذف ، وللزنا معا ولا يحد الرجل لها لأنها صدقته . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس : اعلم أنه لا يصح إقرار المكره ، فلو أكره الرجل بالضرب أو غيره من أنواع التعذيب ليقر بالزنا فأقر به مكرها لم يلزمه إقراره به فلا يحد ، ولا يثبت عليه الزنا ، ولا نعلم من أهل العلم من خالف فى هذا ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة : اعلم أنا قد قدمنا ثبوت الزنا بالبينة والإقرار ، ولا خلاف فى ثبوته بكل واحد منهما إن وقع على الوجه المطلوب أما ظهور الحمل بامرأة ، لا يعرف لها زوج ولا سيد ، فقد اختلف العلماء فى ثبوت الحد به . فقال بعض أهل العلم : الحبل فى التى لا يعرف لها زوج ولا سيد يثبت عليها به الزنا ،

ويجب عليها الحد به ، وقد ثبت هذا فى حديث عمر رضى الله عنه الذى قدمناه فى قوله : إذا قامت البينة أو كان الحبل ، أو الاعتراف . والحديث المذكور فى الصحيحين ، وغيرهما كما تقدم. وقدصرح فيه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، بأن الحبل الذى هو الحمل يثبت به الزنا كما يثبت بالبينة والاقرار ، وممن ذهب إلى أن الحبل يثبت به الزنا ، عمر رضى الله عنه كما رأيت ، ومالك ، وأصحابه . وذهب الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وجماهير أهل العلم إلى أنه لا يثبت الزنا ولا يجب الحد بمجرد الحبل ، ولو لم يعرف لها زوج ولا سيد ، وهذا القول عزاه النووى فى شرح مسلم للشافعى ، وأبى حنيفة ، وجماهير أهل العلم ، وإذا عرفت أقوال أهل العلم فى هذه المسألة فهذه أدلتهم .

أما الذين قالوا : إن الزنا يثبت بالحمل ، إن لم يكن لها زوج ولا سيد، فقد احتجوا بحديث عمر المتفق عليه المتقدم وفيه التصريح من عمر بأن الحبل يثبت به الزنا كالبينة والإقرار .

وقال ابن قدامة فى المغنى : إنما قال من قال : بوجوب الحد وثبوت الزنا بالحمل ، لقول عمر رضى الله عنه ، والرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء ، إذا كان محصنا ، إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف ، وروى أن عثمان أوتى بامرأة ولدت لستة أشهر فأمر بها عثمان أن ترجم ،فقال علىّ : ليس لك عليها سبيل قال الله : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وهذا يدل على أنه كان يرجمها بحملها وعن عمر نحو من هذا ، وروى عن على رضى الله عنه أنه قال : يا أيها الناس إن الزنا زنا آن : زنا سر ، وزنا علانية ، فزنا السر : أن يشهد الشهود ، فيكون الشهود أول من يرمى ، وزنا العلانية : أن يظهر الحبل أو الاعتراف، فيكون الإمام أول من يرمى. وهذا قول سادة الصحابة ولم يظهر فى عصرهم مخالف ، فيكون إجماعا . انتهى محل الغرض من المغنى .

وانظر أسانيد الآثار التى ذكرها عن الصحابة، هذا هو حاصل ما احتج به من قال : إن الزنا يثبت بالحمل .

وأما الذين قالوا : إن الحمل وحده لا يثبت به الزنا ، ولا يجب به الحد ، بل لابد من البينة أو الإقرار، فقد قال فى المغنى: حجتهم أنه يحتمل أن الحمل من وطء إكراه أو شبهة والحد يسقط بالشبهات ، وقد قيل : إن المرأة تحمل من غير وطء بأن يدخل ماء الرجل فى فرجها ، إما بفعلها ، أو فعل غيرها ، ولهذا تصور حمل البكر فقد وجد ذلك .

وأما قول الصحابة ، فقد اختلفت الرواية عنهم فروى سعيد : حدثنا خلف ابن خليفة ، حدثنا هاشم : أن امرأة رفعت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ليس لها زوج ، وقد حملت فسألها عمر فقالت : إننى امرأة ثقيلة الرأس وقع على رجل ، وأنا نائمة فما استيقظت حتى فرغ فدرأ عنها الحد . وروى البراء بن صبرة ، عن عمر أنه أوتى بامرأة حامل ، فادعت أنها أكرهت فقال : خلّ سبيلها ، وكتب إلى أمراء الأجناد ، ألا يقتل أحد إلا بإذنه . وروى عن على وابن عباس أنهما قالا : إذا كان فى الحد لعل وعسى فهو معطل . وروى الدارقطنى بإسناده عن عبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وعقبة بن عامر رضى الله عنهم أنهم قالوا : إذا اشتبه عليك الحد فادرأ ما استطعت ، ولا خلاف فى أن الحد يدرأ بالشبهات ، وهى متحققة هنا اهـ بلفظه من المغنى .

وانظر أيضاً أسانيد هذه الآثار التى ذكرها عن الصحابة ، وهذا الذى ذكر هو حاصل ما احتج به الجمهور الذين قالوا إن الحبل لا يثبت به الزنا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر قولى أهل العلم عندى : أن الزنا لا يثبت بمجرد الحبل ، ولو لم يعرف لها زوج ولا سيد لأن الحمل قد يقع بلاشك من غير وطء فى الفرج ، بل قد يطأ الرجل المرأة فى فخذيها ، فتتحرك شهوتها فينزل ماؤها وينزل الرجل ، فيسيل ماؤه فيدخل فى فرجها ، فيلتقى ماؤه بمائها فتحمل من غير وطء وهذا مشاهد لا يمكن إنكاره .

ولأجل ذلك فالأصح أن الزوج إذا كان يطأ امرأته فى الفخذين ، ولم يجامعها فى الفرج فظهر بها حمل أنه لا يجوز له اللعان لنفى ذلك الحمل ، لأن ماءه قد يسيل إلى فرجها . فتحمل منه ، وقول عمر رضى الله عنه : إذا كان الحبل أو الاعتراف اجتهاد منه ، لأنه يظهر له رضى الله عنه أن الحمل يثبت به الزنا كالاعتراف والبينة .

وإنما قلنا إن الأظهر لنا خلاف قوله رضى الله عنه ، لأنا نعلم أن وجود الحمل لا يستلزم الوطء فى الفرج بل قد تحبل بدون ذلك ، وإذا كان الحبل لا يستلزم الوطء فى الفرج فلا وجه لثبوت الزنا ، وإقامة الحد بأمر محتمل غير مستلزم لموجب الحد كما ترى .

ومن المعلوم أن الحدود تدرأ بالشبهات . هذا هو الأظهر عندنا والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن الذين قالوا : بوجوب الحد بالحمل قالوا : إن تلك الحامل إن كانت طارئة من بلاد أخرى ، وادعت أن حملها من زوج لها تركته فى بلدها فلا حد عليها عندهم ، ولا يثبت عليها الزنا بذلك الحمل .

الفرع الثانى : اعلم أنه إن ظهر بها حمل فادعت أنها مكرهة لا يقبل دعواها الا كراه عند من يثبت الزنا بالحمل إلا إذا اعتضدت دعواها بما يقويها من القرائن كإتيانها صارخة مستغيثة فمن فعل بها ذلك ، وكأن تأتى متعلقة برجل تزعم أنه هو الذى أكرهها وكأن تشتكى من الذى فعل بها ذلك قبل ظهور الحمل .

وقال بعض علماء المالكية إن كانت شكواها من الرجل الذى فعل بها ذلك مشبهة لكون الرجل الذى ادعت عليه غير معروف بالصلاح ، فلاحد عليها ، وإن كان الذى ادعت عليه معروفا بالصلاح ، والعفاف ، والتقوى حدت ولم يقبل قولها عليه

وقال بعض المالكية : إن لم تسم الرجل الذى ادعت أنه أكرهها تعزر ، ولا تحد إن كانت معروفة بالصلاح والعفاف .

الفرع الثالث. قال الشيخ الحطاب فى شرحه لقول خليل فى مختصره المالكى أو مكرهة ما نصه : قال فى الطراز فى أواخر الجزء الثالث فى ترجمة تفسير الطلاق، وما يلزم من ألفاظه قال ابن عبد الغفور : ويقال إن عبد الله بن عيسى سئل عن جارية بكر زوجها فابتنى بها زوجها فأتت بولد لأربعة أشهر ، فذكر ذلك لها فقالت: إنى كنت نائمة فانتبهت لبلل بين فخذى، وذكر الزوج أنه وجدها عذراء.

فأجاب فيها : أنها لا حد عليها إذا كانت معروفة بالعفاف ، وحسن الحال، ويفسخ النكاح ، ولها المهر كاملا ، إلا أن تكون علمت الحمل ، وغرت فلها قدر ما استحل منها انتهى من الاستغناء انتهى كلام الطراز انتهى ما نقله الحطاب، وهو يؤيد أن الحمل قد يقع من غير وطء يوجب الحد كما ذكرنا والعلم عند الله تعالى.

المسألة الرابعة : اعلم أن من ثبت عليه الزنا وهو محصن .

اختلف أهل العلم فيه فقال بعضهم : يجلد مائة جلدة أولا ثم يرجم بعد ذلك، فيجمع له بين الجلد والرجم ، وقال بعضهم : يرجم فقط ولا يجلد ، لأن غير القتل يندرج فى القتل ، وممن قال بالجمع بينهما على رضى الله عنه ، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد . قال ابن قدامة فى المغنى وبه قال ابن عباس ، وأبى ابن كعب ، وأبو ذر . ذكر ذلك عبد العزيز عنهما واختاره وبه قال الحسن ،

وإسحاق ، وداود ، وابن المنذر ، وممن قال بأنه يرجم فقط ولا يجلد مع الرجم مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي والنخعي ، والزهري والأوزاعي . واختاره أبو إسحاق الجوزجاني وأبو بكر الأثرم ، ونصراه في سننهما وهو رواية عن الإمام أحمدوهو مروى عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود قال ذلك كله ابن قدامة في المغني ، وهذا القول الأخير الذي هو الاقتصار على الرجم عزاه النووي في شرح مسلم لجماهير العلماء .

وفي المسألة قول ثالث : وهو ما حكاه القاضي عياض ، عن طائفة من أهل الحديث ، وهو أنه يجب الجمع بينهما إذا كان الزاني شيخا ثيبا فإن كان شابا ثيبا اقتصر على الرجم .

وإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة فهذه تفاصيل أدلتهم أما الذين قالوا : يجمع للزاني المحصن بين الجلد والرجم ، فقد احتجوا بأدلة .

منها : أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بالجمع بينهما للزاني المحصن تصريحا ثابتاً عنه ثبوتا لا مطعن فيه .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، أخبرنا هشيم ، عن منصور ، عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي ، عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وهذا تصريح منه صلى الله عليه وسلم، بأن الثيب وهو المحصن يجلد مائة ويرجم ، وهذا اللفظ أخرجه مسلم أيضا بإسناد آخر وفي لفظ في صحيح مسلم « الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة » وهو تصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بالجمع بينهما. وفي لفظ عند مسلم أيضا « والثيب يجلد ويرجم » وهذه الروايات الثابتة في الصحيح فيها تصريحه صلى الله عليه وسلم بالجمع بين الجلد والرجم.

ومن أدلتهم على الجمع بينهما أن عليا رضى الله عنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، وقال جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، ثنا سلمة ابن كهيل قال : سمعت الشعبى يحدث عن على رضى الله عنه ، حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال : قد رجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. انتهى منه .

وقال ابن حجر فى الفتح فى الكلام على هذا الحديث ما نصه فى رواية على ابن الجعد : أن علياً أتى بامرأة زنت فضربها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة إلى آخر ما ذكره من الروايات ، بأن علياً ضربها ورجمها وهى شراحة الهمدانية كما تقدم. وفى رواية : أنها مولاة لسعيد بن قيس ومن أدلتهم على الجمع بينهما أن الله تعالى قال (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) واللفظ عام فى البكر والمحصن ، ثم جاءت السنة بالرجم فى حق المحصن والتغريب سنة فى حق البكر ، فوجب الجمع بينهما عملا بدلالة الكتاب والسنة معا كما قال على رضى الله عنه قالوا : وقد شرع فى كل من المحصن والثيب عقوبتان : أما عقوبتا الثيب : فهما الجلد والرجم ، وأما عقوبتا البكر : فهما الجلد والتغريب .

هذا هو حاصل ما احتج به الذين قالوا: إنه يجمع للمحصن بين الجلد والرجم.

وأما الذين قالوا : يرجم فقط ، ولا يجلد فاحتجوا بأدلة .

منها : « أنه صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا ، ولم يجلده مع الرجم » لأن جميع الروايات فى رجم ماعز بن مالك ليس فى شىء منها أنه جلده مع الرجم بل ألفاظها كلها مقتصرة على الرجم قالوا : ولو كان الجلد مع الرجم لم ينسخ لأمر بجلد ماعز مع الرجم ، ولو أمر به لنقله بعض رواة القصة قالوا : وقصة ماعز متأخرة عن حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه الذى فيه التصريح بالجمع بينهما .

والدليل على أن حديث عبادة متقدم وأنه أول نص نزل فى حد الزنا أن قوله صلى الله عليه وسلم فيه « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا » الحديث ، يشير بجعل الله لهن سبيلا بالحد إلى قوله تعالى (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) فالزوانى كن محبوسات فى البيوت إلى أحد أمرين : وهما الموت ، أو جعل الله لهن سبيلا فلما قال صلى الله عليه وسلم « قد جعل الله لهن سبيلا » ثم فسر السبيل بحد الزنا علمنا بذلك أن حديث عبادة أول نص فى حد الزنا ، وأن قصة ماعز متأخرة عن ذلك .

ومن أدلتهم أنه رجم الغامدية كما تقدم ولم يقل أحد إنه جلدها ، ولو جلدها مع الرجم لنقل ذلك بعض الرواة .

ومن أدلتهم: أنه قال صلى الله عليه وسلم « واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » ولم يقل فاجلدها مع الرجم ، فدل ذلك على سقوط الجلد لأنه لو وقع لنقله بعض الرواة . وهذه الوقائع كلها متأخرة عن حديث عبادة ابن الصامت كما أشرنا إلى ما يقتضى ذلك آنفاً .

ومن أدلتهم على أنه يرجم فقط ، ولا يجلد مع الرجم الروايات الصحيحة التى قدمناها فى رجمه صلى الله عليه وسلم للمرأة الجهنية ، والغامدية ، فإنها كلها مقتصرة على الرجم ، ولم يذكر فيها جلد وقال أبو داود ، قال القعنبى : جهينة غامد وبارق واحد. انتهى منه وعليه فالجهنية هى الغامدية .

وعلى كل حال فجميع الروايات الواردة فى رجم الغامدية ، ورجم الجهنية ليس فى شىء منها ذكر الجلد ، وإنما فيها كلها الاقتصار على الرجم، وكذلك قصة اليهوديين اللذين رجمهما صلى الله عليه وسلم ليس فيها إلا الرجم ولم يذكر فيها جلد ، هذا هو حاصل ما احتج به أهل هذا القول .

وأما الذين قالوا : إن الجمع بين الرجم والجلد خاص بالشيخ والشيخة . وأما الشاب فيجلد إن لم يحصن ويرجم فقط إن أحصن ، فقد احتجوا بلفظ الآية التى نسخت تلاوتها ، وهى قوله تعالى : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما إلى آخره ، قالوا : فرجم الشيخ والشيخة ثبت بهذه الآية ، وإن نسخت تلاوتها فحكمها باق . وقال ابن حجر فى الفتح ، وقال عياض : شذت فرقة من أهل الحديث فقالت : الجمع على الشيخ الثيب دون الشاب، ولا أصل له. وقال النووى: هو مذهب باطل كذا قاله ، ونفى أصله ، ووصفه بالبطلان إن أراد به طريقه فليس بجيد ،لأنه ثابت كما سأبينه فى باب البكران يجلدان وإن كان المراد دليله فقيه نظر أيضاً ، لأن الآية وردت بلفظ الشيخ ففهم هؤلاء من تخصيص الشيخ بذلك : أن الشاب أعذر منه فى الجملة فهو معنى مناسب ، وفيه جمع بين الأدلة ، فكيف يوصف بالبطلان . انتهى محل الغرض من فتح البارى .

وقد قال صاحب فتح البارى: إن هذا القول حكاه ابن المنذر وابن حزم ، عن أبى بن كعب زاد ابن حزم وأبى ذر وابن عبد البر ، عن مسروق. انتهى .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم فى هذه المسألة وحججهم ، فاعلم أن كل طائفة منهم ترجح قولها على قول الأخرى .

أما الذين قالوا : يجمع بين الجلد والرجم للمحصن، فقد قالوا هذا القول ، هو أرجح الأقوال ، ولا ينبغى العدول عنه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم صرح فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه : أن المحصن يجلد ويرجم بالحجارة ، فهو حديث صحيح صريح فى محل النزاع ، فلا يعارض بعدم ذكر الجلد فى قصة ماعز ، والجهنية ، والغامدية ، واليهوديين . لأن ما صرح به النبى صلى الله عليه وسلم لا يعدل عنه بأمر محتمل ، ويجوز أن يكون الجلد وقع لماعز ومن ذكر معه

ولم يذكره الرواة ، لأن عدم ذكره لا يدل دلالة قطعية على عدم وقوعه ، لأن الراوى قد يتركه لظهوره ، وأنه معروف عند الناس جلد الزانى ، قالوا والمحصن داخل قطعا فى عموم (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وهذا العموم القرآنى لا يجوز العدول عنه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، وعدم ذكر الجلد مع الرجم لا يعارض الأدلة الصريحة من القرآن ، والسنة الصحيحة. قالوا : وعمل أمير المؤمنين على رضى الله عنه به بعد وفاته صلى الله عليه وسلم دليل على أنه لم ينسخ ، ولم يعلم أن أحداً من الصحابة أنكر عليه ذلك ، ولا تخفى قوة هذا الاستدلال الذى استدل به أهل هذا القول .

وأما الذين قالوا : بأن المحصن يرجم فقط ولا يجلد ، فقد رجحوا أدلتهم بأنها متأخرة عن حديث عبادة بن الصامت ، الذى فيه التصريح بالجمع بين الرجم والجلد ، والعمل بالمتأخر أولى . والحق أنها متأخرة عن حديث عبادة المذكور ، كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « قد جعل الله لهن سبيلا » فهو دليل على أن حديث عبادة ، هو أول نص ورد فى حد الزنا كما هو ظاهر من الغاية فى قوله تعالى (حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) قالوا : ومن أصرح الأدلة فى أن الجمع بين الجلد والرجم منسوخ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قصة العسيف الذى زنى بامرأة الرجل الذى كان أجيراً عنده « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله » وهذا قسم منه صلى الله عليه وسلم أنه يقضى بينهما بكتاب الله ، ثم قال فى الحديث الذى أقسم على أنه قضاء بكتاب الله « واغد ياأنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قالوا : إن قوله « فإن اعترفت » شرط وقوله « فارجمها » جزاء هذا الشرط ، فدل الربط بين الشرط ، وجزائه على أن جزاء اعترافها هو الرجم وحده ، وأن ذلك قضاء بكتاب الله تعالى .

وهذا دليل من لفظ النبي الصريح على أن جزاء اعترافها بالزنا : هو رجمها فقط فربط هذا الجزاء بهذا الشرط أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضاء بكتاب الله وهو متأخر عن حديث عبادة لما قدمنا .

وهذا الدليل أيضاً قوي جداً لأن فيه إقسامه صلى الله عليه وسلم بأن الاعتراف بالزنا من المحصن يترتب عليه الرجم ، ولا يخلو هذا الحديث من أحد أمرين : إما أن يكون صلى الله عليه وسلم اقتصر على قوله فارجمها أو يكون قال مع ذلك فاجلدها ، وترك الراوى الجلد ، فإن كان قد اقتصر على الرجم ، فذلك يدل على نسخ الجلد ، لأنه جعل جزاء الاعتراف الرجم وحده ، لأن ربط الجزاء بالشرط يدل على ذلك دلالة لفظية لا دلالة سكوت ، وإن كان قال مع الرجم واجلدها ، وحذف الراوى الجلد ، فإن هذا النوع من الحذف ممنوع ، لأن حذف بعض جزاء الشرط مخل بالمعنى موهم غير المراد ، والحذف إن كان كذلك فهو ممنوع ، ولا يجوز للراوى أن يفعله والراوى عدل فلن يفعله .

وقد أوضحنا فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله (قل لا أجد فيما أوحى إلى) الآية . أنه لا تعارض بين نصين ، مع اختلاف زمنهما كما هو التحقيق .

وأما القول الثالث وهو الفرق بين الشيخ والشاب ، وإن وجهه ابن حجر بما ذكرنا فلا يخفى سقوطه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : دليل كل منهما قوى ، وأقربهما عندى : أنه يرجم فقط ، ولا يجلد مع الرجم لأمور :

منها : أنه قول جمهور أهل العلم ، ومنها : أن روايات الاقتصار على الرجم فى قصة ماعز ، والجهنية ، والغامدية ، واليهوديين كلها متأخرة بلا شك عن حديث عبادة . وقد يبعد أن يكون فى كل منها الجلد مع الرجم ، ولم يذكره أحد من الرواة مع تعدد طرقها .

ومنها : أن قوله الثابت فى الصحيح « واغد يا أنيس إلى امرأة هـذا فإن اعترفت فارجمها» تصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن جزاء اعترافها رجمها، والذى يوجد بالشرط هو الجزاء ، وهو فى الحديث الرجم فقط .

ومنها : أن جميع الروايات المذكورة المقتضية لنسخ الجمع بين الجلد والرجم على أدنى الاحتمالات لا تقل عن شبهة ، والحدود تدرأ بالشبهات .

ومنها : أن الخطأ فى ترك عقوبة لازمة أهون من الخطأ فى عقوبة غير لازمة. والعلم عند الله تعالى .

قال بعضهم ويؤيده من جهة المعنى أن القتل بالرجم أعظم العقوبات فليس فوقه عقوبة فلا داعى للجلد معه لاندراج الأصغر فى الأكبر .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : إذا ثبت الزنا على الزانى فظن الإمام أنه بكر فجلده مائة ، ثم ثبت بعد جلده أنه محصن فإنه يرجم ، ولا ينبغى أن يختلف فى هـذا ، وقد قال أبو داود رحمه الله فى سننه : حدثنا قتيبة بن سعيد، قال : ثنا (ح) وثنا ابن السرح المعنى قال : أخبرنا عبد الله بن وهب ، عن ابن جريج ، عن ابن الزبير عن جابر رضى الله عنه : أن رجلا زنى بامرأة فأمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فجلد الحد ، ثم أخبر أنه محصن ، فأمر به . فرجم قال أبو داود : روى هذا الحديث محمد بن بكر البرسانى ، عن ابن جريج موقوفا على جابر ورواه أبو عاصم عن ابن جريج بنحو ابن وهب ، لم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رجلا زنى فلم يعلم بإحصانه ، فجلد ثم علم بإحصانه فرجم .

حدثنا محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزار ؛ أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج

عن أبي الزبير ، عن جابر : أن رجلا زنى بامرأة فلم يعلم بإحصانه فجلد ، ثم علم بإحصانه فرجم . اهـ من سنن أبي داود .

وقال الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار في حديث أبي داود هذا مانصه : حديث جابر بن عبد الله سكت عنه أبو داود والمنذري ، وقدمنا في أول الكتاب أن ما سكتا عنه ، فهو صالح للاحتجاج به ، وقد أخرجه أبو داود عنه من طريقين ، ورجال إسناده رجال الصحيح ، وأخرجه أيضاً النسائي اهـ منه .

الفرع الثاني : قد قدمنا في الروايات الصحيحة : أن الحامل من الزنا لا ترجم ، حتى تضع حملها وتفطمه ، أو يوجد من يقوم برضاعه ، لأن رجمها وهي حامل فيه إهلاك جنينها الذي في بطنها وهو لا ذنب له ، فلا يجوز قتله ، وهو واضح مما تقدم .

الفرع الثالث : اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن وجب عليه الرجم ، هل يحفر له أو لا يحفر له ؟ فقال بعضهم : لا يحفر له مطلقا ، وقال بعضهم : يحفر لمن زنى مطلقا ، وقيل : يحفر للمرأة إن كان الزنا ثابتاً بالبينة دون الإقرار ، واحتج من قال : بأن المرجوم لا يحفر له بما ثبت في صحيح مسلم ، وغيره ، عن أبي سعيد الخدري في قصة رجم ماعز ، ولفظ مسلم في صحيحه في المراد من الحديث قال : فما أوثقناه ، ولا حفرنا له . الحديث ، وفيه التصريح من أبي سعيد في هذا الحديث الصحيح : أنهم لم يحفروا له . وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على قول أبي سعيد : فما أوثقناه ، ولا حفرنا له ما نصه : وفي الرواية الأخرى في صحيح مسلم ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، وذكر بعده في حديث الغامدية ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها . أما قوله : فما أوثقناه فهكذا الحكم عند الفقهاء . وأما الحفر للمرجوم والمرجومة ففيه مذاهب للعلماء .

قال مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد رضى الله عنهم فى المشهور عنهم : لايحفر لواحد منهما .

وقال قتادة ، وأبو ثور ، وأبو يوسف ، وأبو حنيفة فى رواية : يحفر لهما .

وقال بعض المالكية : يحفر لمن يرجم بالبينة لا من يرجم بالإقرار .

وأما أصحابنا فقالوا : لايحفر للرجل سواء ثبت زناه بالبينة أم بالإقرار .

وأما المرأة ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا .

أحدها : يستحب الحفر لها إلى صدرها ، ليكون أستر لها .

والثانى : لا يستحب ولا يكره ، بل هو إلى خيرة الإمام .

والثالث : وهو الأصح إن ثبت زناها بالبينة استحب ، وإن ثبت بالإقرار فلا، ليمكنها الهرب إن رجعت . فمن قال بالحفر لها احتج بأنه حفر للغامدية ، وكذا لماعز فى رواية ، ويجيب هؤلاء عن الرواية الأخرى فى ماعز أنه لم يحفر له ، أن المراد حفيرة عظيمة أو غير ذلك من تخصيص الحفيرة .

وأما من قال : لايحفر فاحتج برواية من روى فما أوثقناه ، ولا حفرنا له . وهذا المذهب ضعيف ، لأنه منابذ لحديث الغامدية ولرواية الحفر لماعز .

وأما من قال : بالتخيير فظاهر وأما من فرّق بين الرجل والمرأة ، فيحمل رواية الحفر لماعز ، على أنه لبيان الجواز ، وهذا تأويل ضعيف ، ومما احتج به من ترك الحفر حديث اليهوديين المذكور بعد هذا ، وقوله جعل يجنأ عليها ، ولو حفر لهما لم يجنأ عليها . واحتجوا أيضاً بقوله فى حديث ماعز : فلما أذلقته الحجارة هرب، وهذا ظاهر فى أنه لم تكن حفرة والله أعلم. انتهى كلام النووى . وقد ذكر فيه أقوال أهل العلم فى المسألة ، وبين حججهم ، وناقشها ، وقد ذكر فى كلامه ، أن المشهور عن أبى حنيفة عدم الحفر للرجل والمرأة . والظاهر أن

المشهور عند الحنفية الحفر للمرأة دون الرجل ، وأنه لو ترك الحفر لهما معا فلا بأس. قال صاحب كنز الدقائق فى الفقه الحنفى : ويحفر لها فى الرجم لا له ، وقال شارحه فى تبيين الحقائق : ولا بأس بترك الحفر لهما ، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بذلك ا هـ. وقال ابن قدامة فى المغنى فى الفقه الحنبلى : وإن كان الزانى رجلا أقيم قائما ، ولم يوثق بشىء ولم يحفر له ، سواء ثبت الزنا ببينة أو إقرار لا نعلم فيه خلافا لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحفر لماعز .

قال أبو سعيد : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم ماعز ، خرجنا به إلى البقيع فوالله ما حفرنا له ، ولا أوثقناه، ولكنه قام لنا. رواه أبو داود ، ولأن الحفر له ودفن بعضه عقوبة لم يرد بها الشرع فى حقه ، فوجب ألا تثبت ، وإن كان امرأة فظاهر كلام أحمد أنها لا يحفر لها أيضا ، وهو الذى ذكره القاضى فى الخلاف ، وذكر فى المحرر أنه إن ثبت الحد بالإقرار لم يحفر لها ، وإن ثبت بالبينة حفر لها إلى الصدر .

قال أبو الخطاب : وهذا أصح عندى ، وهو قول أصحاب الشافعى لما روى أبو بكر ، وبريدة « أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم امرأة فحفر لها إلى الثندوة » رواه أبو داود ، ولأنه أستر لها ، ولا حاجة لتمكينها من الهرب لكون الحد ثبت بالبينة ، فلا يسقط بفعل من جهتها بخلاف الثابت بالإقرار ، فإنها تترك على حال ، لو أرادت الهرب تمكنت منه ، لأن رجوعها عن إقرارها مقبول ، ولنا أن أكثر الأحاديث على ترك الحفر. فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحفر للجهنية ولا لماعز ، ولا لليهوديين ، والحديث الذى احتجوا به غير معمول به ، ولا يقولون به، فإن التى نقل عنه الحفر لها ثبت حدها بإقرارها ، ولا خلاف بيننا فيها، فلا يسوغ لهم الاحتجاج به مع مخالفتهم له إذا ثبت هذا فإن ثياب المرأة تشد عليها كيلا تنكشف . وقد روى أبو داود بإسناده عن عمران بن حصين قال :

فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ، ولأن ذلك أستر لها اهـ من المغنى .

وقد علمت مما ذكرنا أقوال أهل العلم وأدلتهم فى مسألة الحفر للمرجوم من الرجال والنساء .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أقوى الأقوال المذكورة دليلا بحسب صناعة أصول الفقه ، وعلم الحديث : أن المرجوم يحفر له مطلقا ذكرا كان أو أنثى ثبت زناه ببينة ، أو بإقرار ، ووجه ذلك أن قول أبى سعيد فى صحيح مسلم : فما أوثقناه ولا حفرنا له يقدم عليه ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث بريدة ، بلفظ : فلما كان الرابعة حفر له حفرة ، ثم أمر به فرجم اهـ . وهو نص صحيح صريح فى أن ماعزاً حفر له .

وظاهر الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الحافر له أى بأمره بذلك فبريدة مثبت للحفر ، وأبو سعيد نافٍ له ، والمقرر فى الأصول وعلم الحديث : أن المثبت مقدم على النافى ، وتعتضد رواية بريدة هذه بالحفر لماعز بروايته أيضاً فى صحيح مسلم بنفس الإسناد « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالحفر للغامدية إلى صدرها » وهذا نص صحيح صريح فى الحفر للذكر والأنثى معاً ، أما الأنثى فلم يرد ما يعارض هذه الرواية الصحيحة بالحفر لها إلى صدرها ، وأما الرجل فرواية الحفر له الثابتة فى صحيح مسلم مقدمة على الرواية الأخرى فى صحيح مسلم بعدم الحفر ، لأن المثبت مقدم على النافى .

وقول ابن قدامة فى المغنى : والحديث الذى احتجوا به غير معمول به ظاهر السقوط ، لأنه حديث صحيح وليس بمنسوخ ، فلا وجه لترك العمل به مع ثبوته عنه صلى الله عليه وسلم كما ترى ، وبالرواية الصحيحة التى فى صحيح مسلم من حديث بريدة « أنه صلى الله عليه وسلم حفر للغامدية » وزناها ثابت بإقرارها ، لا ببينة تعلم

أن الذين نفوا الحفر لمن ثبت زناها بإقرارها مخالفون لصريح النص الصحيح بلا مستند كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الرابع : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فيمن يبدأ بالرجم فقال بعضهم : إن كان الزنا ثابتاً ببينة ، فالسنة أن يبدأ الشهود بالرجم ، وإن كان ثبت بإقرار بدأ به الإمام أو الحاكم ، إن كان ثبت عنده ، ثم يرجم الناس بعده ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وأحمد ، ومن وافقهما . واستدلوا لبداءة الشهود ، وبداءة الإمام بما ذكره ابن قدامة فى الفقه الحنبلى ، وصاحب تبيين الحقائق فى الفقه الحنفى .

قال صاحب المغنى : وروى سعيد بإسناده عن على رضى الله عنه : أنه قال : الرجم رجمان ، فما كان منه بإقرار فأول من يرجم الإمام ثم الناس ، وما كان ببينة ؛ فأول من يرجم البينة ثم الناس ، ولأن فعل ذلك أبعد لهم من التهمة فى الكذب عليه. اهـ منه .

وحاصل هذا الاستدلال : أثر مروى عن على ، وكون مباشرتهم الرمى بالفعل أبعد لهم من التهمة فى الكذب عليه ، وهذا كأنه استدلال عقلى لا نقلى .اهـ.

وقال صاحب تبيين الحقائق فى شرحه لقول صاحب كنز الدقائق : يبدأ الشهود به فإن أبوا سقط ثم الإمام ثم الناس ، ويبدأ الإمام ، ولو مقراً ثم الناس .

ما نصه : أى يبدأ الشهود بالرجم . وقال الشافعى : لا تشترط بداءتهم اعتبارا بالجلد ، ولنا ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال حين رجم شراحة الهمدانية : إن الرجم سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان شهد على هذه أحد لكان أول من يرمى الشاهد يشهد ، ثم يتبع شهادته حجره ولكنها أقرت فأنا أول من رماها بحجر . قال الراوى : ثم رمى الناس وأنا فيهم ، ولأن الشاهد ربما يتجاسر على الشهادة ثم يستعظم المباشرة فيأبى أو يرجع ، فكان فى

بداءته احتيال للدرء بخلاف الجلد، فإن كل أحد لا يحسنه ، فيخاف أن يقع مهلكا أو متلفاً لعضو ، وهو غير مستحق ولا كذلك الرجم، لأن الاتلاف فيه متعين.

قال رحمه الله: فإن أبوا سقط أى إن أبى الشهود من البداءة سقط الحد ، لأنه دلالة الرجوع ، وكذلك إن امتنع واحد منهم ، أو جنوا ، أو فسقوا ، أو قذفوا لحدوا أو أحدهم ، أو عمى ، أو خرس ، أو ارتد ، والعياذ بالله تعالى ، لأن الطارىء على الحد قبل الاستيفاء كالموجود فى الابتداء ، وكذا إذا غابوا أو بعضهم ، أو ماتوا أو بعضهم لما ذكرنا ، وهذا عند أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى ، وإحدى الروايتين عن أبى يوسف ، وروى عنه أنهم إذا امتنعوا أوماتوا أو غابوا، رجم الإمام، ثم الناس ، وإن كان الشهود مرضى لا يستطيعون أن يرموا أو مقطوعى الأيدى رجم بحضرتهم بخلاف ما إذا قطعت أيديهم بعد الشهادة . ذكره فى النهاية .

قال رحمه الله : ثم الإمام ثم الناس لما روينا من أثر على رضى الله عنه ، ويقصدون بذلك مقتله إلا من كان منهم ذا رحم محرم منه ؛ فإنه لا يقصد مقتله لأن بغيره كفاية .

وروى أن حنظلة استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه ، وكان كافراً فمنعه من ذلك ، وقال : دعه يكفيك غيرك ؛ ولأنه مأمور بصلة الرحم ، فلا يجوز القطع من غير حاجة .

قال رحمه الله : ويبدأ الامام ، ولو مقراً ثم الناس. أى يبدأ الإمام بالرجم إن كان الزانى مقراً لما روينا من أثر على رضى الله عنه ؛ ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغامدية بحصاة مثل الحمصة ؛ ثم قال للناس : ارموا ، وكانت أقرت بالزنا. انتهى محل الغرض من تبيين الحقائق ممزوجا بنص كنز الدقائق .

هذا حاصل ما استدل به من قال ببداءة الشهود أو الإمام .

وذهب مالك وأصحابه ومن وافقهم ، إلى أنه لا تعيين لمن يبدأ من شهود ولا إمام ؛ ولا غيرهم . واحتج مالك لهذا بأنه لم يعلم أحداً من الأئمة تولى ذلك بنفسه ؛ ولا ألزم به البينة .

قال الشيخ المواق فى شرحه لقول خليل فى مختصره المالكى: ولم يعرف بداءة البينة ، ولا الإمام ، ما نصه : قال مالك : مذ أقامت الأئمة الحدود ، فلم نعلم أحداً منهم تولى ذلك بنفسه ، ولا ألزم ذلك البينة خلافاً لأبى حنيفة القائل : إن ثبت الزنا ببينة بدأ الشهود ثم الإمام ثم الناس اه منه ، واستدل له بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبدأ برجم ماعز ، وأنه قال لأنيس « فإن اعترفت فارجمها » ولم يحضر صلى الله عليه وسلم ليبدأ برجمها ، وقول مالك رحمه الله إنه لم يعلم أحداً تولى ذلك بنفسه من الأئمة ، ولا ألزم به البينة يدل على أنه لم يبلغه أثر على أو بلغه ولم يصح عنده. وكذلك الحديث المرفوع الذى استدل به القائلون ببداءة الشهود والإمام، وهو أنه صلى الله عليه وسلم رمى الغامدية بحصاة كالحمصة ثم قال للناس: ارموا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما هذا الحديث المرفوع ، فليس بثابت ، ولا يصلح للاحتجاج ، لأن فى إسناده راوياً مبهماً .

قال أبو داود رحمه الله فى سننه : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا وكيع بن الجراح ، عن زكريا أبى عمران قال : سمعت شيخا يحدث عن ابن أبى بكرة ، عن أبيه « أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم امرأة فحفر لها إلى التندوة » ثم قال أبو داود: حدثنا، عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، قال: حدثنا زكرياء بن سليم بإسناده نحوه زاد : ثم رماها بحصاة مثل الحمصة، ثم قال: ارموا واتقوا الوجه . الحديث، وهذا الإسناد الذى فيه زيادة ، ثم رماها بحصاة مثل الحمصة ، هو بعينه الإسناد الذى فيه قال : سمعت شيخا يحدث عن ابن أبى بكرة ، وهذا الشيخ الذى حدث عن ابن أبى بكرة لم يدر أحد من هو ، فهو مبهم ، والمبهم مجهول العين والعدالة ،

فلا يحتج به كما ترى . وقال صاحب نصب الراية فى هذا الحديث بعد أن ذكر رواية أبى داود التى سقناها آنفاً: رواه النسائى فى الرجم .

حدثنا محمد بن حاتم عن حبان بن موسى ، عن عبد الله ، عن زكريا أبى عمران البصرى قال : سمعت شيخاً يحدث عن عبد الرحمن بن أبى بكرة بهذا الحديث بتمامه . ورواه البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه .

قال البزار : ولا نعلم أحداً سمى هـذا الشيخ وتراجع ألفاظهم ، وذكره عبد الحق فى أحكامه من جهة النسائى ، ولم يعله بغير الانقطاع اه . منه. وأى علة أعظم من الانقطاع بإبهام الشيخ المذكور .

فتحصل أن الحديث المرفوع ضعيف ليس بصالح للاحتجاج .

أما الأثر المروى عن على رضى الله عنه فقد قال البيهقى فى سننه الكبرى فى باب : من اعتبر حضور الإمام والشهود ، وبداءة الإمام بالرجم ما نصه : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، ثنا محمد بن إسحاق الصغانى ، ثنا أبو الجواب ، ثنا عمار هو ابن زريق عن أبى حصين عن الشعبى قال : أتى على رضى الله عنه بشراحة الهمدانية قد فجرت فردها حتى ولدت ، فلما ولدت قال : ائتونى بأقرب النساء منها فأعطاها ولدها ثم جلدها ورجمها ثم قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بالسنة ثم قال : أيما امرأة نعى عليها ولدها أو كان اعتراف ، فالإمام أول من يرجم ، ثم الناس ، فإن نعاها الشهود فالشهود أول من يرجم ، ثم الإمام ثم الناس . وأخبرنا أبو زكريا ابن أبى إسحاق المزكى ، أنبأ أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيبانى ثنا محمد بن عبد الوهاب ؛ أنبأ جعفر بن عون ، أنبأ الأجلح عن الشعبى قال : جىء بشراحة الهمدانية إلى علىّ رضى الله عنه فقال لها : ويلك لعل رجلا وقع

عليك وأنت نائمة ، قالت : لا قال : لعلك استكرهك ؟ قالت : لا . قال : لعل زوجك من عدونا هذا أتاك فأنت تكرهين أن تدلى عليه ، يلقنها لعلها تقول نعم ، قال : فأمر بها فحبست ، فلما وضعت ما فى بطنها أخرجها يوم الخميس فضربها مائة ، وحفر لها يوم الجمعة فى الرحبة فأحاط الناس بها ؛ وأخذوا الحجارة فقال ليس هكذا الرجم إنما يصيب بعضكم بعضاً صفوا كصف الصلاة صفاً خلف صف ؛ ثم قال: أيها الناس أيما امرأة جيء بها وبها حبل يعنى أو اعترفت ، فالإمام أول من يرجم ، ثم الناس ، وأيما امرأة جيء بها أو رجل زان فشهد عليه أربعة بالزنا فالشهود أول من يرجم، ثم الإمام ثم الناس. ثم أمرهم فرجم صف ثم صف ، ثم قال افعلوا بها ما تفعلون بموتاكم .

قال الشيخ رحمه الله : قد ذكرنا أن جلد الثيب صار منسوخاً ، وأن الأمر صار إلى الرجم فقط اهـ . من السنن الكبرى بلفظه ، وذلك يدل على أن المرجوم يغسل ويكفن ويصلى عليه ، وهو كذلك ، وقد جاءت النصوص بالصلاة على الموجوم كما هو معلوم .

وقال صاحب نصب الراية فى أثر على هذا ما نصه : قلت : أخرجه البيهقى فى سننه عن الأجلح عن الشعبى ، قال جيء بشراحة الهمدانية إلى على رضى الله عنه إلى آخر ما ذكرنا ، عن البيهقى باللفظ الذى سقناه به ، والعجب من صاحب نصب الراية ، حيث اقتصر على رواية البيهقى للأثر المذكور من طريق الأجلح عن الشعبى ؛ ولم يشر إلى الرواية الأولى التى سقناها التى الراوى فيها عن الشعبى أبو حصين فاقتصاره على رواية الأجلح عن الشعبى وتركه للرواية التى ذكرنا أولا لا وجه له . والأجلح المذكور فى الإسناد المذكور : هو ابن عبد الله بن حجية بالمهملة والجيم مصغراً. ويقال : ابن معاوية يكنى أبا حجية الكندى ؛ ويقال اسمه : يحيى. قال فيه ابن حجر فى التقريب : صدوق شيعى . وقال عنه فى

تهذيب التهذيب قال القطان: فى نفسى منه شيء . وقال أيضاً : ما كان يفصل بين الحسين بن على وعلى بن الحسين . وقال أحمد: أجلح ومجالد متقاربان فى الحديث. وقد روى الأجلح غير حديث منكر . وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه : ما أقرب الأجلح من فطر بن خليفة . وقال ابن معين : صالح ، وقال مرة : ثقة، وقال مرة : ليس به بأس ، وقال العجلى : كوفى ثقة ، وقال أبو حاتم : ليس بالقوى يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال النسائى : ضعيف ليس بذاك ؛ وكان له رأى سوء ، وقال الجوزجانى : مفتر . وقال ابن عدى : له أحاديث صالحة ، ويروى عنه الكوفيون وغيرهم ، ولم أر له حديثاً منكراً مجاوزاً للحد لا إسناداً ولا متناً إلا أنه يعد فى شيعة الكوفة ، وهو عندى مستقيم الحديث صدوق . وقال شريك عن الأجلح : سمعنا أنه ما يسب أبا بكر وعمر أحد إلا مات قتلا أو فقيراً . وقال عمرو بن على : مات سنة مائة وخمس وأربعين فى أول السنة ، وهو رجل من بجيلة مستقيم الحديث صدوق .

قلت : ليس هو من بجيلة ، وقال أبو داود : ضعيف ، وقال مرة : زكريا أرفع منه بمائة درجة ، وقال ابن سعد : كان ضعيفاً جداً . وقال العقيلى : روى عن الشعبى أحاديث مضطربة لا يتابع عليها . وقال يعقوب بن سفيان: ثقة ، حديثه لين . وقال ابن حبان : كان لا يدرى ما يقول جعل أبا سفيان أبا الزبير. انتهى منه.

وقد رأيت كثرة الاختلاف فى الأجلح المذكور إلا أن روايته لهذا الأثر عن الشعبى عن على تعتضد برواية أبى الحصين له عن الشعبى ، عن على . وأبو حصين المذكور ، هو بفتح الحاء ، وهو عثمان بن عاصم بن حصين الأسدى الكوفى أخرج له الجميع . وقال فيه فى التقريب : ثقة ثبت سنى وربما دلس. اهـ .

وإذا علمت أقوال أهل العلم فى بداءة الشهود والإمام بالرجم وما احتج به كل منهم .

فاعلم أن أظهر القولين هو قول من قال ببداءة الشهود أو الإمام كما ذكرنا. وقول الإمام مالك رحمه الله : إنه لم يعلم أحداً من الأئمة فعله يقتضى أنه لم يبلغه أثر على رضى الله عنه المذكور ، ولو بلغه لعمل به ، والظاهر أن له حكم الرفع لأنه لا يظهر أنه يقال من جهة الرأى ، وإن كان الكلام الذى قدمنا عن صاحب المغنى ، وصاحب تبيين الحقائق يقتضى أن مثله يقال بطريق الرأى للتعليل الذى عللوا به القول به . وقال صاحب نصب الراية بعد أن ذكر رواية البيهقى للأثر المذكور عن على من طريق الأجلح ، عن الشعبى ما نصه : ورواه أحمد فى مسنده ، عن يحيى بن سعيد ، عن مجالد عن الشعبى ثم ساق متن رواية الإمام أحمد بنحو ما قدمنا ، ثم قال ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه : حدثنا عبد الله ابن إدريس ، عن يزيد ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن علياً رضى الله عنه ثم ساق الأثر بنحو ما قدمنا. ثم قال : حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن حجاج ، عن الحسن بن سعيد ، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، عن على ، ثم ساق الأثر المذكور بنحو ما قدمنا . اهـ .

وهذه الروايات يعضد بعضها بعضا وهى تدل على أن علياً كان يقول ببداءة الإمام فى الإقرار وبداءة الشهود فى البينة ، وإن كان له حكم الرفع فالأمر واضح ، وإن كان له حكم الوقف فهى فتوى وفعل من خليفة راشد ، ولم يعلم أن أحدا أنكر عليه ، ولهذا استظهرنا بداءة البينة والإمام فى الرجم والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس : اعلم أن المرجوم إذا هرب فى أثناء الرجم عندما وجد ألم الضرب بالحجارة فإن كان زناه ثابتاً ببينة ، فلا خلاف فى أنهم يتبعونه ، حتى يدركوه ، فيرجموه لوجوب إقامة الحد عليه الذى هو الرجم بالبينة ، وإن كان زناه ثابتاً بإقرار وقد اختلف أهل العلم فيه .

قال النووى فى شرح مسلم : اختلف العلماء فى المحصن : إذا أقر بالزنا

فشرعوا فى رجمه ، ثم هرب هل يترك أم يتبع ليقام عليه الحد ؟ فقال الشافعى وأحمد وغيرهما : يترك ، ولا يتبع لكى يقال له بعد ذلك ، فإن رجع عن الإقرار ترك ، وإن أعاد رجم .

وقال مالك فى رواية وغيره : إنه يتبع ويرجم. واحتج الشافعى وموافقوه بما جاء فى رواية أبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا تركتموه حتى أنظر فى شأنه؟ » وفى رواية « هلا تركتموه فلعله يتوب فيتوب الله عليه » واحتج الآخرون بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يلزمهم ذنبه ، مع أنهم قتلوه بعد هربه ، وأجاب الشافعى وموافقوه عن هذا بأنه لم يصرح بالرجوع ، وقد ثبت إقراره فلا يترك حتى يصرح بالرجوع قالوا : وإنما قلنا لا يتبع فى هربه لعله يريد الرجوع. ولم نقل إنه سقط الرجم بمجرد الهرب . والله أعلم انتهى منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى أنه إن هرب فى أثناء الرجم لا يتبع بل يمهل حتى ينظر فى أمره ، فإن صرح بالرجوع ترك، وإن تمادى على إقراره رجم . ويدل لهذا ما فى رواية أبى داود التى أشار لها النووى والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة : اعلم أن البكر من الرجال والنساء ، إذا زنا وجب جلده مائة جلدة كما هو نص الآية الكريمة ، ولا خلاف فيه ، ولكن العلماء اختلفوا هل يغرب سنة مع جلده مائة أو لا يغرب ؟ فذهب جمهور أهل العلم إلى أن البكر يغرب سنة مع الجلد. قال ابن قدامة فى المغنى : وهو قول جمهور أهل العلم . روى ذلك عن الخلفاء الراشدين ، وبه قال أبىّ وابن مسعود ، وابن عمر رضى الله عنهم . وإليه ذهب عطاء ، وطاوس ، والثورى ، وابن أبى ليلى ، والشافعى وإسحاق وأبو ثور : وقال مالك والأوزاعى: يغرب الرجل دون المرأة . وقال أبو حنيفة ومحمد : لا يجب التغريب على ذكر ولا أنثى. وقال النووى فى شرح مسلم: قال

الشافعى والجماهير ينفى سنة رجلا كان أو امرأة . وقال الحسن : لا يجب النفى . وقال مالك والأوزاعى : لا نفى على النساء ، وروى مثله عن على رضى الله عنه إلى أن قال: وأما العبد والأمة ففيهما ثلاثة أقوال للشافعى .

أحدها : يغرب كل واحد منهما سنة لظاهر الحديث . وبهذا قال سفيان الثورى ، وأبو ثور ، وداود ، وابن جرير .

والثانى : يغرب نصف سنة لقوله تعالى : ﴿ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ وهذا أصح الأقوال عند أصحابنا ، وهذه الآية مخصصة لعموم الحديث والصحيح عند الأصوليين ، جواز تخصيص السنة بالكتاب ، لأنه إذا جاز تخصيص الكتاب بالكتاب فتخصيص السنة به أولى .

والثالث: لا يغرب المملوك أصلا، وبه قال الحسن البصرى ، وحماد ، ومالك ، وأحمد وإسحاق لقوله صلى الله عليه وسلم فى الأمة إذا زنت « فليجلدها » ولم يذكر النفى ، ولأن نفيه يضر سيده مع أنه لا جناية من سيده ، وأجاب أصحاب الشافعى عن حديث الأمة إذا زنت أنه ليس فيه تعرض للنفى ، والآية ظاهرة فى وجوب النفى ، فوجب العمل بها، وحمل الحديث على موافقتها والله أعلم. اهـ كلام النووى ، وقوله : إن الآية ظاهرة فى وجوب النفى ليس بظاهر فانظره .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم فى هذه المسألة ، وأن الأئمة الثلاثة : مالكا ، والشافعى ، وأحمد، متفقون على تغريب الزانى البكر الحر الذكر ، وإن وقع بينهم خلاف فى تغريب الإناث والعبيد ، وعلمت أن أبا حنيفة ، ومن ذكرنا معه يقولون : بأنه لا يجب التغريب على الزانى مطلقا ذكراً كان أو أنثى حراً أو عبدا فهذه تفاصيل أدلتهم .

أما الذين قالوا : يغرب البكر الزانى سنة ، فاحتجوا بأن ذلك ثابت عن

النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا مطعن فيه ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما وباقي الجماعة في حديث العسيف الذي زنى بامرأة الرجل الذي كان أجيراً عنده، وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم، رد عليك وعلى ابنك ، جلد مائة وتغريب عام » الحديث وفيه التصرح من النبي صلى الله عليه وسلم برواية صحابيين جليلين أنه أقسم ليقضين بينهما بكتاب الله ، ثم صرح بأن من ذلك القضاء بكتاب الله جلد ذلك الزاني البكر مائة وتغريبه عاما ، وهذا أصح نص وأصرحه في محل النزاع. ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه وغيره وهو حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي قدمناه ، وفيه : البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة . وهو أيضاً نص صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم صريح في محل النزاع . واحتج الحنفية ومن وافقهم من الكوفيين على عدم التغريب بأدلة :

منها : أن التغريب سنة زيادة على قوله تعالى : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ والمقرر في أصول الحنفية هو أن الزيادة على النص نسخ له ، وإذا كانت زيادة التغريب على الجلد في الآية تعتبر نسخاً للآية فهم يقولون : إن الآية متواترة ، وأحاديث التغريب أخبار آحاد . والمتواتر عندهم لا ينسخ بالآحاد ، وقد قدمنا في مواضع من هذا الكتاب المبارك أن كلا الأمرين ليس بمسلم ، أما الأول منهما وهو أن كل زيادة على النص ، فهي ناسخة له ليس بصحيح ، لأن الزيادة على النص لا تكون ناسخة له على التحقيق ؛ إلا إن كانت مثبتة شيئاً قد نفاه النص أو نافية شيئاً أثبته النص ، أما إذا كانت زيادة شيء سكت عنه النص السابق ، ولم يتعرض لنفيه ، ولا لإثباته فالزيادة حينئذ إنما هي رافعة للبراءة الأصلية المعروفة في الأصول بالإباحة العقلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي ، حتى يرد دليل ناقل عنه ، ورفع البراءة الأصلية ليس بنسخ ، وإنما النسخ رفع حكم شرعي كان ثابتاً بدليل شرعي .

وقد أوضحنا هـذا المبحث في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى

﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا ﴾ الآية .

وفى سورة الحج فى مبحث اشتراط الطهارة للطواف فى كلامنا الطويل عَلَى آيات الحج وغير ذلك من مواضع هذا الكتاب المبارك .

وأما الأمر الثانى : وهو أن المتواتر لا ينسخ بأخبار الآحاد؛ فقد قدمنا فى سورة الأنعام فى الكلام على آية الأنعام المذكورة آنفا ؛ أنه غلط فيه جمهور الأصوليين غلطا لاشك فيه ، وأن التحقيق هو جواز نسخ التواتر بالآحاد إذا ثبت تأخرها عنه ، ولا منافاة بينهما أصلا ، حتى يرجع المتواتر على الآحاد ، لأنه لا تناقض مع اختلاف زمن الدليلين ، لأن كلا منهما حق فى وقته ؛ فلو قالت جماعة من العدول : إن أخاك المسافر لم يصل بيته إلى الآن ؛ ثم بعد ذلك بقليل من الزمن أخبرك إنسان واحد أن أخاك وصل بيته ، فإن خبر هذا الإنسان الواحد أحق بالتصديق من خبر جماعة العدول المذكورة ، لأن أخاك وقت كونهم فى بيته لم يقدم ، وبعد ذهابهم بزمن قليل قدم أخوك فأخبرك ذلك الإنسان بقدومه وهو صادق . وخبره لم يعارض خبر الجماعة الآخرين لاختلاف زمنهما كما أوضحناه فى المحل المذكور ؛ فالمتواتر فى وقته قطعى ؛ ولكن استمرار حكمه إلى الأبد ليس بقطعى ؛ فنسخه بالآحاد إنما نفى استمرار حكمه ؛ وقد عرفت أنه ليس بقطعى كما ترى.

ومن أدلتهم على عدم التغريب حديث سهل بن سعد الساعدى عند أبى داود وقد قدمناه: أن رجلا أقر عنده صلى الله عليه وسلم أنه زنى بامرأة سماها فأنكرت أن تكون زنت ؛ فجلده الحد؛ وتركها. وما رواه أبو داود أيضا عن ابن عباس: أن رجلا من بكر بن ليث أقر عند النبى صلى الله عليه وسلم أنه زنى بامرأة أربع مرات ؛ وكان بكراً فجلده النبى صلى الله عليه وسلم مائة ، وسأله صلى الله عليه وسلم

البينة على المرأة إذ كذبته ، فلم يأت بها ؛ فجلده حد القرية ثمانين جلدة ؛ قالوا ولو كانوا التغريب واجباً لما أخل به النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن أدلتهم أيضاً : الحديث الصحيح « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها » الحديث ، وهو متفق عليه ، ولم يذكر فيه التغريب مع الجلد ، فدل ذلك على أن التغريب منسوخ ، وهـذا الاستدلال لا ينهض لمعارضة النصوص الصحيحة الصريحة التي فيها إقسامه صلى الله عليه وسلم أن الجمع بين جلد البكر ، ونفيه سنة قضاء منه صلى الله عليه وسلم بكتاب الله .

وإيضاح ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم أقسم أن الجمع بين الجلد والتغريب قضاء بكتاب الله ، وهذا النص الصحيح بالغ من الصراحة فى محل النزاع، مالم يبلغه شيء آخر يعارض به .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار: إن النبي صلى الله عليه وسلم هو المبين ، وقد أقسم أن الجمع بين الجلد والتغريب قضاء بكتاب الله . قال : وخطب بذلك عمر رضى الله عنه على رءوس المنابر ؛ وعمل به الخلفاء الراشدون ؛ ولم ينكره أحد فكان إجماعاً ١٠هـ منه .

وذكر مرجحات أخرى متعددة لوجوب التغريب.

والحاصل : أن حديث أبى داود الذى استدلوا به من حديث سهل بن سعد وابن عباس ليس فيه ذكر التغريب ؛ ولا التصريح بعدمه ؛ ولم يعلم هل هو قبل حديث الإقسام : بأن الجمع بينهما قضاء بكتاب الله أو بعده ؟ فعلى أن المتأخر الإقسام المذكور فالأمر واضح ؛ وعلى تقدير : أن الإقسام هو المتقدم . فذلك التصريح ؛ بأن الجمع بينهما قضاء بكتاب الله مع الإقسام على ذلك لا يصح رفعه بمحتمل ؛ ولو تكررت الروايات به تكرراً كثيراً . وعلى أنه لا يعرف المتقدم

منهما كما هو الحق ، فالحديث المتفق عليه عن صحابيين جليلين هما : أبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهنى الذى فيه الإقسام بأن الجمع بينهما قضاء بكتاب الله ، لاشك فى تقديمه على حديث أبى داود الذى هو دونه فى السند والمتن . أما كونه فى السند : فظاهر ، وأما كونه فى المتن : فلأن حديث أبى داود ليس فيه التصريح بنفى التغريب ، والصريح مقدم على غير الصريح كما هو معروف فى الأصول ، وبه تعلم أن الأصح الذى لا ينبغى العدول عنه جمع الجلد والتغريب .

وأما الاستدلال بحديث الأمة فليس بوجيه لاختلاف الأمة والأحرار فى أحكام الحد ، فهى تجلد خمسين ، ولو محصنة ، ولا ترجم . والأحرار بخلاف ذلك ، فأحكام الأحرار والعبيد فى الحدود قد تختلف .

وقد بينت آية النساء اختلاف الحرة والأمة فى حكم حد الزنا من جهتين :

إحداهما : أنها صرحت بأنها إن كانت محصنة ، فعليها الجلد لا الرجم .

والثانية : أن عليها نصفه ، وذلك فى قوله : (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فتأمل قوله (فإذا أحصن) وقوله (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) يظهر لك ما ذكرنا .

ومما ذكرنا تعلم أن الأصح الذى لا ينبغى العدول عنه : هو وجوب تغريب البكر سنة مع جلده مائة لصراحة الأدلة الصحيحة فى ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن الذين قالوا بالتغريب ، وهم الجمهور اختلفوا فى تغريب المرأة ، فقال جماعة من أهل العلم : تغرب المرأة سنة لعموم أدلة التغريب ، وممن قال به : الشافعى وأحمد ، وقال بعض أهل العلم : لا تغريب على النساء ، وممن قال به مالك والأوزاعى ، وروى مثله عن على رضى الله عنه .

أما حجة من قال بتغريب النساء فهى عموم أدلة التغريب ، وظاهرها شمول

الأنثى، وأما الذين قالوا : لاتغريب على النساء ، فقد احتجوا بالأحاديث الصحيحة الواردة بنهى المرأة عن السفر ، إلا مع محرم أو زوج .

وقد قدمناها فى سورة النساء فى الكلام على مسافة القصر . قالوا : لايجوز سفرها دون محرم ، ولا يكلف محرمها بالسفر معها ، لأنه لاذنب له يكلف السفر بسببه ، قالوا : ولأن المرأة عورة وفى تغريبها تضييع لها ، وتعريض لها للفتنة ، ولذلك نهيت عن السفر إلا مع محرم أو زوج، قالوا : وغاية مافى الأمر، أن عموم أحاديث التغريب بالنسبة إلى النساء خصصته أحاديث نهى المرأة عن السفر إلا مع محرم أو زوج ، وهذا لا إشكال فيه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفرله : الذى يظهرلى أنها إن وجد لها محرم متبرع بالسفر معها إلى محل التغريب مع كون محل التغريب محل مأمن لاتخشى فيه فتنة ، مع تبرع المحرم للذكور بالرجوع معها إلى محلها ، بعد انتهاء السنة ، فإنها تغرب ، لأن العمل بعموم أحاديث التغريب لامعارض له فى الحالة المذكورة . وأما إن لم تجد محرما متبرعاً بالسفر معها ، فلا يجبر ، لأنه لاذنب له ، ولاتكلف هى السفر بدون محرم ، لنهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

وقد قدمنا مراراً أن النص الدال على النهى يقدم على الدال على الأمر على الأصح ، لأن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وهذا التفصيل الذى استظهرنا لم نعلم أحداً ذهب إليه ، ولكنه هو الظاهر من الأدلة ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثانى : اعلم أن العلماء اختلفوا فى تغريب العبد والأمة ، وقد قدمنا أقوال أهل العلم فى ذلك .

وأظهر أقوالهم عندنا : أن المملوك لايغرب ، لأنه مال ، وفى تغريبه إضرار بمالكه ، وهو لاذنب له ، ويستأنس له بأنه لايرجم ، ولو كان محصناً ، لأن إهلاكه بالرجم إضرار بمالكه . ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « إذا زنت

أمة أحدكم فليجلدها » الحديث ، ولم يذكر تغريبا ، وقد فهم البخارى رحمه الله عدم نفى الأمة من الحديث المذكور ، ولذا قال فى ترجمته : باب لايثرب على الأمة إذا زنت ولا تنفى .

وقد قدمنا اختلاف الأصوليين فى العبيد هل يدخلون فى عموم نصوص الشرع ، لأنهم من جملة المكلفين ، أولايدخلون فى عموم النصوص ، إلا بدليل منفصل لكثرة خروجهم من عموم النصوص ، كما تقدم إيضاحه .

وقد قدمنا أن الصحيح هو دخولهم فى عموم النصوص إلا ما أخرجهم منه دليل ، واعتمده صاحب مراقى السعود بقوله :

والعبد والموجود والذى كفر مشمولة له لدى ذوى النظر

وإخراجهم هنا من نصوص التغريب ، لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الأمة الزانية وبيعها ، ولم يذكر تغريبها ، ولأنهم مال ، وفى تغريبهم إضرار بالمالك . وفى الحديث « لاضرر ولا ضرار » والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

أظهر القولين عندى : أنه لابد فى التغريب من مسافة تقصر فيها الصلاة ، لأنه فيما دونها له حكم الحاضر بالبلد الذى زنى فيه .

وأظهر القولين أيضاً عندى أن المغرب لايسجن فى محل تغريبه ، لأن السجن عقوبة زائدة على التغريب ، فتحتاج إلى دليل ، ولا دليل عليها ، والعلم عند الله تعالى . والأظهر أن الغريب إذا زنى غرب من محل زناه إلى محل آخر غير وطنه الأصلى .

المسألة السادسة : اعلم أن من أقر بأنه أصاب حداً ، ولم يعين ذلك الحد ، فإنه لايجب عليه الحد ، لعدم التعيين وهذا لاينبغى أن يختلف فيه ، لما ثبت فى

الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه قال « كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقمه علىّ ، قال : ولم يسأله عنه قال: وحضرت الصلاة فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله : إنى أصبت حدا فأقم فىّ كتاب الله ، قال : أليس صليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك أو قال : حدك » هذا لفظ البخارى فى صحيحه . والحديث متفق عليه . ولمسلم وأحمد من حديث أبى أمامة نحوه : وهو نص صحيح صريح فى أن من أقر بحد ولم يسمه ، لاحد عليه كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة : فى حكم رجوع الزانى المقر بالزنى أو رجوع البينة قبل إتمام إقامة الحد عليه .

أما الزانى المقر بزناه إذا رجع عن إقراره ، سقط عنه الحد ، ولو رجع فى أثناء إقامة الحد من جلد أو رجم . هذا هو الظاهر .

قال ابن قدامة : وبه قال عطاء ويحيى بن يعمر ، والزهرى ، وحماد ، ومالك ، والثورى ، والشافعى ، وإسحاق ، وأبو حنيفة ، وأبو يوسف . وقد حكى ابن قدامة خلاف هذا عن جماعة وروايته عن مالك ضعيفة .

والظاهر لنا هو ماذكرنا من سقوط الحد عنه برجوعه عن إقراره ، ولو فى أثناء إقامة الحد لما قدمنا من حديث أبى داود وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم لما تبعوا ماعزاً بعد هربه «ألا تركتموه ؟ »وفى رواية «هلا تركتموه ؟ فلعله يتوب فيتوب الله عليه » وفى ذلك دليل على قبول رجوعه ، وعليه أكثر أهل العلم ، وهو الحق إن شاء الله تعالى . وأما رجوع البينة أو بعضهم فلم أعلم فيه بخصوصه نصاً من كتاب ولا سنة ، والعلماء مختلفون فيه .

واعلم أن له حالتين .

إحداهما: أن يكون رجوعهم ، أو رجوع بعضهم قبل إقامة الحد على الزانى بشهادتهم .

والثانية : أن يكون رجوعهم ، أو رجوع بعضهم بعد إقامة الحد عليه ، والحد المذكور قد يكون جلدا ، وقد يكون رجما ، فإذا رجعوا كلهم أو واحد منهم قبل إقامة الحد ، فقد قال فى ذلك ابن قدامة فى المغنى : فإن رجعوا عن الشهادة ، أو واحد منهم فعلى جميعهم الحد فى أصح الروايتين ، وهو قول أبى حنيفة . والثانية : يحد الثلاثة دون الراجع ، وهو اختيار أبى بكر ، وابن حامد؛ لأنه إذا رجع قبل الحد فهو كالتائب قبل تنفيذ الحكم بقوله : فسقط عنه الحد ، ولأن فى درء الحد عنه تمكينا له من الرجوع الذى يحصل به مصلحة المشهود عليه. وفى إيجاب الحد زجر له عن الرجوع خوفاً من الحد ، فتفوت تلك المصلحة، وتتحقق المفسدة ، فناسب ذلك نفى الحد عنه . وقال الشافعى : يحد الراجع دون الثلاثة ؛ لأنه مقر على نفسه بالكذب فى قذفه . وأما الثلاثة فقد وجب الحد بشهادتهم ، وإنما سقط بعد وجوبه برجوع الراجع ، ومن وجب الحد بشهادته لم يكن قاذفاً فلم يحد ، كما لو لم يرجع . ولنا أنه نقص العدد بالرجوع قبل إقامة الحد ، فلزمهم الحد كما لو شهد ثلاثة وامتنع الرابع من الشهادة ، وقولهم : وجب الحد بشهادتهم يبطل بما إذا رجعوا كلهم ، وبالراجع وحده ، فإن الحد وجب ، ثم سقط ، ووجب الحد عليهم بسقوطه ، ولأن الحد إذا وجب على الراجع مع المصلحة فى رجوعه ، وإسقاط الحد عن المشهود عليه بعد وجوبه ، وإحيائه المشهود عليه بعد إشرافه على التلف فعلى غيره أولى . انتهى من المغنى .

وحاصله : أنهم إن رجعوا كلهم حدوا كلهم ، وإن رجع بعضهم ، ففى ذلك ثلاثة أقوال :

الأول : يحدون كلهم .

والثانى : يحد من لم يرجع دون من رجع .

والثالث : عكسه كما هو واضح من كلامه .

والأظهر : أنهم إن رجعوا بعد الحكم عليه بالرجم أو الجلد بشهادتهم أنه لايقام عليه الحد ، لرجوع الشهود أو بعضهم . وقول بعض المالكية : إن الحكم ينفذ عليه ، ولو رجعوا كلهم أو بعضهم قبل التنفيذ خلاف التحقيق ، وإن كان المعروف فى مذهب مالك أن الحكم إذا نفذ بشهادة البينة ، أنه لاينقض برجوعهم وإنما ينقض بظهور كذبهم ، لأن هذا لم يعموه فى الشهادة المفضية إلى القتل لعظم شأنه ، والأظهر أنه لا يقتل بشهادة بينة كذبت أنفسها ، فيما شهدت عليه به كما لا يخفى . وأما إن كان رجوع البينة بعد إقامة الحد ، فالأظهر أنه إن لم يظهر تعمدهم الكذب لزمتهم دية المرجوم ، وإن ظهر أنهم تعمدوا الكذب فقال بعض أهل العلم : تلزم الدية أيضاً . وقال بعضهم : بالقصاص ، وهو قول أشهب من أصحاب مالك ، وله وجه من النظر ، لأنهم تسببوا فى قتله بشهادة زور ، فقتلهم به له وجه ، والعلم عند الله تعالى . وإن كان رجوعهم أو رجوع بعضهم بعد جلد المشهود عليه بالزنى بشهادتهم ، فإن لم يظهر تعمدهم الكذب ، فالظاهر أنهم لاشىء عليهم ، لأنهم لم يقصدوا سوءا ، وإن ظهر تعمدهم الكذب وجب تعزيرهم بقدر ما يراه الإمام رادعا لهم ولأمثالهم ، لأنهم فعلوا معصيتين عظيمتين .

الأولى : تعمدهم شهادة الزور .

والثانية : إضرارهم بالمشهود عليه بالجلد ، وهو أذى عظيم أوقعوه به بشهادة زور والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــــــه

اعلم أنا قدمنا حكم من زنى ببهيمة فى سورة الإسراء ، فى الكلام على قوله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) وقدمنا حكم اللواط وأقوال أهل العلم وأدلتهم فى ذلك فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (وما هى من الظالمين ببعيد) وقد قدمنا الكلام أيضاً على أن من زنى مرات متعددة ، قبل

أن يقام عليه الحد ، يكفى لجميع ذلك حد واحد فى الكلام على آيات الحج . وقد أوضحنا أن الأمة تجلد خمسين ، سواء كانت محصنة أو غير محصنة ، لأن جلدها خمسين مع الإحصان منصوص فى القرآن كما تقدم إيضاحه ، وجلدها مع عدم الإحصان ثابت فى الصحيح .

وأظهر الأقوال عندنا : أن الأمة غير المحصنة تجلد خمسين ، وألحق أكثر أهل العلم العبد بالأمة .

والأظهر عندنا : أنه يجلد خمسين مطلقا أحصن أم لا . وقد تركنا الأقوال المخالفة لما ذكرنا لعدم اتجاهها عندنا مع أنا أوضحناها فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة) الآية ولنكتف بما ذكرنا هنا من أحكام الزنى المتعلقة بهذه الآية التى نحن بصددها .

وعادتنا أن الآية إن كان يتعلق بها باب من أبواب الفقه أنا نذكر عيون مسائل ذلك الباب ، والمهم منه وتبيين أقوال أهل العلم فى ذلك ومناقشها ، ولا نستقصى جميع ما فى الباب ، لأن استقصاء ذلك فى كتب فروع المذاهب كما هو معلوم ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا مرارا أن من أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، ويكون فى نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول ، ذكرنا هذا فى ترجمة الكتاب وذكرنا فيما مضى من الكتاب أمثلة كثيرة لذلك ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة .

وإيضاح ذلك : أن العلماء اختلفوا فى المراد بالنكاح فى هذه الآية ، فقال

جماعة : المراد بالنكاح فى هذه الآية : الوطء الذى هو نفس الزنى ، وقالت جماعة أخرى من أهل العلم : إن المراد بالنكاح فى هذه الآية هو عقد النكاح . قالوا فلا يجوز لعفيف أن يتزوج زانية كعكسه ، وهذا القول الذى هو أن المراد بالنكاح فى الآية : التزويج لا الوطء فى نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته ، وتلك القرينة هى ذكر المشرك والمشركة فى الآية ، لأن الزانى المسلم لا يحل له نكاح مشركة لقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقوله تعالى (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) وقوله تعالى : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) ، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك لقوله تعالى : (ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال . وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح فى الآية التى نحن بصددها الوطء ؛ الذى هو الزنى ؛ لا عقد النكاح ، لعدم ملاءمة عقد النكاح لذكر المشرك والمشركة ، والقول بأن نكاح الزانى للمشركة والزانية للمشرك ، منسوخ ظاهر السقوط ، لأن سورة النور مدنية ؛ ولا دليل على أن ذلك أحل بالمدينة ، ثم نسخ . والنسخ لا بد له من دليل يجب الرجوع إليه .

مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة

اعلم أن العلماء اختلفوا فى جواز نكاح العفيف الزانية ؛ ونكاح العفيفة الزانى ، فذهب جماعة من أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة إلى جواز نكاح الزانية مع الكراهة التنزيهية عند مالك وأصحابه ؛ ومن وافقهم ؛ واحتج أهل هذا القول بأدلة :

منها : عموم قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وهو شامل بعمومه الزانية والعفيفة وعموم قوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية ؛ وهو شامل بعمومه الزانية أيضاً والعفيفة .

ومن أدلتهم على ذلك : حديث ابن عباس رضى الله عنهما « أن رجلا

جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتى لاترد يد لامس: قال : غربها. قال أخاف أن تتبعها نفسى؟ قال : فاستمتع بها » : قال ابن حجر فى بلوغ المرام فى هذا الحديث بعد أن ساقه باللفظ الذى ذكرنا : رواه أبو داود ، والترمذى، والبزار ورجاله ثقات ، وأخرجه النسائى من وجه آخر ، عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ قال « طلقها . قال لا أصبر عنها قال: فامسكها » اهـ من بلوغ المرام ، وفيه تصريح ابن حجر بأن رجاله ثقات ، وبه تعلم أن ذكر ابن الجوزى لهذا الحديث فى الموضوعات فيه نظر ؛ وقد ذكره فى الموضوعات مرسلا عن أبى الزبير قال : « أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى » . الحديث ؛ ورواه أيضاً مرسلا عن عبيد بن عمير ، وحسان بن عطية كلاهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : وقد حمله أبو بكر الخلال على الفجور ؛ ولا يجوز هذا ؛ وإنما يحمل على تفريطها فى المال لو صح الحديث .

قال أحمد بن حنبل : هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس له أصل . انتهى من موضوعات ابن الجوزى ، وكثرة اختلاف العلماء فى تصحيح الحديث المذكور وتضعيفه معروفة .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار : ولا ريب أن العرب تكنى بمثل هذه العبارة ، عن عدم العفة عن الزنى ، يعنى بالعبارة المذكورة قول الرجل : إن امرأتى لاترد يد لامس. اهـ . وما قاله الشوكانى وغيره هو الظاهر لأن لفظ : لاترد يد لامس، أظهر فى عدم الامتناع ممن أراد منها مالا يحل كما لا يخفى فحمله على تفريطها فى المال غير ظاهر، لأن إطلاق لفظ اللامس على أخذ المال ، ليس بظاهر كما ترى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الحديث المذكور فى المرأة التى ظهر عدم عفتها ، وهى تحت زوج . وكلامنا الآن فى ابتداء النكاح لا فى الدوام عليه

وبين المسألتين فرق كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

ثم اعلم أن الذين قالوا بجواز تزويج الزانية والزانى أجابوا عن الاستدلال بالآية التى نحن بصددها ، وهى قوله تعالى (الزانى لاينكح إلا زانية أومشركة) الآية من وجهين .

الأول : أن المراد بالنكاح فى الآية هو الوطء الذى هو الزنى بعينه ، قالوا : والمراد بالآية تقبيح الزنى وشدة التنفير منه ، لأن الزانى لا يطاوعه فى زناه من النساء إلا التى هى فى غاية الخسة لكونها مشركة لا ترى حرمة الزنى أو زانية فاجرة خبيثة .

وعلى هذا القول فالإشارة فى قوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) راجعة إلى الوطء الذى هو الزنى ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه كعكسه ، وعلى هذا القول فلا إشكال فى ذكر المشركة والمشرك .

الوجه الثانى : هو قولهم : إن المراد بالنكاح فى الآية التزويج ، إلا أن هذه الآية التى هى قوله تعالى (الزانى لاينكح إلا زانية) الآية منسوخة بقوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية ، وممن ذهب إلى نسخها بها : سعيد بن المسيب ، والشافعى . وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية مانصه : هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى ، لا يطأ إلا زانية ، أو مشركة : أى لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك الزانية لاينكحها إلا زان : أى عاص بزناه ، أو مشرك لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) قال : ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزنى بها ، إلا زان أو مشرك ، وهذا

إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضاً ، وقد روى عن مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعروة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومقاتل ابن حيان ، وغير واحد نحو ذلك . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

فتراه صدر بأن المراد بالنكاح فى الآية : الجماع ، لا التزويج . وذكر صحته عن ابن عباس الذى دعا له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الله أن يعلمه تأويل القرآن . وعزاه لمن ذكر معه من أجلاء المفسرين ، وابن عباس رضى الله عنهما من أعلم الصحابة بتفسير القرآن العظيم ، ولاشك فى علمه باللغة العربية .

فقوله فى هذه الآية الكريمة بأن النكاح فيها هو الجماع لا العقد يدل على أن ذلك جار على الأسلوب العربى الفصيح . فدعوى أن هذا التفسير لا يصح فى العربية ، وأنه قبيح ، يرده قول البحر ابن عباس كما ترى .

وقال القرطبي فى تفسير هذه الآية : وقد روى عن ابن عباس ، وأصحابه أن النكاح فى هذه الآية : الوطء .

واعلم أن إنكار الزجاج لهذا القول فى هذه الآية ، أعنى القول بأن النكاح فيها الجماع . وقوله : إن النكاح لا يعرف فى القرآن ، إلا بمعنى التزويج مردود من وجهين .

الأول : أن القرآن جاء فيه النكاح بمعنى الوطء ، وذلك فى قوله تعالى : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فسر قوله : حتى تنكح زوجاً غيره ، بأن معنى نكاحها له مجامعته لها حيث قال : « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » ومراده بذوق العسيلة : الجماع ، كما هو معلوم .

الوجه الثانى : أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يطلقون النكاح على الوطء ، والتحقيق : أن النكاح فى لغتهم الوطء . قال الجوهرى فى صحاحه :

النكاح الوطء ، وقد يكون العقد اهـ . وإنما سموا عقد التزويج نكاحا ، لأنه سبب النكاح أى الوطء ، وإطلاق المسبب ، وإرادة سببه معروف فى القرآن ، وفى كلام العرب ، وهو مما يسميه القائلون بالمجاز ، المجاز المرسل كما هو معلوم عندهم فى محله ، ومن إطلاق العرب النكاح على الوطء قول الفرزدق :

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبنى بها لم تطلق

لأن الإنكاح فى البيت ليس المراد به : عقد التزويج ، إذ لا يعقد على المسبيات ، وإنما المراد به الوطء بملك اليمين والسبى مع الكفر . ومنه قوله أيضاً :

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله

فالمراد بالنكاح فى هذا البيت هو الوطء بملك اليمين ، لا العقد كما صرح بذلك بقوله : ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله .

وقوله :

إذا سقى الله قوما صوب غادية فلا سقى الله أهل الكوفة المطرا

التاركين على طهر نساءهم والناكحين شطى دجلة البقرا

ومعلوم أن نكاح البقر ليس معناه التزويج

قالوا : ومما يدل على أن النكاح فى الآية غير التزويج ، أنه لو كان معنى النكاح فيها التزويج لوجب حد المتزوج بزانية ، لأنه زان ، والزانى يجب حده . وقد أجمع العلماء على أن من تزوج زانية لا يحد حد الزنى ، ولو كان زانياً لحد حد الزنى فافهم ، هذا هو حاصل حجج من قالوا إن النكاح فى الآية الوطء ، وأن تزويج العفيف الزانية ليس بحرام كعكسه .

وقالت جماعة أخرى من أهل العلم : لا يجوز تزويج الزانى لعفيفة ولا عكسه

وهو مذهب الإمام أحمد ، وقد روى عن الحسن وقتادة ، واستدل أهل هذا القول بآيات وأحاديث .

فمن الآيات التى استدلوا بها هذه الآية التى نحن بصددها ، وهى قوله تعالى: (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قالوا : المراد بالنكاح فى هذه الآية : التزويج ، وقد نص الله على تحريمه فى قوله (وحرم ذلك على المؤمنين) ، قالوا : والإشارة بقوله . ذلك راجعة إلى تزويج الزانى بغير الزانية أو المشركة وهو نص قرآنى فى تحريم نكاح الزانى العفيفة كعكسه .

ومن الآيات التى استدلوا بها قوله تعالى : (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) قالوا : فقوله (محصنين غير مسافحين) أى أعفاء غير زناة .ويفهم من مفهوم مخالفة الآية : أنه لايجوز نكاح المسافح الذى هو الزانى لمحصنة مؤمنة ، ولا محصنة عفيفة من أهل الكتاب ، وقوله تعالى : (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) فقوله (محصنات غير مسافحات) أى عفائف غير زانيات ، ويفهم من مفهوم مخالفة الآية ، أنهن لو كن مسافحات غير محصنات لما جاز تزوجهن .

ومن أدلة أهل هذا القول أن جميع الأحاديث الواردة فى سبب نزول آية (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) الآية كلها فى عقد النكاح وليس واحد منها فى الوطء، والمقرر فى الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول. وأنه جاء قد فى السنة مايؤيد صحة ما قالوا فى الآية ، من أن النكاح فيها التزويج، وأن الزانى لا يتزوج إلا زانية مثله ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الزانى المجلود لاينكح إلا مثله » وقال ابن حجر فى بلوغ المرام فى حديث أبى هريرة هذا : رواه أحمد، وأبو داود ورجاله ثقات.

وأما الأحاديث الواردة فى سبب نزول الآية .

فمنها : ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص أن رجلا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأة يقال لها أم مهزول ، كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه قال : فاستأذن النبى صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها فقرأ عليه نبى الله : (والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك) رواه أحمد .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار فى شرحه لهذا الحديث : وقد عزاه صاحب المنتقى لأحمد وحده ، وحديث عبد الله بن عمرو أخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير والأوسط . قال فى مجمع الزوائد : ورجال أحمد ثقات .

ومنها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده أن مرثد بن أبى مرثد الغنوى كان يحمل الأسارى بمكة ، وكانت بمكة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقته ، قال : فجئت النبى صلى الله عليه وسلم . فقلت : يارسول الله أنكح عناقا قال : فسكت عنى فنزلت : (والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) فدعانى فقرأها علىّ ، وقال : لاتنكحها . رواه أبو داود ، والنسائى والترمذى .

قال الشوكانى فى نيل الأوطار فى كلامه على حديث عمرو بن شعيب هذا الذى ذكره صاحب المنتقى ، وعزاه لأبى داود والنسائى والترمذى وحديث عمرو بن شعيب حسنه الترمذى وساق ابن كثير فى تفسير هذه الآية الأحاديث التى ذكرنا بأسانيدها وقال فى حديث عمرو بن شعيب هذا . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود ، والنسائى فى كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الأخنس به .

قالوا : فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن النكاح فى قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) أنه التزويج لا الوطء ، وصورة النزول قطعية الدخول ، كما تقرر فى الأصول قالوا : وعلى أن المراد به التزويج ، فتحريم نكاح الزانية والزانى منصوص فى قوله تعالى : (وحرم ذلك على المؤمنين) .

وقال ابن القيم فى زاد المعاد ، ما نصه : وأما نكاح الزانية فقد صرح الله سبحانه وتعالى بتحريمه فى سورة النور ، وأخبر أن من نكحها فهو إما زان أو مشرك ، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه ، ويعتقد وجوبه عليه أو لا ، فإن لم يلتزمه ، ولم يعتقده فهو مشرك ، وإن التزمه واعتقد وجوبه ، وخالفه فهو زان ، ثم صرح بتحريمه ، فقال (وحرم ذلك على المؤمنين) ولا يخفى أن دعوى النسخ للآية بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم) من أضعف ما يقال ، وأضعف منه حمل النكاح على الزنى .

إذ يصير معنى الآية : الزانى لا يزنى إلا بزانية أو مشركة ، والزانية لا يزنى بها إلا زان أو مشرك ، وكلام الله ينبغى أن يصان عن مثل هذا ، وكذلك حمل الآية على امرأة بغى مشركة فى غاية البعد عن لفظها ، وسياقها كيف ، وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان ، وهو العفة فقال (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) فإنما أباح نكاحها فى هذه الحالة دون غيرها ، وليس هذا من دلالة المفهوم ، فإن الأبضاع فى الأصل على التحريم ، فيقتصر فى إباحتها على ما ورد به الشرع ، وما عداه فعلى أصل التحريم . انتهى محل الغرض من كلام ابن القيم .

وهذه الأدلة التى ذكرنا هى حجج القائلين : بمنع تزويج الزانى العفيفة

كعكسه ، وإذا عرفت أقوال أهل العلم ، وأدلتهم فى مسألة نكاح الزانية والزانى فهذه مناقشة أدلتهم .

أما قول ابن القيم رحمه الله : إن حمل الزنا فى الآية على الوطء ينبغى أن يصان عن مثله كتاب الله ، فيرده أن ابن عباس وهو هو فى المعرفة باللغة العربية وبمعانى القرآن صح عنه حمل الزنى فى الآية على الوطء ولو كان ذلك ينبغى أن يصان عن مثله كتاب الله لصانه عنه ابن عباس ، ولم يقل به ولم يخف عليه أنه ينبغى أن يصان عن مثله .

وقال ابن العربى فى تفسير ابن عباس للزنى فى الآية بالوطء هو معنى صحيح . انتهى منه بواسطة نقل القرطبى عنه .

وقول ابن القيم فى كلامه هذا الذى ذكرنا عنه فإن لم يلتزمه ، ولم يعتقده فهو مشرك يقال فيه : نعم هو مشرك ، ولكن المشرك لايجوز له نكاح الزانية المسلمة ، وظاهر كلامك جواز ذلك ، وهو ليس بجائز فيبقى إشكال ذكر المشرك والمشركة وارداً على القول بأن النكاح فى الآية التزويج كما ترى .

وقول ابن القيم رحمه الله فى كلامه هذا : وليس هذا من باب دلالة المفهوم فان الأبضاع فى الأصل على التحريم فيقتصر فى إباحتها على ماورد به الشرع وما عداه فعلى أصل التحريم يقال فيه : إن تزويج الزانية وردت نصوص عامة تقتضى جوازه كقوله تعالى : (وأحل لكم ماوراء ذلكم) وهو شامل بعمومه للزانية والعفيفة والزانى والعفيف . وقوله (وأنكحوا الأيامى منكم) فهو أيضاً شامل بعمومه لجميع من ذكر ، ولذا قال سعيد بن المسيب : إن آية (وأنكحوا الأيامى) الآية ناسخة لقوله تعالى (الزانى لاينكح إلا زانية) الآية. وقال الشافعى : القول فى ذلك كما قال سعيد من نسخها بها .

وبما ذكرنا يتضح أن دلالة قوله (محصنات غير مسافحات) على المقصود من البحث من باب دلالة المفهوم كما أوضحناه قريباً ، لأن العمومات المذكورة لا يصح تخصيص عمومها إلا بدليل منطوقاً كان أو مفهوماً كما تقدم إيضاحه .

وأما قول سعيد بن المسيب والشافعي ، بأن آية (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة) منسوخة بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم) فهو مستبعد ، لأن المقرر فى أصول الشافعى ومالك وأحمد هو أنه لا يصح نسخ الخاص بالعام ، وأن الخاص يقضى على العام مطلقاً ، سواء تقدم نزوله عنه أو تأخر ، ومعلوم أن آية (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية أعم مطلقا من آية (الزانى لا ينكح إلا زانية) الآية ، فالقول بنسخها لها ممنوع على المقرر فى أصول الأئمة الثلاثة المذكورين ، وإنما يجوز ذلك على المقرر فى أصول أبى حنيفة رحمه الله ، كما قدمنا إيضاحه فى سورة الأنعام ، وقد يجاب عن قول سعيد ، والشافعى بالنسخ بأنهما فهماه من قرينة فى الآية ، وهى أنه لم يقيد الأيامى الأحرار بالصلاح ، وإنما قيد بالصلاح فى أيامى العبيد والإماء ، ولذا قال بعد الآية : (والصالحين من عبادكم وإمائكم).

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقاً ، لأن حمل النكاح فيها على التزويج ، لا يلائم ذكر المشركة والمشرك ، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلقة بالآية ، فإنها تعين أن المراد بالنكاح فى الآية : التزويج ، ولا أعلم مخرجا واضحاً من الإشكال فى هذه الآية إلا مع بعض تعسف ، وهو أن أصح الأقوال عند الأصوليين كما حرره أبو العباس بن تيمية رحمه الله فى رسالته فى علوم القرآن ، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنييه ، أو معانيه ، فيجوز أن تقول : عدا اللصوص البارحة على عين زيد ، وتعنى بذلك أنهم عوروا عينه الباهرة وغوروا عينه الجارية ، وسرقوا عينه التى هى ذهبه أو فضته .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج ، خلافاً لمن زعم أنه حقيقة فى أحدهما ، مجاز فى الآخر كما أشرنا له سابقاً ، وإذ جاز حمل المشرك على معنييه ، فيحمل النكاح فى الآية على الوطء ، وعلى التزويج معاً ، ويكون ذكر المشركة والمشرك على تفسير النكاح بالوطء دون العقد ، وهذا هو نوع التعسف الذى أشرنا له ، والعلم عند الله تعالى .

وأكثر أهل العلم على إباحة تزويج الزانية والمانعون لذلك أقل وقد عرفت أدلة الجميع .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن من تزوج امرأة يظنها عفيفة ، ثم زنت وهى فى عصمته أن أظهر القولين : أن نكاحها لا يفسخ ، ولا يحرم عليه الدوام على نكاحها ، وقد قال بهذا بعض من منع نكاح الزانية مفرقاً بين الدوام على نكاحها ، وبين ابتدائه . واستدل من قال هذا بحديث عمرو بن الأحوص الجشمى رضى الله عنه ، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

قال الشوكانى فى حديث عمرو بن الأحوص هذا : أخرجه ابن ماجه والترمذى وصححه ، وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة عمرو بن الأحوص المذكور : وحديثه فى الخطبة صحيح اهـ . وحديثه فى الخطبة هو هذا الحديث بدليل قوله : فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ، وهذا التذكير والوعظ هو الخطبة كما هو معروف .

ومن الأدلة على هذا الحديث المتقدم قريباً الذى فيه : أن الرجل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن امرأتى لاترد يد لامس فقال:« طلقها فقال: نفسى تتبعها فقال أمسكها » وبينا الكلام فى سنده ، وأنه فى الدوام على النكاح لا فى ابتداء النكاح ، وأن بينهما فرقا ، وبه تعلم أن قول من قال : إن من زنت زوجته ، فسخ نكاحها وحرمت عليه خلاف التحقيق ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثانى : اعلم أن أظهر قولى أهل العلم عندى ، أنه لايجوز نكاح المرأة الحامل من الزنا قبل وضع حملها بل لا يجوز نكاحها ، حتى تضع حملها . خلافاً لجماعة من أهل العلم قالوا : يجوز نكاحها وهى حامل ، وهو مروى عن الشافعى وغيره، وهو مذهب أبى حنيفة ، لأن نكاح الرجل امرأة حاملا من غيره فيه سقى الزرع بماء الغير ، وهو لايجوز ويدل لذلك قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ولا يخرج من عموم هذه الآية إلا ما أخرجه دليل يجب الرجوع إليه ، فلا يجوز نكاح حامل حتى ينتهى أجل عدتها ، وقد صرح الله بأن الحوامل أجلهن أن يضعن حملهن ، فيجب استصحاب هذا العموم ، ولا يخرج منه إلا ما أخرجه دليل من كتاب أو سنة .

الفرع الثالث : اعلم أن أظهر قولى أهل العلم عندى أن الزانية والزانى إن تابا من الزنا وندما على ما كان منهما ونويا أن لا يعودا إلى الذنب، فإن نكاحهما جائز ، فيجوز له أن ينكحها بعد توبتهما ، ويجوز نكاح غيرهما لها بعد التوبة ، لأن التائب من الذنب كمن لاذنب له ، ويدل لهذا قوله تعالى (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما) فقد صرح جل وعلا فى هذه الآية أن الذين يزنون ومن ذكر معهم إن تابوا

وآمنوا ، وعملوا عملا صالحاً يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو يدل على أن التوبة من الزنا ، تذهب أثره . فالذين قالوا : إن من زنا بامرأة لا تحل له مطلقاً ، ولو تابا وأصلحا فقولهم خلاف التحقيق ، وقد وردت آثار عن الصحابة بجواز تزويجه بمن زنى بها إن تابا ،وضرب له بعض الصحابة مثلا برجل سرق شيئاً من بستان رجل آخر ، ثم بعد ذلك اشترى البستان فالذى سرقه منه حرام عليه ، والذى اشتراه منه حلال له ، فكذلك ما نال من المرأة حراما فهو حرام عليه ، وما نال منها بعد التوبة والتزويج حلال له ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم أن قول من رد الاستدلال بآية (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية . قائلا : إنها نزلت فى الكفار لا فى المسلمين يرد قوله : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما أوضحنا أدلته من السنة الصحيحة مراراً . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الرابع : اعلم أن الذين قالوا بجواز نكاح العفيف الزانية ، لا يلزم من قولهم أن يكون زوج الزانية العفيف ديوثاً ،لأنه إنما يتزوجها ليحفظها، ويحرسها. ويمنعها من ارتكاب ما لا ينبغى منعاً باتاً بأن يراقبها دائماً ، وإذا خرج ترك الأبواب مقفلة دونها ، وأوصى بها من يحرسها بعده فهو يستمتع بها . مع شدة الغيرة والمحافظة عليها من الريبة ، وإن جرى منها شىء لا علم له به مع اجتهاده فى صيانتها وحفظها فلا شىء عليه فيه ، ولا يكون به ديوثا كما هو معلوم ،وقد علمت مما مر أن أكثر أهل العلم على جواز نكاح العفيف الزانية كعكسه ، وأن جماعة قالوا بمنع .

والأظهر لنا فى هذه المسألة أن المسلم لا ينبغى له أن يتزوج إلا عفيفة صينة . للآيات التى ذكرنا والأحاديث ويؤيده حديث « فاظفر بذات الدين تربت يداك » والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قوله تعالى فى هذه الآية : يرمون معناه : يقذفون المحصنات بالزنا صريحاً أو مايستلزم الزنا كنفى نسب ولد المحصنة عن أبيه ، لأنه إن كان من غير أبيه كان من زنى ، وهذا القذف هو الذى أوجب الله تعالى فيه ثلاثة أحكام :

الأول : جلد القاذف ثمانين جلدة .

والثانى : عدم قبول شهادته .

والثالث: الحكم عليه بالفسق .

فإن قيل : أين الدليل من القرآن على أن معنى يرمون المحصنات فى هذه الآية : هو القذف بصريح الزنى ، أو بما يستلزمه كنفى النسب ؟ .

فالجواب : أنه دلت عليه قرينتان من القرآن :

الأولى قوله تعالى(ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) بعد قوله (يرمون المحصنات) ومعلوم أنه ليس شىء من القذف يتوقف إثباته على أربعة شهداء إلا الزنى. ومن قال : إن اللواط حكمه حكم الزنى أجرى أحكام هذه الآية على اللائط .

وقد قدمنا أحكام اللائط مستوفاة فى سورة هود ، كما أشرنا له غير بعيد .

القرينة الثانية : هى ذكر المحصنات بعد ذكر الزوانى فى قوله تعالى (والزانى لاينكح إلا زانية) الآية . وقوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فذكر المحصنات بعد ذكر الزوانى ، يدل على إحصانهن أى عفتهن عن الزنى ، وأن الذين يرمونهن إنما يرمونهن بالزنى ، وقد قدمنا جميع

المعانى التى تراد بالمحصنات فى القرآن ، ومثلنا لها كلها من القرآن فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (والمحصنات من النساء إلا ماملكت أيمانكم) فذكرنا أن من المعانى التى تراد بالمحصنات كونهن عفائف غير زانيات ، كقوله (محصنات غير مسافحات) أى عفائف غير زانيات ، ومن هذا المعنى قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) أى العفائف ، وإطلاق المحصنات على العفائف معروف فى كلام العرب . ومنه قول جرير :

فلا تأمنن الحى قيسا فإنهم بنو محصنات لم تدنس حجورها

وإطلاق الرمى على رمى الشخص لآخر بلسانه بالكلام القبيح معروف فى كلام العرب . ومنه قول عمرو بن أحمر الباهلى :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئاً ومن أجل الطوى رمانى

فقوله رمانى بأمر : يعنى أنه رماه بالكلام القبيح ، وفى شعر امرئ القيس أو غيره :

* وجرح اللسان كجرح اليد *

واعلم أن هذه الآية الكريمة مبينة فى الجملة من ثلاث جهات :

الجهة الأولى : هى القرينتان القرآنيتان الدالتان على أن المراد بالرمى فى قوله : يرمون المحصنات ، هو الرمى بالزنى ، أو مايستلزمه كنفى النسب ، كما أوضحناه قريباً .

الجهة الثانية : هى أن عموم هذه الآية ظاهر فى شموله لزوج المرأة إذا رماها بالزنى ، ولكن الله جل وعلا بين أن زوج المرأة إذا قذفها بالزنى خارج من عموم هذه الآية ، وأنه إن لم يأت بالشهداء تلاعنا ، وذلك فى قوله تعالى :

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) الآية .

ومضمونها : أن الزوج إذا قذف زوجته بالزنى ولم يكن له شاهد غير نفسه، والمعنى أنه لم يقدر على الإتيان ببينة شهد له على الزنى الذى رماها به ، فإنه يشهد أربع شهادات يقول فى كل واحدة منها : أشهد بالله إنى لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم يقول فى الخامسة : علىّ لعنة الله إن كنت كاذبا عليها فيما رميتها به ، ويرتفع عنه الجلد وعدم قبول الشهادة والفسق بهذه الشهادات . وتشهد هى أربع شهادات بالله تقول فى كل واحدة منها : أشهد بالله إنه لكاذب فيما رمانى به من الزنى ، ثم تقول فى الخامسة : غضب الله علىّ إن كان صادقاً فيما رمانى به من الزنى ، كما هو واضح من نص الآية .

الجهة الثالثة : أن الله بين هنا حكم عقوبة من رمى المحصنات فى الدنيا ، ولم يبين ما أعد له فى الآخرة ، ولكنه بين فى هذه السورة الكريمة ما أعدّ له فى الدنيا والآخرة من عذاب الله ، وذلك فى قوله (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينه الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) وقد زاد فى هذه الآية الأخيرة كونهن مؤمنات غافلات لإيضاح صفاتهن الكريمة .

ووصفه تعالى للمحصنات فى هذه الآية بكونهن غافلات ثناء عليهن بأنهن سليمات الصدور نقيات القلوب لاتخطر الريبة فى قلوبهن لحسن سرائرهن ، ليس فيهن دهاء ولا مكر ، لأنهن لم يجربن الأمور فلا يفطن لما تفطن له المجربات ذوات المكر والدهاء ، وهذا النوع من سلامة الصدور وصفائها من الريبة من أحسن الثناء ، وتطلق العرب على المتصفات به اسم البله مدحاً لها لاذماً ، ومنه قول حسان رضى الله عنه :

نفح الحقيبة بوصها متنضد بلهاء غير وشيكة الإقسام

وقول الآخر :

ولقد لهوت بطفلة ميـالة بلهاء تطلعنى على أسرارها

وقول الآخر:

عهدت بها هنداً وهند غريرة عن الفحش بلهاء العشاء نؤوم

رداح الضحى ميـالة بحترية لها منطق يصبى الحليم رخيم

والظاهر أن قوله تعالى (لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) محله فيما إذا لم يتوبوا ويصلحوا ، فإن تابوا وأصلحوا ، لم ينلهم شىء من ذلك الوعيد ، ويدل له قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله (إلا الذين تابوا) الآية .

وعمومات نصوص الكتاب والسنة دالة على أن من تاب إلى الله من ذنبه توبة نصوحا تقبلها منه ، وكفر عنه ذنبه ولو من الكبائر ، وبه تعلم أن قول جماعة من أجلاء المفسرين إن آية (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) التى جعل الله فيها التوبة بقوله (إلا الذين تابوا) عامة ، وأن آية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة) الآية . خاصة بالذين رموا عائشة رضى الله عنها أو غيرها من خصوص أزواجه صلى الله عليه وسلم ، وأن من رماهن لا توبة له خلاف التحقيق . والعلم عند الله تعالى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : لا يخفى أن الآية إنما نصت على قذف الذكور للاناث خاصة ، لأن ذلك هو صريح قوله (والذين يرمون المحصنات) وقد أجمع جميع المسلمين على أن قذف الذكور للذكور ، أو الإناث للإناث ، أو الإناث للذكور لا فرق بينه وبين ما نصت عليه الآية ، من قذف الذكور للإناث ، للجزم بنفي الفارق بين الجميع .

وقد قدمنا إيضاح هذا وإبطال قول الظاهرية فيه ، مع إيضاح كثير من نظائره في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على آية (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) الآية .

المسألة الثانية : اعلم أن المقرر في أصول المالكية ، والشافعية والحنابلة أن الاستثناء إذا جاء بعد جمل متعاطفات ، أو مفردات متعاطفات ، أنه يرجع لجميعها إلا لدليل من نقل أو عقل يخصصه ببعضها ، خلافاً لأبي حنيفة القائل : برجوع الاستثناء للجملة الأخيرة فقط ، وإلى هذه المسألة أشار في مراقي السعود بقوله :

وكل ما يكون فيه العطف من قبل الاستثنا فكلا يقفو
دون دليل العقل أو ذي السمع والحق الافتراق دون الجمع

ولذا لو قال إنسان : هذه الدار وقف على الفقراء والمساكين ، وبني زهرة ، وبني تميم إلا الفاسق منهم ، فإنه يخرج من الوقف الفاسق من الجميع لرجوع الاستثناء للجميع ، خلافاً لأبي حنيفة القائل: برجوعه للأخيرة ، فلا يخرج عنده إلا فاسق الأخيرة فقط ، ولأجل ذلك لا يرجع عنده الاستثناء في هذه الآية ، إلا للجملة الأخيرة التي هي (وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا) فقد زال عنهم

الفسق ولا يقول: ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً إلا الذين تابوا فاقبلوا شهادتهم ، بل يقول : إن شهادة القاذف لا تقبل أبدا ، ولو تاب وأصلح ، وصار أعدل أهل زمانه لرجوع الاستثناء عنده للجملة الأخيرة .

وممن قال كقول أبي حنيفة من أهل العلم : القاضي شريح ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته إلا إذا اعترف على نفسه بالكذب . قاله ابن كثير .

وقال جمهور أهل العلم ، منهم الأئمة الثلاثة : إن الاستثناء في الآية راجع أيضاً لقوله (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) وأن القاذف إذا تاب وأصلح قبلت شهادته . أما قوله (فاجلدوهم ثمانين جلدة) فلا يرجع له الاستثناء ، لأن القاذف إذا تاب وأصلح ، لا يسقط عنه حد القذف بالتوبة .

فتحصل أن الجملة الأخيرة التي هي قوله (وأولئك هم الفاسقون) يرجع لها الاستثناء بلا خلاف ، وأن الجملة الأولى التي هي (فاجلدوهم ثمانين جلدة) لا يرجع لها الاستثناء في قول عامة أهل العلم ، ولم تخالف إلا من شذ ، وأن الجملة الوسطى ، وهي قوله (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) يرجع لها الاستثناء في قول جمهور أهل العلم ، منهم الأئمة الثلاثة خلافاً لأبي حنيفة ، وقد ذكرنا في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آية الكتاب ، أن الذي يظهر لنا في مسألة الاستثناء بعد جمل متعاطفات أو مفردات متعاطفات هو ما ذكره بعض المتأخرين ، كابن الحاجب من المالكية ، والغزالي من الشافعية ، والآمدي من الحنابلة من أن الحكم في الاستثناء ، الآتي بعد متعاطفات هو الوقف ، ولا يحكم برجوعه إلى الجميع ، ولا إلى الأخيرة إلا بدليل .

وإنما قلنا : إن هذا هو الأظهر لأن الله تعالى يقول : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) الآية .

وإذا رددنا النزاع فى هذه المسألة إلى الله وجدنا القرآن دالا على ماذكرنا أنه الأظهر عندنا ، وهو الوقف . وذلك لأن بعض الآيات لم يرجع فيها الاستثناء بلا ولى وبعضها لم يرجع فيه الاستثناء للأخيرة ، فدل ذلك على أن رجوعه لما قبله ليس شيئاً مطرداً .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) ، فالاستثناء فى هذه الآية راجع للدية فقط ، لأن المطالبة بها تسقط بتصدق مستحقها بها ، ولا يرجع لتحرير الرقبة إجماعاً ، لأن تصدق مستق الدية بها لا يسقط كفارة القتل خطأ .

ومن أمثلة ذلك آية النور هذه ، لأن الاستثناء فى قوله : (إلا الذين تابوا) لا يرجع لقوله : (فاجلدوهم ثمانين جلدة) كما ذكرناه آنفا .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى (فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) فالا ستثناء فى قوله : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) لا يرجع إلى الجملة الأخيرة التى هى أقرب الجمل المذكورة إليه أعنى قوله تعالى (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) ، إذ لا يجوز اتخاذ ولى ولا نصير من الكفار ، ولو وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، وهذا لا خلاف فيه بل الاستثناء راجع إلى الجملتين الأوليين أعنى قوله تعالى : (فخذوهم واقتلوهم) ، أى فخذوهم بالأسر ، واقتلوهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فليس لكم أخذهم بأسر ، ولا قتلهم ، لأن الميثاق الكائن لمن وصلوا إليهم

يمنع من أسرهم ، وقتلهم كما اشترطه هلال بن عويمر الأسلمى فى صلحه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن هذه الآية نزلت فيه ، وفى سراقة بن مالك المدلجى ، وفى بنى جذيمة بن عامر . وإذا كان الاستثناء ربما لم يرجع إلى أقرب الجمل إليه فى القرآن العظيم الذى هو فى الطرف الأعلى من الإعجاز ، تبين أنه لم يلزم رجوعه للجميع ، ولا إلى الأخيرة ، وأن الأظهر الوقف حتى يعلم مايرجع إليه من المتعاطفات قبله بدليل، ولا يبعد أنه إن تجرد من القرائن والأدلة ، كان ظاهراً فى رجوعه للجميع .

وقد بسطنا الكلام على هذه المسألة فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، ولذلك اختصرناه هنا . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة : اعلم أن من قذف إنسانا بغير الزنى أو نفى النسب كأن يقول له : يا فاسق ، أو يا آكل الربى ، ونحو ذلك من أنواع السب يلزمه التعزير ، وذلك بما يراه الإمام رادعاً له ، ولأمثاله من العقوبة من غير تحديد شىء فى ذلك من جهة الشرع . وقال بعض أهل العلم : لا يبلغ بالتعزير قدر الحد . وقال بعض العلماء : إن التعزير بحسب اجتهاد الإمام فيما يراه رادعا مطلقا . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة : اعلم أن جمهور العلماء على أن العبد إذا قذف حراً يجلد أربعين، لأنه حد يتشطر بالرق كحد الزنى. قال القرطبي: وروى عن ابن مسعود، وعمر بن عبدالعزيز، وقبيصة بن ذؤيب : يجلد ثمانين، وجلد أبو بكر بن محمد عبداً قذف حرا ثمانين ، وبه قال الأوزاعى ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : (فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) ، وقال الآخرون : فهمنا

هناك أن حد الزنى لله ، وأنه ربما كان أخف فيمن قلت نعم الله عليه ، وأفحش فيمن عظمت نعم الله عليه .

وأما حد القذف فهو حق للآدمى وجب للجناية على عرض المقذوف ، والجناية لا تختلف بالرق والحرية ، وربما قالوا لو كان يختلف لذكر كما فى الزنى .

قال ابن المنذر : والذى عليه علماء الأمصار القول الأول وبه أقول . انتهى كلام القرطبى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى دليلا : أن العبد إذا قذف حراً جلد ثمانين لا أربعين ، وإن كان هذا مخالفاً لجمهور أهل العلم ، وإنما استظهرنا جلده ثمانين ، لأن العبد داخل فى عموم : (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ولا يمكن إخراجه من هذا العموم ، إلا بدليل ولم يرد دليل يخرج العبد من هذا العموم لا من كتاب ولا من سنة ، ولا من قياس ، وإنما ورد النص على تشطير الحد عن الأمة فى حد الزنى وألحق العلماء بها العبد بجامع الرق ، والزنى غير القذف .

أما القذف فلم يرد فيه نص ولا قياس فى خصوصه .

وأما قياس القذف على الزنى فهو قياس مع وجود الفارق ، لأن القذف جناية على عرض إنسان معين ، والردع عن الأعراض حق للآدمى فيردع العبد كما يردع الحر ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

قد قدمنا فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) الآية . أن الحر إذا قذف عبداً لا يحد له ، وذلك ثابت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قذف عبده بالزنى

أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » ا هـ . وقوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الصحيح : « أقيم عليه الحد يوم القيامة » يدل على أنه لايقام عليه الحد فى الدنيا وهو كذلك ، وهذا لانزاع فيه بين من يعتد به من أهل العلم .

قال القرطبى : قال العلماء : وإنما كان ذلك فى الآخرة لارتفاع الملك واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافأ الناس فى الحدود والحرمة ، واقتص لكل واحد من صاحبه إلا أن يعفو المظلوم انتهى محل الغرض من كلام القرطبى .

المسألة الخامسة : اعلم أن العلماء أجمعوا على أنه إذا صرح فى قذفه له بالزنى كان قذفا ورمياً موجباً للحد ، وأما إن عرض ولم يصرح بالقذف ، وكان تعريضه يفهم منه بالقرائن أنه يقصد قذفه ، كقوله: أما أنا فلست بزان ، ولا أمى بزانية ، أو ما أنت بزان ما يعرفك الناس بالزنى ، أو ياحلال بن الحلال ، أو نحو ذلك .

فقد اختلف أهل العلم : هل يلزم حد القذف بالتعرض المفهم للقذف ، وإن لم يصرح أو لايحد حتى يصرح بالقذف تصريحاً واضحاً لا احتمال فيه ؟ فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن التعريض لا يوجب الحد ، ولو فهم منه إرادة القذف ، إلا أن يقر أنه أراد به القذف .

قال ابن قدامة فى المغنى : وهذا القول هو رواية حنبل عن الإمام أحمد ، وهو ظاهر كلام الخرقى ، واختيار أبى بكر ، وبه قال عطاء ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ، والثورى ، والشافعى ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأى ، وابن المنذر ، واحتج أهل هذا القول بكتاب وسنة .

أما الكتاب فقوله تعالى : (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) ، ففرق تعالى بين التصريح للمعتدة ، والتعريض قالوا : ولم يفرق الله بينهما فى كتابه ، إلا لأن بينهما فرقا ، ولو كانا سواء لم يفرق بينهما فى كتابه .

وأما السنة : فالحديث المتفق عليه ، الذى قدمناه مراراً فى الرجل الذى جاء النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : إن امرأتى ولدت غلاماً أسود وهو تعريض بنفيه ، ولم يجعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا قذفا ، ولم يدعهما للعان بل قال للرجل « ألك إبل ؟ قال نعم : قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر قال هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لورقا قال : ومن أين جاءها ذلك ؟ قال لعل عرقا نزعه قال : وهذا الغلام الأسود لعل عرقا نزعه » قالوا : ولأن التعريض محتمل لمعنى آخر غير القذف ، وكل كلام يحتمل معنيين لم يكن قذفا هذا هو حاصل حجة من قالوا : بأن التعريض بالقذف ، لا يوجب الحد وإنما يجب الحد بالتصريح بالقذف .

وذهبت جماعة آخرون من أهل العلم : إلى أن التعريض بالقذف يجب به الحد ، وهو مذهب مالك وأصحابه ، وقال ابن قدامة فى المغنى : وروى الأثرم وغيره ، عن الإمام أحمد أن عليه الحد يعنى المعرض بالقذف ، قال : وروى ذلك عن عمر رضى الله عنه ، وبه قال إسحاق إلى أن قال : وقال معمر : إن عمر كان يجلد الحد فى التعريض . اهـ .

واحتج أهل هذا القول بأدلة منها ماذكره القرطبى ، قال : والدليل لما قاله مالك : هو أن موضوع الحد فى القذف ، إنما هو لإزالة المعرة التى أوقعها القاذف بالمقذوف ، وإذا حصلت المعرة بالتعريض ، وجب أن يكون قذفا كالتصريح والمعول على الفهم ، وقد قال تعالى مخبراً عن قوم شعيب أنهم

قالوا له : (إنك لأنت الحليم الرشيد) أى السفيه الضال ، فعرضوا له بالسب بكلام ظاهره المدح فى أحد التأويلات حسب ما تقدم فى سورة هود ، وقال تعالى فى أبى جهل : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، وقال تعالى فى الذين قذفوا مريم :إنهم قالوا : (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) فمدحوا أباها ، ونفوا عن أمها البغاء أى الزنى وعرضوا لمريم بذلك ولذلك قال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) وكفرهم معروف والبهتان العظيم هو التعريض لها أى ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا : أى أنت بخلافهما وقد أتيت بهذا الولد ، وقال تعالى : (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) فهذا اللفظ قد فهم منه أن المراد به أن الكفار على غير هدى ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهدى ، ففهم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه اهـ محل الغرض من كلام القرطبى مع تصرف قليل لإيضاح المراد .

وحاصل كلام القرطبى المذكور : أن من أدلة القائلين بوجوب الحد بالتعريض آيات قرآنية ، وبين وجه دلالتها على ذلك كما رأيته ، وذكر أن من أدلتهم أن المعرة اللاحقة للمقذوف صريحا تلحقه بالتعريض له بالقذف ،ولذلك يلزم استواؤهما ، وذكر أن من أدلتهم أن المعول على الفهم ، والتعريض يفهم منه القذف فيلزم أن يكون كالصريح .

ومن أدلتهم على أن التعريض يجب به الحد بعض الآثار المروية عن بعض الخلفاء الراشدين . قال ابن قدامة فى المغنى :لأن عمر رضى الله عنه حين شاورهم فى الذى قال لصاحبه: ما أنا بزان ، ولا أمى بزانية :فقالوا : قد مدح أباه ، وأمه. فقال عمر: قد عرض بصاحبه وجلده الحد . وقال معمر : إن عمر كان يجلد الحد فى التعريض . وروى الأثرم : أن عثمان رضى الله عنه جلد رجلا قال لآخر :

يا ابن شامة الوذر يعرض له بزنى أمه ، والوذر: قدر اللحم يعرض له بكمر الرجال وانظر أسانيد هذه الآثار .

ومن أدلة أهل هذا القول أن الكناية مع القرينة الصارفة إلى أحد محتملاتها ، كالصريح الذى لا يحتمل إلا ذلك المعنى ولذلك وقع الطلاق بالكناية ، فإن لم يكن ذلك فى حال الخصومة ، ولا وجدت قرينة تصرف إلى القذف ، فلا شك فى أنه لا يكون قذفا . انتهى من المغنى .

ثم قال صاحب المغنى : وذكر أبو بكر عبد العزيز : أن أبا عبد الله رجع عن القول بوجوب الحد فى التعريض ، يعنى بأبى عبد الله الإمام أحمد رحمه الله . وقال القرطبى رحمه الله : وقد حبس عمر رضى الله عنه الحطيئة لما قال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

لأنه شبهه بالنساء فى أنهن يطعمن ويسقين ويكسون ومثل هذا كثير ، ومنه قول الحطيئة أو النجاشى :

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فإنه يروى أن عمر لما سمع هذا الهجاء حمله على المدح ، وقال : ليت آل الخطاب كانوا كذلك ولما قال الشاعر بعد ذلك :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

قال عمر أيضا : ليت آل الخطاب كانوا كذلك ، فظاهر هذا الشعر يشبه المدح ، ولذا ذكروا أن عمر تمنى مافيه من الهجاء لأهل بيته ، لأنه عنده مدح وصاحبه يريد الذم بلا نزاع ، ويدل على ذلك أول شعره وآخره ، لأن أول الأبيات قوله :

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

* قبيلة لا يخفرون . . . * البيت

وفى آخر شعره :

وما سمى العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكون مثل هذا من التعريض بالذم لا شك فيه . وقول الحطيئة :

* دع المكارم لا ترحل لبغيتها *

يهجو به الزبرقان بن بدر التميمى ، كما ذكره بعض المؤرخين ، وما ذكره القرطبي رحمه الله فى الكلام الذى نقلنا عنه من أن البهتان العظيم الذى قالوه على مريم : هو تعريضهم لها بقولهم (ما كان أبوك امرأ سوء) الآية لا يتعين بانفراده ، لأن الله جل وعلا ذكر عنهم أنهم قالوا لها غير ذلك وهو أقرب للتصريح بالفاحشة مما ذكره القرطبي وذلك فى قوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) فقولهم لها (لقد جئت شيئا فريا) فى وقت مجيئها بالولد تحمله ظاهر جداً فى إرادتهم قذفها كما ترى ، والكلام الذى ذكر ابن قدامة : أن عثمان جلد الحد فيه وهو قول الرجل لصاحبه : يابن شامة الوذر . قال فيه الجوهرى فى صحاحه : الوذرة بالتسكين الغدرة ، وهى القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة ، ومنه قولهم : يابن شامة الوذرة وهى كلمة قذف وكانت العرب تتساب بها كما كانت تتساب بقولهم : يابن ملقى أرحل الركبان ، أو يابن ذات الرايات ونحوها ، والجمع وذر مثل ثمرة وثمر . اهـ . من صحاح الجوهرى .

والشامة بتشديد الميم اسم فاعل شمه . وقال صاحب اللسان : وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رفع إليه رجل قال لرجل : يا ابن شامة الوذر ، فحده وهو من سباب العرب وذمهم ، وإنما أراد يا ابن شامة المذاكير يعنون الزنا ، كأنها

كانت تشم كمراً مختلفة فكنى عنه ، والذكر قطعة من بدن صاحبه ، وقيل : أرادوا بها القلف جمع قلفة الذكر ، لأنها تقطع . انتهى محل الغرض من لسان العرب . وهذا لا يتضح منه قصد الزنا ولم أر من أوضح معنى شامة الوذر إيضاحا شافيا ، لأن شم كمر الرجال ليس من الأمر المعهود الواضح .

والذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن قائل الكلام المذكور يشبه من يعرض لها بالزنا بسفاد الحيوانات ، لأن الذكر من غالب الحيوانات إذا أراد سفاد الأنثى شم فرجها ، واستنشق ريحه استنشاقا شديدا ، ثم بعد ذلك ينزوا عليها فيسافدها فكأنهم يزعمون أن المرأة تشم ذكر الرجل كما يشم الفحل من الحيوانات فرج أنثاه ، وشمها لمذاكير الرجال كأنه مقدمة للمواقعة ، فكنوا عن المواقعة بشم المذاكير ، وعبروا عن ذكر الرجل بالوذرة ، لأنه قطعة من بدن صاحبه كقطعة اللحم ، ويحتمل أنهم أرادوا كثرة ملابستها لذلك الأمر ، حتى صارت كأنها تشم ريح ذلك الموضع والعلم عند الله تعالى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد علمت مما ذكرنا أقوال أهل العلم ، وحججهم فى التعريض بالقذف ، هل يلزم به الحد أو لا يلزم به .

وأظهر القولين عندى : أن التعريض إذا كان يفهم منه معنى القذف فهما واضحاً من القرائن أن صاحبه يحد ، لأن الجناية على عرض المسلم تتحقق بكل ما يفهم منه ذلك فهما واضحا ، ولئلا يتذرع بعض الناس لقذف بعضهم بألفاظ التعريض التى يفهم منها القذف بالزنا والظاهر أنه على قول من قال من أهل العلم : إن التعريض بالقذف لا يوجب القذف أنه لابد من تعزير المعرض بالقذف للأذى الذى صدر منه لصاحبه بالتعريض . والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة : قال القرطبى فى تفسيره : الجمهور من العلماء على أنه لا حد على من قذف رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم ، وقال الزهرى ،

وسعيد بن المسيب ، وابن أبى ليلى عليه الحد إذا كان لها ولد من مسلم ، وفيه قول ثالث : وهو أنه إذا قذف النصرانية تحت المسلم جلد الحد . قال ابن المذر : وجل العلماء مجمعون وقائلون بالقول الأول ، ولم أدرك أحدا ، ولا لقيته يخالف فى ذلك ، وإذا قذف النصرانى المسلم الحر فعليه ماعلى المسلم ثمانون جلدة . لاأعلم فى ذلك خلافا ، انتهى منه .

المسألة السابعة : اعلم أن أظهر قولى أهل العلم عندى فى مسألة ما لو قذف رجل رجلا فقال آخر : صدقت أن المصدق قاذف فتجب إقامة الحد عليه ، لأن تصديقه للقاذف قذف خلافا لزفر ومن وافقه .

وقال ابن قدامة فى المغنى : ولو قال أخبرنى فلان أنك زنيت لم يكن قاذفا سواء كذبه المخبر عنه أو صدقه، وبه قال الشافعى ، وأبو ثور وأصحاب الرأى . وقال أبو الخطاب فيه وجه آخر أنه يكون قاذفا إذا كذبه الآخر ، وبه قال مالك ، وعطاء ونحوه عن الزهرى ، لأنه أخبر بزناه .ا هـ . منه .

وأظهر القولين عندى : أنه لا يكون قاذفا ولا يحد ، لأنه حكى عن غيره ولم يقل من تلقاء نفسه ، ويحتمل أن يكون صادقا ، وأن الذى أخبره أنكر بعد إخباره إياه كما لو شهد على رجل أنه قذف رجلا وأنكر المشهود عليه ، فلا يكون الشاهد قاذفا . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثامنة : أظهر قولى أهل العلم عندى فيمن قذف رجلا بالزنى ، ولم يقم عليه الحد حتى زنا المقذوف أن الحد يسقط عن قاذفه ، لأنه تحقق بزناه أنه غير محصن ، ولو كان ذلك لم يظهر إلا بعد لزوم الحد للقاذف ، لأنه قد ظهر أنه غير عفيف قبل إقامة الحد على من قذفه ، فلا يحد لغير عفيف اعتبارا بالحالة التى يراد أن يقام فيها الحد ، فإنه فى ذلك الوقت ثبت عليه أنه غير عفيف .

وهذا الذى استظهرنا عزاه ابن قدامة ، لأبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى

والقول بأنه يحد هو مذهب الإمام أحمد .

قال صاحب المغنى : وبه قال الثورى ، وأبو ثور ، والمزنى ، وداود . واحتجوا بأن الحد قد وجب وتم شروطه فلا يسقط بزوال شرط الوجوب .

والأظهر عندنا هو ما قدمنا ، لأنه تحقق أنه غير عفيف قبل إقامة الحد على قاذفه ، فلا يحد لمن تحقق أنه غير عفيف .

وإنما وجب الحد قبل هذا ، لأن عدم عفته كان مستورا ، ثم ظهر قبل إقامة الحد . والعلم عند الله تعالى .

المسألة التاسعة : اعلم أن أظهر قولى أهل العلم عندنا فيمن قال لرجل : يامن وطىء بين الفخذين ، أنه ليس بقذف ، ولا يحد قائله ، لأنه رماه بفعل لا يعد زنا إجماعا ، خلافا لابن القاسم من أصحاب مالك القائل : بوجوب الحد زاعما أنه تعريض به . والعلم عند الله تعالى .

المسألة العاشرة : اعلم أن حد القذف لا يقام على القاذف إلا إذا طلب المقذوف إقامة الحد عليه ، لأنه حق له ، ولم يكن للقاذف بينة على ما ادعى من زنا المقذوف ، لأن الله يقول : (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) ومفهوم الآية : أن القاذف لو جاء بأربعة شهداء على الوجه المقبول شرعا أنه لا حد عليه ، وإنما يثبت بذلك حد الزنا على المقذوف ، لشهادة البينة ، ويشترط لذلك أيضاً عدم إقرار المقذوف ، فإن أقر بالزنا ، فلا حد على القاذف . وإن كان القاذف زوجا اعتبر فى حده حد القذف امتناءه من اللعان . قال ابن قدامة : ولا نعلم خلافا فى هذا كله ثم قال : وتعتبر استدامة الطلب إلى إقامة الحد ، فلو طلب ثم عفا عن الحد سقط ، وبهذا قال الشافعى ، وأبو ثور . وقال الحسن وأصحاب الرأى : لا يسقط بعفوه لأنه حد فلم يسقط بالعفو كسائر الحدود . ولنا أنه حد لا يستوفى إلا بعد مطالبة الآدمى باستيفائه فسقط بعفوه كالقصاص ، وفارق سائر الحدود . فإنه لا يعتبر فى إقامتها الطلب باستيفائها ، وحد السرقة إنما تعتبر فيه المطالبة بالمسروق لا باستيفاء

الحد ، ولأنهم قالوا تصح دعواه ، ويستحلف فيه ، ويحكم الحاكم فيه بعلمه ، ولا يقبل رجوعه عنه بعد الاعتراف . فدل على أنه حق لآدمى . اهـ من المغنى ، وكونه حقا لآدمى هو أحد أقوال فيه .

قال أبو عبد الله القرطبي : واختلف العلماء فى حد القذف ، هل هو من حقوق الله ، أو من حقوق الآدميين أو فيه شائبة منهما ؟

الأول : قول أبى حنيفة .

والثانى : قول مالك والشافعى .

والثالث : قاله بعض المتأخرين .

وفائدة الخلاف أنه إن كان حقاً لله تعالى وبلغ الإمام أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى، ويقشطر فيه الحد بالرق كالزنا ، وإن كان حقاً للآدمى ، فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، ويسقط بعفوه ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف اهـ كلام القرطبى .

ومذهب مالك وأصحابه كأنه مبنى على القول الثالث ، وهو أن الحد يسقط بعفو المقذوف قبل بلوغ الإمام ، فإن بلغ الإمام ، فلا يسقطه عفوه إلا إذا ادعى أنه يريد بالعفو الستر على نفسه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر أن القذف حق للآدمى وكل حق للآدمى فيه حق لله .

وإيضاحه : أن حد القذف حق للآدمى من حيث كونه شرع للزجر عن عرضه ، ولدفع معرة القذف عنه. فإذا تجرأ عليه القاذف انتهك حرمة عرض المسلم، فكان للمسلم عليه حق بانتهاك حرمة عرضه ، وانتهك أيضاً حرمة نهى الله عن وقوعه فى عرض مسلم ، فكان لله حق على القاذف بانتهاكه حرمة نهيه ، وعدم

امتثاله ، فهو عاص لله مستحق لعقوبته ، فحق الله يسقط بالتوبة النصوح، وحق المسلم يسقط بإقامة الحد ، أو بالتحلل منه .

والذى يظهر على هذا التفصيل أن المقذوف إذا عفا وسقط الحد بعفوه أن للامام تعزير القاذف لحق الله . والله جل وعلا أعلم .

المسألة الحادية عشرة : قال القرطبي : إن تمت الشهادة على الزانى بالزنا ولكن الشهود لم يعدلوا ، فكان الحسن البصرى ، والشعبي يريان ألا حد على الشهود ، ولا على المشهود عليه ، وبه قال أحمد ، والنعمان ، ومحمد بن الحسن .

وقال مالك : وإذا شهد عليه أربعة بالزنا وكان أحدهم مسخوطاً عليه أو عبداً يجلدون جميعا . وقال سفيان الثورى ، وأحمد ، وإسحاق فى أربعة عميان يشهدون على امرأة بالزنى: يضربون ، فإن رجع أحد الشهود ، وقد رجم المشهود عليه فى الزنى ، فقالت طائفة : يغرم ربع الدية ، ولا شيء على الآخرين ، وكذلك قال قتادة ، وحماد ، وعكرمة ، وأبو هاشم ، ومالك ، وأحمد ، وأصحاب الرأى . وقال الشافعى : إن قال عمدت ليقتل، فالأولياء بالخيار إن شاءوا قتلوا، وإن شاءوا عفوا، وأخذوا ربع الدية وعليه الحد . وقال الحسن البصرى : يقتل وعلى الآخرين ثلاثة أرباع الدية . وقال ابن سيرين : إذا قال أخطأت، وأردت غيره فعليه الدية كاملة ،وإن قال تعمدت قتل ، وبه قال ابن شبرمة اهـ كلام القرطبي . وقد قدمنا بعضه .

وأظهر الأقوال عندى : أنهم إن لم يعدلوا حدوا كلهم لأن من أتى بمجهول غير معروف العدالة كمن لم يأت بشيء وأنه إن أقر بأنه تعمد الشهادة عليه ، لأجل أن يقتل يقتص منه . وإن ادعى شبهة فى رجوعه يغرم قسطه من الدية ، والقول بأنه يغرم الدية كاملة له وجه من النظر ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية عشرة : قال القرطبي : قال مالك ، والشافعي من قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحد ، وقاله الحسن البصري ، واختاره بن المنذر ، ومن قذف أم الولد حد . وروى عن ابن عمر . وهو قياس قول الشافعي ، وقال الحسن البصري: لا حد عليه . انتهى منه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما حده في قذف أم الولد ، فالظاهر أنه لا يكون إلا بعد موت سيدها ، وعتقها من رأس مال مستولدها ، أما قبل ذلك فلم تتحقق حريتها بالفعل ، ولاسيما على قول من يجيز بيعها من العلماء . والقاذف لا يحد بقذف من لم يكن حراً حرية كاملة فيما يظهر ، وكذلك لو قيل : إن من قذف من يظنه عبداً ، فإذا هو حر لا يجب عليه الحد لأنه لم ينو قذف حر ، وإنما نوى قذف عبد لكان له وجه من النظر ؛ لأن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، ولأن المعرة تزول عن المقذوف بقول القاذف : ما قصدت قذفك ولا أقول : إنك زان ، وإنما قصدت بذلك من كنت أعتقده عبداً فأنت عفيف في نظري ، ولا أقول فيك إلا خيراً والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة عشرة : اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن قذف جماعة بكلمة واحدة أو بكلمات متعددة ، أو قذف واحداً مرات متعددة . وقد قدمنا خلاف أهل العلم ، فيمن قذف جماعة بكلمة واحدة في الكلام على آيات الحج .

قال ابن قدامة في المغني في شرحه لقول الخرقي : وإذا قذف الجماعة بكلمة واحدة ، فحد واحد إذا طالبوا أو واحد منهم ، ما نصه : وبهذا قال طاوس والشعبي ، والزهري ، والنخعي ، وقتادة ، وحماد ، ومالك ، والثوري ، وأبو حنيفة وصاحباه ، وابن أبي ليلى وإسحاق . وقال الحسن وأبو ثور ، وابن المنذر : لكل واحد حد كامل ، وعن أحمد مثل ذلك ، وللشافعي قولان

كالروايتين ، ووجه هذا أنه قذف كل واحد منهم ، فلزمه له حد كامل كما لو قذفهم بكلمات ، ولنا قول الله تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) ولم يفرق بين قذف واحد أو جماعة ، ولأن الذين شهدوا على المغيرة قذفوا امرأة ، فلم يحدهم عمر إلا حداً واحداً ، ولأنه قذف واحد فلم يجب إلا حد واحد كما لو قذف واحداً ، ولأن الحد إنما وجب بإدخال المعرة على المقذوف بقذفه وبحد واحد يظهر كذب هذا القاذف ، وتزول المعرة ، فوجب أن يكتفى به بخلاف ما إذا قذف كل واحد قذفاً منفرداً ، فإن كذبه فى قذف لا يلزم منه كذبه فى آخر ، ولا تزول المعرة عن أحد المقذوفين بحده للآخر فإذا ثبت هذا ، فإنهم إن طلبوه جملة حد لهم ، وإن طلبه واحد أقيم الحد ، لأن الحق ثابت لهم على سبيل البدل ، فأيهم طالب به استوفى ، وسقط فلم يكن لغيره الطلب به كحق المرأة على أوليائها فى تزويجها ، إذا قام به واحد سقط عن الباقين ، وإن أسقطه أحدهم فلغيره المطالبة به ، واستيفاؤه لأن المعرة لم تزل عنه بعفو صاحبه ، وليس للعافى الطلب به ، لأنه قد أسقط حقه .

وروى عن أحمد رحمه الله رواية أخرى ، أنهم إن طلبوه دفعة واحدة فحدّ واحد ، وكذلك إن طلبوه واحداً بعد واحد إلا أنه لم يقم حتى طلبه الكل فحد واحد ، وإن طلبه واحد فأقيم له ، ثم طلبه آخر أقيم له ، وكذلك جميعهم وهذا قول عروة ، لأنهم إذا اجتمعوا على طلبه ، وقع استيفاؤه لجميعهم . وإذا طلبه واحد منفرداً كان استيفاؤه له وحده ، فلم يسقط حق الباقين بغير استيفائهم ، ولا إسقاطهم ، وإن قذف الجماعة بكلمات فلكل واحد حد وبهذا قال عطاء والشعبى ، وقتادة ، وابن أبى ليلى ، وأبو حنيفة والشافعى . وقال حماد ومالك : لا يجب إلا حد واحد ، لأنها جناية توجب حدا ، فإذا تكررت كفى حد واحد ، كما لو سرق من جماعة أو زنى بنساء ، أو شرب أنواعا من المسكر ، ولنا أنها حقوق لآدميين فلم تتداخل كالديون والقصاص ، وفارق ما قاسوا

عليه فإنه حق لله تعالى إلى أن قال : وإن قذف رجلا مرات فلم يحد فحد واحد رواية واحدة ، سواء قذفه بزنا واحد أو بزنيات ، وإن قذفه فحد ثم أعاد قذفه نظرت ، فإن قذفه بذلك الزنا الذى حد من أجله لم يعد عليه الحد فى قول عامة أهل العلم ، وحكى عن ابن القاسم : أنه أوجب حداً ثانياً ، وهذا يخالف إجماع الصحابة ، فإن أبا بكرة لما حد بقذف المغيرة أعاد قذفه فلم يروا عليه حدا ثانيا فروى الأثرم بإسناده عن ظبيان بن عمارة قال : شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة نفر أنه زان ، فبلغ ذلك عمر فكبر عليه وقال شاط ثلاثة أرباع المغيرة بن شعبة ، وجاء زياد فقال ما عندك؟ فلم يثبت فأمر بجلدهم فجلدوا ، وقال شهود زور . فقال أبو بكرة : أليس ترضى أن أتاك رجل عندك يشهد رجمه؟ قال : نعم . والذى نفسى بيده فقال أبو بكرة : وأنا أشهد أنه زان ، فأراد أن يعيد عليه الحد فقال على يا أمير المؤمنين : إنك إن أعدت عليه الحد ، أوجبت عليه الرجم . وفى حديث آخر : فلا يعاد فى فرية جلد مرتين . قال الأثرم : قلت لأبى عبد الله قول على : إن جلدته فارجم صاحبك ، قال : كأنه جعل شهادته شهادة رجلين : قال أبو عبد الله : وكنت أنا أفسره على هذا حتى رأيته فى الحديث فأعجبنى ثم قال يقول : إذا جلدته ثانية فكأنك جعلته شاهداً آخر ، فأما إن حد له وقذفه بزنا ثان نظرت ، فإن قذفه بعد طول الفصل فحدّ ثان ، لأنه لا يسقط حرمة المقذوف بالنسبة إلى القاذف أبدا بحيث يمكن من قذفه بكل حال ، وإن قذفه عقيب حده ففيه روايتان .

إحداهما : يحد أيضاً لأنه قذف لم يظهر كذبه فيه بحد ، فيلزم فيه حد كما لو طال الفصل ، ولأن سائر أسباب الحد ، إذا تكررت بعد أن حد للأول ثبت للثانى حكمه ، كالزنا والسرقة وغيرهما من الأسباب .

والثانية : لا يحد ، لأنه قد حد له مرة فلم يحد له بالقذف عقبه كما لو قذفه

بالزنا الأول . انتهى من المغنى ، وقد رأيت نقله لأقوال أهل العلم ، فيمن قذف جماعة بكلمة واحدة أو بكلمات أو قذف واحد مرات .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذه المسائل لم نعلم فيها نصا من كتاب ولا سنة .

والذى يظهر لنا فيها والله تعالى أعلم : أن من قذف جماعة بكلمة واحدة فعليه حد واحد ، لأنه يظهر به كذبه على الجميع وتزول به المعرة عن الجميع ، ويحصل شفاء الغيظ بحده للجميع .

والأظهر عندنا فيمن رمى جماعة بكلمات : أنه يتعدد عليه الحد ، بعدد الكلمات التى قذف بها ، لأنه قذف كل واحد قذفا مستقلا لم يشاركه فيه غيره وحده لبعضهم لا يظهر به كذبه على الثانى الذى قذفه بلفظ آخر ، ولا تزول به عنه المعرة . وهذا إن كان قذف كل واحد منهم قذفا مفردا لم يجمع معه غيره لا ينبغى أن يختلف فيه ، والأظهر أنه إن قذفهم بعبارات مختلفة تكرر عليه الحد بعددهم ، كما اختاره صاحب المغنى .

والأظهر عندنا : أنه إن كرر القذف لرجل واحد قبل إقامة الحد عليه يكفى فيه حد واحد ، وأنه إن رماه بالزنا بعد حده للقذف الأول بعد طول حد أيضاً ، وإن رماه قرب زمن حده بعين الزنا الذى حد له لا يعاد عليه الحد ، كما حكاه صاحب المغنى فى قصة أبى بكرة والمغيرة بن شعبة ، وإن كان القذف الثانى غير الأول . كأن قال فى الأول : زنيت بامرأة بيضاء ، وفى الثانى قال : بامرأة سوداء ، فالظاهر تكرره والعلم عند الله تعالى .

وعن مالك رحمه الله فى المدونة : إن قذف رجلا فلما ضرب أسواطا قذفه ثانياً أو آخر ابتدىء الحد عليه ثمانين من حين يقذفه ولا يعتد بما مضى من السياط .

المسألة الرابعة عشرة : الظاهر أن من قال لجماعة : أحدكم زان أو ابن زانية لاحد عليه لأنه لم يعين واحداً فلم تلحق المعرة واحداً منهم ، فإن طلبوا إقامة الحد عليه جميعاً لايحد ، لأنه لم يرم واحداً منهم بعينه ، ولم يعرف من أراد بكلامه . نقله المواق عن الباجى عن محمد بن المواز ، ووجهه ظاهر كما ترى . واقتصر عليه خليل فى مختصره فى قوله عاطفاً على مالا حد فيه . أو قال لجماعة : أحدكم زان .

وقال ابن قدامة فى المغنى : وإذا قال من رمانى فهو ابن الزانية فرماه رجل ، فلاحد عليه ، فى قول أحد من أهل العلم . وكذلك إن اختلف رجلان فى شىء ، فقال أحدهما الكاذب : هو ابن الزانية ، فلا حد عليه نص عليه أحمد ، لأنه لم يعين أحداً بالقذف ، وكذلك ما أشبه هذا ولو قذف جماعة لايتصور صدقه فى قذفهم ، مثل أن يقذف أهل بلدة كثيرة بالزنى كلهم ، لم يكن عليه حد ، لأنه لم يلحق العار بأحد غير نفسه للعلم بكذبه . انتهى منه .

المسألة الخامسة عشرة : اعلم أن أظهر أقوال أهل العلم عندنا فيمن قال لرجل : أنت أزنى من فلان . فهو قاذف لهما ، وعليه حدان ، لأن قوله أزنى صيغة تفضيل ، وهى تدل على اشتراك المفضل ، والمفضل عليه فى أصل الفعل ، إلا أن المفضل أفضل فيه من صاحبه المشارك له فيه ، فمعنى كلامه بدلالة المطابقة فى صيغة التفضيل : أنت وفلان زانيان ، ولكنك تفوقه فى الزنى ، وكون هذا قذفا لهما واضح كما ترى ، وبه تعلم أن أحد الوجهين عند الحنابلة أنه يحد للمخاطب فقط ، دون فلان المذكور ، لاينبغى أن يعول عليه ، وكذلك ما عزاه ابن قدامة للشافعى ، وأصحاب الرأى من أنه ليس بقذف للأول ، ولا للثانى إلا أن يريد به القذف كل ذلك لا يصح ولا ينبغى التعويل عليه ، لأن صيغة أنت أزنى من فلان قذف صريح لهما بعبارة واضحة ، لا إشكال فيها .

وقال ابن قدامة فى المغنى محتجاً للوجه الذى ذكرنا عن الحنابلة : أنه لا حد

على الثانى : مانصه : والثانى يكون قذفا للمخاطب خاصة لأن لفظة افعل قد تستعمل للمنفرد بالفعل ، كقول الله تعالى : (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى) وقال تعالى :(فأى الفريقين أحق بالأمن) وقال لوط : (بناتى هن أطهر لكم) أى من أدبار الرجال ، ولا طهارة فيها لاينبغى التعويل عليه كما أنه هو ساقه ، ولم يعول عليه .

وحاصل الاحتجاج المذكور : أن صيغة التفضيل قد ترد مراداً بها مطلق الوصف ، لاحصول التفضيل بين شيئين ، ومثل له هو بكلمة : أحق أن يتبع وكلمة : أحق بالأمن ، وكلمة: أطهر لكم ،لأن صيغة التفضيل فى الآيات المذكورة لمطلق الوصف لا للتفضيل .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لايخفى أن صيغة التفضيل قد ترد لمطلق الوصف كما هو معلوم ، ومن أمثلته الآيات التى ذكرها صاحب المغنى ، ولكنها لا تحمل على غير التفضيل ، إلا بدليل خارج يقتضى ذلك والآيات التى ذكر معلوم أنها لايمكن أن تكون للتفضيل ،لأن الأصنام لانصيب لها من أحقية الاتباع أصلا فى قوله : (أحق أن يتبع أمن لايهدى) ، ولأن الكفار لا نصيب لهم فى الأحقية بالأمن ، ولأن أدبار الرجال لانصيب لها فى الطهارة .

ومن أمثلة ورود صيغة التفضيل لمطلق الوصف أيضاً قوله تعالى : (وهو أهون عليه) أى هين سهل عليه ، وقول الشنفرى :

وإن مدّت الأيدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

أى لم أكن بالعجل منهم . وقول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة . وقول معن بن أوس :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوْجَل على أيِّنا تعدو المنيَّة أول

أى لوجل . وقول الأحوص بن محمد الأنصارى :

أنى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأمْيَلُ

مائل . وقول الآخر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد . وقال الآخر :

لعمرك إن الزبرقان لباذل لمعروفه عند السنين وأفضل

أى وفاضل . إلى غير ذلك من الشواهد ، ولكن قدمنا أنها لا تحمل على مطلق الوصف ، إلا لدليل خارج ، أو قرينة واضحة تدل على ذلك .

وقوله له : أنت أزنى من فلان ليس هناك قرينة ، ولا دليل صارف لصيغة التفضيل ، عن أصلها ، فوجب إبقاؤها على أصلها ، وحد القاذف ، لكل واحد منهما والإتيان بلفظة من قوله : أنت أزنى من فلان ، يوضح صراحة الصيغة فى التفضيل ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة عشرة : اعلم أنه لا يجوز رمى الملاعنة بالزنى ، ولا رمى ولدها بأنه ابن زنى ، ومن رمى أحدهما فعليه الحد ، وهذا لا ينبغى أن يختلف فيه ، لأنه لم يثبت عليها زنى ، ولا على ولدها أنه ابن زنى ، وإنما انتفى نسبه عن الزوج بلعانه .

وفى سنن أبى داود حدثنا الحسن بن على ، ثنا يزيد بن هارون ، ثنا عباد ابن منصور عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، فجاء من أرضه عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى

بعينه وسمع بأذنه الحديث وفيه فقرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ، ولا رمى ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد إلى آخر الحديث . وفى هذا الحديث: التصريح بأن من رماها أو رمى ولدها فعليه الحد .

واعلم أن ما نقله الشيخ الحطاب عن بعض علماء المالكية من أن من قال لابن ملاعنه : لست لأبيك الذى لاعن أمك ، فعليه الحد خلاف التحقيق ، لأن الزوج الملاعن ينتفى عنه نسب الولد باللعان ، فنفيه عنه حق مطابق للواقع ، ولذا لا يتوارثان ومن قال كلاما حقاً ، فإنه لا يستوجب الحد بذلك، كما لو قال له : يا من نفاه زوج أمه أو يابن ملاعنة أو يابن من لو عنت ، وإنما يجب الحد على قاذفه فيما لو قال له : أنت ابن زنى ونحوها من صريح القذف ، والعلم عند الله تعالى .

المسالة السابعة عشرة : فى حكم ما لو قال لرجل يا زانية بتاء الفرق ، أو قال لامرأة يا زانى بلا تاء . قال ابن قدامة فى المغنى . هو قذف صريح لكل منهما قال : واختار هذا أبو بكر ، وهو مذهب الشافعى ، واختار ابن حامد أنه ليس بقذف إلا أن يفسره به ، وهو قول أبى حنيفة ، لأنه يحتمل أن يريد بقوله يا زانية أى يا علامة فى الزنا . كما يقال للعالم : علامة ، ولكثير الرواية راوية ولكثير الحفظ حفظة ، ولنا أن ما كان قذفا لأحد الجنسين كان قذفا للآخر كقوله زنيت بفتح التاء وكسرها لهما جميعا ولأن هذا اللفظ خطاب لهما وإشارة إليهما بلفظ الزنا ، وذلك يغنى عن التمييز بتاء التأنيث وحذفها ، ولذلك لو قال للمرأة : ياشخصا زانيا ، وللرجل: يانسمة زانية كان قاذفاً. وقولهم إنه يريد بذلك أنه علامة فى الزنا لا يصح فإنما كان اسماً للفعل ، إذا دخلته الهاء كانت للمبالغة ، كقولهم : حفظة للمبالغ فى الحفظ وراوية للمبالغ فى الرواية ،

وكذلك همزة لمزة وصرعة ، ولأن كثيراً من الناس يذكر المؤنث ويؤنث المذكر ، ولا يخرج بذلك عن كون المخاطب به مراداً بما يراد باللفظ الصحيح . انتهى كلام صاحب المغنى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى فيمن قال لذكر : يا زانية بصيغة التأنيث ، أو قال لامرأة : يا زانى بصيغة التذكير ، أنه يلزمه الحد .

وإيضاحه أن القاذف بالعبارتين المذكورتين لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون عامياً ، لا يعرف العربية أو يكون له علم باللغة العربية ، فإن كان عاميا فقد يكون غير عالم بالفرق بين العبارتين ، ونداؤه للشخص بلفظ الزنى ظاهر فى قصده قذفه ، وإن كان عالماً باللغة ، فاللغة يكثر فيها إطلاق وصف الذكر على الأنثى باعتبار كونها شخصا .

وقد قدمنا بعض أمثلة ذلك فى سورة النحل فى الكلام على قوله : (وتستخرجون منه حلية تلبسونها) ، ومما ذكرنا من الشواهد هناك قول حسان رضى الله عنه :

منع النوم بالعشاء الهموم وخيال إذا تغار النجوم
من حبيب أصاب قلبك منه سقم فهو داخل مكتوم

ومراده بالحبيب أنثى بدليل قوله بعده :

لم تفتها شمس النهار بشىء غير أن الشباب ليس يدوم

وقول كثير :

لئن كان برد الماء هيمان صاديا إلى حبيبا إنها لحبيب

ومن أمثلة ذلك قول مليح بن الحكم الهذلى :

ولكن ليلى أهلكتنى بقولها نعم ثم ليلى الماطل المتبلج

يعنى ليلى الشخص الماطل المتبلج .

وقول عروة بن حزام العذرى :

وعفراء أرجى الناس عندى مودة وعفراء عنى المعرض المتوانى

أى الشخص المعرض .

وإذا كثر فى كلام العرب تذكير وصف الأنثى باعتبار الشخص كما رأيت أمثلته، فكذلك لا مانع من تأنيثهم صفة الذكر باعتبار النسمة أو النفس ، وورود ذلك لتأنيث اللفظ مع تذكير المعنى معروف كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

المسألة الثامنة عشرة : اعلم أن من رمى رجلا قد ثبت عليه الزنى سابقاً أو امرأة ، قد ثبت عليها الزنى سابقا ببينة ، أو إقرار ، فلا حد عليه ، لأنه صادق ، ولأن إحصان المقذوف قد زال بالزنى ، ويدل لهذا مفهوم المخالفة فى قوله : (والذين يرمون المحصنات) الآية . فهو يدل بمفهومه أن من رمى غير محصنة لاحد عليه ، وهو كذلك ، ولكنه يلزم تعزيره ، لأنه رماه بفاحشة ولم يثبتها ، ولا يترك عرض من ثبت عليه الزنى سابقا مباحا لكل من شاء أن يرميه بالزنى دون عقوبة رادعة كما ترى .

المسألة التاسعة عشرة : اعلم أن الإنسان إذا كان مشركا وزنى فى شركه أو كان مجوسيا ، ونكح أمه أو ابنته مثلا فى حال كونه مجوسياً ، ثم أسلم بعد ذلك فرماه أحد بالزنى بعد إسلامه فله ثلاث حالات :

الأولى : أن يقول له : يامن زنى فى أيام شركه أو يامن نكح أمه مثلا فى أيامه مجوسياً ، وهذه الصورة لاحدّ فيها لأن صاحبها أخبر بحق والاسلام يجبّ ما قبله .

الثانية : أن يقول له : يا من زنى بعد إسلامه أو نكح أمه بعد إسلامه ، فعليه الحد كما لايخفى .

الثالثة : أن يقول له : يا زانى ، ولم يتعرض لكون ذلك قبل إسلامه ، أو بعده فإن فسره بأنه أراد أنه زنى بعد إسلامه ، فعليه الحد ، وإن قال: أردت بذلك زناه فى زمن شركه ، فهل يقبل منه هذا التفسير ، ويسقط عنه الحد ، أو لايقبل ذلك منه ، ويقام عليه الحد اه . اختلف العلماء فى ذلك ، وممن قال بأنه يحد ولايلتفت إلى تفسيره ذلك: مالك وأصحابه ، وصرح به الخرقى من الحنابلة . وقال ابن قدامة فى المغنى : لاحد عليه ، وخالف فى ذلك الخرقى فى شرحه لقول الخرقى : ومن قذف من كان مشركا وقال : أردت أنه زنى وهو مشرك لم يلتفت إلى قوله ، وحد القاذف إذا طالب المقذوف ، وكذلك من كان عبدا . انتهى .

المسألة العشرون : اعلم أن من قذف بنتا غير بالغة بالزنى ، أوقذف به ذكرا غير بالغ فقد اختلف أهل العلم ، هل يجب على القاذف الحد أو لايجب عليه ؟ وقال أبو عبد الله القرطبى فى تفسير الآية التى نحن بصددها : إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفاً عند مالك . وقال أبو حنيفة والشافعى وأبو ثور: ليس بقذف ، لأنه ليس بزنى إذ لاحد عليها ويعزر . قال ابن العربى : والمسألة محتملة مشكلة لكن مالك غلب حماية عرض المقذوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزمه الحد . قال ابن المنذر : وقال أحمد فى الجارية بنت تسع ، يحد قاذفها ، وكذلك الصبى إذا بلغ عشراً ضرب قاذفه ، قال إسحاق : إذا قذف غلاما يطأ مثله ؛ فعليه الحد ، والجارية إذا جاوزت تسعا مثل ذلك قال ابن المنذر : لايحد من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب ، ويعزر على الأذى . اه محل الغرض منه بلفظه .

وإذا عرفت مما ذكرنا أقوال أهل العلم فى المسألة ، فاعلم أن أظهرها عندنا قول ابن المنذر : إنه لا يحد ولكن يعزر ، ووجه ذلك أن من لم يبلغ من الذكور والإناث مرفوع عنه القلم ، ولا معرة تلحقه بذنب ، لأنه غير مؤاخذ ، ولو جاء قاذف الصبى بأربعة يشهدون على الصبى بالزنى فلا حد عليه إجماعاً ، ولو كان قذفه قذفا على الحقيقة للزمه الحد بإقامة القاذف البينة على زناه ، وإن خالف فى هذا جمع من أجلاء العلماء ، ولكنه يعزر التعزير البالغ الرادع له ، ولغيره عن قذف من لم يبلغ . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الحادية والعشرون : اعلم أن الظاهر فيما لو قال رجل لآخر زنأت بالهمزة أن القاذف إن كان عامياً لا يفرق بين المعتل والمهموز أنه يحد لظهور قصده لقذفه بالزنى . وإن كان عالما بالعربية ، وقال : إنما أردت بقولى : زنأت بالهمزة معناه اللغوى ، ومعنى زنأت بالهمزة : لجأت إلى شىء ، أو صعدت فى جبل ، ومنه قول قيس بن عاصم المنقرى يرقص ابنه حكيما وهو صغير :

أشبه أبا أمك أو أشبه حمل ولا تكونن كهلوف وكل
يصبح فى مضجعه قد انجدل وارق إلى الخيرات زنأ فى الجبل

ومحل الشاهد منه قوله: زنأ فى الجبل أى صعوداً فيه ، والهلوف الثقيل الجافى العظيم اللحية ، والوكل الذى يكل أمره إلى غيره ، وزعم الجوهرى أن هذا الرجز لأم الصبى المذكور ترقصه به وهى منفوسة ابنة زيد الفوارس ، ورد ذلك على الجوهرى أبو محمد بن برى . ورواه هو وغيره على ما ذكرنا ، قال : وقالت أمه ترد على أبيه :

أشبه أخى أو أشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا

* تقصر أن تناله يداكا *

قاله فى اللسان .

المسألة الثانية والعشرون : فيمن نفى رجلا عن جده أو عن أمه أو نسبه إلى شعب غير شعبه ، أو قبيلة غير قبيلته . فذهب مالك : أنه إن نفاه عن أمه فلا حد عليه ، لأنه لم يدع عليها الزنا ، ولم ينف نسبه عن أبيه ، وإن نفاه عن جده لزمه الحد ، ولاحد عنده فى نسبة جنس لغيره ، ولوأبيض لأسود . قال فى المدونة : إن قال لفارسى : يارومى أو يا حبشى ، أو نحو هذا لم يحد . وقال ابن القاسم : اختلف عن مالك فى هذا ، وإنى أرى ألا حد عليه إلا أن يقول : يا ابن الأسود ، فإن لم يكن فى آبائه أسود فعليه الحد ، وأما إن نسبه إلى حبشى كأن قال : يا ابن الحبشى وهو بربرى فالحبشى والرومى فى هذا سواء إذا كان بربرياً. وقال ابن يونس : وسواء قال : ياحبشى أو يا ابن الحبشى ، والرومى أو يا ابن الرومى، فإنه لايحد ، وكذلك عنه فى كتاب محمد ، قال الشيخ المواق:هذا ماينبغى أن تكون به الفتوى على طريقة ابن يونس فانظره أنت اه .

وهذا الذى ذكرنا من عدم حد من نسب جنساً إلى غيره هو مشهور مذهب مالك ، وقد نص عليه فى المدونة ، ومحل هذا عنده إن لم يكن من العرب .

قال مالك فى المدونة : من قال لعربى : ياحبشى ، أو يافارسى ، أو يارومى فعليه الحد ، لأن العرب تنسب إلى آبائها وهذا نفى لها عن آبائها .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الفرق بين العربى وغيره المذكور عن مالك لايتجه كل الاتجاه ، ووجه كون من قال لرومى : ياحبشى مثلا ، لايحد . أن الظاهر أن مراده أنه يشبه الحبشى فى بعض أخلاقه أو أفعاله ، وهو استعمال معروف فى العربية اه . ومذهب أبى حنيفة أنه إن نفاه عن جده لاحد عليه ، بأن قال له : لست ابن جدك أنه لاحد عليه ، لأنه صادق إذ هو ابن أبيه لاجده ،

وكذلك لو نسب جنساً إلى غيره كقوله لعربى : يانبطى ، فلاحد عليه عنده على المشهور ، وكذلك عنده إذا نسبه لقبيلة أخرى غير قبيلته أو نفاه عن قبيلته ، لأنه يراد به التشبيه بتلك القبيلة التى نسبه لها فى الأخلاق أو الأفعال ، أو عدم الفصاحة ، ونحو ذلك ، فلا يتعين قصد القذف .

وقال صاحب تبيين الحقائق: وروى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل قال لرجل من قريش: يانبطى، فقال لا حد عليه اهـ. وكذلك لا يحد عند أبى حنيفة من قال لرجل : يا ابن ماء السماء أو نسبه إلى عمه أو خاله ، خلافاً للمالكية ، ومن وافقهم القائلين بحد من نسبه لعمه ، ونحوه أو زوج أمه الذى هو ربيبه ، لأن العم والخال كلاهما كالأب فى الشفقة ، وقد يريد التشبيه بالأب فى المحبة والشفقة ، وقوله: ابن ماء السماء ، فإنه قد يراد به التشبيه فى الجود والسماحة والصفاء . قالوا : وكان عامر بن حارثة : يلقب بماء السماء لكرمه ، وأنه يقيم ماله فى القحط مقام المطر. قالوا : وسميت أم المنذر بن امرىء القيس بماء السماء ، لحسنها وجمالها . وقيل لأولادها: بنو ماء السماء وهم ملوك العراق اهـ . وإن نسبه لجده فلا حد عليه عند أبى حنيفة ، ولا ينبغى أن يختلف فى ذلك لصحة نسبته إلى جده كما هو واقع بكثرة على مر الأزمنة من غير نكير اهـ . ومذهب الإمام أحمد : أنه إن نفاه عن أمه فلا حد عليه .

واختلف عنه فيمن نفى رجلا عن قبيلته أو نسب جنساً لغيره. قال ابن قدامة فى المغنى : وإذا نفى رجلا عن أبيه ، فعليه الحد نص عليه أحمد ، وكذلك إذا نفاه عن قبيلته وبهذا قال إبراهيم النخعى ، وإسحاق . وبه قال أبو حنيفة ، والثورى ، وحماد . اهـ .

وقد علمت الخلاف عن أبى حنيفة والمشهور عنه بما ذكرناه قريباً ، ثم قال ابن قدامة فى المغنى : والقياس يقتضى ألا يجب الحد بنفى الرجل عن قبيلته ، ولأن

ذلك لا يتعين فيه الرمى بالزنا ، فأشبه ما لو قال لأعجمى : إنك عربى ، ولو قال للعربى : أنت نبطى أو فارسى فلا حد عليه ، وعليه التعزير نص عليه أحمد ، لأنه يحتمل أنك نبطى اللسان أو الطبع . وحكى عن أحمد رواية أخرى أن عليه الحد كما لو نفاه عن أبيه والأول أصح ، وبه قال مالك ، والشافعى ، لأنه يحتمل غير القذف احتمالا كثيرا فلا يتعين صرفه إليه ، ومتى فسر شيئا من ذلك بالقذف فهو قاذف اهـ من المغنى .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم فى هذا فاعلم أن المسألة ليست فيها نصوص من الوحى، والظاهر أن ما احتمل غير القذف من ذلك لا يحد صاحبه لأن الحدود تدرأ بالشبهات واحتمال الكلام غير القذف لا يقل عن شبهة قوية . وقد ذكر ابن قدامة فى المغنى أن الأشعث بن قيس روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « لا أوتى برجل يقول: إن قريشا ليست من كنانة إلا جلدته » . اهـ. وانظر إسناده .

المسألة الثالثة والعشرون : فى أحكام كلمات متفرقة كمن قال لرجل : يا قرنان ، أو ياديوث ، أو يا كشخان، أو ياقرطبان ، أو يا معفوج ، أو ياقواد، أو يا ابن منزلة الركبان ، أو يا ابن ذات الرايات ، أو يا مخنث . أو قال لامرأة : يا قحبة .

اعلم أن أهل العلم اختلفوا فى هذه العبارات المذكورة فذهب مالك : هو أن من قال لرجل يا قرنان لزمه حد القذف لزوجته إن طلبته ، لأن القرنان عند الناس زوج القاعلة ، وكذلك من قال لامرأة : يا قحبة لزمه الحد عند المالكية، وكذلك من قال : يا ابن منزلة الركبان ، أو يا ابن ذات الرايات. كل ذلك فيه حد القذف عند المالكية، كما تقدمت الإشارة إليه ، قالوا لأن الزانية فى الجاهلية كانت تنزل

الركبان ، وتجعل على بابها راية ، وكذلك لو قال له : يامخنث لزمه الحد، إن لم يحلف أنه لم يرد قذفا ، فإن حلف أنه لم يرده أدب ، ولم يحد . قاله فى المدونة ، وإن قال له : يا ابن الفاسقة أو يا ابن الفاجرة ، أو يافاسق ، أو يا فاجر ، أو يا حمار ابن الحمار ، أو يا كلب ، أو يا ثور ، أو ياخنزير . ونحو ذلك فلا حد عليه، ولكنه يعزر تعزيرا رادعا حسبما يراه الإمام، ومذهب أبى حنيفة : أنه لو قال له يافاسق، يا كافر ، يا خبيث ، يا لص يا فاجر يا منافق ، يا لوطى يا من يلعب بالصبيان ، يا آكل الربا يا شارب الخمر ، يا ديوث ، يا مخنث ، يا خائن ، يا ابن القحبة ، يا زنديق ، يا قرطبان ، يا مأوى الزوانى أو اللصوص ، يا حرام . أنه لاحد عليه فى شىء من هذه الألفاظ ، وعليه التعزير ، وآكد التعزير عند الحنفية تسعة وثلاثون سوطا ، وأما لو قال له : يا كلب ، يا تيس ، يا حمار ، يا خنزير ، يا بقر ، يا حية يا حجام ، يا بيغاء يا مؤاجر ، ياولد الحرام ، يا عيار، يا ناكس، يا منكوس ، يا سخرة ياضحكة يا كشخان ، يا أبله ، يا مسوس ، فلا شىء عليه فى شىء من هذه الألفاظ عند الحنفية ، ولا يعزر بها . قال صاحب تبيين الحقائق : لا يعزر بهذه الألفاظ كلها لأن من عادتهم إطلاق الحمار ونحوه بمعنى البلادة والحرص أو نحو ذلك ، ولا يريدون به الشتيمة ، ألا ترى أنهم يسمون به ويقولون : عياض بن حمار ، وسفيان الثورى ، وأبو ثور وجمل ، ولأن المقذوف لا يلحقه شين بهذا الكلام ، وإنما يلحق القاذف . وكل أحد يعلم أنه آدمى ، وليس بكلب ولا حمار وأن القاذف كاذب فى ذلك . وحكى الهندوانى أنه يعزر فى زماننا فى مثل قوله : يا كلب يا خنزير ، لأنه يراد به الشتم فى عرفنا .

وقال شمس الأئمة السرخسى : الأصح عندى أنه لا يعزر . وقيل : إن كان المنسوب إليه من الأشراف كالفقهاء والعلوية يعزر ، لأنه يعد شينا فى حقه ، وتلحقه الوحشة بذلك ، وإن كان من العامة لا يعزر ، وهذا أحسن ما قيل فيه ، ومن

الألفاظ التى لا توجب التعزير قوله : يا رستاق ويا ابن الأسود ، ويا ابن الحجام ، وهو ليس كذلك . اهـ من تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق فى الفقه الحنفى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما الألفاظ التى ذكرنا عنهم أنها توجب التعزير فوجوب التعزير بها كما ذكروا واضح لا إشكال فيه . وأما الألفاظ التى ذكرنا عنهم أنها لا تعزير فيها ، فالأظهر عندنا أنها يجب فيها التعزير ، لأنها كلها شتم وعيب ، ولا يخفى أن من قال لإنسان : يا كلب ، يا خنزير ، يا حمار ، يا تيس يا بقر إلى آخره ، أن هذا شتم واضح لا خفاء به وليس مراده أن الانسان كلب أو خنزير ، ولكن مراده تشبيه الانسان بالكلب والخنزير فى الخسة والصفات الذميمة كما لا يخفى ، فهو من نوع التشبيه الذى يسميه البلاغيون تشبيها بليغاً ولا شك أن عاقلا قيل له : يا كلب ، أو يا خنزير مثلا أن ذلك يؤذيه ، ولا يشك أنه شتم ، فهو أذى ظاهر وعليه فالظاهر التعزير فى الألفاظ المذكورة . وكونهم يسمون الرجل حمارا أو كلبا لا ينافى ذلك لأن من الناس من يسم ابنه باسم قبيح لا يرضى غيره أن يعاب به . والظاهر أنه إن قال لرجل : يا ابن الأسود ، وليس أبوه ولا أحد من أجداده بأسود ، أنه يلزمه الحد لأنه نفى لنسبه ، وكذلك قوله : يا ابن الحجام إن لم يكن أبوه ولا أحد من أجداده حجاماً فهو قذف ، لأنه نفى لنسبه وإلصاق له بأسود أو حجام ليس بينه وبينه نسب كما هو قول المالكية ومن وافقهم .

وقال صاحب تبيين الحقائق : وتفسير القرطبان هو الذى يرى مع امرأته أو محرمه رجلا ، فيدعه خاليا بها . وقيل : هو السبب للجمع بين اثنين لمعنى غير ممدوح . وقيل : هو الذى يبعث امرأته مع غلام بالغ أو مع مزارعه إلى الضيعة ، أو يأذن لهما بالدخول عليها فى غيبته اهـ منه .

وقال ابن قدامة فى المغنى : وإن قال الرجل : يا ديوث ، أو يا كشخان : فقال أحمد: يعزر ، وقال إبراهيم الحربى: الديوث الذى يدخل الرجال على امرأته، وقال ثعلب : القرطبان الذى يرضى أن يدخل الرجال على امرأته . وقال : القرنان والكشخان لم أرهما فى كلام العرب ، ومعناه عند العامة مثل معنى الديوث ، أو قريب منه ، فعلى القاذف به التعزير على قياس قوله فى الديوث ، لأنه قذفه بما لا حد فيه . وقال خالد بن يزيد ، عن أبيه فى الرجل يقول للرجل : ياقرنان إذا كان له أخوات ، أو بنات فى الاسلام ضرب الحد ، يعنى أنه قاذف لهن . وقال خالد عن أبيه : القرنان عند العامة من له بنات والكشخان : من له أخوات يعنى والله أعلم إذا كان يدخل الرجال عليهن ، والقواد عند العامة السمسار فى الزنى والقذف بذلك كله يوجب التعزير ، لأنه قذف بما لا يوجب الحد اهـ . من المغنى قال فى المغنى أيضا المنصوص عن أحمد فيمن قال : يامعفوج أن عليه الحد ، وظاهر كلام الخرقى يقتضى أن يرجع إلى تفسيره ، فإن فسر بغير الفاحشة مثل أن يقول : أردت يامفلوج أو يا مصابا دون الفرج ونحو هذا ، فلا حد عليه ، لأنه فسره بما لا حد فيه . وإن فسره بعمل قوم لوط فعليه الحد كما لو صرح به ، وقال صاحب القاموس القرنان : الديوث المشارك فى قرينته لزوجته اهـ . منه وقال فى القاموس أيضا : القرطبان بالفتح الديوث ، والذي لا غيرة له أو القواد اهـ منه . وقال فى القاموس : والتديث القيادة ، وفى القاموس تحت الخط لا بين قوسين الكشخان ويكسر : الديوث وكشخه تكشيخا وكشخنة . قال له : يا كشخان اهـ . منه وهو بالخاء المعجمة وقال الجوهرى فى صحاحه : والديوث القنذع وهو الذى لا غيرة له اهـ . منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر أن التحقيق فى جميع الألفاظ المذكورة التي ذكرنا كلام العلماء فيها أنها تتبع العرف الجارى فى البلد الذى قيلت فيه ، فإن كان من عرفهم أن المراد بها الشتم بما لا يوجب الحد وجب

التعزير ، لأجل الأذى ولا حد ، وإن كان عرفهم أنها يراد بها الشتم بالزنى ، أو نفى النسب ، وكان ذلك معروفا أنه هو المقصود عرفا ، وجب الحد ، لأن العرف متبع فى نحو ذلك . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة والعشرون : فى حكم من قذف محصنا بعد موته ، ومذهب مالك فى ذلك هو قوله فى المدونة : من قذف ميتا فولده ، وإن سفل وأبيه وإن علا القيام بذلك ، ومن قام منهم أخذه بحده ، وإن كان ثم من هو أقرب منه ، لأنه عيب ، وليس للاخوة ، وسائر العصبة مع هؤلاء قيام ، فإن لم يكن من هؤلاء واحد فللعصبة القيام .اهـ بواسطة نقل المواق.

وحاصله : أن الميت المقذوف يحد قاذفه بطلب من وجد من فروعه ، وإن سفلوا أو واحد من أصوله ، وإن علوا . ولا كلام فى حال وجود الأصول أو الفروع لغيرهم من الإخوة والعصبة ، فإن لم يوجد من الأصول والفروع أحد ، فللأخوة والعصبة القيام ، ويحد للمقذوف بطلبهم . هذا حاصل مذهب مالك فى المسألة ، وظاهره عدم الفرق بين كون المقذوف الميت أبا أو أما ، وبعض أهل العلم يفرق بين قذف الأب والأم ، لأن قذف الأم بالزنى فيه قدح فى نسب ولدها ، لأن ابن الزانية قد يكون لغير أبيه من أجل زنا أمه . وقال ابن قدامة فى المغنى : وإن قذف أمه وهى ميتة مسلمة كانت أو كافرة حرة أو أمة ، حد القاذف إذا طلب الابن وكان حراً مسلماً ، أما إذا قذفت وهى فى الحياة ، فليس لولدها المطالبة لأن الحق لها ، فلا يطالب به غيرها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، سواء كانت محجوراً عليها أو غير محجور عليها ، لأنه حق يثبت للتشفى فلا يقوم فيه غير المستحق مقامه كالقصاص ، وتعتبر حصانتها ، لأن الحق لها فتعتبر حصانتها كما لو لم يكن لها ولد . وأما إن قذفت وهى ميتة ، فإن لولدها المطالبة ، لأنه قدح فى نسبه ، ولأنه يقذف أمه بنسبته إلى أنه ابن زنى ،

ولا يستحق ذلك بطريق الإرث ، ولذلك تعتبر الحصانة فيه ، ولا تعتبر الحصانة فى أمه ، لأن القذف له . وقال أبو بكر : لا يجب الحد بقذف ميتة بحال ، وهو قول أصحاب الرأى ، لأنه قذف لمن لا تصح منه المطالبة ، فأشبه قذف المجنون . وقال الشافعى : إن كان الميت محصناً فلوليه المطالبة ، وينقسم بانقسام الميراث ، وإن لم يكن محصنا فلا حد على قاذفه ، لأنه ليس بمحصن ، فلا يجب الحد بقذفه كما لو كان حياً ، وأكثر أهل العلم لا يرون الحد على من يقذف من ليس محصناً حياً ولا ميتا ، لأنه إذا لم يحد بقذف غير المحصن إذا كان حيا فلأن لا يحد بقذفه ميتا أولى ، ولنا قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الملاعنة ومن رمى ولدها فعليه الحد ، يعنى من رماه بأنه ولد زنى ، وإذا وجب بقذف ولد الملاعنة بذلك ، فقذف غيره أولى ، ولأن أصحاب الرأى أوجبوا الحد على من نفى رجلا عن أبيه إذا كان أبواه حرين مسلمين ، ولو كانا ميتين ، والحد إنما وجب للولد ، لأن الحد لا يورث عندهم فأما إن قذفت أمه بعد موتها ، وهو مشرك أو عبد ، فلا حد عليه فى ظاهر كلام الخرقى ، سواء كانت الأم حرة مسلمة أو لم تكن . وقال أبو ثور وأصحاب الرأى : إذا قال لكافر أو عبد : لست لأبيك وأبواه حران مسلمان فعليه الحد ، وإن قال لعبد أمه حرة وأبوه عبد : لست لأبيك فعليه الحد ، وإن كان العبد للقاذف عند أبى ثور وقال أصحاب الرأى : يصح أن يحد المولى لعبده ، واحتجوا بأن هذا قذف لأمه فيعتبر إحصانها دون إحصانه ، لأنها لو كانت حية كان القذف لها فكذلك إذا كانت ميتة ، ولأن معنى هذا : إن أمك زنت فأتت بك من الزنى ، فإذا كان من الزنى منسوباً إليها كانت هى المقذوفة دون ولدها . ولنا ما ذكرناه ، ولأنه لو كان القذف لها لم يجب الحد ، لأن الكافر لا يرث المسلم ، والعبد لا يرث الحر ، ولأنهم لا يوجبون الحد لقذف ميتة بحال ، فيثبت أن القذف له فيعتبر إحصانه دون إحصانها . والله أعلم اهـ بطوله من المغنى .

وقد رأيت فى كلامه أقوال أهل العلم فى رمى المرأة الميتة ، إن كان لها أولاد ، ورمى المرأة الحية التى لها أولاد ، وبه نعلم أن الحد يورث عند المالكية والشافعية إلا أنه عند المالكية لا يطلبه إلا الفروع والأصول ، ويحد بطلب كل منهم وإن كان يوجد منهم من هو أقرب من طالب الحد ، وأنه عند عدم الفروع والأصول يطالب به الأخوة والعصبة ، وكل ذلك يدل على أنهم ورثوا ذلك الحق فى الجملة عن المقذوف الميت ، وأن الشافعية يقولون : إنه ينقسم بانقسام الميراث ، كما نقله عنهم صاحب المغنى فى كلامه المذكور ، وأن الحنفية يقولون : إن الحد لا يورث ، وهو ظاهر المذهب الحنبلى ، وأن بعض أهل العلم قال : لا يحد من قذف ميتة بحال .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى والله تعالى أعلم فى هذه المسألة : أن قذف الأم إن كان يستلزم نفى نسب ولدها فلها القيام حية ، ولولدها القيام إذا لم تطالب هى لأنه مقذوف بقذفها ، خلافا لما فى كلام صاحب المغنى ، وكذلك إن كانت ميتة فله القيام ، ويحد له القاذف . وقول صاحب المغنى تعتبر حصانته هو دون حصانتها هى لم يظهر له معنى ، لأن نفى نسب إنسان لا تشترط فيه حصانة المنفى نسبه ، لأنا لو فرضنا أنها جاءت به من زنى ، فإنه هو لا ذنب له ، ولا يعتبر زانيا كما ترى .

والحاصل : أن قذف الأم إن كان يستلزم قذف ولدها ، فالأظهر إقامة الحد على القاذف بطلب الأم ، وبطلب الولد ، وإن كانت حية ، لأنه مقذوف وأحرى إن كانت ميتة ، وإن كانت الأم لا ولد لها أولها ولد لا يستلزم قذفها قذفه فهى مسألة : هل يحد من قذف ميتا أو لا ؟ وقد رأيت خلاف العلماء فيها ، ولكل واحد من القولين وجه من النظر ، لأن الظاهر أن حرمة عرض الإنسان لا تسقط بالموت ، وهذا يقتضى حد من قذف ميتة ، ووجه

الثانى : أن الميتة لا يصح منها الطلب ، فلايحد بدون طلب ، ولأن من مات لا يتأذى بكلام القاذف ، وإن كان كذباً يل يفرح به ، لأنه يكون له فيه حسنات ، وإن كان حقا ما رماه به ، فلا حاجة له بحده بعد موته ، لأنه لم يقل إلا الحق وحده وهو صادق لا حاجة للميت فيه . اه .

وأقربهما عندى أنه يعزر تعزيراً رادعا ولا يقام عليه الحد .

واعلم أن الحى إذا قذفه آخر بالزنا ، وهو يعلم فى نفسه أن القاذف صادق ، فقد قال بعض أهل العلم : إن له المطالبة بحده مع علمه بصدقه فيما رماه به ، وهو مذهب مالك ، ومن وافقه .

والأظهر عندى أنه إن كان يعلم أنما قذفه به حق أنه لا تنبغى له المطالبة بحده ، لأنه يتسبب فى إيذائه بضرب الحد ، وهو يعلم أنه محق فيما قال . والعلم عند الله تعالى .

وذكر غير واحد من أهل العلم أن من قذف أم النبى صلى الله عليه وسلم أو قذفه هو صلى الله عليه وسلم أن ذلك ردة ، وخروج من دين الإسلام ، وهو ظاهر لايخفى ، وأن حكمه القتل ، ولكنهم اختلفوا إذا تاب هل تقبل توبته ؟ فذهبت جماعة من أهل العلم إلى أنه لاتقبل توبته ويقتل على كل حال وقال بعض أهل العلم : تقبل توبته إن تاب ، وهذا الأخير أقرب لكثرة النصوص الدالة على قبول توبة من تاب ، ولو من أعظم أنواع الكفر . والله تعالى أعلم .

المسألة الخامسة والعشرون : فى حكم من قذف ولده

وقد اختلف أهل العلم فى ذلك . قال فى المغنى : وإذا قذف ولده وإن نزل لم يجب الحد عليه ، سواء كان القاذف رجلا أو امرأة بهذا قال عطاء ،

والحسن ، والشافعي ، وإسحاق ، وأصحاب الرأى . وقال مالك ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو ثور ، وابن المنذر عليه الحد لعموم الآية ، ولأنه حد فلا تمنع من وجوبه قرابة الولادة كالزنى .

وأظهر القولين دليلا : أنه لا يحد الوالد لولده لعموم قوله : (وبالوالدين إحسانا) وقوله : (فلا تقل لهما أف) فلا ينبغى للولد أن يطلب حد والده للتشفى منه . وقول المالكية فى هذه المسألة فى غاية الإشكال ، لأنهم يقولون : إن الولد يمكن من حد والده القاذف له وأنه يعد بحده له فاسقا بالعقوق كما قال خليل فى مختصره وله حد أبيه وفسق ، ومعلوم أن الفسق لا يكون إلا بارتكاب كبيرة ، والشرع لا يمكن أحداً من ارتكاب كبيرة . كما ترى مع أن الروايات عن مالك نفسه ظاهرها عدم الحد وقاله غير واحد من أهل مذهبه .

المسألة السادسة والعشرون : فى حكم من قتل أو أصاب حداً خارج الحرم ، ثم لجأ إلى الحرم هل يستوفى منه الحق فى الحرم ، أو لا يستوفى منه حتى يخرج من الحرم ؟

اعلم أن هذه المسألة فيها للعلماء ثلاثة مذاهب :

الأول : أنه يستوفى منه الحق قصاصاً كان أو حداً قتلا كان أو غيره .

الثانى : أنه لا يستوفى منه حد ولا قصاص ما دام فى الحرم سواء كان قتلا أو غيره .

الثالث : أنه يستوفى منه كل شىء من الحدود إلا القتل ، فإنه لا يقتل فى الحرم فى حد كالرجم ، ولا فى قصاص والخلاف فى هذه المسألة مشهور عند أهل العلم.

قال ابن قدامة فى المغنى : وجملته أن من جنى جناية توجب قتلا خارج الحرم ، ثم لجأ إليه لم يستوف منه فيه ، وهذا قول ابن عباس ، وعطاء ، وعبيد

ابن عمير ، والزهرى ، وإسحاق ومجاهد ، والشعبى ، وأبى حنيفة وأصحابه .

وأما غير القتل من الحدود كلها والقصاص فيما دون النفس ، فعن أحمد فيه روايتان .

إحداهما : لا يستوفى من الملتجىء إلى الحرم فيه .

والثانية : يستوفى وهو مذهب أبى حنيفة ، لأن المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم النهى عن القتل لقوله عليه الصلاة والسلام : « فلا يسفك فيها دم » وحرمة النفس أعظم فلا يقاس غيرها عليها ولأن الحد بالجلد جرى مجرى التأديب فلم يمنع كتأديب السيد عبده والأولى ظاهر كلام الخرقى ، وهى ظاهر المذهب .

قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها مفردة لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام فى الحرم إلا القتل والعمل على أن كل جان دخل الحرم لم يقم عليه حد جنايته ، حتى يخرج منه إلى أن قال : وقال مالك والشافعى وابن المنذر : يستوفى منه فيه لعموم الأمر بجلد الزانى ، وقطع السارق ، واستيفاء القصاص من غير تخصيص بمكان دون مكان . اهـ محل الغرض منه .

وقال ابن حجر فى فتح البارى . وقال أبو حنيفة : لا يقتل فى الحرم ، حتى يخرج إلى الحل باختياره ولكن لا يجالس ولا يكلم ، ويوعظ ، ويذكر حتى يخرج . وقال أبو يوسف : يخرج مضطرا إلى الحل وفعله ابن الزبير .

وروى ابن أبى شيبة عن طريق طاوس عن ابن عباس : من أصاب حدا ثم دخل الحرم لم يجالس ولم يبايع . وعن مالك والشافعى: يجوز إقامة الحد مطلقا فيها ، لأن العاصى هتك حرمة نفسه فأبطل ما جعل الله له من الأمن . اهـ محل الغرض منه .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار مشيراً إلى إقامة الحدود واستيفاء القصاص فى الحرم ، وقد ذهب إلى ذلك مالك والشافعى وهو اختيار ابن المنذر ، ويؤيد

ذلك عموم الأدلة القاضية باستيفاء الحدود فى كل مكان وزمان . وذهب الجمهور من الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم ، والحنفية ، وسائر أهل العراق ، وأحمد ومن وافقه من أهل الحديث والعترة : إلا أنه لا يحل لأحد أن يسفك بالحرم دما ، ولا يقيم به حدا حتى يخرج منه من لجأ إليه . اهـ محل الغرض منه .

وإذا عرفت من هذه النقول أقوال أهل العلم فى هذه المسألة فهذه أدلتهم ومناقشتها . أما الذين قالوا : يستوفى منه كل حد فى الحرم إن لجأ إليه كمالك ، والشافعى ، وابن المنذر ، ومن وافقهم ، فقد استدلوا بأدلة :

منها : أن نصوص الكتاب والسنة الدالة على إقامة الحدود واستيفاء القصاص ، ليس فى شىء منها تخصيص مكان دون مكان ولا زمان دون زمان ، وظاهرها شمول الحرم وغيره . قالوا : والعمل بظواهر النصوص واجب ، ولاسيما إذا كثرت.

ومنها : أن استيفاء القصاص وإقامة الحدود حق واجب بتشريع الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وفعل الواجب الذى هو عين طاعة الله فى الحرم ليس فيه أى انتهاك لحرمة الحرم ، لأن أحق البلاد ، بأن يطاع فيها الله بامتثال أوامره هى حرمه ، وطاعة الله فى حرمه ليس فيها انتهاك له كما ترى .

أما استدلال هؤلاء بما فى الصحيحين بلفظ إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة ، فهو استدلال فى غاية السقوط ، لأن من ظن أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد غلط غلطاً فاحشاً ، لأنه من كلام عمرو ابن سعيد المعروف بالأشدق كما هو صريح فى الصحيحين وغيرهما ، قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى الغد من يوم الفتح ، فسمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى حين تتكلم به أنه حمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب ، فقيل لأبى شريح : ما قال لك عمرو قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح : إن الحرم لا يعيذ عاصيا إلى آخره ، وهذا صريح فى أنه من كلام عمرو بن سعيد الأشدق يعارض به أبا شريح لما ذكر له كلام النبى صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لا حجة البتة فى كلام الأشدق ، ولا سيما فى حال معارضته به لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وإن كان كلامه لايطابق الجواب عن الحديث الذى ذكره أبوشريح رضى الله عنه . وفى صحيح مسلم رحمه الله مثل ما فى البخارى من حديث أبى شريح إسناداً ومتنا .

وإذا تقرر أن القائل إن الحرم لا يعيذ عاصيا إلى آخره هو الأشدق علمت أنه لادلالة فيه وكذلك احتجاجهم بما ثبت فى الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم « أمر بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة » لأن أمره بقتله وهو متعلق بأستار الكعبة فى نفس الوقت الذى أحل الله له فيه الحرم ، وقد صرح النبى صلى الله عليه وسلم أن حرمتها عادت كما كانت ، ففعله صلى الله عليه وسلم فى وقت إحلال الحرم له ساعة من نهار ، لا دليل فيه بعد انقضاء وقت الإحلال ورجوع الحرمة كما ترى .

وأما الذين منعوا القتل فى الحرم دون ماسواه من الحدود التى لا قتل فيها والقصاص فى غير النفس ، فقد احتجوا بأن الحديث الصحيح الذى هو حديث

أبى شريح المتفق عليه فيه « فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما » : الحديث . قالوا تصريحه صلى الله عليه وسلم بالنهى عن سفك الدم ، دون غيره دليل على أنه ليس كغيره ، ولا يقاس غيره عليه ، لأن النفس أعظم حرمة مما لايستوجب القتل من حد أو قصاص فى غير النفس فيبقى غير القتل داخلا فى عموم النصوص المقتضية له فى كل مكان وزمان ، ويخرج خصوص القتل من تلك العمومات بهذا الحديث الصحيح ، ويؤيده أن قوله : دما نكرة فى سياق النفى ، وهى من صيغ العموم ، فيشمل العموم المذكور إراقة الدم فى قصاص أو حد أو غير ذلك .

واستدلوا أيضاً بقول ابن عمر رضى الله عنهما : لو وجدت قاتل عمر فى الحرم ما هجته . قال المجد فى المنتقى : حكاه أحمد فى رواية الأثرم .

وأما الذين قالوا : بأن الحرم لا يستوفى فيه شىء من الحدود ، ولا من القصاص قتلا كان أو غيره ، فقد استدلوا بقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا) ، قالوا وجملة : (ومن دخله كان آمنا) ، خبر أريد به الإنشاء فهو أمر عام ، يستوجب أمن من دخل الحرم ، وعدم التعرض له بسوء ، وبعموم النصوص الدالة على تحريم الحرم .

واستدلوا أيضاً بآثار عن بعض الصحابة ، كما روى عن ابن عباس ، أنه قال فى الذى يصيب حداً ثم يلجأ إلى الحرم : يقام عليه الحد ، إذا خرج من الحرم ، قال المجد فى المنتقى : حكاه أحمد فى رواية الأثرم ، وهذا ملخص أقوال أهل العلم وأدلتهم فى هذه المسألة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر والله تعالى أعلم أن أجرى هذه الأقوال على القياس قول من قال : يستوفى من اللاجىء إلى الحرم كل حق وجب عليه شرعا ، قتلا كان أو غيره ، لأن إقامة الحدود واستيفاء القصاص مما

أوجبه الله ، وفعل ذلك طاعة ، وتقرب إليه وليس فى طاعة الله ، وامتثال أمره انتهاك لحرمة حرمه ، وأجراها على الأصول ، وهو أولاها ، هو الجمع بين الأدلة ، وذلك بقول من قال : يضيق على الجانى اللاجىء إلى الحرم ، فلا يباع له ، ولا يشترى منه ، ولا يجالس ، ولا يكلم حتى يضطر إلى الخروج ، فيستوفى منه حق الله إذا خرج من الحرم ، لأن هذا القول جامع بين النصوص ، فقد جمع بين استيفاء الحق ، وكون ذلك ليس فى الحرم ، وفى هذا خروج من الخلاف . والعلم عند الله تعالى . ولنكتف بما ذكرنا من أحكام هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله) الآية ، معنى : يدرأ : يدفع ، والمراد بالعذاب هنا : الحد ، والمصدر المنسبك من أن وصلتها فى قوله : أن تشهد فاعل يدرأ : أى يدفع عنها الحد شهادتها أربع شهادات الآية .

والدليل على أن المراد بالعذاب فى قوله : (ويدرأ عنها العذاب) ، الحد من أوجه .

الأول : منها سياق الآية ، فهو يدل على أن العذاب الذى تدرؤه عنها شهاداتها هو الحد .

والثانى : أنه أطلق اسم العذاب فى مواضع أخر ، على الحد مع دلالة السياق فيها على أن المراد بالعذاب فيها الحد كقوله تعالى فى هذه السورة الكريمة : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من

المؤمنين) ، فقوله : (وليشهد عذابهما) ، أى حدهما بلا نزاع . وكذلك قوله تعالى فى الإماء (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) ، أى نصف ما على الحرائر من الجلد .

وهذه الآية : تدل على أن الزوج إذا رمى زوجته وشهد شهاداته الخمس المبينة فى الآية أن المرأة يتوجه عليها الحد بشهاداته ، وأن ذلك الحد المتوجه إليها بشهادات الزوج تدفعه عنها شهاداتها هى الموضحة فى الآية .

ومفهوم مخالفة الآية يدل على أنها لو نكلت عن شهاداتها ، لزمها الحد بسبب نكولها مع شهادات الزوج ، وهذا هو الظاهر الذى لا ينبغى العدول عنه ، فشهادات الزوج القاذف تدرأ عنه هو حد القذف ، وتوجه إليها هى حد الزنى ، وتدفعه عنها شهاداتها .

وظاهر القرآن أيضاً أنه لو قذف زوجته وامتنع من اللعان أنه يحد حد القذف فكل من امتنع من الزوجين من الشهادات الخمس وجب عليه الحد ، وهذا هو الظاهر من الآيات القرآنية ، لأن الزوج القاذف داخل فى عموم قوله تعالى: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) ، ولكن الله بين خروج الزوج من هذا العموم بشهاداته حيث قال (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فلم يجعل له مخرجاً من جلد ثمانين ، وعدم قبول الشهادة ، والحكم بالفسق إلا بشهاداته التى قامت له مقام البينة المبرئة له من الحد . فإن نكل عن شهاداته فالظاهر وجوب الحد عليه ، لأنه لم تدرأ عنه أربعة عدول يشهدون بصدقه ، ولا شهادات تنوب عن الشهود . فتعين أنه يحد لأنه قاذف ، ولم يأت بما يدفع عنه حد القذف ، وكذلك الزوجة إذا نكلت عن أيمانها فعليها الحد ، لأن الله نص على أن الذى يدرأ عنها الحد

هو شهاداتها فى قوله تعالى : (ويدرأ عنها العذاب) الآية ، وممن قال إن الزوج يلزمه الحد إن نكل عن الشهادات الأئمة الثلاثة ، خلافا لأبى حنيفة القائل بأنه يحبس ، حتى يلاعن ، أو يكذب نفسه ، فيقام عليه حد القذف ، وممن قال بأنها إن شهد هو ، ونكلت هى أنها تحد بشهاداته ونكولها : مالك والشافعى والشعبى ، ومكحول ، وأبو عبيد ، وأبو ثور . كما نقله عنهم صاحب المغنى .

وهذا القول أصوب عندنا ، لأنه ظاهر قوله : (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله) الآية . ولاينبغى العدول عن ظاهر القرآن إلا لدليل يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة . وقال أبو حنيفة وأحمد : لا حد عليها بنكولها عن الشهادات ، وتحبس أيضاً حتى تلاعن أو تقر فيقام عليها الحد .

قال فى المغنى : وبهذا قال الحسن، والأوزاعى، وأصحاب الرأى . وروى ذلك عن الحارث العكلى ، وعطاء الخراسانى ، واحتج أهل هذا القول بحجج يرجع جميعها إلى أن المانع من حدها أن زناها لم يتحقق ثبوته ، لأن شهادات الزوج ونكولها هى لا يتحقق بواحد منهما ولا بهما مجتمعين ثبوت الزنى عليها .

وقول الشافعى ومالك ومن وافقهما فى هذه المسألة أظهر عندنا لأن مسألة اللعان أصل مستقل لا يدخله القياس على غيره، فلا يعدل فيه عن ظاهر النص إلى القياس على مسألة أخرى . والعلم عند الله تعالى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن اللعان لا يلزم بين الزوجين ؛ إلا بقذف الرجل زوجته قذفا يوجب عليه الحد لو قاله لغير زوجة كرميها بالزنى ، ونفى ولدها

عنه ، وقول الجمهور هنا : إنه يكفى فى وجوب اللعان قذفها بالزنى من غير اشتراط أن يقول : رأيت بعينى، أظهر عندى مما روى عن مالك، من أنه لا يلزم اللعان ، حتى يصرح برؤية العين ، لأن القذف بالزنى كاف دون التصريح برؤية العين . وقول الملاعن فى زمنه صلى الله عليه وسلم : رأت عينى وسمعت أذنى ، لا يدل على أنه لو اقتصر على أنها زنت ، أن ذلك يكفى ، دون اشتراط رؤية العين ، وسماع الأذن كما لا يخفى ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية : اعلم أن العلماء اختلفوا فى شهادات اللعان المذكورة فى قوله : (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) إلى آخر الآيات ، هل هى شهادات أو أيمان على أربعة أقوال :

الأول : أنها شهادات لأن الله سماها فى الآية شهادات .

والثانى : أنها أيمان .

والثالث : أنها أيمان مؤكدة بلفظ الشهادة .

والرابع : عكسه ، وينبنى على الخلاف فى ذلك أن من قال : إنها شهادات لا يصح عنده اللعان ، إلا ممن تجوز شهادته . فيشترط فى الملاعن ، والملاعنة العدالة وغيرها من شروط قبول الشهادة ، ومن قال : إنها أيمان صح عنده اللعان من كل زوجين ، ولو كانا لا تصح شهادتهما لفسق أو غيره من مسقطات قبول الشهادة ، وينبنى على الخلاف المذكور . ما لو شهد مع الزوج ثلاثة عدول ، فعلى أنها شهادة يكون الزوج رابع الشهود ، فيجب عليها حد الزنى ، وعلى أنها أيمان يحد الثلاثة ويلاعن الزوج . وقيل : لا يحدون . وممن قال : بأنها شهادات وأن اللعان لا يصح إلا ممن تقبل شهادته ، وأنها تحد بشهادة الثلاثة مع الزوج أبو حنيفة رحمه الله ومن تبعه ، والأكثرون على أنها أيمان مؤكدة بلفظ الشهادة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر الأقوال عندى : أنها أيمان مؤكدة بالشهادة ، وأن لفظ الشهادة ربما أطلق فى القرآن ، مراداً بها اليمين ، مع دلالة

القرائن على ذلك ، وإنما استظهرنا أنها أيمان لأمور .

الأول : التصريح فى الآية بصيغة اليمين فى قوله (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) لأن لفظة بالله يمين فدل قوله : بالله على أن المراد بالشهادة اليمين للتصريح بنص اليمين ، فقوله : أشهد بالله فى معنى : أقسم بالله .

الثانى : أن القرآن جاء فيه إطلاق الشهادة وإرادة اليمين فى قوله (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) ثم بين أن المراد بتلك الشهادة اليمين فى قوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فقوله : (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) دليل على أن المراد بلفظ الشهادة فى الآية اليمين ، وهو واضح كما ترى .

وقال القرطبي : ومنه قوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) الآية ، لأن قوله تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) يدل على أن المراد بشهادتهم الأيمان هكذا ، قال ، ولا يتعين عندى ما ذكره من الاستدلال بهذه الآية . والعلم عند الله تعالى .

الثالث : ماقاله ابن العربى : قال والفيصل أنها يمين لاشهادة ، أن الزوج يحلف لنفسه فى إثبات دعواه وتخليصه من العذاب ، وكيف يجوز لأحد أن يدعى فى الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بما يوجب حكما على غيره هذا بعيد فى الأصل ، معدوم فى النظر .اهـ منه بواسطة نقل القرطبي .

وحاصل استدلاله هذا : أن استقراء الشريعة استقراء تاماً ، يدل على أنه لم يوجد فيها شهادة إنسان لنفسه بما يوجب حكماً على غيره ، وهو استدلال قوى ، لأن المقرر فى الأصول أن الاستقراء التام . حجة كما أوضحناه مراراً ، ودعوى الحنفية ومن وافقهم أن الزوج غيرمتهم لايسوغ شهادته لنفسه ، لإطلاق ظواهر

النصوص فى عدم قبول شهادة الإنسان لنفسه مطلقاً .

الرابع : ماجاء فى بعض روايات حديث اللعان أنه صلى الله عليه وسلم قال لما جاءت الملاعنة بالولد شبيها بالذى رميت به « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » عند أحمد وأبى داود ، وقد سمى صلى الله عليه وسلم فى هذه الرواية شهادات اللعان أيمانا ، وفى إسناد الرواية المذكورة عباد بن منصور ، تكلم فيه غير واحد ، ويقال : إنه كان قدرياً إلى غير ذلك من أدلتهم .

وأما الذين قالوا : إنها شهادات لا أيمان فاحتجوا : بأن الله سماها شهادات فى قوله : (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) وفى قوله (فشهادة أحدهم أربع شهادات) الآية . وقوله : (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات) الآية . واستدلوا أيضاً بحديث « أربعة لا لعان بينهم وبين أزواجهم : اليهودية والنصرانية تحت المسلم ، والمملوكة تحت الحر ، والحرة تحت المملوك » . اهـ .

قالوا : إنما منع لعان اليهودية والنصرانية والعبد والأمة ، لأنهم ليسوا ممن تقبل شهادتهم ، ولو كانت شهادات اللعان أيماناً نصح لعانهم ، لأنهم ممن تقبل يمينه ، وقال الزيلعى فى نصب الراية فى الحديث المذكور : قلت: أخرجه ابن ماجه فى سننه عن ابن عطاء ، عن أبيه عطاء الخراسانى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أربع من النساء لا ملاعنة بينهن وبين أزواجهن : النصرانية تحت المسلم ، واليهودية تحت المسلم ، والمملوكة تحت الحر ، والحرة تحت المملوك » انتهى ، وأخرجه الدارقطنى فى سننه ، عن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصى ، عن عمرو بن شعيب به وقال عن جده عبد الله بن عمرو مرفوعا « أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان ، وليس بين العبد والحرة لعان ، وليس بين المسلم واليهودية لعان ، وليس بين المسلم

والنصرانية لعان» . انتهى . وقال الدارقطني : والوقاصي متروك الحديث ، ثم أخرجه عن عثمان بن عطاء الخراساني ، عن أبيه ، عن عمرو بن شعيب به ، قال: وعثمان بن عطاء الخراساني ضعيف الحديث جدا ، وتابعه يزيد بن زريع عن عطاء وهو ضعيف أيضا . وروى عن الأوزاعي ، وابن جريج وهما إمامان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده : قوله ولم يرفعاه ثم أخرجه كذلك موقوفا. ثم أخرجه عن عمار بن مطر ، ثنا حماد بن عمرو ، عن زيد بن رفيع ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عتاب بن أسيد ألا لعان بين أربع فذكر نحوه » قال وعمار بن مطر، وحماد بن عمرو ، وزيد بن رفيع ضعفاء انتهى . وقال البيهقي في المعرفة هذا حديث رواه عثمان بن عطاء ، ويزيد بن زريع الرملي ، عن عطاء الخراساني ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « أربعة لاملاعنة بينهم النصرانية تحت المسلم إلى آخره » قال وعطاء الخراساني معروف بكثرة الغلط ، وابنه عثمان وابن زريع ضعيفان ، ورواه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ، عن عمرو بن شعيب به وهو متروك الحديث ضعفه يحيى بن معين ، وغيره من الأئمة ورواه عمار بن مطر ، عن حماد بن عمرو ، عن زيد بن رفيع ، عن عمرو ابن شعيب ، وعمار بن مطر ، وحماد بن عمرو ، وزيد بن رفيع ضعفاء . وروى عن ابن جريج والأوزاعي ، وهما إمامان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده موقوفا، وفي ثبوته موقوفا أيضا نظر ، فإن راويه عن ابن جريج والأوزاعي عمرو بن هارون ، وليس بالقوي . ورواه يحيى بن أبي أنيسة أيضا ، عن عمرو ابن شعيب به موقوفا، وهو متروك ، ونحن إنما نحتج بروايات عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده إذا كان الراوي عنه ثقة وانضم إليه ما يؤكده ، ولم نجد لهذا الحديث طريقا صحيحا إلى عمرو . والله أعلم انتهى . كلامه انتهى كلام صاحب نصب الراية .

وقال صاحب الجوهر النقي : إن الحديث المذكور جيد الإسناد ، ولو فرضنا جودة إسناده كما ذكره لم يلزم من ذلك أن شهادات اللعان شهادات لا أيمان ، لاحتمال كون عدم الملاعنة بين من ذكر في الحديث لعدم المكافأة .

والأظهر عندنا أنها أيمان أكدت بلفظ الشهادة ، للأدلة التي ذكرنا ، وهو قول أكثر أهل العلم ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة : اعلم أنه لا يجوز في اللعان ، الاعتماد على إتيان المرأة بالولد أسود ، وإن كانت بيضاء ، وزوجها أبيض لقصة الرجل الذي ولدت امرأته غلاما أسود ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يعرض بنفي الولد الأسود باللعان ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « هل لك من إبل؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر. قال : هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لورقا . قال ومن أين جاءتها الورقة ، قال لعل عرقا نزعها . قال وهذا الغلام الأسود لعل عرقا نزعه » والقصة مشهورة ثابتة في الصحيحين ، وقد قدمناها مرارا ، وفيها الدلالة على أن سواد الولد لا يجوز أن يكون مستنداً للرجل في اللعان كما ترى .

المسألة الرابعة : اعلم أن التحقيق : أن من قذف امرأة بالزنى قبل أن يتزوجها ثم تزوجها أنه إن لم يأت بأربعة شهداء على زناها أنه يجلد حد القذف ، ولا يقبل منه اللعان ، لأنها وقت القذف أجنبية محصنة داخلة في عموم قوله تعالى ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ الآية ، والزواج الواقع بعد ذلك لا يغير الحكم الثابت قبله فما يروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، من أنه إن قذفها قبل الزواج ، ثم تزوجها بعد القذف أنهما يلتقيان خلاف الظاهر عندنا من نص الآية الكريمة . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة : اعلم أن التحقيق أن الزوج إن قذف زوجته وأمها بالزنا ، ولم يأت بالبينة أنه يحد للأم حد القذف ، لأنه قذفها بالزنى وهى محصنة غير زوجة ، فهى داخلة فى عموم قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) الآية . وأما البنت فإنه يلاعنها ، لأنه قذفها ، وهى زوجة له ، فتدخل فى عموم قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين) إلى آخر آيات اللعان .

وبما ذكرنا تعلم أن قول بعض الأئمة : إنه إن حد للأم سقط حد البنت وإن لاعن البنت لم يسقط حد الأم ، أنه خلاف التحقيق الذى دلت عليه آيات القرآن ، وقد قال ابن العربى فى القول المذكور : وهذا باطل جدا ، فإنه خصص عموم الآية فى البنت وهى زوجة بحد الأم من غير أثر ولا أصل قاسه عليه ا هـ . وهو ظاهر .

المسألة السادسة : اعلم أن الذى يظهر لنا أنه الصواب أن من قذف زوجته بالزنى ، ثم زنت قبل لعانه لها أنه لا حد عليه ولا لعان ، لأنه تبين بزناها قبل اللعان أنها غير محصنة ، ولا لعان فى قذف غير المحصنة ، كما قدمنا أنه إن قذف أجنبية بالزنى ، ثم زنت قبل أن يقام عليه الحد أن الظاهر لنا سقوط الحد ، لأنه قد تبين بزناها أنها غير محصنة قبل استيفاء الحد ، فلا يحد بقذف من ظهر أنها غير محصنة ، وذكرنا الخلاف فى ذلك .

وحجة من قال : يحد إن كانت أجنبية ويلاعن إن كانت زوجة أن الحد واللعان قد وجبا وقت القذف فلا يسقطان بالزنى الطارىء ، وبينا أن الأظهر سقوط الحد واللعان ، لتبين عدم الإحصان قبل الحد وقبل اللعان والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة : اعلم أن من رمى زوجته الكبيرة التى لا تحمل لكبر سنها أنهما يلتعنان هو لدفع الحد ، وهى لدرء العذاب : وأما إن رمى زوجته الصغيرة التى لا تحمل لصغرها ، فقد قدمنا خلاف العلماء هل يلزمه حد القذف إن كانت صغيرة تطيق الوطء ، ولم تبلغ ؟ فعلى أنه يلزمه الحد يجب عليه أن يلتعن لدفع الحد ، وأما على القول : بأنه لا حد فى قذف الصغيرة مطلقا فلا لعان عليه فى قذفها ، وقد قدمنا الأظهر عندنا فى ذلك . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثامنة : اعلم أنه إن نفى حمل زوجته فقد اختلف أهل العلم ، هل له أن يلاعنها ، وهى حامل لنفى ما فى بطنها عنه ، أولا يجوز له اللعان حتى تضع الولد ؟ فذهب جمهور أهل العلم : إلى أنه يلاعنها وهى حامل وينتفى عنه حملها باللعان . وقال ابن حجر فى الفتح بعد أن ساق أحاديث اللعان: وفيه أن الحامل تلاعن قبل الوضع لقوله فى الحديث « انظروا فإن جاءت » إلخ . كما تقدم فى حديث سهل ، وفى حديث ابن عباس ، وعند مسلم من حديث ابن مسعود ، فجاء يعنى الرجل هو وامرأته فتلاعنا فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لعلها أن تجىء به أسود جعدا فجاءت به أسود جعدا » وبه قال الجمهور ، خلافا لمن أبى ذلك من أهل الرأى معللا بأن الحمل لا يعلم ، لأنه قد يكون نفخة .

وحجة الجمهور: أن اللعان شرع لدفع حد القذف عن الرجل ، ودفع حد الرجم عن المرأة ، فلا فرق بين أن تكون حاملا أو حائلا ، ولذلك شرع اللعان مع الآيسة .

وقد اختلف فى الصغيرة ، والجمهور : على أن الرجل إذا قذفها فله أن يلتعن لدفع حد القذف عنه ، دونها انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر .

وقدقدمنا أن التعان قاذف الصغيرة مبنى على أنه يحد لقذفها ، وقد قدمنا كلام أهل العلم واختلافهم فى حد قاذف الصغيرة المطيقة للوطء ، وذكرنا مايظهر لنا رجحانه من ذلك.

وأما الذين قالوا : لاتلاعن الحامل حتى تضع ولدها ،فقداستدلوا بأمرين :

الأول : أن الحمل لا يتيقن وجوده قبل الوضع ، لأنه قد يكون انتفاخا ، وقد يكون ريحا .

والثانى : هوماجاء فى بعض الروايات فى أحاديث اللعان ، ممايدل على أنه صلى الله عليه وسلم أخر لعان الحامل حتى وضعت، ففى البخارى من حديث ابن عباس : ما نصه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم بين فوضعت شبيها بالرجل الذى ذكرزوجها أنه وجده عندها فلاعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما » الحديث ، قالوا فترتيبه فلاعن بالفاء على قوله : فوضعت شبيها بالرجل إلخ دليل على أن اللعان كان بعد الوضع كما هو مدلول الفاء ، وأجيب من قبل الجمهور عن هذه الرواية بما ذكر ابن حجر فى فتح البارى ، فإنه قال فى كلامه على الرواية المذكورة : ظاهره أن الملاعنة تأخرت إلى وضع المرأة لكن أوضحت أن رواية ابن عباس هذه هى فى القصة فى حديث سهل بن سعد ، وتقدم قبل من حديث سهل أن اللعان وقع بينهما قبل أن تضع ، فعلى هذا تكون الفاء فى قوله : فلاعن معقبة لقوله فأخبره بالذى وجد عليه امرأته ، وهذه الجملة التى ذكرابن حجر أن جملة فلاعن معطوفة عليها مذكورة فى حديث ابن عباس الذى ذكرنا محل الغرض منه .

والذى يظهر لنا أن الحامل تلاعن قبل الوضع لتصريح الأحاديث الصحيحة

بذلك. ولما ذكره ابن حجر في كلامه الذي نقلناه آنفا. والعلم عند الله تعالى .

المسألة التاسعة : اعلم أن أظهر أقوال أهل العلم عندي فيمن طلق امرأته ثم قذفها بعد الطلاق ، أنه إن كان قذفه لها بنفي حمل لم يعلم به إلا بعد الطلاق ، أنه يلاعنها لنفي ذلك الحمل عنه ، وإن كانت بائنا ، وأنه إن قذفها بالزنى بعد الطلاق حد ، ولم يلاعن لأن تأخيره القذف واللعان إلى زمن بعد الطلاق دليل على أنه قاذف والأظهر ولو كان الطلاق رجعيا ، ولم تنقض العدة ، وإن كانت الرجعية في حكم الزوجة لأن طلاقه إياها قبل القذف دليل على أنه لا يريد اللعان ويجلد ، وهو قول ابن عباس . وقيل : يلاعن الرجعية قبل انقضاء العدة ، لأنها في حكم الزوجة ، وهو مذهب أحمد المشهور ورواية أبي طالب عنه ، وبه قال ابن عمر ، وجابر ، وزيد ، والنخعي ، والزهري ، والشافعي ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأي وله وجه من النظر والله أعلم.

وقال القرطبي : لا ملاعنة بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العدة إلا في مسألة واحدة ، وهي أن يكون الرجل غائبا فتأتي امرأته بولد في مغيبه . وهو لا يعلم فيطلقها فتنقضي عدتها ثم يقدم فينفيه ، فله أن يلاعنها هنا بعد العدة . وكذلك لو قدم بعد وفاتها ونفى الولد لاعن لنفسه وهي ميتة بعد مدة من العدة ، ويرثها لأنها ماتت قبل وقوع الفرقة بينهما ا هـ . منه ولا نص فيه وله وجه من النظر .

وقال القرطبي أيضا : إذا قذفها بعد الطلاق نظرت ، فإن كان هناك نسب يريد أن ينفيه ، أو حمل يريد أن يتبرأ منه لاعن ، وإلا لم يلاعن . وقال عثمان البتي: لا يلاعن بحال . وقال أبو حنيفة : لا يلاعن في الوجهين ، لأنها ليست بزوجة ، وهذا ينتقض عليه بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفا بل هذا أولى ، لأن النكاح قد تقدم ، وهو يريد الانتفاء من النسب ، وتبرئته من ولد يلحق به ،

فلابدمن اللعان، وإذالم يكن هناك حمل يرجى ، ولانسب يخاف تعلقه لم يكن اللعان فائدة فلم يحكم به ، وكان قذفا مطلقا داخلاتحت عموم قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) الآية فوجب عليه الحد ، وبطل ماقاله البتى لظهور فساده انتهى كلام القرطبي.

وقدقدمنا أن القول بلعان الرجعية قبل انقضاء العدةله وجه من النظر ، لأنها فى حكم الزوجة ، وذكرنا مايظهرلنا أنه أظهر الأقوال فى ذلك ، وأقوال العلماء ، وفائدة لعانه أن يدفع عنه حد القذف ، وكون الرجعية كالزوجة قبل انقضاء العدة فيتوارثان، ولايجوز له تزوج أختها ، قبل انقضاء العدة ، ولاتزويج رابعة غيرها ، لأنها تكون كالخامسة نظراً إلى أن الرجعية كالزوجة ، يقتضى أن القول بلعان الرجعية قبل انقضاء العدة له وجه من النظر، وقد رأيت كثرة من قال به من أهل العلم ، ووجه القول بعدمه أنه لماطلقها عالما بزناها فى زعمه ، دل ذلك على أنه تارك للعان ، وينبنى على الخلاف المذكور ، مالوادعى أنها زنت بعد الطلاق الرجعى ، وقبل انقضاء العدة ، هل يحكم عليه بأنه قاذف ، لأنه رماها بزنى واقع بعد الفراق أو له أن يلاعنها لنفى الحد عنه بناء على أن الرجعية فى حكم الزوجة .

أماإن قذفها قبل أن يطلقها ثم طلقها بعد القذف، فالأظهرأن له لعانها مطلقا، ولوكان الطلاق بائنا ، لأن القذف وقع وهى زوجة غير مطلقة ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والقاسم بن محمد ، ومكحول ، ومالك ، والشافعى ، وأبو عبيد ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، وقال الحارث العكلى، وجابر ابن زيد، وقتادة والحكم : يجلد . وقال حماد بن أبى سليمان وأصحاب الرأى : لاحدّ ولالعان ، لأن اللعان إنما يكون بين الزوجين وليس هذان بزوجين ولا يحد، لأنه لم يقذف أجنبية .

المسألة العاشرة : اعلم أن أظهر أقوال أهل العلم عندي فيمن ظهر بامرأته حمل ، وهو قائل إنه ليس منه إذا سكت عن نفي ذلك الحمل حتى وضعته ثم قال إنه إنما سكت عن نفيه مدة الحمل رجاء أن يكون ريحاً أو انتفاخاً فينفش أو يسقط ميتاً ، فيستريح بذلك من اللعان أنه يمكن من نفيه بلعان بعد الوضع ، لأن العذر الذى أبدى وجيه جدير بالقبول ، فإن بادر بنفيه فوراً عند وضعه فلا ينبغى أن يختلف فى أن له أن ينفيه بلعان ، وإن سكت عن نفيه بعد الوضع ، ثم أراد أن ينفيه بعد السكوت ، فهل له ذلك أو ليس له ، لأن سكوته بعد الوضع بعد رضى منه بالولد ، فلا يمكن من اللعان بعده . لم أعلم فى هذه المسألة نصا من كتاب ، ولا سنة . والعلماء مختلفون فيها . قال القرطبي : قد اختلف فى ذلك ونحن نقول : إذا لم يكن له عذر فى سكوته ، حتى مضت ثلاثة أيام فهو راض به وليس له نفيه ، وبهذا قال الشافعى ، وقال أيضاً متى أمكنه نفيه على ماجرت به العادة من تمكنه من الحاكم ، فلم يفعل لم يكن له نفيه من بعد ذلك . وقال أبو حنيفة : لا أعتبر مدة . وقال أبو يوسف ، ومحمد : يعتبر فيه أربعون يوماً مدة النفاس قال ابن القصار : والدليل لقولنا هو أن نفى ولده محرم عليه واستلحاق ولد ليس منه ، محرم عليه فلابد أن يوسع عليه لكى ينظر فيه ، ويفكر هل يجوز له نفيه أولا ، وإنما جعلنا الحد ثلاثة ، لأنه أول حد الكثرة ، وآخر حد القلة ، وقد جعلت ثلاثة أيام يختبر فيها حال المصراة ، وكذلك ينبغى أن يكون هنا .

وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارها بأولى من اعتبار مدة الولادة والرضاع ، إذ لا شاهد لهما فى الشريعة ، وقد ذكرنا نحن شاهداً فى الشريعة من مدة المصراة انتهى كلام القرطبي ، ولا يخفى ضعف مااستدل به ابن القصار من علماء المالكية للتحديد بثلاثة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذه المسألة مبنية على الاختلاف فى قاعدة

أصولية ، وهى هل ينزل السكوت منزلة الإقرار أولى . وقد أشار إلى ذلك صاحب مراقى السعود بقوله :

وجعل من سكت مثل من أقر فيه خلاف بينهم قد اشتهر
فالاحتجاج بالسكوتى نمى تعريفه عليه من تقدما
وهو بفقد السخط والضد حرى مع مضى مهلة للنظر

فمن قال : إن السكوت لا يعد رضى. قال : لأن الساكت قد يسكت عن الإنكار مع أنه غير راض ، ومن قال : إنه يعد رضى ، قال لأن سكوته قرينة دالة على رضاه واستأنسوا بقوله صلى الله عليه وسلم فى البكر إذنها صماتها ، وبعضهم يقول تخصيص البكر بذلك ، يدل على أن غيرها ليس كذلك ، والخلاف فى هذه المسألة معروف فى فروع الأئمة وأصولهم ، ومن تتبع فروعهم وجدهم فى بعض الصور يجعلون السكوت كالرضى كالسكوت عن اللعان زمنا بعد العلم بموجبه ، وكالسكوت عن القيام بالشفعة ونحو ذلك ، ويكثر فى فروع مذهب مالك جعل السكوت كالرضى .

ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن عاصم فى رجزه فى أحكام القضاء فى مذهب مالك :

وحاضر لواهب من ماله ولم يغير مارأى من حاله
الحكم منعه القيام بالقضا مجلسه إذ صمته عين الرضى

ولكل واحد من القولين وجه من النظر .

والذى يظهر لنا فى مسألة السكوت عن اللعان أنه إن سكت زمنا يغلب على

الظن فيه عادة أنه لا يسكت فيه إلا راض عند رضى وإلا فلا. ، لأن العرف محكم والعلم عند الله تعالى .

المسألة الحادية عشرة : اعلم أنه إن كان النكاح فاسداً ، وقذفها زوجها بالزنى إن كان لنفى نسب يلحق به فى ذلك النكاح الفاسد ، فلا ينبغى أن يختلف فى أنه يلاعن لنفى النسب عنه ، وإن كان النكاح الفاسد يلحق فيه الولد ولكنه قذفها بالزنى ، وأراد اللعان لنفى الحد عنه ، فالأظهر أن له ذلك لأنها لما صارت يلحق به ولدها صارت فى حكم الفراش . قاله مالك فى المدونة ، وقال القرطبى : يلاعن فى النكاح الفاسد زوجته ، لأنها صارت فراشاً ويلحق النسب فيه مجرى اللعان فيه . اهـ . منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى أن النكاح الفاسد إن كان مجمعا على فساده ولا يلحق الولد فيه أن الزوج القاذف فيه لا يمكن من اللعان ، بل يحد حد القذف إن لم يأت بأربعة شهداء ، وهذا ظاهر لا يخفى والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية عشرة : اعلم أن أظهر أقوال أهل العلم عندى فى الذى يقذف زوجته الحامل بالزنى ، ثم يأتى بأربعة شهداء على زناها : أن له أن يلاعن لنفى الحمل مع الشهود ، لأن شهادة البينة لا تفيد الزوج إلا درأ الحد عنه . أما رفع الفراش ، ونفى الولد فلا بد فيه من اللعان .

وقال القرطبى رحمه الله : اختلفوا أيضا هل للزوج أن يلاعن مع شهوده ؟ فقال مالك والشافعى : يلاعن كان له شهود أو لم يكن ، لأن الشهود ليس لهم عمل فى غير درإ الحد ، وأما رفع الفراش ونفى الولد فلا بد فيه من اللعان .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : إنما جعل اللعان إذا لم يكن له شهود غير نفسه لقوله تعالى (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) اهـ . منه .

المسألة الثالثة عشرة : قال القرطبي أيضا فى تفسيره : يفتقر اللعان إلى أربعة أشياء عدد الألفاظ ، وهو أربع شهادات على ما تقدم ، والمكان وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فبين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة وإن كان فى سائر البلدان ففى مساجدها ، وإن كانا كافرين بعث بهما إلى الموضع الذى يعتقدان تعظيمه إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففى بيت النار، وإن كانا لادين لهما مثل الوثنيين ، فإنه يلاعن بينهما فى مجلس حكمه والوقت ، وذلك بعد صلاة العصر وجمع الناس ، وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعدا ، فاللفظ وجمع الناس مشروطان ، والزمان والمكان مستحبان منه اهـ مع أن مشهور مذهب مالك الذى هو مذهب القرطبي أنه لاملاعنة بين كافرين وبعض ماذكره لايخلو من خلاف .

المسألة الرابعة عشرة : اعلم أن الزوج لايجوز له نفى الولد بلعان ، إلا بموجب يقتضى أن ذلك الولد ليس منه كأن تكون الزوجة زنت ، قبل أن يمسها الزوج أصلا ، أوزنت بعد أن وضعت ، ولم يمسها الزوج بعد الوضع حتى زنت أوزنت فى طهر لم يمسها فيه ، لأن الحيضة قبل الزنى تدل على أن الحمل من الزنى الواقع بعد الحيض ، ولايجوز له الاعتماد فى نفى الحمل باللعان على شبه الولد بغيره ولا بسواد الولد كما قدمنا ، ولا بعزل لأن الماء قد يسبق نزعه فتحبل منه ، ولا بوطء فى فخذين لأن الماء يسيل إلى الفرج فتحمل منه كما قدمنا.

المسألة الخامسة عشرة : اعلم أن كل ولدين بينهما أقل من ستة أشهر فهما توأمان ، فلا يجوز نفى أحدهما ، دون الآخر ، فإن أقر الزوج بأحدهما لزمه قبول الآخر ، والظاهر أنه إن نفى أحدهما مع اعترافه بالثانى حد لقذفه كما قاله مالك وأصحابه ، ومن وافقهم .

وقد أوضحنا فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى:(الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك ، ويعلم منه أن كل ولدين بينهما أقل من ستة أشهر فهما توأمان .

وقال ابن قدامة فى المغنى : وإن ولدت امرأته توأمين وهو أن يكون بينهما دون ستة أشهر ، فاستلحق أحدهما ، ونفى الآخر لحقا به ، لأن الحمل الواحد ، لايجوز أن يكون بعضه منه ، وبعضه من غيره ، فإذا ثبت نسب أحدهما منه ثبت نسب الآخر ضرورة ، فجعلنا مانفاه تابعاً لما استلحقه ، ولم نجعل ما أقر به تابعاً لما نفاه ، لأن النسب يحتاط لإثباته لالنفيه ، ولهذا لو أتت امرأته بولد يمكن أن يكون منه ، ويمكن أن يكون من غيره ألحقناه به احتياطاً ، ولم نقطعه عنه احتياطا لنفيه إلى أن قال : وإن استلحق أحد التوأمين ، وسكت عن الآخر لحقه ، لأنه لو نفاه للحقه ، فإذا سكت عنه كان أولى ، ولأن امرأته متى أتت بولد لحقه مالم ينفه عنه بلعان ، وإن نفى أحدهما ، وسكت عن الآخر لحقاه جميعاً .

فإن قيل : ألا نفيتم المسكوت عنه ، لأنه قد نفى أخاه ، وهما حمل واحد .

قلنا : لحوق النسب مبنى على التغليب ، وهو يثبت لمجرد الإمكان ، وإن كان لم يثبت الوطء ولا ينبغى الإمكان للنفى فافترقا فإن أتت بولد فنفاه ولاعن لنفيه ، ثم ولدت آخر لأقل من ستة أشهر لم ينتف الثانى باللعان الأول ، لأن اللعان تناول الأول وحده ، ولا يحتاج فى نفى الثانى إلى لعان ثان ، ويحتمل أن ينتفى بنفيه من غير حاجة إلى لعان ثان ، لأنهما حمل واحد وقد لاعن لنفيه مرة فلايحتاج إلى لعان ثان ذكره القاضى. اهـ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا الأخير هو الأظهر ، لأن الحمل الواحد لايحتاج إلى لعانين ثم قال فى المغنى متصلا بكلامه الأول: فإن أقر بالثانى

لحقه هو والأول لما ذكرناه ، وإن سكت عن نفيه لحقاه أيضاً ، فأما إن نفى الولد باللعان ثم أتت بولد آخر بعد ستة أشهر فهذا من حمل آخر ، فإنه لايجوز أن يكون بين ولدين من حمل واحد مدة الحمل ، ولو أمكن لم تكن هذه مدة حمل كامل . فإن نفى هذا الولد باللعان انتفى ، ولا ينتفى بغير اللعان لأنه حمل منفرد ، وإن استلحقه أو ترك نفيه لحقه ، وإن كانت قد بانت باللعان ، لأنه يمكن أن يكون قد وطئها بعد وضع الأول. وإن لاعنها قبل وضع الأول ، فأتت بولد ثم ولدت آخر بعد ستة أشهر لم يلحقه الثانى ، لأنها بانت باللعان وانقضت عدتها بوضع الأول ، وكان حملها الثانى بعد انقضاء العدة فى غير نكاح فلم يحتج إلى نفيه . ثم قال فى المغنى أيضاً : وإن مات أحد التوأمين فله أن يلاعن لنفى نسبهما ، وبهذا قال الشافعى . وقال أبو حنيفة يلزمه نسب الحى ، ولا يلاعن إلا لنفى الحد ، لأن الميت لا يصح نفيه باللعان ، فإن نسبه قد انقطع بموته ، فلاحاجة إلى نفيه باللعان ، كما لو ماتت امرأته فإنه لا يلاعنها بعد موتها لكون النكاح قد انقطع ، وإذا لم ينتف الميت لم ينتف الحى، لأنهما حمل واحد ولنا أن الميت ينسب إليه ، ويقال ابن فلان ويلزمه تجهيزه وتكفينه. فكان له نفى نسبه وإسقاط مؤنته كالحى ، وكما لو كان للميت ولد. اهـ كلام صاحب المغنى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الأظهر أنه إن كان الولد الميت الذى يراد نفيه بعد الموت ولد كان حكمه فى اللعان كحكم الحى ، لأن ولده الحى لا ينتفى إلا بنفى أبيه ، فله اللعان لنفى نسب الميت لينتفى عنه ولده ، وهذا إن قلنا إن له أن يلاعن بعد هذه المدة الطويلة ، لأنه لم ينف الولد الميت إلا بعد أن عاش عمراً يولد له فيه ، وقد يكون معذورا بالغيبة زمنا طويلا ، وكذلك عند من يقول : إن السكون لا يسقط اللعان مطلقا كما تقدم ، وكذلك إن أريد إلزامه بتكفين الولد الميت وتجهيزه فالأظهر أن له ينفيه عنه بلعان ليتخلص من مئونة تجهيزه

وتكفينه . والظاهر أنه إن نفى ولداً بعد موته ، فإن كانت أمه حية فلا بد من اللعان ، لأنه قاذف أمه ، وإن كانت الأم ميتة جرى على الخلاف فى حد من قذف ميتة ، فعلى القول بالحد فله اللعان ، وعلى القول بعدمه فلا لعان، وقد قدمنا الخلاف فى ذلك. ويعتضد ما ذكرنا بما تقدم قريباً من أن له اللعان لنفى الولد لأنه يجتمع به موجبان للعان، وهما إسقاط الحد ونفى الولد ،وبه تعلم أن الأظهر عدم النظر إلى الولد الميت هل ترك مالا أو لا ؟ والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

اعلم أن أهل العلم اختلفوا فى توأمى الملاعنة المنفيين باللعان ، هل يتوارثان توارث الشقيقين أوالأخوين لأم ؟ وقال ابن الحاجب من المالكية :هما شقيقان، وقال خليل فى التوضيح وهو شرحه لمختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى : إن كونهما شقيقين هو مشهور مذهب مالك . وقال المغيرة من المالكية :يتوارثان توارث الأخوين لأم كالمشهور عند المالكية فى توأمى الزانية والمغتصبة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذى يظهر لنا أن توأمى الملاعنة يتوارثان توارث الأخوين لأم ، وأنهما لايحكم لهما بحكم الشقيقين ، لأنهما لايلحقان بأب معروف ، وإذا لم يكن لهما أب معروف فلا وجه لكونهما شقيقين ، ويوضح ذلك أنهما إنما ينسبان لأمهما، وبه تعلم أن مشهور مذهب مالك فى هـذه المسألة خلاف الأظهر ، وأما قول ابن نافع من المالكية : إن توأمى الزانية شقيقان ، فهو خلاف التحقيق لأن الزانى لايلحق به نسب حتى يكون أبا لابنه من الزنى ، والرواية عن ابن القاسم بنحو قول ابن نافع ظاهرها السقوط كما ترى ، وأما ماقاله ابن رشد فى البيان من أن توأمى المسبية ، والمستأمنة شقيقان، فوجهه ظاهر والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة عشرة : اعلم أنه إن تزوجها ثم قذفها بعد النكاح قائلا: إنها زنت قبل أن يتزوجها ، فإن أهل العلم اختلفوا أهل له لعانها نظراً إلى أن القذف وقع وهى زوجته أو يحد لقذفها ولا يمكن من اللعان نظراً إلى أنها وقت الزنى الذى قذفها به أجنبية منه ، وليست بزوجة .

قال ابن قدامة فى المغنى : وإن قذفها بعد تزوجها بزنى أضافه إلى ماقبل النكاح حد ولم يلاعن ، سواء كان ثم ولد أولم يكن وهوقول مالك وأبى ثور . وروى ذلك عن سعيد بن المسيب والشعبي .وقال الحسن وزرارة بن أبى أوفى وأصحاب الرأى : له أن يلاعن لأنه قذف امرأته ، فيدخل فى عموم قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) الآية ، ولأنه قذف امرأته فأشبه مالوقذفها ولم يضفه إلى ماقبل النكاح ، وحكى الشريف أبوجعفرعن أحمد رواية أخرى كذلك . وقال الشافعى : إن لم يكن ثم ولد لم يلاعن وإن كان بينهما ولد ففيه وجهان ، ولنا أنه قذفها قذفاً مضافاً إلى حال البينونة فأشبه مالوقذفها وهى بائن وفارق قذف الزوجة ، لأنه محتاج إليه ، لأنها غاظته وخانته ، وإن كان بينهما ولد فهو محتاج إلى نفيه ، وههنا إذا تزوجها وهو يعلم زناها فهو المفرط فى نكاح حامل من الزنى، فلا يشرع له طريق إلى نفيه اه من المغنى .

قال مقيده عفا الله عنهوغفر له : أظهر الأقوال عندى فى هذه المسألة أنه إن لم يكن ولد ، فلا يمكن الزوج من اللعان ، ويحد لقذفها إن لم يأت بأربعة شهداء ، لأنه قذفها وهى أجنبية ، فيدخل فى عموم قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) الآية لأنه قاذف محصنة ليست بزوجة ،والنكاح الطارىء لا يغير الحكم الذى تقرر قبله كما ترى . وإن كان هناك ولد يلحق به لوسكت، وهو يعلم أنه ليس منه استناداً إلى بعض الأمور المسوغة لنفى الولد التى قدمناها أن له أن يلاعن لنفى الولد .

والحاصل : أنه له اللعان لنفى الولد لا لدفع الحد فيما يظهر لنـــا . والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة عشرة : فيما لوقال لامرأته : أنت طالق ثلاثا يازانية ، فقيل : يلاعن ، وقيل : لا يلاعن ،لأن القذف إنما وقع بعد البينونة بالثلاث على القول بالبينونة بها ، وهو قول جمهور أهل العلم منهم الأئمة الأربعة وأصحابهم .

قال ابن قدامة فى المغنى : نقل مهنأ قال سألت أحمد عن رجل قال لامرأته: أنت طالق يازانية ثلاثا. فقال : يلاعن ، قلت : إنهم يقولون يحد، ولا يلزمها إلا واحدة ، قال: بئس مايقولون فهذا يلاعن لأنه قذفها قبل الحكم ببينونتها، فأشبه قذف الرجعية. اهـ منه وله وجه من النظر. والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة عشرة : فيما لوجاءت زوجته بولد فنفاه فصدقته الزوجة فى أن الولد من غيره ، فعلى الزوجة حد الزنى .

واختلف أهل العلم هل ينتفى نسب الولد بتصادقهما بدون لعان ، أو لا ينتفى إلا بلعان. وكلا القولين مروى عن مالك ، وأكثر الرواة عنه أنه لا ينتفى إلا بلعان .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى أنه لا ينتفى عن الزوج إلا بلعانه ، ولا يسقط حقه من لحوق نسبه بتصديق أمه للزوج ، لأن للولد حقاً فى لحوق نسبه فلا يسقط إلا بلعان الزوج ، وأما الزوجة فلا يصح منها اللعان فى هذه الصورة لأنها مقرة بصدق الزوج فى دعواه .

المسألة الثامنة عشرة : اعلم أن الأظهر عندنا فيمن قذف امرأته فطالبت بحده لقذفها فأقام شاهدين على إقرارها بالزنى الذى قذفها به أن حكم هذه المسألة مبنى على الاختلاف فى الإقرار بالزنى . هل يثبت بشاهدين كغيره من

سائر الأقارير أو لا يثبت إلا بأربعة شهود. فمن قال: يثبت بشاهدين يلزم قوله: إن الرجل لا يحد لقذفها لأن إقرارها بالزنى ثبت بالشاهدين، وعلى القول الآخر يحد، لأن إقرارها لم يثبت هذا هو الأظهر عندنا. والعلم عند الله تعالى.

المسألة التاسعة عشرة: اعلم أن الأظهر أنهما إن شهدا عليه بأنه قذف امرأته وقذفهما أعني الشاهدين لم تقبل شهادتهما بقذف المرأة، لأنهما لما ادعيا عليه أنه قذفهما صارا له عدوين، لأن القذف يستوجب العداوة، قال ابن قدامة في المغني: فإن شهد شاهدان أنه قذف فلانة وقذفنا لم تقبل شهادتهما لاعترافهما بعداوته لهما وشهادة العدو لا تقبل على عدوه، فإن أبرأه وزالت العداوة ثم شهدا عليه بذلك القذف لم تقبل لأنها ردت للتهمة، فلم تقبل بعد كالفاسق إذا شهد فردت شهادته لفسقه ثم تاب وأعادها، ولو أنهما ادعيا عليه أنه قذفهما ثم أبرآه وزالت العداوة، ثم شهدا عليه بقذف زوجته قبلت شهادتهما لأنهما لم يردا في هذه الشهادة، ولو شهدا أنه قذف امرأته ثم ادعيا بعد ذلك أنه قذفهما فإن أضافا دعواهما إلى ما قبل شهادتهما، بطلت شهادتهما لاعترافهما أنه كان عدواً لهما حين شهدا عليه، وإن لم يضيفاها إلى ذلك الوقت، وكان ذلك قبل الحكم بشهادتهما لم يحكم بها، لأنه لا يحكم عليه بشهادة عدوين، وإن كانت بعد الحكم لم يبطل، لأن الحكم تم قبل وجود المانع كظهور الفسق، وإن شهدا أنه قذف امرأته وأمنا لم تقبل شهادتهما، لأنها ردت في البعض للتهمة، فوجب أن ترد للكل وإن شهدا على أبيهما أنه قذف ضرة أمهما قبلت شهادتهما وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والشافعي في الجديد. وقال في القديم: لا تقبل لأنهما يجران إلى أمهما نفعا، وهو أنه يلاعنها فتبين ويتوفر على أمهما وليس بشيء، لأن لعانه لها ينبني على معرفته بزناها لا على الشهادة عليه بما لا يعترف به، وإن شهدا بطلاق الضرة ففيه وجهان.

أحدهما: لا تقبل لأنهما يجران إلى أمهما نفعا وهو توفيره على أمهما:

والثانى : تقبل لأنهما لا يجران إلى نفسهما نفعا اهـ من المغنى . وكله لا نص فيه ولا يخلو بعض من خلاف ، والأظهر عدم قبول شهادتهما بطلاق ضرة أمهما لأنهما متهمان بجر النفع لأمهما ، لأن طلاق الضرة فيه نفع لضرتها كما لا يخفى وشهادة الإنسان بما ينفع أمه لا تخلو من تهمة كما ترى. والعلم عند الله تعالى.

المسألة العشرون : فى اختلاف اللغات أو الأزمنة فى القذف أو الإقرار به .

قال ابن قدامة فى المغنى : ولو شهد شاهد أنه أقر بالعربية أنه قذفها وشهد آخر أنه أقر بذلك بالعجمية ، تمت الشهادة ، لأن الاختلاف فى العربية والعجمية عائد إلى الإقرار ، دون القذف ، ويجوز أن يكون القذف واحداً والإقرار به فى مرتين. وكذلك لو شهد أحدهما أنه أقر يوم الخميس بقذفها ، وشهد آخر أنه أقر بذلك يوم الجمعة تمت الشهادة لما ذكرناه، وإن شهد أحدهما أنه قذفها بالعربية وشهد الآخر أنه قذفها بالعجمية ، أو شهد أحدهما أنه قذفها يوم الخميس ، وشهد الآخر أنه قذفها يوم الجمعة أو شهد أحدهما أنه أقر أنه قذفها بالعربية أو بالعجمية أو شهد أحدهما ، أنه أقر أنه قذفها بالعربية ، أو يوم الخميس وشهد الآخر أنه أقر أنه قذفها بالعجمية ، أو يوم الجمعة ، أو يوم الخميس وشهد الآخر أنه قذفها يوم الجمعة ففيه وجهان :

أحدهما : تكمل الشهادة وهو قول أبى بكر ومذهب أبى حنيفة ، لأن الوقت ليس ذكره شرطا فى الشهادة ، وكذلك اللسان فلم يؤثر الاختلاف كما لو شهد أحدهما أنه أقر بقذفها يوم الخميس بالعربية وشهد الآخر أنه أقر بقذفها يوم الجمعة بالعجمية ، والآخر لا تكمل الشهادة ، وهو مذهب الشافعى ، لأنهما قذفان لم تتم الشهادة على واحد منهما فلم يثبت كما لو شهد أحدهما أنه تزوجها يوم الخميس وشهد الآخر أنه تزوجها يوم الجمعة وفارق الإقرار بالقذف فإنه يجوز أن يكون المقر به واحداً أقر به فى وقتين بلسانين انتهى من المغنى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذه المسألة هي المعروفة عند العلماء بالشهادة هل تلفق في الأفعال والأقوال ، أو لا تلفق وبعضهم يقول تلفق في الأقوال ، دون الأفعال ، وبعضهم يقول تلفق فيهما والفرق بينهما ليس بظاهر ، وقولهم : هما قذفان لم تتم الشهادة على واحد منهما قد يقال فيه ، وكذلك الإقرار المختلف وقته أو لسانه هما إقراران لم تتم الشهادة على واحد منهما ، وهذه المسألة لا نص فيها وكل من الأقوال فيها له وجه من النظر ، والخلاف المذكور وعدم النص لا يبعد أن يكون شبهة تدرأ الحد. والعلم عند الله تعالى .

المسألة الواحدة والعشرون :اعلم أن الذي يظهر لنا أن الصواب أن من نفى حمل امرأته باللعان أنه ينتفي عنه ، ولا يلزمه لعان آخر بعد وضعه. وهذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى وبه تعلم أن قول أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل الكوفة ، وقول الخرقي ، ومن وافقه من الحنابلة أن الحمل لا يصح نفيه باللعان ، فلابد من اللعان بعد الوضع ، لأن الحمل قبل الوضع غير محقق ، لاحتمال أن يكون ريحا خلاف التحقيق فيما يظهر لنا من انتفاء الحمل باللعان ، كما هو قول مالك والشافعي ، ومن وافقهم من أهل الحجاز كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني ، وقصة هلال بن أمية رضي الله عنه صريحة في أن النبي صلى الله عليه وسلم نفى عنه حمل امرأته باللعان ، ولم يلزمه بإعادة اللعان بعد الوضع ، والرواية التي توهم أن لعانه كان بعد الوضع أوضحنا الجواب عنها فيما تقدم بما أجاب به عنها ابن حجر في الفتح. والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية والعشرون : في حكم من قذف امرأته باللواط ، وقد أوضحنا في سورة هود في الكلام على قصة قوم لوط أقوال أهل العلم في عقوبة اللائط وبينا أن أقواها دليلا قتل الفاعل والمفعول به ، وعليه فلا حد بالقذف باللواط إنما فيه التعزير ، وذكرنا قول من قال من أهل العلم أن اللواط حكمه حكم الزنى

وعلى هذا القول يلاعن القاذف باللواط وإن امتنع من اللعان حد والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة والعشرون : فى حكم من ولدت امرأته ولدا لا يمكن أن يكون منه فإن الولد لا يلحقه ولا يحتاج إلى نفيه بلعان ، لأنه معلوم أنه ليس منه كما لو تزوج امرأة فجاءت بولد كامل لأقل من ستة أشهر لأن أقل أمد الحمل ستة أشهر كما أوضحناه فى سورة الرعد ، ولا خلاف فى ذلك بين أهل العلم ، وكـكون الزوج صبيا لا يولد لمثله عادة لصغره ونحو ذلك .

واعلم أن الذى يظهر لنا أنه هو الصواب أن كل ولد جاءت به امرأة الصغير قبل بلوغه أنه لا يلحق به ، ولا يحتاج إلى لعان ، وبه تعلم أن قول من قال من الحنابلة ، ومن وافقهم : إن الزوج إن كان ابن عشر سنين لحقه الولد وكذلك تسع سنين ونصف ، كما قاله القاضى من الحنابلة ، إنه خلاف التحقيق واستدلالهم على لحوق الولد بالزوج الذى هو ابن عشر سنين بحديث « واضربوهم على الصلاة لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » ظاهر السقوط ، وإن اعتمده ابن قدامة مع علمه وغيره من الحنابلة .

فالتحقيق إن شاء الله تعالى هو ما قاله أبو بكر من الحنابلة من أنه لا يلحق به الولد حتى يبلغ وهو ظاهر لا يخفى ، وكما لو تزوج امرأة فى مجلس ، ثم طلقها فيه قبل غيبته عنهم ثم أتت امرأته بولد لستة أشهر من حين العقد أو تزوج مشرقى مغربية أو عكسه ثم مضت ستة أشهر وأتت بولد لم يلحقه . قال ابن قدامة فى المغنى : وبذلك قال مالك والشافعى وقال أبو حنيفة : يلحقه نسبه ، لأن الولد إنما يلحقه بالعقد ومدة الحمل ألا ترى أنكم قلتم إذا مضى زمان الإمكان لحق الولد ، وإن علم أنه لم يحصل منه الوطء . انتهى منه .

قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له : التحقيق إن شاء الله عدم لحوق الولد

فيما ذكر للعلم بأنه ليس منه ولا حاجة لنفيه . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة والعشرون : اعلم أن أظهر الأقوال وأقواها دليلا ، أن المتلاعنين يتأبد التحريم بينهما ، فلا يجتمعان أبداً ، وقد جاءت بذلك أحاديث منها ما رواه أبو داود من حديث سهل بن سعد ، وفيه فمضت السنة بعد فى المتلاعنين أن يفرق بينهما ، ثم لا يجتمعان أبدا . انتهى .

وقال فى نيل الأوطار : فى هذا الحديث سكت عنه أبو داود ، والمنذرى ورجاله رجال الصحيح ، ومنها ما رواه الدارقطنى عن سهل أيضاً وفيه : « ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال : لا يجتمعان أبداً » انتهى منه بواسطة نقل المجد فى المنتقى ، وقال فيه صاحب نيل الأوطار وفى إسناده عياض ابن عبد الله ، قال فى التقريب : فيه لين ، ولكنه قد أخرج له مسلم . اهـ .

ومنها ما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبدا » انتهى منه بواسطة نقل المجد أيضاً .

ومنها ما رواه الدارقطنى أيضاً ، عن على رضى الله عنه قال : مضت السنة فى المتلاعنين أن لا يجتمعا أبدا ، وما رواه الدارقطنى أيضاً ، عن على ، وابن مسعود قالا : مضت السنة أن لا يجتمع المتلاعنان ، وقال صاحب نيل الأوطار فى حديث ابن عباس : أخرج نحوه أبو داود فى قصة طويلة ، وفى إسنادها عباد بن منصور وفيه مقال ، وقال فى حديث على وابن مسعود أخرجهما أيضاً عبد الرزاق وابن أبى شيبة . انتهى منه .

وبه تعلم أن تأبيد التحريم أصوب من قول من قال من العلماء إن أكذب نفسه حد ، ولا يتأبد تحريمها عليه ، ويكون خاطباً من الخطاب وهو مروى عن أبى حنيفة ومحمد وسعيد بن المسيب والحسن ، وسعيد بن جبير ، وعبد العزيز ابن أبى سلمة ، والأظهر أنه إن أكذب نفسه لحق به الولد وحد خلافا ، لعطاء القائل : إنه لا يحد .

تنبيـــه

اعلم أن أقوال أهل العلم فى فرقة اللعان قدمناها مستوفاة فى سورة البقرة فى كلامنا الطويل على آية (الطلاق مرتان) الآية ، وقد قدمنا كلام أهل العلم واختلافهم فى لعان الأخرس فى سورة مريم ، ولنكتف بما ذكرنا من الأحكام المتعلقة بهذه الآية ، ومن أراد استقصاء مسائل اللعان فلينظر كتب فروع المذاهب الأربعة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية ، أنه لولا فضله ورحمته ، ما زكا أحد من خلقه ولكنه بفضله ورحمته يزكى من يشاء تزكيته من خلقه .

ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحداً أن يزكى نفسه بحال من الأحوال ، وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء) الآية . وقوله تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) .

والزكاة فى هذه الآية : هى الطهارة من أدناس الشرك ، والمعاصى .

وقوله : (ولكن الله يزكى من يشاء) أى يطهره من أدناس الكفر والمعاصى وبتوفيقه وهدايته إلى الإيمان والتوبة النصوح ، والأعمال الصالحة .

وهذا الذى دلت عليه هذه الآيات المذكورة لا يعارضه قوله تعالى : (قد أفلح من زكاها) ولا قوله : (قد أفلح من تزكى) على القول بأن معنى تزكى

تطهر من أدناس الكفر والمعاصى ، لا على أن المراد بها خصوص زكاة الفطر ، ووجه ذلك فى قوله : من زكاها أنه لا يزكيها إلا بتوفيق الله وهدايته إياه للعمل الصالح ، وقبوله منه .

وكذلك الأمر فى قوله : (قد أفلح من تزكى) كما لا يخفى .

والأظهر أن قوله : (ما زكى منكم من أحد) الآية : جواب لولا التى تليه ، خلافاً لمن زعم أنه جواب لولا فى قوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) وقد تكرر فى الآيات التى قبل هذه الآية حذف جواب لولا ، لدلالة القرائن عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

نزلت هذه الآية الكريمة فى أبى بكر رضى الله عنه ، ومسطح بن أثاثة ابن عباد بن المطلب ، وكان مسطح المذكور من المهاجرين وهو فقير ، وكانت أمه ابنة خالة أبى بكر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقرابته وهجرته ، وكان ممن تكلم فى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالإفك المذكور فى قوله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الآية ، وهو ما رموها به من أنها فجرت مع صفوان بن المعطل السلمى رضى الله عنه .

وقصة الإفك معروفة مشهورة ثابتة فى عشر آيات من هذه السورة الكريمة ، وفى الأحاديث الصحاح ، فلما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى الآيات المذكورة ، حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح ، ولا ينفعه بنافعة بعد

ما رمى عائشة بالإفك ظلماً وافتراء ، فأنزل الله فى ذلك : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) الآية. وقوله : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) أى لا يحلف فقوله : يأتل وزنه يفتعل من الألية وهى اليمين ، تقول العرب آلى يؤلى وائتلى يأتلى إذا حلف ، ومنه قوله تعالى : (للذين يؤلون من نسائهم) أى يحلفون مضارع آلى يؤلى إذا حلف . ومنه قول امرىء القيس :

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل

أى حلفت حلفة . وقول عاتكة بنت زيد العدوية ترثى زوجها عبد الله ابن أبى بكر رضى الله عنهم :

فآليت لا تنفك عينى حزينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

والألية اليمين ، ومنه قول الآخر يمدح عمر بن عبد العزيز :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

أى لا يحلف أصحاب الفضل والسعة : أى الغنى كأبى بكر رضى الله عنه ، أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله كمسطح بن أثاثة . وقوله : أن يؤتوا : أى لا يحلفوا عن أن يؤتوا ، أولا يحلفوا ألا يؤتوا وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وأن وصلتهما مطرد . وكذلك حذف لا النافية قبل المضارع بعد القسم ، ولا يؤثر فى ذلك هنا كون القسم منها عنه . ومفعول يؤتوا الثانى محذوف : أى أن يؤتوا أولى القربى النفقة والإحسان ، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه .

وقال بعض أهل العلم قوله : ولا يأتل : أى لا يقصر أصحاب الفضل ، والسعة كأبى بكر فى إيتاء أولى القربى كمسطح ، وعلى هذا فقوله يأتل يفتعل من ألا يألوا فى الأمر إذا قصر فيه وأبطأ .

ومنه قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا) أى لا يقصرون فى مضرتكم ، ومنه بهذا المعنى قول الجعدى :

وأشمط عريان يشد كتافه يلام على جهد القتال وما ائتلا

وقول الآخر :

وإن كنانى لنساء صدق فما آلى بنى ولا أساءوا

فقوله : فما آلى بنى : يعنى ماقصروا ، ولا أبطؤا والأول هو الأصح . لأن حلف أبى بكر ألا ينفع مسطحا بنافعة ، ونزول الآية الكريمة فى ذلك الحلف معروف . وهذا الذى تضمنته هذه الآية الكريمة من النهى عن الحلف عن فعل البر من إيتاء أولى القربى والمساكين والمهاجرين ، جاء أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) أى لا تحلفوا بالله عن فعل الخير ، فإذا قيل لكم : اتقوا وبروا، وأصلحوا بين الناس قلتم : حلفنا بالله لا نفعل ذلك ، فتجعلوا الحلف بالله سبباً للامتناع من فعل الخير على الأصح فى تفسير الآية .

وقد قدمنا دلالة هاتين الآيتين على المعنى المذكور ، وذكرنا ما يوضحه من الأحاديث الصحيحة فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ فيه الأمر من الله للمؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا ـ وأصل العفو : من عفت الريح الأثر إذا طمسته .

والمعنى : فليطمسوا آثار الإساءة بحلمهم وتجاوزهم ، والصفح ، قال بعض أهل العلم مشتق من صفحة العنق أى أعرضوا عن مكافأة إساءتهم

حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق ، معرضين عنها . وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبينا فى مواضع أخر كقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس ، من صفات أهل الجنة ، وكفى بذلك حثاً على ذلك . ودلت أيضاً : على أن ذلك من الإحسان الذى يحب الله المتصفين به وكقوله تعالى (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) وقد بين تعالى فى هذه الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى ، وكفى بذلك حثا عليه . وكقوله تعالى : (فاصفح الصفح الجميل) وكقوله : (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) دليل على أن العفو والصفح عن المسىء المسلم من موجبات غفران الذنوب ، والجزاء من جنس العمل ، ولذا لما نزلت قال أبو بكر : بلى والله نحب أن يغفر لنا ربنا ، ورجع للإنفاق على مسطح ، ومفعول أن يغفر الله محذوف للعلم به : أى يغفر لكم ذنوبكم .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أولى القربى) أى أصحاب القرابة ، ولفظة أولى اسم جمع لا واحد له من لفظه يعرب إعراب الجمع المذكر السالم .

فائدة

فى هذه الآية الكريمة ، دليل على أن كبائر الذنوب لاتحبط العمل الصالح ، لأن هجرة مسطح بن أثاثة من عمله الصالح ، وقذفه لعائشة من الكبائر ولم

يبطل هجرته لأن الله قال فيه بعد قذفه لها (والمهاجرين فى سبيل الله) فدل ذلك على أن هجرته فى سبيل الله ، لم يحبطها قذفه لعائشة رضى الله عنها .

قال القرطبي فى هذه الآية : دليل على أن القذف وإن كان كبيرا لا يحبط الأعمال ، لأن الله تعالى وصف مسطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان ، وكذلك سائر الكبائر ، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله ، قال تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) اهـ .

وما ذكر من أن فى الآية وصف مسطح بالإيمان لم يظهر من الآية ، وإن كان معلوما .

وقال القرطبي أيضا : قال عبدالله بن المبارك : هذه أرجى آية فى كتاب الله . ثم قال بعد هذا : قال بعض العلماء ، هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ . وقيل : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) وقد قال تعالى فى آية أخرى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) فشرح الفضل الكبير فى هذه الآية ، وبشر به المؤمنين فى تلك .

ومن آيات الرجاء قوله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الآية . وقوله تعالى : (الله لطيف بعباده) وقال بعضهم : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته فى النار. انتهى كلام القرطبي .

وقال بعض أهل العلم : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل ، آية الدين :

وهى أطول آية فى القرآن العظيم ، وقد أوضح الله تبارك وتعالى فيها الطرق الكفيلة بصيانة الدين من الضياع ، ولو كان الدين حقيرا كما يدل عليه قوله تعالى فيها : (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) الآية ، قالوا : هذا من المحافظة فى آية الدين على صيانة مال المسلم ، وعدم ضياعه ، ولو قليلا يدل على العناية التامة بمصالح المسلم ، وذلك يدل على أن اللطيف الخبير لا يضيعه يوم القيامة عند اشتداد الهول ، وشدة حاجته إلى ربه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) .

فقد بين تعالى فى هذه الآية الكريمة أن إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب ، دليل على أن الله اصطفاها فى قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وبين أنهم ثلاثة أقسام :

الأول : الظالم لنفسه ، وهو الذى يطيع الله ، ولكنه يعصيه أيضا فهو الذى قال الله فيه (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) .

والثانى : المقتصد وهو الذى يطيع الله ، ولا يعصيه ، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات .

والثالث : السابق بالخيرات : وهو الذى يأتى بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التى هى غير واجبة ، وهذا على أصح

الأقوال فى تفسير الظالم لنفسه ، والمقتصد والسابق ، ثم إنه تعالى بين أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم ، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لا يخلف الميعاد فى قوله : (جنات عدن يدخلونها) إلى قوله : (ولا يمسنا فيها لغوب) والواو فى يدخلونها شاملة للظالم ، والمقتصد والسابق على التحقيق . ولذا قال بعض أهل العلم : حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين ، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة ، وأولهم الظالم لنفسه يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن ، ولم يبق من المسلمين أحد خارج عن الأقسام الثلاثة ، فالوعد الصادق بالجنة فى الآية شامل لجميع المسلمين ولذا قال بعدها متصلا بها (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور) إلى قوله (فما للظالمين من نصير) .

واختلف أهل العلم فى سبب تقديم الظالم فى الوعد بالجنة على المقتصد والسابق ، فقال بعضهم : قدم الظالم لئلا يقنط ، وأخر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط . وقال بعضهم : قدم الظالم لنفسه ، لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم لأن الذين لم تقع منهم معصية أقل من غيرهم . كما قال تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، أنهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وبين فى غير هذا الموضع أن بعض أجزاء الكافر تشهد عليه يوم القيامة غير اللسان كقوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)

وقوله تعالى : (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) إلى قوله تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله (يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أردا كم فأصبحتم من الخاسرين) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ .

المراد بالدين هنا الجزاء ، ويدل على ذلك قوله : يوفيهم ، لأن التوفية تدل على الجزاء كقوله تعالى : (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وقوله تعالى : (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) وقوله . (وتوفى كل نفس ما كسبت) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : دينهم ، أى جزاءهم الذى هو فى غاية العدل والإنصاف ، وقال الزمخشرى : دينهم الحق : أى جزاءهم الواجب الذى هم أهله والأول أصح ، لأن الله يجازى عباده بإنصاف تام ، وعدل كامل ، والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة كقوله تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) وقوله (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وقوله : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه . ومن إتيان الدين بمعنى الجزاء فى القرآن قوله تعالى (ملك يوم الدين) .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

اعلم أن هذه الآية الكريمة أشكلت على كثير من أهل العلم ، وذلك من

أجل التعبير عن الاستئذان بالاستئناس ، مع أنهما مختلفان فى المادة والمعنى. وقال ابن حجر فى الفتح : وحكى الطحاوى : أن الاستئناس فى لغة لمين : الاستئذان. وفى تفسير هذه الآية الكريمة بما يناسب لفظها وجهان، ولكل منهما شاهد من كتاب الله تعالى .

الوجه الأول : أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو ضد الاستيحاش ، لأن الذى يقرع باب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس وزال عنه الاستيحاش ، ولما كان الاستئناس لازما للاذن أطلق اللازم ، وأريد ملزومه الذى هو الإذن ، وإطلاق اللازم ، وإرادة الملزوم أسلوب عربى معروف ، والقائلون بالمجاز يقولون : إن ذلك من المجاز المرسل ، وعلى أن هذه الآية أطلق فيها اللازم الذى هو الاستئناس وأريد ملزومه الذى هو الاذن يصير المعنى : حتى تستأذنوا ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) ، وقوله تعالى بعده : (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) ، وقال الزمخشرى فى هذا الوجه بعد أن ذكره : وهذا من قبيل الكناية ، والارداف ، لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن فوضع موضع الاذن .

الوجه الثانى فى الآية : هو أن يكون الاستئناس بمعنى الاستعلام ، والاستكشاف. فهو استفعال من آنس الشىء إذا أبصره ظاهراً مكشوفا أو علمه.

والمعنى : حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يؤذن لكم أو لا ؟ وتقول العرب : استئنس هل ترى أحدا ، واستأنست فلم أر أحدا ، أى تعرفت واستعلمت ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) أى علمتم رشدهم وظهر لكم . وقوله تعالى عن موسى : (إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس) وقوله تعالى : (فلما قضى موسى الأجل وسار

يأهله آنس من جانب الطور نارا) الآية فمعنى آنس نارا : رآها مكشوفة . ومن هذا المعنى قول نابغة ذبيان :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد

من وحش وجرة موشىء أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

فقوله على مستأنس يعنى : حمار وحش شبه به ناقته ، ومعنى كونه مستأنساً أنه يستكشف ، ويستعلم القانصين بشمه ريحهم وحدة بصره فى نظره إليهم . ومنه أيضاً قول الحرث بن حلزة اليشكرى : يصف نعامة شبه بها ناقته :

آنست نبأة وأفزعها القنا ص عصراً وقد دنا الإمساء

قوله : آنست نبأة : أى أحست بصوت خفى ، وهذ الوجه الذى هو أن معنى تستأنسوا تستكشفوا وتستعلموا ، هل يؤذن لكم وذلك الاستعلام والاستكشاف إنما يكون بالاستئذان أظهر عندى: وإن استظهر بعض أهل العلم الوجه الأول ، وهناك وجه ثالث فى تفسير الآية تركناه لعدم اتجاهه عندنا .

وبما ذكرنا تعلم أنما يروى عن ابن عباس وغيره من أن أصل الآية : حتى تستأذنوا وأن الكاتبين غلطوا فى كتابتهم ، فكتبوا تستأنسوا غلطا بدل تستأذنوا لا يعول عليه ، ولا يمكن أن يصح عن ابن عباس ، وإن صح سنده عنه بعض أهل العلم . ولو فرضنا صحته فهو من القراءات التى نسخت وتركت ، ولعل القارىء بها لم يطلع على ذلك ، لأن جميع الصحابة رضى الله عنهم أجمعوا على كتابة تستأنسوا فى جميع نسخ المصحف العثمانى ، وعلى تلاوتها بلفظ : تستأنسوا ، ومضى على ذلك إجماع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى مصاحفهم وتلاوتهم من غير نكير . والقرآن العظيم تولى الله تعالى حفظه من التبديل والتغيير ، كما قال تعالى :(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال فيه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقال تعالى : (لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) الآية .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن هذه الآية الكريمة دلت بظاهرها على أن دخول الإنسان بيت غيره بدون الاستئذان والسلام لا يجوز لأن قوله (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) الآية . نهى صريح، والنهى المتجرد عن القرائن يفيد التحريم على الأصح ، كما تقرر فى الأصول .

المسألة الثانية : اعلم أن الاستئذان ثلاث مرات ، يقول المستأذن فى كل واحدة منها : السلام عليكم أأدخل ؟ فإن لم يؤذن له عند الثالثة ، فليرجع ، ولا يزد على الثلاث ، وهذا لا ينبغى أن يختلف فيه ،لأنه ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ثبوتا لا مطعن فيه .

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : حدثنا على بن عبد الله ،حدثنا سفيان، حدثنا يزيد بن خصيفة ، عن يسر بن سعيد،عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى،فرجعت قال: مامنعك؟ قلت : استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى فرجعت، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » فقال : والله لتقيمن عليه بينة أمنكم أحد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبى بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم فقمت معه،فأخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك .

وقال ابن المبارك : أخبرنى ابن عيينة : حدثنى يزيد بن خصيفة عن يسر سمعت أبا سعيد بهذا اه بلفظه من صحيح البخارى ، وهو نص صحيح صريح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الاستئذان ثلاث مرات ، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة رجع . وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى عمرو بن محمد

ابن بكير الناقد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا والله يزيد بن خصيفة ، عن بسر بن سعيد قال : سمعت أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول: كنت جالسا بالمدينة فى مجلس الأنصار فأتانا أبو موسى فزعا أو مذعوراً قلنا: ما شأنك؟ قال: إن عمر أرسل إلى أن آتيه فأتيت بابه ، فسلمت ثلاثا فلم يرد على فرجعت فقال : ما منعك أن تأتينا؟ فقلت : إنى أتيتك ، فسلمت على بابك ثلاثا ، فلم يردوا على فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » فقال عمر: أقم عليها البينة ، وإلا أوجعتك . فقال أبى بن كعب: لا يقوم معه إلا أصغر القوم: قال أبو سعيد : قلت: أنا أصغر القوم ، قال : فاذهب به حدثنا قتيبة بن سعيد وابن أبى عمر قالا : حدثنا سفيان ، عن يزيد بن خصيفة بهذا الإسناد ، وزاد ابن أبى عمر فى حديثه : قال أبو سعيد : فقمت معه فذهبت إلى عمر فشهدت . اه بلفظه من صحيح مسلم . وفى لفظ عند مسلم من حديث أبى سعيد قال: فوالله لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتين بمن يشهد لك على هذا فقال أبى بن كعب : فوالله لا يقوم معك إلا أحدثنا سنا ، قم يا أبا سعيد فقمت حتى أتيت عمر فقلت : قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا .

وفى لفظ عند مسلم من حديث أبى سعيد فقال : إن كان هذا شيئاً حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، وإلا فلأجعلنك عظة . قال أبو سعيد : فأتانا فقال: ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الاستئذان ثلاث . قال فجعلوا يضحكون ، قال فقلت : أتاكم أخوكم المسلم قد أفزع ، تضحكون انطلق فأنا شريكك فى هذه العقوبة فأتاه ، فقال هذا أبو سعيد .

وفى لفظ عند مسلم من حديث عبيد بن عمير أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثا إلى قوله : قال لتقيمن على هذا بينة ، أو لأفعلن فخرج فانطلق إلى مجلس من الأنصار ، فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا ، فقام أبو سعيد ،

فقال : كنا نؤمر بهذا ، فقال عمر : خفى على هذا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألهانى عنه الصفق فى الأسواق . وفى لفظ عند مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال :لتأتينى على هذا وإلا فعلت وفعلت ، فذهب أبو موسى قال عمر : إن وجد بينة تجدوه عند المنبر عشية ، وإن لم يجد بينة فلم تجدوه ، فلما أن جاء العشى وجدوه قال يا أبا موسى : ما تقول أقد وجدت قال : نعم أبى بن كعب رضى الله عنه قال عدل يا أبا الطفيل ما يقول هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك يابن الخطاب ، فلا تكونن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سبحان الله : إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت . وفى لفظ لمسلم : أن عمر قال لأبى : يا أبا المنذر آنت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، فلا تكن يابن الخطاب عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فى هذه الرواية قول عمر سبحان الله ، ومابعده .

فهذه الروايات الصحيحة عن أبى سعيد وأبى موسى ، وأبى بن كعب رضى الله عنهم تدل دلالة صحيحة صريحة على أن الإستئذان ثلاث . وقال النووى فى شرح مسلم : وأما قوله لايقوم معه إلا أصغر القوم ، فمعناه أن هذا حديث مشهور بيننا معروف لكبارنا ، وصغارنا . حتى إن أصغرنا يحفظه وسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . اه منه . والظاهر منه كما قال وهذه الروايات الصحيحة الصريحة تبين أن هذا الاستئذان المبرعنه فى الآية بالاستئناس والسلام المذكور فيها لايزاد فيه على ثلاث مرات ، وأن الاستئناس المذكور فى الآية ، هو الاستئذان المكرر ثلاثا ، لأن خير ما يفسر به كتاب الله بعد كتاب الله سنة رسول الله صلى الله علية وسلم الثابتة عنه . وبذلك تعلم أنما قاله ابن حجر فى فتح البارى: من أن المراد بالاستئناس فى قوله تعالى: حتى تستأنسوا : الاستئذان

بتنحنح ، ونحوه عند الجمهور خلاف التحقيق ، وما استدل به لذلك من رواية الطبرى من طريق مجاهد تفسير الآية بما ذكر إلى آخر ماذكر من الأدلة لايعول عليه ، وأن الحق هو ما جاءت به الروايات الصحيحة من الاستئذان والتسليم ثلاثا كما رأيت .

وأن الصواب فى ذلك هو مانقله ابن حجر عن الطبرى من طريق قتادة ، قال الاستئناس : هو الاستئذان ثلاثا إلى آخره . والرواية الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الاستئذان ثلاث يؤيدها أنه صلى الله عليه وسلم كذلك كان يفعل . قال ابن حجر فى الفتح : وفى رواية عبيد بن حنين ، التى أشرت إليها فى الأدب المفرد، زيادة مفيدة ، وهى أن أبا سعيد أو أبا مسعود قال لعمر : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يريد سعد بن عبادة ، حتى أتاه فسلم ، فلم يؤذن له ، ثم سلم الثانية فلم يؤذن له ، ثم سلم الثالثة ، فلم يؤذن له. فقال قضينا ما علينا ، ثم رجع فأذن له سعد الحديث . فثبت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ومن فعله وقصة سعد بن عبادة هذه أخرجها أبو داود من حديث قيس بن سعد بن عبادة مطولة بمعناه ، وأحمد من طريق ثابت ، عن أنس أو غيره كذا فيه ، وأخرجه البزار عن أنس بغير تردد ، وأخرجه الطبرانى من حديث أم طارق مولاة سعد . اه محل الغرض منه . وقوله : فثبت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم، ومن فعله : يدل على أن قصة استئذانه صلى الله عليه وسلم على سعد بن عبادة صحيحة ثابتة . وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عمر عن ثابت ، عن أنس أو غيره « أن النبى صلى الله عليه وسلم استأذن على سعد بن عبادة فقال : السلام عليك ورحمة الله ، فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبى صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى صلى الله عليه وسلم فاتبعه سعد فقال :

يارسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى أنت وأمى ، ماسلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ولقد رددت عليك ولم أسمعك،وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون» وقد روى أبو داود والنسائى من حديث أبى عمرو الأوزاعى سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبدالرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال : « زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد رداً خفياً فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : دعه يكثر علينا من السلام ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله،فرد سعد رداً خفياً.ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتبعه سعد ، فقال : يارسول الله إنى كنت أسمع سلامك وأرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا من السلام فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وذكر ابن كثير القصة إلى آخرها ثم قال:وقد روى هذا من وجوه أخر، فهو حديث جيد قوى والله أعلم .

وبما ذكرنا تعلم أن الاستئناس فى الآية الاستئذان ثلاثا ، وليس المراد به التنحنح ونحوه ، كما عزاه فى فتح البارى للجمهور . واختلف هل يقدم السلام أو الاستئذان ؟ وقال النووى فى شرح مسلم : أجمع العلماء على أن الاستئذان مشروع ، وتظاهرت به دلائل القرآن والسنة وإجماع الأمة ، والسنة : أن ويستأذن ثلاثا فيجمع بين السلام،والاستئذان. كما صرح به فى القرآن ، واختلفوا فى أنه هل يستحب تقديم السلام ، ثم الاستئذان أو تقديم الإستئذان ثم السلام والصحيح الذى جاءت به السنة. وقال المحققون : إنه يقدم السلام، فيقول: السلام عليكم أأدخل ؟ والثانى يقدم الاستئذان ، والثالث وهو اختيار الماوردى

من أصحابنا إن وقعت عين المستأذن على صاحب المنزل قبل دخوله قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثان فى تقديم السلام . انتهى محل الغرض منه بلفظه . ولايخفى أن ماصح فيه حديثان عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على غيره ، فلا ينبغى العدول عن تقديم السلام على الاستئذان ، وتقديم الاستئناس الذى هو الاستئذان على السلام فى قوله (حتى تستأنسوا وتسلموا) لايدل على تقديم الاستئذان ، لأن العطف بالواو لايقتضى الترتيب ، وإنما يقتضى مطلق التشريك ، فيجوز عطف الأول على الأخير بالواو كقوله تعالى (يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) والركوع قبل السجود ، وقوله تعالى (ومنك ومن نوح) الآية ونوح قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا معروف ولا ينافى ماذكرنا أن الواو ربما عطف بها مراداً بها الترتيب كقوله تعالى (إن الصفا والمروة) الآية وقد قال صلى الله عليه وسلم « أبدأ بما بدأ الله به »وفى رواية « ابدأوا بما بدأ الله به» بصيغة الأمر وكقول حسان رضى الله عنه :

هجوت محمدا وأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

على رواية الواو فى هذا البيت .

وإيضاح ذلك أن الواو عند التجرد من القرائن والأدلة الخارجية لاتقتضى إلا مطلق التشريك بين المعطوف ، والمعطوف عليه ، ولاينافى ذلك أنه إن قام دليل على إرادة الترتيب فى العطف ، كالحديث المذكور فى البدء بالصفا ، أودلت على ذلك قرينة كالبيت المذكور ، لأن جواب الهجاء لا يكون إلا بعده ، أنها تدل على الترتيب لقيام الدليل أو القرينة على ذلك ، والآية التى نحن بصددها لم يقم دليل راجح ، ولا قرينة على إرادة الترتيب فيها بالواو . اهـ .

وذكر ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية أحاديث عن النبي صلى الله

عليه وسلم فى السنن وغيرها تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم تكرر منه تعليم الاستئذان لمن لا يعلمه ، بأن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ فانظره ، وقد قدمنا أن النووى ذكر أنه صح فيه حديثان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والمختار أن صيغة الاستئذان التى لا ينبغى العدول عنها أن يقول المستأذن : السلام عليكم أأدخل ؟ فإن لم يؤذن له بعد الثالثة انصرف ، كما دلت عليه الأدلة .

واعلم أن الأحاديث الواردة فى قصة عمر مع أبى موسى فى الصحيح فى سياقها تغاير لأن فى بعضها: أن عمر أرسل إلى أبى موسى بعد انصرافه ، فرده من حينه، وفى بعضها أنه لم يأته إلا فى اليوم الثانى ، وجمع بينها ابن حجر فى الفتح قال : وظاهر هذين السياقين التغاير، فإن الأول يقتضى أنه لم يرجع إلى عمر إلا فى اليوم الثانى ، وفى الثانى أنه أرسل إليه فى الحال إلى أن قال ويجمع بينهما: بأن عمر لما فرغ من الشغل الذى كان فيه تذكره فسأل عنه فأخبر برجوعه فأرسل إليه ، فلم يجده الرسول فى ذلك الوقت وجاء هو إلى عمر فى اليوم الثانى. اهـ منه. والعلم عند الله تعالى .

تنبيهات تتعلق بهذه المسألة

الأول : اعلم أن المستأذن إن تحقق أن أهل البيت سمعوه لزمه الانصراف بعد الثالثة ، لأنهم لما سمعوه ، ولم يأذنوا له دل ذلك على عدم الإذن ، وقد بينت السنة الصحيحة عدم الزيادة على الثلاثة ، خلافاً لمن قال من أهل العلم : إن له أن يزيد على الثلاث مطلقا ، وكذلك إذا لم يدر هل سمعوه أولا ، فإنه يلزمه الانصراف بعد الثالثة ، كما أوضحنا أدلته ولم يقيد شيء منها بعلمه بأنهم سمعوه .

التنبيه الثانى : اعلم أن الذى يظهر لنا رجحانه من الأدلة ، أنه إن علم أن أهل البيت ، لم يسمعوا استئذانه لا يزيد على الثالثة ، بل ينصرف بعدها لعموم

الأدلة ، وعدم تقييد شيء منها بكونهم لم يسمعوه خلافاً لمن قال له الزيادة ، ومن فصل فى ذلك ، وقال النووى فى شرح مسلم : أما إذا استأذن ثلاثا ، فلم يؤذن له ، وظن أنه لم يسمعه ، ففيه ثلاثة مذاهب أشهرها أنه ينصرف،ولا يعيد الاستئذان . والثانى يزيد فيه ، والثالث إن كان بلفظ الاستئذان المتقدم لم يعده ، وإن كان بغيره أعاده . فمن قال بالأظهر فحجته قوله صلى الله عليه وسلم « فلم يؤذن له فليرجع » ومن قال بالثانى : حمل الحديث على من علم أوظن أنه سمعه ، فلم يأذن والله اعلم .

والصواب إن شاء الله تعالى هو ماقدمنا من عدم الزيادة على الثلاث ، لأنه ظاهر النصوص ولايجوز العدول عن ظاهر النص إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، كما هو مقرر فى الأصول .

التنبيه الثالث : قال بعض أهل العلم : إن المستأذن ينبغى له ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكنه يقف جاعلا الباب عن يمينه أو يساره ، ويستأذن وهو كذلك ، قال ابن كثير : ثم ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه ، أويساره لما رواه أبو داود : حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى فى آخرين قالوا : حدثنا بقية بن الوليد ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم : السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور ، انفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضاً : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ثنا جرير ، ح ، وثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، ثنا حفص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال: جاء رجل قال عثمان : سعد ، فوقف على باب النبى صلى الله عليه وسلم ، يستأذن فقام على الباب ، قال عثمان : مستقبل الباب فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم : « هكذا عنك أوهكذا فإنما الإستئذان من النظر » ورواه أبو داود الطيالسى عن سفيان الثورى ، عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود، من حديثه انتهى من ابن كثير ، والحديثان اللذان ذكرهما عن أبى داود نقلناهما من سنن أبى داود لأن نسخة ابن كثير التى عندنا فيها تحريف فيهما .

وفيما ذكرنا دلالة على ما ذكرنا من أن المستأذن لا يقف مستقبل الباب خوفاً أن يفتح له الباب ، فيرى من أهل المنزل ما لا يحبون أن يراه ، بخلاف ما لو كان الباب عن يمينه أو يساره فإنه وقت فتح الباب لا يرى ما فى داخل البيت . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة : اعلم أن المستأذن إذا قال له رب المنزل : من أنت ، فلا يجوز له أن يقول له : أنا بل يفصح باسمه وكنيته إن كان مشهوراً به ، لأن لفظة : أنا يعبر بها كل أحد عن نفسه فلا تحصل بها معرفة المستأذن ، وقد ثبت معنى هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا مطعن فيه .

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، قال : سمعت جابراً رضى الله عنه يقول : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى ، فدققت الباب فقال من ذا ؟ فقلت : أنا. فقال : أنا أنا ، كأنه كرهها » انتهى منه ، وتكريره صلى الله عليه وسلم لفظة : أنا دليل على أنه لم يرضها من جابر ، لأنها لا يعرف بها المستأذن فهى جواب له صلى الله عليه وسلم ، بما لا يطابق سؤاله ، وظاهر الحديث أن جواب المستأذن بأنا ، لا يجوز لكراهة النبي صلى الله عليه وسلم لذلك وعدم رضاه به خلافاً لمن قال : إنه مكروه كراهة تنزيه ، وهو قول الجمهور .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن شعبة عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فدعوت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قلت أنا . فخرج وهو يقول : أنا أنا » .

حدثنا يحيى بن يحيى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، واللفظ لأبى بكر قال قال يحيى أخبرنا وقال أبو بكر : حدثنا وكيع عن شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : « استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أنا » .

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا النضر بن شميل ، وأبو عامر العقدى « ح » وحدثنا محمد بن المثنى ، حدثنى وهب بن جرير « ح » وحدثنى عبدالرحمن ابن بشر ، حدثنا بهز كلهم عن شعبة بهذا الإسناد ، وفى حديثهم كأنه كره ذلك انتهى منه ، وقول جابر ، كأنه كره ذلك فيه أنه لا يخفى من تكريره صلى الله عليه وسلم لفظة أنا أنه كره ذلك ولم يرضه ، وحديث جابر هذا أخرجه غير الشيخين من باقى الجماعة .

المسألة الرابعة : اعلم أن الأظهر الذى لاينبغى العدول عنه أن الرجل يلزمه أن يستأذن على أمه وأخته وبنيه وبناته البالغين ، لأنه إن دخل على من ذكر بغير استئذان فقد تقع عينه على عورات من ذكر ، وذلك لا يحل له .

وقال ابن حجر فى فتح البارى فى شرحه لحديث : إنما جعل الاستئذان من أجل البصر ، مانصه : ويؤخذ منه أنه يشرع الاستئذان على كل أحد حتى المحارم ، لئلا تكون منكشفة العورة : وقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد عن نافع : كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم لم يدخل عليه إلا بإذن ، ومن طريق علقمة جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: أستأذن على أمى ؟ فقال ما على كل

أحيانها تريد أن تراها ، ومن طريق مسلم بن نذير بالنون مصغرا : سأل رجل حذيفة : أستأذن على أمى ؟ فقال : إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره ، ومن طريق موسى بن طلحة ، دخلت مع أبى على أمى فدخل ، وانبعته فدفع فى صدرى ، وقال : تدخل بغير إذن ؟ ومن طريق عطاء سألت ابن عباس أستأذن على أختى ؟ قال نعم ، قلت إنها فى حجرى ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ وأسانيد هذه الآثار كلها صحيحة . انتهى من فتح البارى .

وهذه الآثار عن هؤلاء الصحابة تؤيد ما ذكرنا من الاستئذان على من ذكرنا ، ويفهم من الحديث الصحيح : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » فوقوع البصر على عورات من ذكر لا يحل كما ترى ، وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره للآية التى نحن بصددها ، وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار ، عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم ، وقال أشعث ، عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها لا والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهل بيتى ، وأنا على تلك الحال فنزلت (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا) الآية ، وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ثلاث آيات جحدهن الناس : قال الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال ويقولون : إن أكرمكم عند الله أعظمكم بيتا إلى أن قال : والأدب كله قد جحده الناس قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد ؟ قال نعم ، فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال تحب أن تراها عريانة ، قلت لا قال فاستأذن ، قال : فراجعته فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت نعم ، قال فاستأذن ، قال ابن جريج : وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن

أرى عورتها من ذات محرم ، قال : وكان يشدد فى ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهرى سمعت هزيل بن شرحبيل الأودى الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم. اهـ محل الغرض منه ، وهو يدل على ما ذكرنا من الاستئذان على من ذكرنا. والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة : اعلم أنه إن لم يكن مع الرجل فى بيته إلا امرأته أن الأظهر أنه لا يستأذن عليها ، وذلك يفهم من ظاهر قوله تعالى : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ولأنه لا حشمة بين الرجل وامرأته ، ويجوز بينهما من الأحوال واللابسات مالا يجوز لأحد غيرهما ، ولو كان أبا أو أما أو ابنا كما لا يخفى ، ويدل له الأثر الذى ذكرناه آنفا عن موسى بن طلحة : أنه دخل مع أبيه طلحة على أمه فزجره طلحة عن أن يدخل على أمه بغير إذن ، مع أن طلحة زوجها دخل بغير إذن .

وقال ابن كثير فى تفسيره : وقل ابن جريج قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال لا ، ثم قال ابن كثير : وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها ، ثم نقل ابن كثير عن ابن جرير بسنده عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح ويزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه قال : وإسناده صحيح اهـ محل الغرض منه . والأول أظهر ولاسيما عند من يرى إباحة نظر الزوج إلى فرج امرأته كمالك وأصحابه ومن وافقهم . والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة : إذا قال أهل المنزل للمستأذن : ارجع وجب عليه الرجوع لقوله تعالى : (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) وكان بعض أهل العلم يتمنى إذا استأذن على بعض أصدقائه أن يقولوا له : ارجع ليرجع ،

فيحصل له فضل الرجوع المذكور فى قوله (هو أزكى لكم) لأن ما قال الله إنه أزكى لنا لاشك أن لنا فيه خيراً وأجراً . والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة : اعلم أن أقوى الأقوال دليلا وأرجحها فيمن نظر من كوة إلى داخل منزل قوم ففقأوا عينه التى نظر إليهم بها ، ليطلع على عوراتهم أنه لا حرج عليهم فى ذلك من إثم ولا غرم دية العين ولا قصاص ، وهذا لا ينبغى العدول عنه لثبوته عن النبى صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا مطعن فيه ، ولذا لم نذكر هنا أقوال من خالف فى ذلك من أهل العلم لسقوطها عندنا ، لمعارضتها النص الثابت عنه صلى الله عليه وسلم . قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له ، ثم ذكر من أحاديث هذه الترجمة : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : «لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح» اهـ منه ، والجناح الحرج. وقوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الصحيح : « لم يكن عليك جناح » لفظ جناح فيه نكرة فى سياق النفى فهى تعم رفع كل حرج من إثم ودية وقصاص كما ترى .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا جرير عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفقؤا عينه .اهـ منه .

وهذا الحديث الصحيح فيه التصريح منه صلى الله عليه وسلم أنهم يحل لهم أن يفقؤا عينه . وكون ذلك حلالا لهم مستلزم أنهم ليس عليهم فيه شىء من إثم ، ولا دية ، ولا قصاص ، لأن كل ما أحله الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم لا مؤاخذة على فعله البتة بنوع من أنواع المؤاخذة ، كما لا يخفى .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى فى صحيحه متصلا بكلامه هذا الذى نقلنا عنه : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » اهـ منه .

وقد بينا وجه دلالته على أنه لا شيء فى عين المذكور ، وثبوت هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما رأيت يدل على أنه لما تعدى وانتهك الحرمة ، ونظر إلى بيت غيره دون استئذان ، أن الله أذن على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى أخذ عينه الخائنة ، وأنها هدر لا عقل فيها ، ولا قود ، ولا إثم . ويزيد ما ذكرنا توكيدا وإيضاحا ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أنه هم أن يفعل ذلك .

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه تحت الترجمة المذكورة آنفا وهى قوله : باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عبيد الله بن أبى بكر بن أنس ، عن أنس رضى الله عنه : أن رجلا اطلع فى بعض حجر النبى صلى الله عليه وسلم فقام إليه بمشقص أو مشاقص ، وجعل يختله ليطعنه .

حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث ، عن ابن شهاب ، أن سهل بن سعد الساعدى أخبره : أن رجلا اطلع فى حجر فى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يحك به رأسه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أعلم أنك تنتظرنى لطعنت به فى عينيك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما جعل الإذن من قبل البصر » اهـ منه ، وقد ذكر البخارى هذه الأحاديث التى ذكرناها عنه هنا فى كتاب الديات .

وقد قال فى كتاب الاستئذان : باب الاستئذان من أجل البصر : حدثنا

على بن عبد الله . حدثنا سفيان : قال الزهرى حفظته كما أنك ها هنا عن سهل ابن سعد قال ، اطلع رجل من جحر فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ومع النبى صلى الله عليه وسلم مدرى يحك بها رأسه فقال : « لو أعلم أنك تنتظر لطعنت به فى عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

حدثنا مسدد ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عبيد الله بن أبى بكر ، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه : أن رجلا اطلع من بعض حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم بمشقص أو بمشاقص ، فكأنى أنظر إليه يختل الرجل ليطعنه ، وهذه النصوص الصحيحة تؤيد ما ذكرنا فلا التفات لمن خالفها من أهل العلم ، ومن أولها ، لأن النص لا يجوز العدول عنه ، إلا لدليل يجب الرجوع إليه .

واعلم أن المشقص بكسر أوله وسكون ثانيه ، وفتح ثالثه هو نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض ، وقوله فى الحديث المذكور : من جحر فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم . الجحر الأول . بضم الجيم وسكون الحاء للهملة وهو كل ثقب مستدير فى أرض أو حائط : والثانى : بضم الحاء المهملة وفتح الجيم جمع حجرة : وهى ناحية البيت .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى وأبو كامل فضيل بن الحسين وقتيبة بن سعيد ، واللفظ ليحيى ، وأبى كامل قال يحيى : أخبرنا وقال الآخران : حدثنا حماد بن زيد عن عبيد الله بن أبى بكر ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا اطلع من بعض حجر النبى صلى الله عليه وسلم فقام إليه بمشقص أو مشاقص ، فكأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختله ليطعنه ، وفى لفظ عند مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدى : أن

رجلا اطلع فى جحر فى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يحك بها رأسه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أعلم أنك تنظرنى لطعنت به فى عينك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » وفى مسلم روايات أخر بهذا المعنى قد اكتفينا منها بما ذكرنا .

وهذه النصوص الصحيحة التى ذكرنا لا ينبغى العدول عنها ولا تأويلها بغير مستند صحيح من كتاب أو سنة . ولذلك اخترنا ما جاء فيها من أن تلك العين الخائنة يحل أخذها ، وتكون هدراً ، ولم نلتفت إلى قول من أقوال من خالف ذلك ، ولا لتأويلهم للنصوص بغير مستند يجب الرجوع إليه . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثامنة : اعلم أن صاحب المنزل إذا أرسل رسولا إلى شخص ليحضر عنده ، فإن أهل العلم قد اختلفوا ، هل يكون الإرسال إليه إذنا ، لأنه طلب حضوره بإرساله إليه ، وعلى هذا القول إذا جاء منزل من أرسل إليه فله الدخول بلا إذن جديد اكتفاء بالإرسال إليه ، أو لابد من أن يستأذن إذا أتى المنزل استئذانا جديدا ، أولا يكتفى بالإرسال ؟ وكل من القولين قال به بعض أهل العلم ، واحتج من قال : إن الإرسال إليه إذن يكفى عن الاستئذان عند إتيان المنزل بما رواه أبو داود فى سننه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا حماد عن حبيب وهشام عن محمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « رسول الرجل إلى الرجل إذنه » حدثنا حسين بن معاذ ، ثنا عبد الأعلى ، ثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دعى أحدكم إلى طعام فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن » قال أبو على اللؤلؤى : سمعت أبا داود يقول : قتادة لم يسمع من أبى رافع شيئاً . اهـ من أبى داود .

قال ابن حجر فى فتح البارى : وقد ثبت سماعه منه فى الحديث الذى سيأتى فى البخارى فى كتاب التوحيد من رواية سليمان التيمى ، عن قتادة : أن أبا رافع حدثه .اه .

ويدل لصحة ما رواه أبو داود ورواه البخارى تعليقا : باب إذا دعى الرجل فجاء هل يستأذن وقال سعيد عن قتادة ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هو إذنه اه . ومعلوم أن البخارى لا يعلق بصيغة الجزم، إلا ما هو صحيح عنده كما قدمناه مرارا . وقال ابن حجر فى الفتح: فى حديث : كون رسول الرجل إلى الرجل إذنه . وله متابع أخرجه البخارى فى الأدب المفرد من طريق محمد بن سيرين عن أبى هريرة بلفظ « رسول الرجل إلى الرجل إذنه » ، وأخرج له شاهداً موقوفا على ابن مسعود قال « إذا دعى الرجل فهو إذنه » وأخرجه ابن أبى شيبة مرفوعا انتهى محل الغرض منه .

فهذه جملة أدلة من قالوا : بأن من دعى لا يستأذن إذا قدم .

وأما الذين قالوا : يستأذن إذا قدم إلى منزل المرسل ، ولا يكتفى بإرسال الرسول ، فقد احتجوا بما رواه البخارى فى صحيحه : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عمر بن ذر ، وحدثنى محمد بن مقاتل ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا عمر بن ذر ، أخبرنا مجاهد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد لبنا فى قدح فقال ، «أباهر ألحق أهل الصفة فادعهم إلى ، قال : فأتيتهم ، فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فدخلوا» اه منه . قال هذا الحديث الصحيح صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم أرسل أبا هريرة لأهل الصفة ، ولم يكتفوا بالإرسال عن الاستئذان ولو كان يكفى عنه لبينه صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة .

ومن أدلة أهل هذا القول ظاهر عموم قوله تعالى (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا) الآية ، لأن ظاهرها يشمل من أرسل إليه وغيره ، وقد جمع بعض أهل العلم بين أدلة القولين . قال ابن حجر فى فتح البارى : وجمع المهلب وغيره بتنزيل ذلك على اختلاف حالين إن طال العهد بين الطلب والمجىء احتاج إلى استئناف الاستئذان ، وكذا إن لم يطل لكن كان المستدعى فى مكان يحتاج معه إلى الإذن فى العادة ، وإلا لم يحتج إلى استئناف إذن . وقال ابن التين : لعل الأول فيمن علم أنه ليس عنده من يستأذن لأجله والثانى بخلافه ، قال والاستئذان على كل حال أحوط وقال غيره : إن حضر صحبة الرسول أغناه استئذان الرسول ، ويكفيه سلام الملاقاة ، وإن تأخر عن الرسول احتاج إلى الاستئذان ، وبهذا جمع الطحاوى ، واحتج بقوله فى الحديث : فاقبلوا فاستأذنوا فدل على أن أبا هريرة لم يكن معهم ، وإلا لقال فأقبلنا كذا . قال إن كلام ابن حجر وأقربها عندى الجمع الأخير ، ويدل له الحديث المذكور فيه وقوله فى حديث أبى داود المتقدم : فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن. والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

أمر الله جل وعلا المؤمنين والمؤمنات بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ويدخل فى حفظ الفرج : حفظه من الزنى ، واللواط ، والمساحقة ، وحفظه من الإبداء للناس والانكشاف لهم ، وقد دلت آيات أخر على أن حفظه من المباشرة المدلول عليه بهذه الآية يلزم عن كل شىء إلا الزوجة والسرية ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون وسأل سائل (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) .

فقد بينت هذه الآية أن حفظ الفرج من الزنى ، واللواط لازم ، وأنه لا يلزم حفظه عن الزوجة والموطوءة بالملك .

وقد بينا فى سورة البقرة أن الرجل يجب عليه حفظ فرجه عن وطء زوجته فى الدبر ، وذكرنا لذلك أدلة كثيرة ، وقد أوضحنا الكلام على آية (والذين هم لفروجهم حافظون) فى سورة (قد أفلح المؤمنون) وقد وعد الله تعالى من امتثل أمره فى هذه الآية من الرجال والنساء بالمغفرة والأجر العظيم ، إذا عمل معها الخصال المذكورة معها فى سورة الأحزاب وذلك فى قوله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات) إلى قوله تعالى : (والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وأوضح تأكيد حفظ الفرج عن الزنى فى آيات أخر كقوله تعالى (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب) الآية إلى غير ذلك من الآيات ، وأوضح لزوم حفظ الفرج عن اللواط وبين أنه عدوان فى آيات متعددة فى قصة قوم لوط كقوله : (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) وقوله تعالى : (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا كلام أهل العلم وأدلتهم فى عقوبة فاعل فاحشة اللواط فى سورة هود وعقوبة الزانى فى أول هذه السورة الكريمة .

واعلم أن الأمر بحفظ الفرج يتناول حفظه من انكشافه للناس . وقال

ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون) الآية ، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد والسنن: احفظ عورتك أى من زوجتك أو ماملكت يمينك .اهـ منه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم - الآيتين) قال الزمخشرى فى الكشاف : من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم ، والاقتصار به على مايحل ، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه ، فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر دون حفظ الفرج ؟ قلت : دلالة على أن أمر النظر أوسع ، ألاترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن، وصدورهن ، وثديهن ، وأعضادهن ، وأسوقهن وأقدامهن وكذلك الجوارى المستعرضات ، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها فى إحدى الروايتين ، وأما أمر الفرج فضيق ، وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ، ويجوز أن يراد مع حفظها من الافضاء إلى مالا يحل حفظها عن الإبداء .

وعن ابن زيد كل مافى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى إلا هذا فإنه أراد به الاستتار .اهـ كلام الزمخشرى .

ومانقل عن ابن زيد من أن المراد بحفظ الفرج فى هذه الآية الاستتار فيه نظر. بل يدخل فيه دخولا أوليا حفظه من الزنى واللواط ، ومن الأدلة على ذلك تقديمه الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج لأن النظر بريد الزنى كما سيأتى إيضاحه قريبا إن شاء الله تعالى وما ذكر جواز النظر إليه من المحارم لايخلو بعضه من نظر وسيأتى تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى وتفصيله فى سورة الأحزاب ، كما وعدنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك، أنا نوضح مسألة الحجاب فى سورة الأحزاب .

وقول الزمخشرى : إن « من » فى قوله (يغضوا من أبصارهم) للتبعيض قاله غيره ، وقواه القرطبى بالأحاديث الواردة فى أن نظرة الفجاءة لا حرج فيها وعليه أن يغض بصره بعدها ، ولا ينظر نظرا عمدا إلى ما لا يحل ، وما ذكره الزمخشرى عن الأخفش ، وذكره القرطبى وغيرهما من أن من زائدة لا يعول عليه . وقال القرطبى وقيل : الغض : النقصان . يقال : غض فلان من فلان : أى وضع منه ، فالبصر إذا لم يمكن من عمله ، فهو موضوع منه ومنقوص ، فمن صلة للغض ، وليست للتبعيض ، ولا للزيادة . اهـ منه .

والأظهر عندنا أن مادة الغض تتعدى إلى المفعول بنفسها وتتعدى إليه أيضاً بالحرف الذى هو من ، ومثل ذلك كثير فى كلام العرب ، ومن أمثلة تعدى الغض للمعقول بنفسه قول جرير :

فغضّ الطّرف إنك من نمير فــلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقول عنترة :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وقول الآخر :

وما كان غض الطرف منا سجية ولـكننا فى مذحج غربان

لأن قوله : غض الطرف مصدر مضاف إلى مفعوله بدون حرف .

ومن أمثلة تعدى الغض بمن قوله تعالى : (يغضوا من أبصارهم ـ ويغضضن من أبصارهن) وماذكره هنا من الأمر بغض البصر قد جاء فى آية أخرى تهديد من لم يمتثله ، ولم يغض بصره عن الحرام ، وهى قوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين) .

وقد قال البخارى رحمه الله : وقال سعيد بن أبى الحسن للحسن : إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن ، قال : اصرف بصرك عنهن . يقول الله

عز وجل (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) قال قتادة : عما لا يحل لهم (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) خائنة الأعين النظر إلى مانهى عنه . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أن قوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين) فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له ، وهذا الذى دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر ، إلى ما لا يحل ، جاء موضحاً فى أحاديث كثيرة .

منها ما ثبت فى الصحيح ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس بالطرقات ، قالوا يارسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يارسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » انتهى هذا لفظ البخارى فى صحيحه .

ومنها ماثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : « أردف النبى صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته ، وكان الفضل رجلا وضيئاً فوقف النبى صلى الله عليه وسلم للناس يفتيهم ، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطفق الفضل فنظر إليها وأعجبه حسنها ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم ، والفضل ينظر إليها ، فأخلف بيده ، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها » الحديث .

ومحل الشاهد منه : أنه صلى الله عليه وسلم صرف وجه الفضل عن النظر إليها ، فدل ذلك على أن نظره إليها لا يجوز ، واستدلال من يرى أن للمرأة الكشف عن وجهها بحضرة الرجال الأجانب بكشف الخثعمية وجهها فى هذا

الحديث ، سيأتى إن شاء الله الجواب عنه فى الكلام على مسألة الحجاب فى سورة الأحزاب .

ومنها ماثبت فى الصحيحين ، وغيرهما : من أن نظر العين إلى مالا يحل لها تكون به زانية ، فقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه قال : مارأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة ، فزنى العين : النظر ، وزنى اللسان : المنطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه » اهـ هذا لفظ البخارى ، والحديث متفق عليه ، وفى بعض رواياته زيادة على ماذكرنا هنا .

ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم : فزنى العين النظر ، فإطلاق اسم الزنى على نظر العين إلى مالا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه ، والأحاديث بمثل هذا كثيرة معلومة .

ومعلوم أن النظر سبب الزنى فإن من أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلا قد يتمكن بسببه حبها من قلبه تمكناً يكون سبب هلاكه ، والعياذ بالله ، فالنظر بريد الزنى . وقال مسلم بن الوليد الأنصارى :

كسبت لقلبى نظرة لتسره عينى فكانت شقوة ووبالا
مامر بى شىء أشد من الهوى سبحان من خلق الهوى وتعالى

وقال آخر :

ألم تر أن العين للقلب رائد فما تألف العينان فالقلب آلف

وقال آخر :

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال أبو الطيب المتنبي :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقد ذكر ابن الجوزى رحمه الله فى كتابه ذم الهوى فصولا جيدة نافعة أوضح فيها الآفات التى يسببها النظر وحذر فيها منه ، وذكر كثيراً من أشعار الشعراء ، والحكم النثرية فى ذلك وكله معلوم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

اعلم أولا أن كلام العلماء فى هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال :

الأول : أن الزينة هنا نفس شيء من بدن المرأة كوجهها وكفيها .

الثانى : أن الزينة هى ما يتزين به خارجا عن بدنها .

وعلى هذا القول فى الزينة المذكورة الخارجة عن بدن المرأة قولان :

أحدهما : أنها الزينة التى لا يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن كالملاءة التى تلبسها المرأة فوق القميص والخمار والإزار .

والثانى : أنها الزينة التى يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن كالكحل فى العين ، فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه ، وكالخضاب والخاتم ، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية اليد ، وكالقرط والقلادة والسوار ، فإن رؤية ذلك تستلزم رؤية محله من البدن كما لا يخفى .

وسنذكر بعض كلام أهل العلم فى ذلك ، ثم نبين مايفهم من آيات القرآن رجحانه .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية وقوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) أى لايظهرن شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا مالايمكن إخفاؤه ، قال ابن مسعود كالرداء والثياب ، يعنى على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التى تجلل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب ، فلا حرج عليها فيه ، لأن هـذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره فى زى النساء مايظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه ، وقال بقول ابن مسعود الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النخعى ، وغيرهم ، وقال الأعمش عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) قال : وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النخعى وغيرهم نحو ذلك . وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التى نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السبيعى ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال فى قوله : (ولا يبدين زينتهن) الزينة : القرط ، والدملوج ، والخلخال ، والقلادة . وفى رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب ، وهى الظاهر من الثياب ، وقال الزهرى : لايبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس ، فلا يبدو منها إلا الخواتم . وقال مالك ، عن الزهرى (إلا ماظهر منها) الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ، ومن تابعه أرادوا تفسير ماظهر منها : بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه .

حدثنا يعقوب بن كعب الأنطاكى ، ومؤمل بن الفضل الحرانى ، قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دريك ، عن عائشة رضى الله عنها : « أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ،

وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا . وأشار إلى وجهه وكفيه » لكن قال أبو داود ، وأبو حاتم الرازى : هو مرسل ، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضى الله عنها والله أعلم . اهـ كلام ابن كثير .

وقال القرطبي فى تفسيره لقوله تعالى (إلا ماظهر منها) واختلف الناس فى قدر ذلك ، فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة ، هو الثياب. وزاد ابن جبير: الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضاً ، وعطاء ، والأوزاعي : الوجه والكفان ، والثياب . وقال ابن عباس ، وقتادة ، والمسور بن مخرمة : ظاهر الزينة هو الكحل ، والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ ونحو هذا ، فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس. وذكر الطبرى عن قتادة فى معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر آخر عن عائشة رضى الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا وقبض على نصف الذراع » .

قال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لاتبدى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ماهو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه .

قلت : هذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك فى الصلاة والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما يدل لذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها ، ثم ذكر القرطبي حديث عائشة المذكور الذى قدمناه قريباً ، ثم قال: وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة ، وخيف من وجهها وكفيها الفتنة ، فعليها ستر ذلك ،

وإن كانت عجوزا أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها . اهـ محل الغرض من كلام القرطبي .

وقال الزمخشري : الزينة ماتزينت به المرأة من حلى أو كحل أو خضاب ، فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب ، فلا بأس به ، وماخفى منها كالسوار والخلخال، والدملج، والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين ، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة فى الأمر بالتصون ، والتستر ، لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لايحل النظر إليها لغير هؤلاء ، وهى الذراع ، والساق، والعضد، والعنق، والرأس ،والصدر، والأذن . فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع ، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لامقال فى حله ، كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا فى الخطر ، ثابت القدم فى الحرمة ، شاهد على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها ويتقين الله فى الكشف عنها إلى آخر كلامه .

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج عبد الرزاق والفريابى ، وسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن) قال : الزينة السوار ، والدملج ، والخلخال ، والقرط ، والقلادة (إلا ماظهر منها) قال : الثياب والجلباب .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : الزينة زينتان ، زينة ظاهرة ، وزينة باطنة لايراها إلا الزوج . فأما الزينة الظاهرة : فالثياب ، وأما الزينة الباطنة : فالكحل ، والسوار والخاتم . ولفظ ابن جرير ، فالظاهرة منها الثياب ، وما يخفى ، فالخلخالان والقرطان والسواران .

وأخرج ابن المنذر عن أنس فى قوله (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) قال : الكحل والخاتم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) قال : الكحل والخاتم والقرط ، والقلادة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله (إلا ماظهر منها) قال : هو خضاب الكف ، والخاتم .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إلا ماظهر منها) قال : وجهها ، وكفاها ، والخاتم .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إلا ماظهر منها) قال رقعة الوجه ، وباطن الكف .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه ، عن عائشة رضى الله عنها : أنها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت : القلب والفتخ ، وضمت طرف كمها .

وأخرج ابن أبى شيبة عن عكرمة فى قوله (إلا ماظهر منها) قال : الوجه وثغرة النحر .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله (إلا ماظهر منها) قال : الوجه والكف .

وأخرج ابن جرير عن عطاء فى قوله (إلا ما ظهر منها) قال : الكفان والوجه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن قتادة (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) قال : المسكتان والخاتم والكحل .

قال قتادة وبلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إلا إلى هاهنا ويقبض نصف الذراع » وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، عن المسور بن مخرمة فى قوله (إلا ماظهر منها) قال القلبين يعنى السوار ، والخاتم ، والكحل .

وأخرج سعيد وابن جرير عن ابن جريج قال: قال ابن عباس فى قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) قال : الخاتم والمسكة ، قال ابن جريج ، وقالت عائشة رضى الله عنها : القلب . والفتخة. قالت عائشة : دخلت على ابنة أخى لأمى ، عبد الله بن الطفيل مزينة، فدخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ، وأعرض. فقالت عائشة رضى الله عنها : إنها ابنة أخى وجارية فقال: إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا مادون هذا ، وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى . اهـ محل الغرض من كلام صاحب الدر المنثور .

وقد رأيت فى هذه النقول المذكورة عن السلف أقوال أهل العلم فى الزينة الظاهرة والزينة الباطنة ، وأن جميع ذلك راجع فى الجملة إلى ثلاثة أقوال كما ذكرنا .

الأول : أن المراد بالزينة ماتتزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها ، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شىء من بدنها كقول ابن مسعود ، ومن وافقه : إنها ظاهر الثياب ، لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهى ظاهرة بحكم الاضطرار كما ترى .

وهـذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها ، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة .

القول الثانى : أن المراد بالزينة . ماتتزين به ، وليس من أصل خلقتها أيضاً ،

لكن النظر تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة ، وذلك كالخضاب والكحل ، ونحو ذلك ، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن كما لا يخفى .

القول الثالث : أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذى هو من أصل خلقتها، لقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه ، والكفان . وماتقدم ذكره عن بعض أهل العلم .

وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول ، وقدمنا أيضاً فى ترجمته أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يكون الغالب فى القرآن إرادة معنى معين فى اللفظ ، مع تكرر ذلك اللفظ فى القرآن ، فكون ذلك المعنى هو المراد من اللفظ فى الغالب ، يدل على أنه هو المراد فى محل النزاع ، لدلالة غلبة إرادته فى القرآن بذلك اللفظ ، وذكرنا له بعض الأمثلة فى الترجمة .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان للذين ذكرناهما فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود فى هذه الآية ، التى نحن بصددها .

أما الأول منهما ، فبيانه أن قول من قال فى معنى : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أن المراد بالزينة : الوجه والكفان مثلا ، توجد فى الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول ، وهى أن الزينة فى لغة العرب ، هى ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلى ، والحلل .فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر ، ولا يجوز الحمل عليه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، وبه تعلم أن قول من قال : الزينة الظاهرة : الوجه ، والكفان خلاف ظاهر معنى

لفظ الآية ، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول ، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه .

وأما نوع البيان الثانى المذكور فإيضاحه : أن لفظ الزينة يكثر تكرره فى القرآن العظيم مراداً به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها ، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين بها كقوله تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) وقوله تعالى: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) وقوله تعالى : (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) وقوله تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) وقوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) الآية . وقوله تعالى : (فخرج على قومه فى زينته) الآية . وقوله تعالى : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) الآية . وقوله تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وزينة) الآية . وقوله تعالى : (قال موعدكم يوم الزينة) وقوله تعالى عن قوم موسى : (إنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) وقوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) فلفظ الزينة فى هذه الآيات كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترى ، وكون هذا المعنى هو الغالب فى لفظ الزينة فى القرآن ، يدل على أن لفظ الزينة فى محل النزاع يراد به هذا المعنى ، الذى غلبت إرادته فى القرآن العظيم ، وهو المعروف فى كلام العرب كقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة فى الآية بالوجه والكفين فيه نظر .

وإذا علمت أن المراد بالزينة فى القرآن ما يتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة وأن ما فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين ، فقال بعضهم : هى زينة لا يستلزم النظر إليها رواية شيء من بدن المرأة كظاهر الثياب . وقال

بعضهم : هى زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة ، كالكحل ، والخضاب ، ونحو ذلك .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين المذكورين عندى قول ابن مسعود رضى الله عنه : أن الزينة الظاهرة : هى مالا يستلزم النظر إليها رؤية شىء من بدن المرأة الأجنبية ، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر ، لأنه هو أحوط الأقوال ، وأبعدها عن أسباب الفتنة ، وأظهرها لقلوب الرجال والنساء ، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها ، كما هو معلوم والجارى على قواعد الشرع الكريم ، هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغى .

واعلم أن مسألة الحجاب وإيضاح كون الرجل لا يجوز له النظر إلى شىء من بدن الأجنبية ، سواء كان الوجه والكفين أو غيرهما قد وعدنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك وغيرها من المواضع ، بأننا سنوضح ذلك فى سورة الأحزاب فى الكلام على آية الحجاب ، وسنفى إن شاء الله تعالى بالوعد فى ذلك بما يظهر به للمنصف ما ذكرنا .

واعلم أن الحديث الذى ذكرنا فى كلام ابن كثير عند أبى داود ، وهو حديث عائشة فى دخول أسماء على النبى صلى الله عليه وسلم ، فى ثياب رقاق ، وأنه قال لها : « إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه » ، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث كما قدمنا ، عن ابن كثير أنه قال فيه : قال أبو داود ، وأبو حاتم الرازى : هو مرسل ، وخالد بن دريك ، لم يسمع من عائشة ، والأمر كما قال ، وعلى كل حال فسنبين هذه المسألة إن شاء الله بياناً شافياً مع مناقشة أدلة الجميع فى سورة الأحزاب ، ولذلك لم نطل الكلام فيها هاهنا .

تنبيـــــه

قد ذكرنا فى كلام أهل العلم فى الزينة أسماء كثيرة من أنواع الزينة ، ولعل بعض الناظرين فى هذا الكتاب ، لا يعرف معنى تلك الأنواع من الزينة فأردنا أن نبينها هاهنا تكميلا للفائدة .

أما الكحل والخضاب فمعروفان ، وأشهر أنواع خضاب النساء الحناء ، والقرط ما يعلق فى شحمة الأذن ، ويجمع على قرطة كقردة ، وقراط ، وقروط ، وأقراط ، ومنه قول الشاعر :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

والخاتم معروف ، وهو حلية الأصابع . والفتخ : جمع فتخة بفتحات وهى حلقة من فضة لا فص فيها ، فإذا كان فيها فص ، فهو الخاتم ، وقيل : قد يكون للفتخة فص ، وعليه فهى نوع من الخواتم ، والفتخة تلبسها النساء فى أصابع أيديهن ، وربما جعلتها المرأة فى أصابع رجليها ، ومن ذلك قول الراجزة ، وهى الدهناء بنت مسحل زوجة العجاج :

والله لا تخـــدعنى بضم ولا بتقبيـل ولا بشم
إلا بزعزاع يســلى همى تسقط منه فتخى فى كمى

والخلخال ، ويقال له : الخلخل حلية معروفة تلبسها النساء فى أرجلهن كالسوار فى المعصم ، والمخلخل : موضع الخلخال من الساق ومنه قول امرىء القيس :

إذا قلت هاتى نوليني تمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

والدملج : ويقال له الدملوج : هو المعضد ، وهو ما شد فى عضد المرأة من الخرز وغيره ، والعضد من المرفق إلى المنكب ومنه قول الشاعر :

ما مركب وركوب الخيل يعجبنى كمركب بين دملوج وخلخال

والسوار حلية من الذهب ، أو الفضة مستديرة كالحلقة تلبسها المرأة فى معصمها ، وهو مابين مفصل اليد والمرفق ، وهو القلب بضم القاف .

وقال بعض أهل اللغة : إن القلب هو السوار المفتول من طاق واحد ؛ لا من طاقين أو أكثر ، ومنه قول خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام رضى الله عنه :

تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أحب بنى العوام من أجل حبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

والمسكة بفتحات : السوار من عاج أو ذبل ، والعاج سن الفيل ، والذبل بالفتح شىء كالعاج ، وهو ظهر السلحفاة البحرية ، يتخذ منه السوار ،ومنه قول جرير يصف امرأة :

ترى العبس الحولى جونا بكوعها لها مسكا من غير عاج ولا ذبل

قاله الجوهرى فى صحاحه ، والمسك بفتحتين : جمع مسكة .

وقال بعض أهل اللغة : المسك أسورة من عاج أوقرون أو ذبل ، ومقتضى كلامهم أنها لا تكون من الذهب ، ولا الفضة ، وقد قدمنا فى سورة التوبة فى الكلام على قوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية. فى مبحث زكاة الحلى المباح من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عند أبى داود والنسائى « أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنتها وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب » الحديث . وهو دليل على أن المسكة تكون من الذهب ، كما تكون من العاج، والقرون، والذبل. وهذا هو الأظهر خلافا لكلام كثير من اللغويين فى قولهم : إن المسك لا يكون من الذهب ، والفضة ، والقلادة معروفة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

لما أمر الله تعالى بهذه الآداب المذكورة فى الآيات المتقدمة ، وكان التقصير فى امتثال تلك الأوامر قد يحصل عام خلقه ما يتداركون به ، ما وقع منهم من التقصير فى امتثال الأمر ، واجتناب النهى ، وبين لهم أن ذلك إنما يكون بالتوبة ، وهى الرجوع عن الذنب والإنابة إلى الله بالاستغفار منه ، وهى ثلاثة أركان :

الأول : الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به .

والثانى : الندم على ما وقع منه من المعصية .

والثالث : النية ألا يعود إلى الذنب أبداً ، والأمر فى قوله فى هذه الآية : (وتوبوا إلى الله جميعاً) الظاهر أنه للوجوب وهو كذلك ، فالتوبة واجبة على كل مكلف ، من كل ذنب اقترفه ، وتأخيرها لا يجوز فتجب منه التوبة أيضاً .

وقوله : (لعلكم تفلحون) قد قدمنا مراراً أن أشهر معانى لعل فى القرآن اثنان .

الأول : أنها على بابها من الترجى أى توبوا إلى الله ، رجاء أن تفلحوا ، وعلى هذا فالرجاء بالنسبة إلى العبد ، أما الله جل وعلا ، فهو عالم بكل شىء ، فلا يجوز فى حقه إطلاق الرجاء ، وعلى هذا فقوله تعالى لموسى وهارون فى مخاطبة فرعون : (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهو جل وعلا عالم بما سبق فى الأزل من أنه لا يتذكر ولا يخشى .

معناه : فقولا له قولا لينا رجاء منكما بحسب عدم علمكما بالغيب أن يتذكر أو يخشى .

والثانى : هو ماقاله بعض أهل العلم بالتفسير من أن كل لعل فى القرآن للتعليل ، إلا التى فى سورة الشعراء ، وهى فى قوله تعالى : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) قالوا فهى بمعنى كأنكم ، وقد قدمنا أن إطلاق لعل للتعليل معلوم فى العربية ، ومنه قول الشاعر :

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقتم لنا كل موثق

أى كفوا الحروب ، لأجل أن نكف كما تقدم .

وعلى هذا القول فالمعنى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون ، لأجل أن تفلحوا أى تنالوا الفلاح ، والفلاح فى اللغة العربية : يطلق على معنيين :

الأول : الفوز بالمطلوب الأعظم ، ومن هذا المعنى قول لبيد :

فاعقلى إن كنت لما تعقلى ولقد أفلح من كان عقل

أى فاز بالمطلوب الأعظم من رزقه الله العقل .

المعنى الثانى : هو البقاء الدائم فى النعيم والسرور ، ومنه قول الأضبط بن قريع ، وقيل كعب بن زهير :

لكل هم من الهموم سعه والمسا والصبح لا فلاح معه

يعنى أنه لا بقاء لأحد فى الدنيا مع تعاقب المساء والصباح عليه . وقول لبيد ابن ربيعة أيضا :

لو أن حياً مدرك الفلاح لناله ملاعب الرماح

يعنى لو كان أحد يدرك البقاء ، ولا يموت لناله ملاعب الرماح ، وهو عمه عامر بن مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنة. وقد قال فيه الشاعر يمدحه ، ويذم أخاه الطفيل والد عامر بن الطفيل المشهور :

فررت وأسلمت ابن أمك عامرا يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

وبكل من المعنيين اللذين ذكرناهما فى الفلاح فسر حديث الأذان والإقامة : حيّ على الفلاح كما هو معروف . ومن تاب إلى الله كما أمره الله نال الفلاح بمعنييه ، فإنه يفوز بالمطلوب الأعظم وهو الجنة ، ورضى الله تعالى ، وكذلك ينال البقاء الأبدى فى النعيم والسرور ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره جل وعلا ، لجميع المسلمين بالتوبة مشيراً إلى أنها تؤدى إلى فلاحهم فى قوله (لعلكم تفلحون) أوضحه فى غير هذا الموضع ، وبين أن التوبة التى يمحو الله بها الذنوب ، ويكفر بها السيئات ، أنها التوبة النصوح ، وبين أنها يترتب عليها تكفير السيئات ، ودخول الجنة ، ولاسيما عند من يقول من أهل العلم : إن عسى من الله واجبة ، وله وجه من النظر ، لأنه عز وجل جواد كريم ، رحيم غفور ، فإذا أطمع عبده فى شىء من فضله ، فجوده وكرمه تعالى ، وسعة رحمته يجعل ذلك الإنسان الذى أطمعه ربه فى ذلك الفضل يثق ، بأنه ما أطمعه فيه ، إلا ليتفضل به عليه .

ومن الآيات التى بينت هذا المعنى المذكور هنا قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فقوله فى آية التحريم هذه : (يأيها الذين آمنوا) كقوله فى آية النور (أيها المؤمنون) . وقوله فى آية التحريم (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) كقوله فى آية النور (لعلكم تفلحون) لأن من كفرت عنه سيئاته وأدخل الجنة ، فقد نال الفلاح بمعنييه ، وقوله فى آية التحريم (توبوا إلى الله توبة نصوحا) موضح لقوله فى النور (وتوبوا إلى الله جميعا) ونداؤه لهم بوصف الإيمان فى الآيتين فيه تهييج لهم ، وحث على امتثال الأمر ، لأن الاتصاف بصفة الإيمان بمعناه الصحيح ، يقتضى المسارعة إلى امتثال أمر الله ،

واجتناب نهيه ، والرجاء المفهوم من لفظة عسى فى آية التحريم ، هو المفهوم من لفظة لعل فى آية النور كما لا يخفى .

تنبيهـــات

الأول : التوبة النصوح : هى التوبة الصادقة .

وحاصلها : أن يأتى بأركانها الثلاثة على الوجه الصحيح ، بأن يقلع عن الذنب إن كان متلبسا به ، ويندم على ماصدر منه من مخالفة أمر ربه جل وعلا ، وينوى نية جازمة ألا يعود إلى معصية الله أبدا .

وأظهر أقوال أهل العلم أنه إن تاب توبة نصوحاً وكفر الله عنه سيئاته بذلك التوبة النصوح ، ثم عاد إلى الذنب بعد ذلك أن توبته الأولى الواقعة على الوجه المطلوب ، لا يبطلها الرجوع إلى الذنب ، بل تجب عليه التوبة من جديد لذنبه الجديد خلافا لمن قال : إن عوده للذنب نقض لتوبته الأولى .

الثانى : اعلم أنه لاخلاف بين أهل العلم فى أنه لاتصح توبة من ذنب إلا بالندم على فعل الذنب ، والإقلاع عنه ، إن كان متلبسا به كما قدمنا أنهما من أركان التوبة ، وكل واحد منهما فيه إشكال معروف. وإيضاحه فى الأول الذى هو الندم ، أن الندم ليس فعلا ، وإنما هو انفعال ، ولا خلاف بين أهل العلم فى أن الله لا يكلف أحداً إلا بفعل يقع باختيار المكلف ، ولا يكلف أحداً بشىء إلا شيئاً هو فى طاقته كما قال تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) . وقال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الندم انفعال ليس داخلا تحت قدرة العبد ، فليس بفعل أصلا ، وليس فى وسع المكلف فعله ، والتكليف لا يقع بغير الفعل ، ولا بما لايطاق كما بينا . قال فى مراقى السعود :

ولا يكلف بغير الفعل باعث الأنبيا ورب الفضل

وقال أيضاً :

والعلم والوسع على المعروف شرطه يعم كل ذى تكليف

واعلم أن كلام الأصوليين فى مسألة التكليف بما لا يطاق ، واختلافهم فى ذلك إنما هو بالنسبة إلى الجواز العقلى ، والمعنى هل يجيزه العقل أو يمنعه .

أما وقوعه بالفعل فهم مجمعون على منعه كما دلت عليه آيات القرآن ، والأحاديث النبوية ، وبعض الأصوليين يعبر عن هذه المسألة بالتكليف بالمحال هل يجوز عقلا أولا ؟ أما وقوع التكليف بالمحال عقلا ، أو عادة ، فكلهم مجمعون على منعه إن كانت الاستحالة لغير علم الله تعالى بعدم وقوعه أزلا ، ومثال المستحيل عقلا أن يكلف بالجمع ، بين الضدين كالبياض ، والسواد أو النقيضين كالعدم والوجود . والمستحيل عادة كتكليف المقعد بالمشى وتكليف الإنسان بالطيران ونحو ذلك . فمثل هذا لا يقع التكليف به إجماعاً .

وأما المستحيل لأجل علم الله فى الأزل بأنه لا يقع فهو جائز عقلا ، ولا خلاف فى التكليف به فإيمان أبى لهب مثلا كان الله عالما فى الأزل ، بأنه لا يقع كما قال الله تعالى عنه : (سيصلى ناراً ذات لهب) فوقوعه محال عقلا لعلم الله فى الأزل ، بأنه لا يوجد ، لأنه لو وجد لاستحال العلم بعدمه جهلا ، وذلك مستحيل فى حقه تعالى. ولكن هذا المستحيل للعلم بعدم وقوعه جائز عقلا ، إذ لا يمنع العقل إيمان أبى لهب ، ولو كان مستحيلا لما كلفه الله بالإيمان ، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، فالامكان عام ، والدعوة عامة والتوفيق خاص .

وإيضاح مسألة الحكم العقلى أنه عند جمهور النظار ثلاثة أقسام .

الأول : الواجب عقلا .

الثانى : المستحيل عقلا .

الثالث : الجائز عقلا ، وبرهان حصر الحكم العقلى فى الثلاثة المذكورة ، أن الشىء من حيث هو شىء ، لا يخلو من واحدة من ثلاث حالات : إما أن يكون العقل يقبل وجوده ، ولا يقبل عدمه بحال . وإما أن يكون يقبل عدمه ولا يقبل وجوده بحال . وإما أن يكون يقبل وجوده وعدمه معا . فإن كان العقل يقبل وجوده ، دون عدمه فهو الواجب عقلا ، وذلك كوجود الله تعالى متصفا بصفات الكمال والجلال . فإن العقل السليم لو عرض عليه وجود خالق هذه المخلوقات لقبله ولو عرض عليه عدمه ، وأنها خلقت بلا خالق ، لم يقبله ، فهو واجب عقلا . وأما إن كان يقبل عدمه ، دون وجوده ، فهو المستحيل عقلا ، كشريك لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، فلو عرض على العقل السليم عدم شريك لله فى ملكه ، وعبادته لقبله ، ولو عرض عليه وجوده لم يقبله بحال ، كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقال : (إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) فهو مستحيل عقلا . وأما إن كان العقل يقبل وجوده وعدمه معا ، فهو الجائز العقلى ، ويقال له الجائز الذاتى ، وذلك كإيمان أبى لهب ، فإنه لو عرض وجوده على العقل السليم لقبله ، ولو عرض عليه عدمه بدل وجوده لقبله أيضا ، كما لا يخفى ، فهو جائز عقلا جوازا ذاتيا ، ولا خلاف فى التكليف بهذا النوع الذى هو الجائز العقلى الذاتى .

وقالت جماعات من أهل الأهواء : إن الحكم العقلى : قسمان فقط ، وهما الواجب عقلا ، والمستحيل عقلا ، قالوا والجائز عقلا لا وجود له أصلا ، وزعموا أن دليل الحصر فى الواجب والمستحيل أن الأمر ، إما أن يكون الله عالما فى أزله ، بأنه سيوجد فهو واجب الوجود لاستحالة عدم وجوده مع سبق العلم الأزلى بوجوده ، فإيمان أبى بكر فهو واجب عندهم عقلا لعلم الله بأنه سيقع ، إذ لو لم يقع لكان علمه جهلا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وذلك

محال . وإما أن يكون الله عالما فى أزله ، بأنه لا يوجد كإيمان أبى لهب ، فهو مستحيل عقلا ، إذ لو وجد لانقلب العلم جهلا ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهذا القول لا يخفى بطلانه ، ولا يخفى أن إيمان أبى لهب ، وأبى بكر كلاهما يجيز العقل وجوده وعدمه ، فكلاهما جائز إلا أن الله تعالى شاء وجود أحد هذين الجائزين ، فأوجده وشاء عدم الآخر فلم يوجده .

والحاصل : أن المستحيل لغير علم الله السابق بعدم وجوده ، لأنه مستحيل استحالة ذاتية كالجمع بين النقيضين لا يقع التكليف به إجماعا ، وكذلك المستحيل عادة كما لا يخفى .

أما الجائز الذاتى فالتكليف به جائز ، وواقع إجماعا كإيمان أبى لهب فإنه جائز عقلا ، وإن استحال من جهة علم الله بعدم وقوعه ، وهم يسمون هذا الجائز الذاتى مستحيلا عرضياء ونحن ننزه صفة علم الله عن أن نقول إن الاستحالة بسببها عرضية.

فإذا علمت هذا فاعلم أن علماء الأصول وجميع أهل العلم ، مجمعون على وقوع التكليف بالجائز العقلى الذاتى ، فإيمان أبى لهب ، وإن كان وقوعه مستحيلا لعلم الله بأنه لا يقع .

أما المستحيل عقلا لذاته كالجمع بين النقيضين والمستحيل عادة كمشى المقعد ، وطيران الإنسان بغير آلة ، فلا خلاف بين أهل العلم فى منع وقوع التكليف بكل منهما كما قال تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وقال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم » .

وأما المستحيل العقلى : فقالت جماعة من أهل الأصول : يجوز التكليف بالمستحيل الذاتى عادة وعقلا ، وبالمستحيل عادة . وقال بعضهم : لا يجوز عقلا مع إجماعهم على أنه لا يصح وقوعه بالفعل . وحجة من يمنعه عقلا أنه عبث لا فائدة فيه ، لأن المكلف به لا يمكن أن يقدر عليه بحال ، فتكليفه بما هو عاجز عنه عجزاً محققا عبث لا فائدة فيه ، قالوا فهو مستحيل ، لأن الله حكيم خبير ، وحجة من قال بجوازه أن فائدته امتحان المكلف ، هل يتأسف على عدم القدرة ، ويظهر أنه لو كان قادرا لا مثل ، والامتحان سبب من أسباب التكليف ، كما كلف الله إبراهيم بذبح ولده ، وهو عالم أنه لا يذبحه ، وبين أن حكمة هذا التكليف هى ابتلاء إبراهيم ، أى اختباره ، هل يمتثل فلما شرع فى الامتثال فداه الله بذبح عظيم كما قال تعالى عنه : (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم) .

وقد أشار صاحب مراقى السعود إلى مسأله التكليف بالمحال وأقوال الأصوليين فيها ، وهى اختلافهم فى جواز ذلك عقلا ، مع إجماعهم على منعه إن كانت الاستحالة لغير علم الله ، بعدم الوقوع كالاستحالة الذاتية بقوله :

وجوز التكليف بالمحال فى الكل من ثلاثة الأحوال
وقيل بالمنع لما قد امتنع لغير علم الله أن ليس يقع
وليس واقعا إذا استحالا لغير علم ربنا تعالى

وقوله : وجوز التكليف يعنى الجواز العقلى .

وقوله : وقيل بالمنع ، أى عقلا ومراده بالثلاثة الأحوال : ما استحال عقلا وعادة ، كالجمع بين النقيضين وما استحال عادة ، كمشى المقعد : وطيران

الإنسان ، وإبصار الأعمى ، وما استحال لعلم الله بعدم وقوعه .

وإذا عرفت كلام أهل الأصول فى هذه المسألة ، فاعلم أن التوبة تجب كتابا وسنة وإجماعاً من كل ذنب اقترفه الإنسان فورا ، وأن الندم ركن من أركانها ، وركن الواجب واجب ، والندم ليس بفعل ، وليس فى استطاعة المكلف ، لأنه انفعال لا فعل والانفعالات ليست بالاختيار ، فما وجه التكليف بالندم ، وهو غير فعل للمكلف ، ولا مقدور عليه .

والجواب عن هذا الإشكال : هو أن المراد بالتكليف بالندم التكليف بأسبابه التى يوجد بها ، وهى فى طوق المكلف ، فلو راجع صاحب المعصية نفسه مراجعة صحيحة ، ولم يحابها فى معصية الله لعلم أن لذة المعاصى كلذة الشراب الحلو الذى فيه السم القاتل ، والشراب الذى فيه السم القاتل لا يستلذه عاقل لما يتبع لذته من عظيم الضرر وحلاوة المعاصى فيها ما هو أشد من السم القاتل ، وهو ما تستلزمه معصية الله جل وعلا من سخطه على العاصى ، وتعذيبه له أشد العذاب ، وعقابه على المعاصى قد يأتيه فى الدنيا فيهلكه ، وينغص عليه لذة الحياة . ولا شك أن من جعل أسباب الندم على المعصية وسيلة إلى الندم ، أنه يتوصل إلى حصول الندم على المعصية ، بسبب استعماله الأسباب التى يحصل بها .

فالحاصل : أنه مكلف بالأسباب المستوجبة للندم ، وأنه إن استعملها حصل له الندم ، وبهذا الاعتبار كان مكلفا بالندم ، مع أنه انفعال لا فعل .

ومن أمثلة استعمال الأسباب المؤدية إلى الندم على المعصية ، قول الشاعر وهو الحسين بن مطير :

فلا تقرب الأمر الحرام فإنه حلاوته تفنى ويبقى مريرها

ونقل عن سفيان الثورى رحمه الله أنه كان كثيراً ما يتمثل بقول الشاعر :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها لا خير فى لذة من بعدها النار

وأما الإشكال الذى فى الإقلاع عن الذنب ، فحاصله : أن من تاب من الذنب الذى هو متلبس به ، مع بقاء فساد ذلك الذنب ، أى أثره السيىء هل تكون توبته صحيحة ، نظراً إلى أنه فعل فى توبته كل ما يستطيعه . وإن كان الإقلاع عن الذنب لم يتحقق للعجز عن إزالة فساده فى ذلك الوقت ، أولا تكون توبته صحيحة ، لأن الإقلاع عن الذنب الذى هو ركن التوبة لم يتحقق .

ومن أمثلة هذا من كان على بدعة من البدع السيئة المخالفة للشرع المستوجبة للعذاب إذا بث بدعته ، وانتشرت فى أقطار الدنيا ، ثم تاب من ارتكاب تلك البدعة ، فندم على ذلك ، ونوى ألا يعود إليه أبدا ، مع أن إقلاعه عن بدعته لا قدرة له عليه ، لانتشارها فى أقطار الدنيا ، ولأن من سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل إلى يوم القيامة ، ففساد بدعته باق .

ومن أمثلته من غصب أرضا ، ثم سكن فى وسطها ، ثم تاب من ذلك الغصب نادما عليه ، ناويا ألا يعود إليه ، وخرج من الأرض المغصوبة بسرعة ، وسلك أقرب طريق للخروج منها ، فهل تكون توبته صحيحة ، فى وقت سيره فى الأرض المغصوبة قبل خروجه منها ، لأنه فعل فى توبته كل ما يقدر عليه ، أولا تكون توبته صحيحة ، لأن إقلاعه عن الغصب ، لم يتم ما دام موجوداً فى الأرض المغصوبة ، ولو كان يسير فيها ، ليخرج منها .

ومن أمثلته من رمى مسلماً بسهم ، ثم تاب فندم على ذلك ، ونوى ألا يعود قبل إصابة السهم للانسان الذى رماه به بأن حصلت التوبة والسهم فى الهواء فى طريقه إلى المرمى ، هل تكون توبته صحيحة ، لأنه فعل ما يقدر عليه ، أولا تكون صحيحة ، لأن إقلاعه عن الذنب ، لم يتحقق وقت التوبة ، لأن سهمه فى طريقه إلى إصابة مسلم فجمهور أهل الأصول على أن توبته فى كل الأمثلة صحيحة ، لأن التوبة واجبة عليه ، وقد فعل من هذا الواجب كل ما يقدر عليه ، وما لا قدرة له عليه معذور فيه لقوله تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى آخر الأدلة التى قدمناها قريبا .

وقال أبو هاشم ، وهو من أكابر المعتزلة كابنه أبى على الجبائى : إن التائب الخارج من الأرض المغصوبة آت بحرام ، لأن ما أتى به من الخروج تصرف فى ملك الغير بغير إذن ، كالمكث ، والتوبة إنما تحقق عن انتهائه إذ لا إقلاع إلا حينئذ ، والإقلاع ترك المنهى عنه ، فالخروج عنده قبيح . لأنه تصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، وهو مناف للاقلاع ، فهو منهى عنه ، مع أن الخروج المذكور مأمور به عنده أيضا ، لأنه انفصال عن المكث فى الأرض المغصوبة ، وهذا بناه على أصله الفاسد ، وهو القبح العقلى ، لكنه أخل بأصل له آخر ، وهو منع التكليف بالمحال فإنه قال : إن خرج عصى ، وإن مكث عصى ، فقد حرم عليه الضدين كليهما . ا هـ قاله فى نشر البنود .

وإلى هذه المسألة أشار فى مراقى السعود مقتصراً على مذهب الجمهور بقوله:

من تاب بعد أن تعاطى السببا فقد أتى بما عليه وجبا
وإن بقى فساده كمن رجع عن بث بدعة عليها يتبع
أو تاب خارجا مكان الغصب أو تاب بعد الرمى قبل الضرب

قوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

الإنكاح هنا معناه : التزويج (وأنكحوا الأيامى) أى زوجوهم ، والأيامى : جمع أيم بفتح الهمزة ، وتشديد الياء المكسورة ، والأيم : هو من لا زوج له من الرجال والنساء ، سواء كان قد تزوج قبل ذلك ، أو لم يتزوج قط يقال: رجل أيم ، وامرأة أيم . وقد فسر الشماخ بن ضرار فى شعره : الأيم الأنثى بأنها التى لم تتزوج فى حالتها الراهنة ، وذلك فى قوله :

يقر بعينى أن أنبأ أنهـا وإن لم أنلها أيم لم تزوج

فقوله : لم تزوج تفسير لقوله : أنها أيم. ومن إطلاق الأيم على الذكر الذى لا زوج له قول أمية بن أبى الصلت الثقفى :

لله دربى على أيم منهم وناكح

ومن إطلاقه على الأنثى قول الشاعر :

أحب الأيامى إذ بثينة أيم وأحببت لما أن غنيت الغوانيا

والعرب تقول : آم الرجل يئيم ، وآمت المرأة تأيم إذا صار الواحد منهما أيما . وكذلك تقول : تأيم إذا كان أيما .

ومثاله فى الأول قول الشاعر :

لقد إمت حتى لا منى كل صاحب رجاء بسلمى أن تئيم كما إمت

ومنه الثانى قوله :

فإن تنكحى أنكح وتتأيمى وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ومن الأول أيضا قول يزيد بن الحكم الثقفى :

كل امرىء ستئيم منه العرس أو منها يئـــــيم

وقول الآخر :

نجوت بقوف نفسك غير أنى إخـــال بأن سيتيم أو تئيم

يعنى: ييتم ابنك وتيأم امرأتك .

فإذا علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى فى هذه الآية : (وأنكحوا الأيامى) شامل للذكور والإناث . وقوله فى هذه الآية (منكم) أى من المسلمين ، ويفهم من دليل الخطاب أى مفهوم المخالفة فى قوله : منكم ، أن الأيامى من غيركم ، أى من غير المسلمين ، وهم الكفار ليسوا كذلك .

وهذا المفهوم الذى فهم من هذه الآية جاء مصرحاً به فى آيات أخر كقوله تعالى فى أيامى الكفار الذكور : (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) . وقوله فى أياماهم الإناث : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ، وقوله فيهما جميعا : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) .

وبهذه النصوص القرآنية الصريحة الموضحة لمفهوم هذه الآية، تعلم أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقا وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية المائدة، فأبانت أن المسلم يجوز له تزوج المحصنة الكتابية خاصة ، وذلك فى قوله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فقوله تعالى ، عاطفا على ما يحل للمسلمين (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) صريح فى إباحة تزوج المسلم للمحصنة الكتابية ، والظاهر أنها الحرة العفيفة .

فالحاصل : أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع فى جميع الصور ، إلا صورة واحدة ، وهى تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية ، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية كما رأيت .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (والصالحين من عبادكم وإمائكم) يدل على لزوم تزويج الأيامى من المملوكين الصالحين ، والإماء المملوكات ، وظاهر هذا الأمر الوجوب لما تقرر فى الأصول .

وقد بيناه مراراً من أن صيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضى الوجوب ، وبذلك تعلم أن الخالية من زوج إذا خطبها كفء ورضيته ، وجب على وليها تزويجها إياه ، وإنما يقوله بعض أهل العلم من المالكية . ومن وافقهم من أن السيد له منع عبده وأمته من التزويج مطلقا غير صواب لمخالفته لنص القرآن فى هذه الآية الكريمة .

واعلم أن قوله فى هذه الآية الكريمة : وإمائكم ، بينت آية النساء أن الأمة لاتزوج للحر إلا بالشروط التى أشارت إليها الآية ، فآية النساء المذكورة مخصصة بعموم آية النور هذه بالنسبة إلى الإيماء وآية المذكورة هى قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمامملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) إلى قوله تعالى (ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم) فدلت آية النساء هذه على أن الحر لايجوز له أن يتزوج المملوكة المؤمنة ، إلا إذا كان غير مستطيع تزويج حرة لعدم الطول عنده ، وقد خاف الزنى فله حينئذ تزوج الأمة بإذن أهلها المالكين لها ، ويلزمه دفع مهرها ، وهى مؤمنة عفيفة ليست من الزانيات ولامتخذات الأخدان، ومع هذا كله فصبره عن تزويجها خير له ، وإذا كان الصبر عن تزويجها مع ماذكرنا من الاضطرار خيراً له فمع عدمه أولى بالمنع . وبما ذكرنا تعلم أن الصواب قول الجمهور من منع تزويج الحر الأمة ، إلا بالشروط المذكورة فى القرآن كقوله

تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا) . وقوله : (ذلك لمن خشى العنت منكم) أى الزنى إلى آخر ما ذكر فى الآية خلافاً لأبى حنيفة القائل بجواز نكاحها مطلقا ، إلا إذا تزوجها على حرة .

والحاصل : أن قوله تعالى فى آية النور هذه : وإمائكم خصصت عمومه آية النساء كما أوضحناه آنفا ، والعلماء يقولون : إن علة منع تزويج الحر الأمة ، أنها إن ولدت منه كان ولدها مملوكا ، لأن كل ذات رحم فولدها بمنزلتها ، فيلزمه ألا يتسبب فى رق أولاده ما استطاع ، ووجهه ظاهر كما ترى .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) فيه وعد من الله للمتزوج الفقير من الأحرار ، والعبيد بأن الله يغنيه ، والله لا يخلف الميعاد ، وقد وعد الله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقراء باليسر بعد ذلك العسر ، وأنجز لهم ذلك ، وذلك فى قوله تعالى: (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق عليه رزقه إلى قوله تعالى (سيجعل الله بعد عسر يسرا) وهذا الوعد منه جل وعلا وعد به من اتقاه فى قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) الآية . ووعد بالرزق أيضاً من يأمر أهله بالصلاة ، ويصطبر عليها وذلك فى قوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) وقد وعد المستغفرين بالرزق الكثير على لسان نبيه نوح فى قوله تعالى عنه (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) وعلى لسان نبيه هود فى قوله تعالى عنه (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) الآية . وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وعليهما جميعا وسلم (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى) .

ومن الآيات الدالة على أن طاعة الله تعالى سبب للرزق قوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الآية . ومن بركات السماء المطر ، ومن بركات الأرض : النبات مما يأكل الناس والأنعام . وقوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) الآية . وقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) أى فى الدنيا كما قدمنا إيضاحه فى سورة النحل ، وكما يدل عليه قوله بعده فى جزائه فى الآخرة (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد قدمنا أنه جل وعلا وعد بالغنى عند التزويج وعند الطلاق .

أما التزويج ففى قوله هنا (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) .

وأما الطلاق ففى قوله تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) الآية . والظاهر أن المتزوج الذى وعده الله بالغنى ، هو الذى يريد بتزويجه الإعانة على طاعة الله بغض البصر ، وحفظ الفرج كما بينه النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » الحديث ، وإذا كان قصده بالتزويج طاعة الله ، بغض البصر ، وحفظ الفرج فالوعد بالغنى إنما هو على طاعة الله بذلك .

وقد رأيت ما ذكرنا من الآيات الدالة على وعد الله بالرزق من أطاعه سبحانه جل وعلا ماأكرمه فإنه يجزى بالعمل الصالح فى الدنيا والآخرة ، وماقاله أهل الظاهر من أن هذه الآية الكريمة تدل على أن العبد يملك ماله ، لأن قوله (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) بعد قوله (والصالحين من عبادكم وإمائكم) يدل على وصف العبيد بالفقر والغنى ، ولا يطلق الغنى إلا على من يملك المال الذى به صار غنياً ، ووجهه قوى ولا ينافى أن لسيده أن ينتزع

منهم ذلك المال الذى هو ملك له . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

هذا الاستعفاف المأمور به فى هذه الآية الكريمة ، هو المذكور فى قوله : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) وقوله تعالى : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) قيل غفور لهن . وقيل غفور لهم . وقيل غفور لهن ولهم .

وأظهرها : أن المعنى غفور لهن لأن المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه ، بل يغفره الله له لعذره بالإكراه كما يوضحه قوله تعالى : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) الآية ، ويؤيده قراءة ابن مسعود ، وجابر بن عبد الله ، وابن جبير ، فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم . ذكره عنه القرطبى ، وذكره الزمخشرى عن ابن عباس رضى الله عنهم جميعاً .

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أنا لا نبين القرآن بقراءة شاذة ، وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهاداً بها لقراءة سبعية كما هنا ، فزيادة لفظة لهن فى قراءة ماذكرنا استشهاد بقراءة شاذة لبيان بقراءة غير شاذة أن الموعود بالمغفرة والرحمة ، هو المعذور بالإكراه دون المكره ، لأنه غير معذور فى فعله القبيح ،

وذلك البيان المذكور بقوله : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن ، لأن المكرهة على الزنى ، بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة .

قلت : لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل ، أو بما يخاف منه التلف ، أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره ، حتى يسلم من الإثم ، وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة . انتهى منه .

والذي يظهر أنه لا حاجة إليه لأن إسقاط المؤاخذة بالإكراه يصدق عليه أنه غفران ورحمة من الله بعبده . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أنزل إلينا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم آيات مبينات ، ويدخل فيها دخولا أوليا الآيات التي بينت في هذه السورة الكريمة ، وأوضحت في معاني الأحكام والحدود ، ودليل ماذكر من القرآن قوله تعالى : (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) ولا شك أن هذه الآيات المبينات المصرح بنزولها في هذه السورة الكريمة ، داخلة في قوله تعالى هنا (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) الآية .

وبذلك تعلم أن قوله تعالى هنا (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) معناه : أنزلناها إليكم لعلكم تذكرون : أي تتعظون بما فيها من الأوامر والنواهي ، والمواعظ ، ويدل لذلك قوله تعالى (وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون)

فقد صرح فى هذه الآية الكريمة بأن من حكم إنزالها ، أن يتذكر الناس ، ويتعظوا بما فيها ، ويدل لذلك عموم قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقوله تعالى (آلمص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) معطوف على آيات : أى أنزلنا إليكم آيات ، وأنزلنا إليكم مثلا من الذين خلوا من قبلكم .

قال أبو حيان فى البحر المحيط : ومثلا معطوف على آيات ، فيحتمل أن يكون المعنى ومثلا من أمثال الذين من قبلكم : أى قصة غريبة من قصصهم كقصة يوسف ، ومريم فى براءتهما .

وقال الزمخشرى : ومثلا من أمثال من قبلكم أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ، ومريم يعنى قصة عائشة رضى الله عنها ، وماذكرنا عن أبى حيان والزمخشرى ذكره غيرهما .

وإيضاحه : أن المعنى : وأنزلنا إليكم مثلا أى قصة عجيبة غريبة فى هذه السورة الكريمة ، وتلك القصة العجيبة من أمثال الذين خلوا من قبلكم : أى من جنس قصصهم العجيبة ، وعلى هذا الذى ذكرنا فالمراد بالقصة العجيبة التى أنزلها إلينا ، وعبر عنها بقوله : ومثلا هى براءة عائشة رضى الله عنها مما رماها به أهل الإفك ، وذلك مذكور فى قوله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) إلى قوله تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) الآية . فقد بين فى الآيات العشر المشار إليها أن أهل الإفك رموا عائشة ، وأن الله برأها فى كتابه مما رموها به ، وعلى هذا :

فمن الآيات المبينة لبعض أمثال من قبلنا قوله تعالى فى رمى امرأة العزيز

يوسف بأنه أراد بها سوءا تعنى الفاحشة قالت : (ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أوعذاب أليم) وقوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين) لأنهم سجنوه بضع سنين ، بدعوى أنه كان أراد الفاحشة من امرأة العزيز ، وقد برأه الله من تلك الفرية التى افتريت عليه بإقرار النسوة وامرأة العزيز نفسها وذلك فى قوله تعالى : (فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذا راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وقال تعالى عن امرأة العزيز فى كلامها مع النسوة اللاتى قطعن أيديهن (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الآية .

فقصة يوسف هذه مثل من أمثال من قبلنا ، لأنه رمى بإرادة الفاحشة وبرأه الله من ذلك ، والمثل الذى أنزله إلينا فى هذه السورة ، شبيه بقصة يوسف ، لأنه هو وعائشة كلاهما رمى بما لا يليق ، وكلاهما برأه الله تعالى ، وبراءة كل منهما نزل بها هذا القرآن العظيم ، وإن كانت براءة يوسف وقعت قبل نزول القرآن بإقرار امرأة العزيز ، والنسوة كما تقدم قريباً وشهادة الشاهد من أهلها . (إن كان قميصه قد من قبل) إلى قوله : (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن) الآية .

ومن الآيات المبينة لبعض مثال الذين من قبلنا ماذكره تعالى عن قوم مريم من أنهم رموها بالفاحشة ، لما ولدت عيسى من غير زوج كقوله تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) يعنى فاحشة الزنى . وقوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا) يعنون الفاحشة ، ثم بين الله تعالى براءتها مما رموها به فى مواضع من كتابه كقوله تعالى : (فأشارت إليه

قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا) إلى قوله : (ويوم أبعث حيا) فكلام عيسى ، وهو رضيع ببراءتها ، يدل على أنها بريئة. وقد أوضح الله براءتها مع بيان سبب حملها بعيسى ، من غير زوج ، وذلك فى قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) إلى آخر الآيات .

ومن الآيات التى بين الله فيها براءتها قوله تعالى فى الأنبياء : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) وقوله تعالى فى التحريم : (ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وقوله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) .

فهذه الآيات التى ذكرنا التى دلت على قذف يوسف وبراءته وقذف مريم وبراءتها من أمثال من قبلنا فهى مما يبين بعض مادل عليه قوله : (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) .

والآيات التى دلت على قذف عائشة وبراءتها بينت المثل الذى أنزل إلينا وكونه من نوع أمثال من قبلنا واضح ، لأن كلا من عائشة ، ومريم ، ويوسف رمى بما لا يليق ، وكل منهم برأه الله ، وقصة كل منهم عجيبة ، ولذا أطلق عليها اسم المثل فى قوله : (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وموعظة للمتقين) .

قال الزمخشرى : وموعظة ماوعظ به فى الآيات والمثل من نحو قونه تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) لولا إذ سمعتموه ، ولولا إذ سمعتموه . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا . اه كلام الزمخشرى . والظاهر أن وجه خصوص الموعظة بالمتقين دون غيرهم أنهم هم المنتفعون بها .

ونظيره فى القرآن قوله تعالى: (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله تعالى : (إنما أنت منذر من يخشاها) فخص الانذار بمن ذكر فى الآيات ، لأنهم هم المنتفعون به مع أنه صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة منذر لجميع الناس كما قال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) ونظيره أيضاً قوله تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ونحوها من الآيات . وقوله فى هذه الآية الكريمة : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وشعبة عن عاصم : مبينات بفتح الياء المثناة التحتية المشددة بصيغة اسم المفعول . وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وحفص عن عاصم : مبينات بكسر الياء المشددة بصيغة اسم الفاعل : فعلى قراءة من قرأ بفتح الياء فلا إشكال فى الآية ، لأن الله بينها ، وأوضحها ، وعلى قراءة من قرأ مبينات بكسر الياء بصيغة اسم الفاعل ، ففى معنى الآية وجهان معروفان .

أحدهما : أن قوله : مبينات اسم فاعل بين المتعدية وعليه فالمفعول محذوف أى مبينات الأحكام والحدود .

والثانى : أن قوله : مبينات وصف من بين اللازمة ، وهو صفة مشبهة ، وعليه فالمعنى آيات مبينات أى بينات واضحات ، ويدل لهذا الوجه الأخير قوله تعالى: (وأنزلنا فيها آيات بينات) . وذكر الوجهين المذكورين الزمخشرى ، وأبو حيان وغيرهما ومثلوا لبين اللازمة بالمثل المعروف ، وهو قول العرب : قد بين الصبح لذى عينين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : من المعروف فى العربية أن بين مضعفا، وأبان كلتاهما تأتى متعدية للمفعول ولازمة، فتعدى بين للمفعول مشهور واضح كقوله تعالى (قد بينا لكم الآيات) وتعدى أبان للمفعول مشهور واضح أيضاً كقولهم : أبان له الطريق : أى بينها له ، وأوضحها ، وأما ورود بين لازمة بمعنى تبين ووضح فمنه المثل المذكور : قد بين الصبح لذى عينين . أى تبين وظهر ومنه قول جرير :

وجوه مجاشع طليت بلؤم يبين فى المقلد والعذار

فقوله : يبين بكسر الباء بمعنى : يظهر ، ويتضح وقول جرير أيضاً :

رأى الناس البصيرة فاستقاموا وبينت المراض من الصحاح

ومنه أيضاً قول قيس بن ذريح :

وللحب آيات تبين بالفتى شحوب وتعرى من يديه الأشاجع

على الرواية المشهورة برفع شحوب .

والمعنى : للحب علامات تبين بالكسر أى تظهر وتتضح بالفتى ، وهى شحوب إلخ ، وأنشد ثعلب هذا البيت فقال : شحوباً بالنصب ، وعليه فلا شاهد فى البيت ، لأن شحوبا على هذا مفعول ، تبين فهو على هذا من بين المتعدية ، وأما ورود أبان لازمة بمعنى بان وظهر ، فهو كثير فى كلام العرب أيضاً ومنه قول جرير :

إذا آباؤنا وأبوك عدوا أبان المقرفات من العراب

أى ظهرت المقرفات وتبينت ، وقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى .

لو دب ذر فوق ضاحى جلدها لأبان من آثارهن حرور

أي لظهر وبان من آثارهن حرور أي ورم وقول كعب بن زهير :

فنـواء فى حرتيها للبصير بها عتق مبين وفى الخدين تسهيل

فقوله : مبين وصف من أبان اللازمة : أى عتق بين واضح ، أى كرم ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية .

قرأ هذا الحرف جميع السبعة غير ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : يسبح له فيها بكسر الباء الموحدة المشددة ، مبنيا للفاعل ، وفاعله رجال والمعنى واضح على هذه القراءة . وقرأه ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : يسبح له فيها بفتح الباء الموحدة المشددة ، مبنيا للمفعول ، وعلى هذه القراءة فالفاعل المحذوف قد دلت القراءة الأولى على أن تقديره : رجال فكأنه لما قال يسبح له فيها ، قيل : ومن يسبح له فيها ؟ قال رجال : أى يسبح له فيها رجال .

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك مالفظه ، وقد التزمنا أنا لا نبين القرآن إلا بقراءة سبعية ، سواء كانت قراءة أخرى فى الآية المبينة نفسها ، أو آية أخرى غيرها إلى آخره ، وإنما ذكرنا أن الآية يبين بعض القراءات فيها معنى بعض ، لأن المقرر عند العلماء أن القراءتين فى الآية الواحدة كالآيتين .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة الجمهور : يسبح بكسر الباء وفاعله رجال ، مبينة أن الفاعل المحذوف فى قراءة ابن عامر ، وشعبة ، عن عاصم : يسبح بفتح الباء مبنيا للمفعول لحذف الفاعل هو رجال كما لا يخفى . والآية على هذه القراءة حذف فيها الفاعل ليسبح ، وحذف أيضاً الفعل الرافع للفاعل الذى هو رجال على حد قوله فى الخلاصة :

ويرفـــع الفاعل فعل أضمرا كمثل زيد في جواب من قرا

ونظير ذلك من كلام العرب قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره :

ليبك يزيـد ضارع لخصومه ومختبط مما تطيح الطوائح

فقوله : ليبك يزيد بضم الياء المثناة التحتية ، وفتح الكاف مبنيا للمفعول، فكأنه قيل ومن يبكيه فقال : يبكيه ضارع لخصومة إلخ . وقراءة ابن عامر ، وشعبة هنا كقراءة ابن كثير : كذلك يوحى إليك بفتح الحاء مبنيا للمفعول فقوله : الله فاعل يوحى المحذوفة ، ووصفه تعالى لهؤلاء الرجال الذين يسبحون له بالغدو والآصال ، بكونهم لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على سبيل مدحهم ، والثناء عليهم . يدل على أن تلك الصفات لاينبغى التساهل فيها بحال ، لأن ثناء الله على المتصف بها يدل على أن من أخل بها يستحق الذم الذى هو ضد الثناء ، ويوضح ذلك أن الله نهى عن الإخلال بها نهيا جازما فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أنه على قراءة ابن عامر ، وشعبة : يسبح بفتح الباء يحسن الوقف على قوله : بالآصال ، وأما على قراءة الجمهور يسبح بالكسر ، فلا ينبغى الوقف على قوله : بالآصال ، لأن فاعل يسبح رجال ، والوقف دون الفاعل لاينبغى كما لايخفى .

المسألة الثانية : اعلم أن الضمير المؤنث فى قوله (يسبح له فيها) راجع إلى المساجد المعبر عنها بالبيوت فى قوله (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) والتحقيق : أن البيوت المذكورة ، هى المساجد .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن تخصيصه من يسبح له فيها بالرجال فى قوله (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) يدل بمفهومه على أن النساء يسبحن له فى بيوتهن لا فى المساجد ، وقد يظهر للناظر أن مفهوم قوله : رجال مفهوم لقب ، والتحقيق عند الأصوليين أنه لا يحتج به .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لاشك أن مفهوم لفظ الرجال ، مفهوم لقب بالنظر إلى مجرد لفظه ، وأن مفهوم اللقب ليس بحجة على التحقيق ، كما أوضحناه فى غير هذا الموضع . ولكن مفهوم الرجال هنا معتبر ، وليس مفهوم لقب على التحقيق ، وذلك لأن لفظ الرجال ، وإن كان بالنظر إلى مجرده اسم جنس جامد وهو لقب بلا نزاع ، فإنه يستلزم من صفات الذكورة ما هو مناسب لإناطة الحكم به ، والفرق بينه وبين النساء ، لأن الرجال لا تخشى منهم الفتنة ، وليسوا بعورة بخلاف النساء ، ومعلوم أن وصف الذكورة وصف صالح لإناطة الحكم به الذى هو التسبيح فى المساجد ، والخروج إليها دون وصف الأنوثة .

والحاصل : أن لفظ الرجال فى الآية ، وإن كان فى الاصطلاح لقباً فإنما يشتمل عليه من أوصاف الذكورة المناسبة للفرق بين الذكور والإناث ، يقتضى اعتبار مفهوم المخالفة فى لفظ رجال ، فهو فى الحقيقة مفهوم صفة لا مفهوم لقب ، لأن لفظ الرجال مستلزم لأوصاف صالحة لإناطة الحكم به ، والفرق فى ذلك بين الرجال والنساء كما لا يخفى .

المسألة الثالثة : إذا علمت أن التحقيق أن مفهوم قوله : رجال مفهوم صفة باعتبار مايستلزمه من صفات الذكورة المناسبة للفرق بين الذكور والإناث، فى حكم الخروج إلى المساجد لا مفهوم لقب ، وأن مفهوم الصفة معتبر عند الجمهور خلافا لأبى حنيفة .

فاعلم أن مفهوم قوله هنا : رجال فيه إجمال ، لأن غاية ما يفهم منه أن النساء لسن كالرجال فى الخروج للمساجد ، وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن البيان القرآنى إذا كان غير واف بالمقصود من تمام البيان . فإنا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير المبين باسم الفاعل ، وتقدمت أمثلة لذلك.

وإذا علمت ذلك فاعلم أن السنة النبوية بينت مفهوم المخالفة فى قوله تعالى فى هذه الآيه الكريمة : رجال ، فبينت أن المفهوم المذكور معتبر ، وأن النساء لسن كالرجال فى حكم الخروج إلى المساجد ، وأوضحت أن صلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن من الخروج إلى المساجد والصلاة فيها فى الجماعة ، بخلاف الرجال ، وبينت أيضاً أنهن يجوز لهن الخروج إلى المساجد بشروط سيأتى إيضاحها إن شاء الله تعالى ، وأنهن إذا استأذن أزواجهن فى الخروج إلى المساجد فهم مأمورون شرعا بالإذن لهن فى ذلك مع التزام الشروط المذكورة .

أما أمر أزواجهن بالإذن لهن فى الخروج إلى المساجد إذا طلبن ذلك فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال البخارى رحمه الله فى صحيحه فى كتاب النكاح : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهرى عن سالم ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم «إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها » وقال البخارى أيضاً فى صحيحه فى كتاب الصلاة : باب استئذان

المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد: حدثنا مسدد ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن معمر عن الزهرى ، عن سالم بن عبدالله ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا استأذنت امرأة أحدكم فلا يمنعها » وقال البخارى رحمه الله فى صحيحه أيضاً ، حدثنا عبيدالله بن موسى ، عن حنظلة ، عن سالم بن عبدالله ، عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن » تابعه شعبة عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى عمرو الناقد ، وزهير بن حرب جميعاً عن ابن عيينة قال زهير : حدثنا سفيان ابن عيينة ، عن الزهرى سمع سالما يحدث عن أبيه يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها » وفى لفظ عند مسلم ، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها » وفى لفظ عند مسلم أيضاً ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » وفى لفظ له عنه أيضاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا استأذنكم نساؤكم إلى المسجد فأذنوا لهن » وفى لفظ له عنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل » وفى رواية له عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » وفى لفظ له عنه أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم » وفى رواية « إذا استأذنوكم » قال النووى فى شرح مسلم : وهو صحيح وعوملن معاملة الذكور لطلبهن الخروج إلى مجلس الذكور ، وحديث ابن عمر رضى الله عنهما هذا الذى ذكرناه عن الشيخين بروايات متعددة ، أخرجه أيضاً غيرهما وهو صريح فى أن

أزواج النساء مأمورون على لسانه صلى الله عليه وسلم بالإذن لهن فى الخروج إلى المساجد ، إذا طلبن ذلك ، ومنهيون عن منعهن من الخروج إليها .

وذكر بعض أهل العلم أن أمر الأزواج بالإذن لهن فى الروايات المذكورة ليس للايجاب ، وإنما هو للندب ، وكذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن منعهن. قالوا : هو لكراهة التنزيه لا للتحريم .

قال ابن حجر فى فتح البارى : وفيه إشارة إلى أن الإذن المذكور لغير الوجوب ، لأنه لو كان واجبا لانتفى معنى الاستئذان ، لأن ذلك إنما يتحقق إذا كان المستأذن مخيراً فى الإجابة أو الرد .

وقال النووى فى شرح المهذب : فإن منعها لم يحرم عليه هذا مذهبنا ، قال البيهقى : وبه قال عامة العلماء . ويجاب عن حديث « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » بأنه نهى تنزيه ، لأن حق الزوج فى ملازمة المسكن واجب ، فلا تتركه لفضيلة اهـ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهرلى فى هذه المسألة : أن الزوج إذا استأذنته امرأته فى الخروج إلى المسجد ، وكانت غير متطيبة ، ولا متلبسة بشىء يستوجب الفتنة مما سيأتى إيضاحه إن شاء الله ، أنه يجب عليه الإذن لها ، ويحرم عليه منعها للنهى الصريح منه صلى الله عليه وسلم عن منعها من ذلك ، وللأمر الصريح بالإذن لها وصيغة الأمر المجردة عن القرائن تقتضى الوجوب ، كما أوضحناه فى مواضع من هذا الكتاب المبارك ، وصيغة النهى كذلك تقتضى التحريم ، وقد قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » إلى غير ذلك من الأدلة ، كما

قدمنا . وقول ابن حجر : إن الإذن لا يتحقق إلا إذا كان المستأذن مخيراً فى الإجابة ، والرد غير مسلم ، إذ لا مانع عقلا ، ولا شرعاً ولا عادة من أن يوجب الله عليه الإذن لامرأته فى الخروج إلى المسجد من غير تخيير ، فإيجاب الإذن لا مانع منه . وكذلك تحريم المنع ، وقد دل النص الصحيح على إيجابه فلا وجه لرده بأمر محتمل كما ترى . وقول النووى : لأن حق الزوج فى ملازمة المسكن واجب ، فلا تتركه للفضيلة لا يصلح ، لأن يرد به النص الصريح منه صلى الله عليه وسلم ، فأمره صلى الله عليه وسلم الزوج بالإذن لها يلزمه ذلك ، ويوجبه عليه ، فلا يعارض بما ذكره النووى كما ترى . وما ذكره النووى عن البيهقى : من أن عدم الوجوب قال به عامة العلماء غير مسلم أيضاً ، فقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أنه لما حدث عن النبى صلى الله عليه وسلم بالحديث الذى ذكرنا عنه فى أمر الأزواج بالإذن للنساء فى الخروج إلى المساجد ، وقال ابنه : لا ندعهن يخرجن ، غضب وشتمه ودفع فى صدره منكراً عليه ، مخالفته لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك دليل واضح على اعتقاده وجوب امتثال ذلك الأمر بالإذن لهن .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى حرملة بن يحيى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها » فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن ، فأقبل عليه عبد الله فسبه سباً سيئاً ما سمعته سبه مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول: والله لنمنعهن ، وفى لفظ عند مسلم : فزبره ابن عمر وقال : أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : لا ندعهن . وفى لفظ لمسلم أيضا : فضرب فى صدره .

واعلم أن ابن عبد الله بن عمر الذى زعم أنه لم يمتثل أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالإذن للنساء إلى المساجد جاء فى صحيح مسلم أنه بلال بن عبد الله بن عمر.

وفى رواية عند مسلم: أنه واقد بن عبد الله بن عمر. والحق تعدد ذلك فقد قاله كل من بلال، وواقد ابنى عبد الله بن عمر، وقد أنكر ابن عمر على كل منهما. كما جاءت به الروايات الصحيحة عند مسلم وغيره، فكون ابن عمر رضى الله عنهما أقبل على ابنه بلالا وسبه سبا سيئا وقال منكراً عليه، أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: لنمنعهن فيه دليل واضح أن ابن عمر يرى لزوم الإذن لهن، وأن منعهن لا يجوز، ولو كان يراه جائزاً ما شدد النكير على ابنيه كما لا يخفى.

وقال النووى فى شرح مسلم: قوله: فأقبل عليه عبد الله فسبه سباً سيئاً. وفى رواية فزبره. وفى رواية: فضرب فى صدره، فيه تعزير المعترض على السنة والمعارض لها برأيه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: وكلام النووى هذا الذى رأيت اعتراف منه بأن مذهبه وهو مذهب الشافعى ومن قال بقوله، كما نقل عن البيهقى، أنه قول عامة العلماء، أن جميع القائلين بذلك مستحقون للتعزير، معترضون على السنة، معارضون لها برأيهم، والعجب منه كيف يقر بأن بلال بن عبد الله ابن عمر مستحق للتعزير لاعتراضه على السنة، ومعارضته لها برأيه، مع أن مذهبه الذى ينصره وينقل أنه قول عامة العلماء عن البيهقى هو بعينه قول بلال ابن عبد الله بن عمر الذى صرح هو بأنه يستحق به التعزير، وأنه اعتراض على السنة ومعارضة لها بالرأى. وقال النووى: قوله: فزبره: أى نهره. وقال ابن حجر فى فتح البارى: فى رواية بلال عند مسلم، فأقبل عليه

عبد الله فسبه سبا شديداً ما سمعته سبه مثله قط ، وفسر عبد الله بن هبيرة فى رواية الطبرانى السب المذكور باللعن ثلاث مرات وفى رواية زائدة عن الأعمش فانتهره وقال : أف لك . وله عن ابن نمير عن الأعمش فعل الله بك وفعل ، ومثله للترمذى من رواية عيسى بن يونس . ولمسلم من رواية أبى معاوية : فزبره . ولأبى داود من رواية جرير : فسبه وغضب عليه ، إلى أن قال : وأخذ من إنكار عبد الله على ولده تأديب المعترض على السنن برأيه ، وهو اعتراف منه أيضا بأن من خالف الحديث المذكور معترض على السنن برأيه .

وبه تعلم أن ما قدمنا عنه من كون الأمر بالإذن لهن إلى المساجد ليس للوجوب اعتراض على السنن بالرأى كما ترى .

وبما ذكرنا تعلم أن الدليل قد دل من السنة الصحيحة على وجوب الإذن للنساء فى الخروج إلى المساجد كما ذكرنا ، ويؤيده أن ابن عمر لم ينكر عليه أحد من الصحابة تشنيعه على ولديه كما أوضحناه آنفا . والعلم عند الله تعالى .

وإذا علمت أن ما ذكرنا من النصوص الصريحة فى الأمر بالإذن لهن يقتضى جواز خروجهن إلى المساجد ، فاعلم أنه ثبت فى الصحيح أنهن كن يخرجن إلى المسجد ، فيصلين مع النبى صلى الله عليه وسلم. قال البخارى رحمه الله فى صحيحه : حدثنا يحيى بن بكير قال: أخبرنا الليث، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير : أن عائشة رضى الله عنها أخبرته قالت : كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس اهـ. وهذا الحديث أخرجه أيضا مسلم وغيره . وقد جاءت أحاديث صحيحة فى الصحيحين وغيرهما

دالة على مادل عليه حديث عائشة هذا المتفق عليه من كون النساء كن يشهدن الصلاة فى المسجد معه صلى الله عليه وسلم .

تنبيـــــــه

قد علمت مما ذكرنا فى روايات حديث ابن عمر المتفق عليه : أن فى بعض رواياته المتفق عليها تقييد أمر الرجال بالإذن للنساء فى الخروج إلى المسجد بالليل، وفى بعضها الإطلاق وعدم التقييد بالليل ، وهو أكثر الروايات كما أشار له ابن حجر فى الفتح .

وقد يتبادر للناظر أن الأزواج ليسوا مأمورين بالإذن للنساء إلا فى خصوص الليل ، لأنه أستر ، ويترجح عنده هذا بما هو مقرر فى الأصول من حمل المطلق على المقيد ، فتحمل روايات الإطلاق على التقييد بالليل ، فيختص الإذن المذكور بالليل .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندى تقديم روايات الإطلاق وعدم التقييد بالليل لكثرة الأحاديث الصحيحة الدالة على حضور النساء الصلاة معه صلى الله عليه وسلم فى غير الليل ، لحديث عائشة المتفق عليه المذكور آنفا الدال على حضورهن معه صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، وهى صلاة نهار لا ليل ، ولا يكون لها حكم صلاة الليل ، بسبب كونهن يرجعن لبيوتهن ، لا يعرفن من الغلس ، لأن ذلك الوقت من النهار قطعا ، لا من الليل ، وكونه من النهار مانع من التقييد بالليل ، والعلم عند الله تعالى . وأما مايشترط فى جواز خروج النساء إلى المساجد فهو المسألة الرابعة .

اعلم أن خروج المرأة إلى المسجد يشترط فيه عند أهل العلم شروط يرجع

جميعها إلى شيء واحد ، وهو كون المرأة وقت خروجها للمسجد ليست متلبسة بما يدعو إلى الفتنة مع الأمن من الفساد .

قال النووى فى شرح مسلم فى الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم «لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » مانصه : هذا وما أشبهه من أحاديث الباب ظاهر فى أنها لاتمنع المسجد ، ولكن بشروط ذكرها العلماء مأخوذة من الأحاديث ، وهى ألا تكون متطيبة ، ولا متزينة ، ولا ذات خلاخل يسمع صوتها ، ولا ثياب فاخرة ، ولا مختلطة بالرجال ، ولا شابة ونحوها . ممن يفتتن بها ، وألا يكون فى الطريق مايخاف منه مفسدة ونحوها . انتهى محل الغرض من كلام النووى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذه الشروط التى ذكرها النووى وغيره منها ماهو ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما لانص فيه ، ولكنه ملحق بالمنصوص لمشاركته له فى علته ، وإلحاق بعضها لا يخلو من مناقشة كما سترى إيضاح ذلك كله إن شاء الله تعالى. أما ماهو ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من تلك الشروط ، فهو عدم التطيب ، فشرط جواز خروج المرأة إلى المسجد ألا تكون متطيبة .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنا هرون بن سعيد الأيلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى مخرمة ، عن أبيه عن بسر بن سعيد أن زينب الثقفية كانت تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال« إذا شهدت إحداكن العشاء ، فلا تطيب تلك الليلة » .

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن محمد بن عجلان حدثنى بكير بن عبدالله بن الأشج ، عن بسر بن سعيد ، عن زينب امرأة عبد الله قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا » .

حدثنا يحيى بن يحيى وإسحاق بن إبراهيم ، قال يحيى : أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة ، عن يزيد بن خصيفة ، عن بسر بن سعيد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهدن معنا العشاء الآخرة » اهـ .

فهذا الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن صحابيين، وهما : أبو هريرة ، وزينب امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عن الجميع ، صريح فى أن المتطيبة ليس لها الخروج إلى المسجد ، ويؤيد ذلك مارواه أبوداود فى سننه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا حماد عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله ولكن ليخرجن وهن تفلات » اهـ . وقوله : وهن تفلات : أى غير متطيبات. وقال النووى فى شرح المهذب : فى هذا الحديث رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم . وتفلات بفتح التاء المثناة فوق وكسر الفاء : أى تاركات الطيب اهـ . ومنه قول امرىء القيس :

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونة غير متفال

وهذا الحديث أخرجه أيضاً الإمام أحمد وابن خزيمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه ابن حبان من حديث زيد بن خالد . قاله الشوكانى وغيره .

وإذا علمت أن هذه الأحاديث دلت على أن المتطيبة ليس لها الخروج إلى المسجد ، لأنها تحرك شهوة الرجال بريح طيبها .

فاعلم أن أهل العلم ألحقوا بالطيب ما فى معناه كالزينة الظاهرة ، وصوت الخلخال والثياب الفاخرة ، والاختلاط بالرجال ، ونحو ذلك بجامع أن الجميع سبب الفتنة بتحريك شهوة الرجال ، ووجهه ظاهر كما ترى . وألحق الشافعية

بذلك الشابة مطلقا ، لأن الشباب مظنة الفتنة ، وخصصوا الخروج إلى المساجد بالعجائز . والأظهر أن الشابة إذا خرجت مستترة غير متطيبة ، ولا متلبسة بشيء آخر من أسباب الفتنة أن لها الخروج إلى المسجد لعموم النصوص المتقدمة . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة : اعلم أن صلاة النساء فى بيوتهن أفضل لهن من الصلاة فى المساجد، ولو كان المسجد مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه تعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » خاص بالرجال ، أما النساء فصلاتهن فى بيوتهن خير لهن من الصلاة فى الجماعة فى المسجد .

قال أبو داود فى سننه : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، ثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حوشب ، حدثنى حبيب بن أبى ثابت ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن » وقال النووى فى شرح المهذب فى هذا الحديث : وحديث ابن عمر صحيح رواه أبو داود بلفظه هذا ، بإسناد صحيح على شرط البخارى اه .

وهذا الحديث أخرجه أيضا الإمام أحمد . وقال ابن حجر فى فتح البارى : وقد ورد فى بعض روايات هذا الحديث وغيره ، ما يدل على أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد ، وذلك فى رواية حبيب بن أبى ثابت ، عن ابن عمر بلفظ « لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن » أخرجه أبو داود ، وصححه ابن خزيمة ، ولأحمد والطبرانى من حديث أم حميد الساعدية أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك، فقال : « قد علمت وصلاتك فى بيتك خير لك من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى

مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجد الجماعة » وإسناد أحمد حسن وله شاهد من حديث ابن مسعود عند أبى داود ، ووجه كون صلاتها فى الإخفاء أفضل تحقق الأمن فيه من الفتنة . انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر .

وحديث ابن مسعود الذى أشار له هو ما رواه أبو داود فى سننه : حدثنا ابن المثنى ، أن عمرو بن عاصم حدثهم قال : ثنا همام عن قتادة ، عن مورق عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » . اهـ .

وقال النووى فى شرح المهذب فى هذا الحديث : رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم ، وقد روى أحمد عن أم سلمة عنه صلى الله عليه وسلم : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » .

ومما ذكرنا من النصوص تعلم أن صلاة النساء فى بيوتهن أفضل لهن من صلاتهن فى الجماعة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وغيره من المساجد لثبوت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومما يؤكد صلاتهن فى بيوتهن ما أحدثنه من دخول المسجد فى ثياب قصيرة هى مظنة الفتنة ، ومزاحمتهن للرجال فى أبواب المسجد عند الدخول والخروج ، وقد روى الشيخان فى صحيحيهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى من النساء ما رأينا ، لمنعهن من المسجد كما منعت بنو إسرائيل نساءها .

وقد علمت مما ذكرنا من الأحاديث أن مفهوم المخالفة فى قوله تعالى :

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) الآية معتبر ، وأنه ليس مفهوم لقب ، وقد أوضحنا المفهوم المذكور بالسنة كما رأيت . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الرجال الذين يسبحون له فى المساجد بالغدو والآصال ، إلى آخر ما ذكر من صفاتهم : أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وهو يوم القيامة لشدة هوله ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من عظم هول ذلك اليوم ، وتأثيره فى القلوب والأبصار ، جاء فى آيات كثيرة من كتاب الله العظيم كقوله تعالى : (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) وقوله تعالى : (إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وقوله تعالى : (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر) الآية . ونحو ذلك من الآيات الدالة على عظم ذلك اليوم كقوله تعالى : (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به) الآية . وقوله تعالى : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا) إلى غير ذلك من الآيات . وفى معنى تقلب القلوب والأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير ، ذكرها القرطبى وغيره .

وأظهرها عندى : أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف كما قال تعالى : (إذ القلوب لدى الحناجر) وأن تقلب الأبصار هو زيغوغتها ودورانها بالنظر فى جميع الجهات من شدة الخوف ، كما قال تعالى : (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) الآية . وكقوله تعالى : (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر)

فالدوران والزيغوغة المذكوران يعلم بهما معنى تقلب الأبصار ، وإن كانا مذكورين فى الخوف من المكروه فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ .

الظاهر أن اللام فى قوله : ليجزيهم ، متعلقة بقوله : يسبح : أى يسبحون له ، ويخافون يوماً ليجزيهم الله أحسن ما عملوا . وقوله فى هذه الآية الكريمة : ويزيدهم من فضله ، الظاهر أن هذه الزيادة من فضله تعالى ، هى مضاعفة الحسنات ، كما دل عليه قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ، وقوله تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) ، وقوله تعالى : (والله يضاعف لمن يشاء) .

وقال بعض أهل العلم : الزيادة هنا كالزيادة فى قوله : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) والأصح : أن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ، وذلك هو أحد القولين فى قوله تعالى : (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) .

وقد قدمنا قول بعض أهل العلم : أن قوله تعالى : (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) ونحوها من الآيات يدل على أن المباح حسن ، لأن قوله : أحسن ما عملوا صيغة تفضيل ، وأحسن ما عملوا هو ما تقربوا به إلى الله من الواجبات والمستحبات ، وصيغة التفضيل المذكورة تدل على أن من أعمالهم حسنا لم يجزه وهو المباح . قال فى مراقى السعود :

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ

الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن أعمال الكفار باطلة ، وأنها لا شيء ، لأنه قال فى السراب الذى مثلها به : (حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من بطلان أعمال الكفار ، جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء) الآية . وقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا أن عمل الكافر إذا كان على الوجه الصحيح أنه يجزى به فى الدنيا كما أوضحناه فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية .

وقد دلت آيات من كتاب الله على انتفاع الكافر بعمله فى الدنيا ، دون الآخرة كقوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وقوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولائك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وهذا الذى دلت عليه هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح فى الدنيا ، دون الآخرة ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث أنس رضى الله عنه كما أوضحناه فى الكلام على آية النحل المذكورة ، وهو أحد التفسيرين فى قوله تعالى : (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) . الآية أى وفاه حسابه فى الدنيا على هذا القول ، وقد بيّن الله جل وعلا فى سورة بنى إسرائيل أن ما دلت عليه الآيات من انتفاع الكافر بعمله الصالح فى الدنيا ، أنه مقيد بمشيئة الله تعالى ، وذلك

فى قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) .

تنبيه

فى هذه الآية الكريمة سؤال معروف ذكرناه وذكرنا الجواب عنه فى كتابنا ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وذلك فى قولنا فيه: لايخفى ما يسبق إلى الذهن من أن الضمير فى قوله : جاءه يدل على شىء موجود واقع عليه المجىء ، لأن وقوع المجىء على العدم لا يعقل ومعلوم أن الصفة الإضافية ، لا تتقوم إلا بين متضائفين ، فلا تدرك إلا بإدراكهما ، فلا يعقل وقوع المجىء بالفعل ، إلا بإدراك فاعل واقع منه المجىء ، ومفعول به واقع عليه المجىء . وقوله تعالى : (لم يجده شيئا) يدل على عدم وجود شىء يقع عليه المجىء فى قوله تعالى : (جاءه) .

والجواب عن هذا من وجهين ذكرهما ابن جرير فى تفسير هذه الآية الكريمة.

قال : فإن قال قائل كيف قيل : (حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) فإن لم يكن السراب شيئا فعلام دخلت الهاء فى قوله : (حتى إذا جاءه) ، قيل : إنه شىء يرى من بعيد كالضباب الذى يرى كثيفاً من بعيد ، فإذا قرب منه رق وصار كالهواء ، وقد يحتمل أن يكون معناه حتى إذا جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه انتهى منه.

والوجه الأول أظهر عندى ، وعنده ، بدليل قوله : وقد يحتمل أن يكون معناه إلخ . انتهى كلامنا فى دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وقد رأيت فيه جواب ابن جرير الطبرى عن السؤال المذكور ، وقوله تعالى فى هذه

الآية : بقيعة ، قيل جمع قاع كجار وجيرة . وقيل : القيعة والقاع بمعنى ، وهو المنبسط المستوى المتسع من الأرض ، وعلى هذا فالقاع واحد القيعان كجار وجيران .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَٰفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

اعلم أن الضمير المحذوف الذى هو فاعل علم قال بعض أهل العلم : إنه راجع إلى الله فى قوله : (ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات) الآية ، وعلى هذا فالمعنى كل من المسبحين والمصلين . قد علم الله صلاته وتسبيحه . وقال بعض أهل العلم : إن الضمير المذكور راجع إلى قوله : كل أى كل من المصلين والمسبحين ، قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه ، وقد قدمنا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية كلام الأصوليين فى أن اللفظ إن احتمل التوكيد والتأسيس حمل على التأسيس ، وبينا أمثلة متعددة لذلك من القرآن العظيم .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الأظهر على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين ، أن يكون ضمير الفاعل المحذوف فى قوله : (كل قد علم صلاته وتسبيحه) راجعا إلى قوله : كل أى كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسبحين ، قد علم تسبيح نفسه ، وعلى هذا القول فقوله تعالى : (والله عليم بما يفعلون) تأسيس لا تأكيد ، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله : أى قد علم الله صلاته يكون قوله : (والله عليم بما يفعلون) كالتكرار مع ذلك فيكون من قبيل التوكيد اللفظى .

وقد علمت أن المقرر فى الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد كما تقدم إيضاحه . والظاهر أن الطير تسبح وتصلى صلاة وتسبيحاً يعلمهما الله ، ونحن لا نعلمهما كما قال تعالى : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

ومن الآيات الدالة على أن غير العقلاء من المخلوقات لها إدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه . قوله تعالى فى الحجارة : (وإن منها لما يهبط من خشية الله) فأثبت خشيته للحجارة ، والخشية تكون بإدراك . وقوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) وقوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) الآية . والإباء والإشفاق إنما يكونان بإدراك ، والآيات والأحاديث واردة بذلك ، وهو الحق. وظاهر الآية أن للطير صلاة وتسبيحا، ولا مانع من الحمل على الظاهر ونقل القرطبي عن سفيان : أن للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود اهـ .

ومعلوم أن الصلاة فى اللغة الدعاء ، ومنه قول الأعشى :

تقول بنتى وقد غربت مرتحلا يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتبطى نوما فإن لجنب المرء مضجعا

فقوله : مثل الذى صليت أى دعرت يعنى قولها : يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا . وقوله : صافات : أى صافات أجنحتها فى الهواء وقد بين تعالى فى غير هذا الموضع أن إمساكه الطير صافات أجنحتها فى الهواء وقابضات لها من آيات قدرته ، واستحقاقه العبادة وحده ، وذلك فى قوله تعالى (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن) الآية . وقوله تعالى : (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنهم فى الأرض : أى ليجعلنهم خلفاء الأرض ، الذين لهم السيطرة فيها ، ونفوذ الكلمة ، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان به ، والعمل الصالح سبب للقوة والاستخلاف فى الأرض ونفوذ الكلمة كقوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره) الآية . وقوله تعالى : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) . وقوله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (كما استخلف الذين من قبلهم) أى كبنى إسرائيل .

ومن الآيات الموضحة لذلك : قوله تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) . وقوله تعالى عن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) و قوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) الآية . إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى : ليستخلفنهم ، اللام موطئة لقسم محذوف :

أى وعدهم الله ، وأقسم فى وعده ليستخلفنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ .

هذا الدين الذى ارتضاه لهم هو دين الإسلام بدليل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . وقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) : وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وليمكنن لهم دينهم) . قال الزمخشرى تمكينه هو تثبيته وتوطيده .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لرحمة الله تعالى سواء قلنا إن لعل فى قوله (لعلكم ترحمون) حرف تعليل أو ترج ، لأنها إن قلنا : إنها حرف تعليل فإقامة الصلاة وما عطف عليه سبب لرحمة الله ، لأن العلل أسباب شرعية ، وإن قلنا : إن لعل للترجى : أى أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة على رجائكم أن الله يرحمكم بذلك ، لأن الله ما أطمعهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم لما هو معلوم من فضله وكرمه وكون : لعل هنا للترجى إنما هو بحسب علم المخلوقين كما أوضحناه فى غير هذا الموضع ، وهذا الذى دلت عليه هذه الآية من أنهم إن أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الرسول رحمهم الله بذلك جاء موضحاً فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله

أولئك سيرحمهم الله) الآية . وقوله تعالى فى هذه الآية : (وأطيعوا الرسول) بعد قوله (وأقيموا الصلاة) من عطف العام على الخاص ، لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، داخلان فى عموم قوله : (وأطيعوا الرسول) ، وقد قدمنا مراراً أن عطف العام على الخاص وعكسه كلاهما من الإطناب المقبول إذا كان فى الخاص مزية ليست فى غيره من أفراد العام .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

نهى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يحسب أى يظن الذين كفروا معجزين فى الأرض ، ومفعول معجزين محذوف : أى لا يظنهم معجزين ربهم ، بل قادر على عذابهم لا يعجز عن فعل ما أراد بهم لأنه قادر على كل شىء .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً فى آيات أخر كقوله تعالى : (واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين) وقوله تعالى : (وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) ، وقوله تعالى : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) ، وقوله تعالى : (قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) . وقوله تعالى : (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء الآية . وقوله فى شورى : (وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لا تحسبن الذين كفروا) قرأه ابن عامر وحمزة : لا يحسبن بالياء المثناة التحتية على الغيبة . وقرأه باقى السبعة :

لا تحسبن بالتاء الفوقية . وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة بفتح السين وباقى السبعة بكسرها .

والحاصل أن قراءة ابن عامر وحمزة بالياء التحتية وفتح السين ، وقراءة عاصم بالتاء الفوقية وفتح السين ، وقراءة الباقين من السبعة بالتاء الفوقية وكسر السين ، وعلى قراءة من قرأ بالتاء الفوقية فلا إشكال فى الآية مع فتح السين وكسرها ، لأن الخطاب بقوله : لا تحسبن للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقوله : الذين كفروا هو المفعول الأول . وقوله : معجزين هو المفعول الثانى لتحسبن . وأما على قراءة : ولا يحسبن بالياء التحتية ففى الآية إشكال معروف وذكر القرطبى الجواب عنه من ثلاثة أوجه :

الأول : أن قوله (الذين كفروا) فى محل رفع فاعل يحسبن ، والمفعول الأول محذوف تقديره : أنفسهم . ومعجزين : مفعول ثان : أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض ، وعزا هذا القول للزجاج ، والمفعول المحذوف قد تدل عليه قراءة من قرأ بالتاء الفوقية كما لا يخفى ، ومفعولا الفعل القلبى يجوز حذفهما أو حذف أحدهما إن قام عليه دليل كما أشار له ابن مالك فى الخلاصة بقوله :

ولا تجز هنا بلا دليـــل سقوط مفعولين أو مفعول

ومثال حذف المفعولين معاً مع قيام الدليل عليهما قوله تعالى : (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونهم شركائى . وقول الكميت :

بأى كتاب أم بأية سنـــة ترى حبهم عارا على وتحسب

أى وتحسب حبهم عارا على ، ومثال حذف أحد المفعولين قول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظنى غـــيره منى بمنزلة المحب المكرم

أى لا تظنى غيره واقعا .

الجواب الثانى : أن فاعل يحسبن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه مذكور فى قوله قبله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى لا يحسبن محمد صلى الله عليه وسلم الذين كفروا معجزين . وعلى هذا فالذين كفروا مفعول أول ، ومعجزين مفعول ثان . وعزا هذا القول للفراء ، وأبى على .

الجواب الثالث : أن المعنى : لا يحسبن الكافر الذين كفروا معجزين فى الأرض وعزا هذا القول لعلى بن سليمان ، وهو كالذى قبله ، إلا أن الفاعل فى الأول النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الثانى الكافر . وقال الزمخشرى : وقرئ لا يحسبن بالياء وفيه أوجه أن يكون معجزين فى الأرض هما المفعولان .

والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله فى الأرض ، حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك ، وهذا معنى قوى جيد ، وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره فى قوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وأن يكون الأصل : لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الأول ، وكأن الذى سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشىء واحد ، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث . اهـ .

وما ذكره النحاس وأبو حاتم وغيرهما من أن قراءة من قرأ : لا يحسبن بالياء التحتية خطأ أو لحن كلام ساقط لا يلتفت إليه ، لأنها قراءة سبعية ثابتة ثبوتا لا يمكن الطعن فيه ، وقرأ بها من السبعة : ابن عامر ، وحمزة كما تقدم .

وأظهر الأجوبة عندى : أن معجزين فى الأرض هما المفعولان ، فالمفعول الأول معجزين ، والمفعول الثانى دل عليه قوله : فى الأرض ، أى لا تحسبن معجزين الله موجودين أو كائنين فى الأرض ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ .

لأهل العلم فى هذه الآية أقوال راجعة إلى قولين :

أحدهما : أن المصدر الذى هو دعاء مضاف إلى مفعوله ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالرسول مدعو .

الثانى : أن المصدر المذكور مضاف إلى فاعله ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالرسول داع .

وإيضاح معنى قول من قال : إن المصدر مضاف إلى مفعوله ، أن المعنى : لا تجعلوا دعاءكم الرسول إذا دعوتموه كدعاء بعضكم بعضا ، فلا تقولوا له : يامحمد مصرّحين باسمه ، ولا ترفعوا أصواتكم عنده كما يفعل بعضكم مع بعض ، بل قولوا له : يانبى الله ، يارسول الله ، مع خفض الصوت احتراما له صلى الله عليه وسلم .

وهذا القول : هو الذى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى كقوله : (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) الآية . وقوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) . وقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) الآية ، وهذا القول فى الآية مروى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة . كما ذكره عنهم القرطبى ، وذكره ابن كثير عن الضحاك ، عن ابن عباس ، وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومقاتل ، ونقله أيضاً عن مالك عن زيد بن أسلم ، ثم قال إن هذا القول هو الظاهر واستدل له بالآيات التى ذكرنا

وأما على القول الثانى : وهو أن المصدر مضاف إلى فاعله ففى المعنى وجهان :

الأول : ماذكره الزمخشرى فى الكشاف ، قال إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى .

والوجه الثانى : هو ماذكره ابن كثير فى تفسيره قال ، والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لاتعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم، فتهلكوا. حكاه ابن أبى حاتم، عن ابن عباس،والحسن البصرى، وعطية العوفى والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا الوجه الأخير يأباه ظاهر القرآن ، لأن قوله تعالى (كدعاء بعضكم بعضا) يدل على خلافه ، ولو أراد دعاء بعضهم على بعض لقال : لاتجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض فدعاء بعضهم بعضا ، ودعاء بعضهم على بعض متغايران كما لايخفى. والظاهر أن قوله : لاتجعلوا من جعل التى بمعنى اعتقد ، كما ذكرنا عن ابن كثير آنفا .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

الضمير فى قوله : عن أمره راجع إلى الرسول ، أو إلى الله والمعنى واحد ، لأن الأمر من الله والرسول مبلغ عنه ، والعرب تقول : خالف أمره وخالف عن أمره : وقال بعضهم : يخالفون : مضمن معنى يصدون ، أى يصدون عن أمره .

وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضى الوجوب ، لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر. وكل ذلك يقتضى أن الأمر للوجوب ، مالم يصرف عنه صارف ، لأن غير الواجب لايستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون) فإن قوله : اركعوا أمر مطلق ، وذمه تعالى للذين لم يمتثلوه بقوله : لايركعون يدل على أن امتثاله واجب . وكقوله تعالى لإبليس (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً له بقوله : مامنعك ألا ألاّ تسجد إذ أمرتك، يدل على أنه تارك واجبا. وأن امتثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق ، وهو قوله تعالى (اسجدوا لآدم) وكقوله تعالى عن موسى (أفعصيت أمرى) فسمى مخالفة الأمر معصية ، وأمره المذكور مطلق ، وهو قوله : (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) وكقوله تعالى : (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفه عاص ، ولا يكون عاصيا إلا بترك واجب، أو ارتكاب محرم . وكقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فإنه يدل على أن أمر الله ، وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال ، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى. وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .

واعلم أن اللغة تدل على اقضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال

لعبده اسقنى ماء مثلا ، ولم يمتثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول عقابك لى ظلم ، لأن صيغة الأمر فى قولك : اسقنى ماء لم توجب على الامتثال ، فقد عاقبتنى على ترك مالايلزمنى ، بل يفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه ، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه ، والفتنة فى قوله (أن تصيبهم فتنة) قيل هى القتل ، وهو مروى عن ابن عباس، وقيل: الزلازل والأهوال ، وهو مروى عن عطاء . وقيل : السلطان الجائر ، وهو مروى عن جعفر بن محمد . قال بعضهم : هى الطبع على القلوب بسبب شؤم مخالفة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال بعض العلماء : فتنة : محنة فى الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم فى الآخرة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد دل استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان .

الأول : أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى : (يوم هم على النار يفتنون). وقوله تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) الآية. أى أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك .

الثانى : وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الاختبار كقوله تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) الآية . وقوله تعالى : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه) .

والثالث : إطلاق الفتنة على نتيجة الاختيار إن كانت سيئة كقوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) . وفى الأنفال : (ويكون الدين كله لله) . فقوله : (حتى لا تكون فتنة) أى حتى لايبقى شرك على أصح التفسيرين ، ويدل على صحته قوله بعده : (ويكون الدين لله) ، لأن الدين

لا يكون كله لله حتى لا يبقى شرك كما ترى ، ويوضح ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » كما لا يخفى .

والرابع : إطلاق الفتنة على الحجة فى قوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ، أى لم تكن حجتهم ، كما قال به بعض أهل العلم .

والأظهر عندى : أن الفتنة فى قوله هنا : (أن تصيبهم فتنة) أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة .

وأن معناه أن يفتنهم الله أى يزيدهم ضلالا بسبب مخالفتهم ، عن أمره ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ، كقوله جل وعلا : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) الآية . وقوله تعالى : (وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما عليه خلقه أى من الطاعة والمعصية وغير ذلك .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية مع أنه معلوم بالضرورة من الدين ، جاء مبينا فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب

عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) وقوله تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقوله تعالى : (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم) . وقوله تعالى : (سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) . وقوله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) ، وقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) ، وقوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقوله تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) إلى غير ذلك من الآيات ، وفى هذه الآيات وما فى معناها أحسن وعد للمطيعين ، وأشد وعيداً للعصاة المجرمين ، ولفظة قد فى قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : قد يعلم ما أنتم عليه للتحقيق ، وإتيان قد للتحقيق مع المضارع كثير جدا فى القرآن العظيم . كقوله تعالى : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، وقوله تعالى : (قد يعلم الله المعوقين منكم) الآية . وقوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) الآية . وقوله تعالى : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى فى هذه الآية :(ويوم يرجعون إليه) الظاهر أنه ليس بظرف، بل هو معطوف على المفعول به الذى هو ما ، من قوله : (قد يعلم ما أنتم عليه) ، أى ويعلم يوم يرجعون إليه ، وقد ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه يوم القيامة ينبىء الخلائق بكل ما عملوا ؛ أى يخبرهم به ثم يجازيهم عليه .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه جل وعلا يخبرهم يوم القيامة بما عملوا جاء موضحا فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) والآيات بمثل ذلك كثيرة . والعلم عند الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه نزل الفرقان، وهو هذا القرآن العظيم على عبده ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يكون للعالمين نذيرا ، أى منذرا ، وقد قدمنا مراراً أن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف وأن كل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار كما أوضحناه فى أول سورة الأعراف .

وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته — صلى الله عليه وسلم — للأسود والأحمر والجن والإنس لدخول الجميع فى قوله تعالى : (للعالمين نذيرا) .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) الآية أى أرسلناك للناس كافة أى جميعا وقوله تعالى : (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقوله تعالى : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين

قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) الآية :وفى معنى قوله تعالى تبارك أقوال لأهل العلم . قال القرطبى : تبارك اختلف فى معناه . فقال الفراء هو فى العربية بمعنى : تقدس وهما للعظمة ، وقال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة . قال : ومعنى البركة: الكثرة من كل ذى خير ، وقيل : تبارك:تعالى،وقيل:تعالى عطاؤه:أى زاد وكثر. وقيل المعنى : دام وثبت إنعامه قال النحاس : وهذا أولاها فى اللغة والاشتقاق من برك الشىء إذا ثبت ومنه برك الجمل والطير على الماء : أى دام وثبت. انتهى محل الغرض من كلام القرطبى .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: قال ابن عباس : تبارك لم يزل ، ولا يزول : وقال الخليل : تمجد وقال الضحاك : تعظم ، وحكى الأصمعى : تباركت عليكم من قول عربى صعد رابية فقال ذلك لأصحابه : أى تعاليت وارتفعت .فنى هذه الأقوال تكون صفة ذات ، وقال ابن عباس أيضا ، والحسن ، والنخعى: هو من البركة ، وهو التزايد فى الخير من قبله . فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر،وعلى هذا يكون صفة فعل .انتهى محل الغرض من كلام أبى حيان .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر فى معنى تبارك بحسب اللغة التى نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبرى ، وعليه فمعنى تبارك تكاثرت البركات والخيرات من قبله ، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل مالا يليق بكماله وجلاله ، لأن من تأتى من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة ، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذى لا تأتى من قبله بركة ولا خير ، ولا رزق كالأصنام ، وسائر

المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفر مخلد فى نار جهنم ، وقد أشار تعالى إلى هذا فى قوله : (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) وقوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) وقوله تعالى : (وهو يطعم ولا يطعم) وقوله تعالى : (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله تعالى : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) الآية .

تنبيـــه

اعلم أن قوله تبارك فعل جامد لا يتصرف ،فلا يأتى منه مضارع، ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك ، وهو مما يختص به الله تعالى ، فلا يقال لغيره تبارك خلافا لما تقدم عن الأصمعى، وإسناده تبارك إلى قوله : (الذى نزل الفرقان) يدل على أن إنزاله الفرقان على عبده من أعظم البركات والخيرات والنعم التى أنعم بها على خلقه ، كما أوضحناه فى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ..) الآية . وذكرنا الآيات الدالة على ذلك ، وإطلاق العرب تبارك مسنداً إلى الله تعالى معروف فى كلامهم ومنه قول الطرماح :

تباركت لا معط لشىء منعته ... وليس لما أعطيت يارب مانع

وقول الآخر :

فليست عشيات الحمى برواجع ... لنا أبداً ما أورق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى ... تباركت ماتقدر يقع ولك الشكر

وقد قدمنا الشاهد الأخير فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) وقوله : الفرقان يعنى هذا القرآن العظيم ، وهو مصدر زيدت فيه الألف والنون كالكفران والطغيان والرجحان ، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل ، لأن معنى كونه فرقاناً أنه فارق بين الحق والباطل ، وبين الرشد والغى ، وقال بعض أهل العلم : المصدر الذى هو الفرقان بمعنى اسم المفعول ، لأنه نزل مفرقاً ، ولم ينزل جملة .

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى :(وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث)الآية، وقوله:(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) وقوله فى هذه الآية الكريمة : نزل بالتضعيف يدل على كثرة نزوله أنجماً منجماً . قال بعض أهل العلم : ويدل على ذلك قوله فى أول سورة آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل) الآية . قالوا عبر فى نزول القرآن بنزل بالتضعيف لكثرة نزوله وأما التوراة والإنجيل ، فقد عبر فى نزولهما بأنزل التى لا تدل على تكثير ، لأنهما نزلا جملة فى وقت واحد ، وبعض الآيات لم يعتبر فيها كثرة نزول القرآن كقوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) الآية وقوله فى هذه الآية على عبده . قال فيه بعض العلماء : ذكره صفة العبودية مع تنزيل الفرقان ، يدل على أن العبودية لله هى أشرف الصفات ، وقد بينا ذلك فى أول سورة بنى إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ .

قوله : (الذى له ملك السموات والأرض) بدل من الذى فى قوله تعالى : تبارك الذى نزل ، وقال بعضهم : هو مرفوع على المدح ، وقال بعضهم : هو منصوب على المدح . وقد أثنى - جل وعلا - على نفسه فى هذه الآية الكريمة بخمسة أمور ، هى أدلة قاطعة على عظمته ، واستحقاقه وحده لإخلاص العبادة له:

الأول منها : أنه هو الذى له ملك السموات والأرض .

والثانى : أنه لم يتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا .

والثالث : أنه لا شريك له فى ملكه .

والرابع : أنه هو خالق كل شىء .

والخامس : أنه قدر كل شىء خلقه تقديراً، وهذه الأمور الخمسة المذكورة فى هذه الآية الكريمة جاءت موضحة فى آيات أخر .

أما الأول منها : وهو أنه له ملك السموات والأرض ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى سورة المائدة : (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى فى سورة النور: (ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير) وقوله تعالى : (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) الآية . وجميع الآيات التى ذكر فيها جل وعلا أن له الملك ، فالملك فيها شامل لملك السموات والأرض ، وما بينهما وغير ذلك . كقوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك) الآية ، وقوله تعالى : (تبارك الذى بيده الملك) الآية : وقوله تعالى: (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقوله تعالى: (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) الآية . وقوله تعالى : (مالك يوم الدين) والآيات الدالة على أن له ملك كل شىء كثيرة جداً معلومة .

وأما الأمر الثانى : وهو كونه تعالى لم يتخذ ولداً ، فقد جاء موضحاً

فى آيات كثيرة كقوله تعالى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وقوله تعالى (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخـــذ صاحبة ولا ولدا) وقوله تعالى (بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) الآية . وقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقدجئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) وقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخـذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) وقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما) وقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) إلى قوله (سبحان الله عما يصفون) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة وقد قدمنا ذلك فى مواضع من هذا الكتاب المبارك فى سورة الكهف وغيرها .

وأما الأمر الثالث ، وهو كونه تعالى لم يكن له شريك فى الملك ، فقد جاء موضحاً فى غير هـذا الموضع ، كقوله تعالى فى آخر سورة بنى إسرائيل (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) الآية ، وقوله تعالى فى سورة سبأ (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) وقوله تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) لأن قوله : الواحد القهار يدل على تفرده بالملك ، والقهر ، واستحقاق إخلاص العبادة ، كما لا يخفى . إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأمر الرابع : وهو أنه تعالى خلق كل شىء ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن

له صاحبة وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل) وقوله تعالى (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنَّى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأمر الخامس : وهو أنه قدَّر كل شيء خلقه تقديراً ، فقد جاء أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى) وقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقوله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر) إلى غير ذلك من الآيات وقال ابن عطية : تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة ، والأزمان ، والمقادير ، والمصلحة ، والإتقان . انتهى بواسطة نقل أبى حيان فى البحر .

تنبيـــه

فى هذه الآية الكريمة سؤال معروف ، وهو أن يقال : الخلق فى اللغة العربية ، معناه التقدير ومنه قول زهير :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لايفرى

قال بعضهم : ومنه قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال :أى أحسن المقدرين ، وعلى هذا فيكون معنى الآية وخلق كل شيء : أى قدر كل شيء فقدره تقديراً ، وهذا تكرار كما ترى ، وقد أجاب الزمخشرى عن هذا السؤال ، وذكر أبو حيان جوابه فى البحر ولم يتعقبه .

والجواب المذكور هو قوله : فإن قلت فى الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) كأنه قال : وقدر كل شيء فقدره .

قلت : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح له .

مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى ، الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الحيلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير ، فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه ، أو سمى إحداث الله خلقا ، لأنه لايحدث شيئا لحكمته إلا على وجه التقدير غير متفاوت ، فإذا قيل : خلق الله كذا ، فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره فى إيجاده لم يوجده متفاوتا ، وقيل : فجعل له غاية ومنتهى،ومعناه : قدره للبقاء إلى أمد معلوم. انتهى كلام صاحب الكشاف وبعضه له اتجاه . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَوٰةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الآلهة التى يعبدها المشركون من دونه ، متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع ، أن عبادتها مع الله ، لا وجه لها بحال ، بل هى ظلم متناه ، وجهل عظيم ، وشرك يخلد به صاحبه فى نار جهنم ، وهذا بعد أن أثنى على نفسه جل وعلا بالأمور الخمسة المذكورة فى الآية التى قبلها التى هى براهين قاطعة ، على أن المتصف بها هو المعبود وحده، والأمور الستة التى هى من صفات المعبودات من دون الله :

الأول منها : أنها لا تخلق شيئاً أى لا تقدر على خلق شيء .

والثانى منها : أنها مخلوقة كلها أى خلقها خالق كل شىء .

والثالث : أنها لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعا .

الرابع والخامس والسادس : أنها لا تملك موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، أى بعثا بعد الموت ، وهذه الأمور الستة المذكورة فى هذه الآية الكريمة ، جاءت مبينة فى مواضع أخر من كتاب الله تعالى .

أما الأول منها : وهو كون الآلهة المعبودة من دون الله لا تخلق شيئاً ، فقد جاء مبيناً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) الآية . وقوله تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون) وقوله تعالى فى سورة فاطر (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) وقوله تعالى فى سورة لقمان (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين) وقوله تعالى فى الأحقاف (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) . وقوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) وقد بين تعالى فى آيات من كتابه الفرق بين من يخلق ، ومن لا يخلق ، لأن من يخلق هو المعبود ، ومن لا يخلق لا تصح عبادته ، كقوله تعالى (ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم) الآية . أى وأما من لم يخلقكم ، فليس برب ، ولا بمعبود لكم كما لا يخفى . وقوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وقوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق

كل شيء وهو الواحد القهار) أى ومن كان كذلك ، فهو المعبود وحده جل وعلا . وقوله تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) .

وأما الأمر الثانى منها : وهو كون الآلهة المعبودة من دونه مخلوقة ، فقد جاء مبينا فى آيات من كتاب الله كآية النحل والأعراف ، المذكورتين آنفا .

أما آية النحل فهى قوله تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) فقوله : وهم يخلقون صريح فى ذلك . وأما آية الأعراف فهى قوله تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأمر الثالث منها : وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، فقد جاء مبينا أيضا فى مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) . وكقوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون) ومن لا ينصر نفسه فهو لا يملك لها ضراً ولا نفعا . وقوله تعالى (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) وقوله تعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) الآية .

وفيها الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، وقوله تعالى (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الرابع والخامس والسادس ، من الأمور المذكورة : أعنى كونهم

لا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا نشورا . فقد جاءت أيضاً مبينة فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذالكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون) .

فقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ، يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئاً من ذلك المذكور فى الآية ، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم ، والموت المعبر عنه بقوله : ثم يميتكم ، والنشور المعبر عنه بقوله : ثم يحييكم ، وبين أنهم لا يملكون نشورا بقوله : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) ، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشورا فى قوله تعالى : (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) الآية ، وبين أنه وحده الذى بيده الموت والحياة فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا) وقوله تعالى : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) الآية ، وقوله تعالى : (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) الآية ، وقوله تعالى : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) الآية ، وقوله تعالى : (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات . وهذا الذى ذكرنا من بيان هذه الآيات بعضها لبعض معلوم بالضرورة من الدين .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا) أظهر الأقوال فيه أن المعنى لا يملكون لأنفسهم دفع ضرر ولا جلب نفع . كما قاله القرطبى وغيره . وغاية ما فى هذا التفسير حذف مضاف دل المقام عليه ، وهو كثير فى القرآن وفى كلام العرب وقد أشار إليه فى الخلاصة بقوله :

وما يلى المضاف يأتى خلفا عنه فى الإعراب إذا ما حذفا

وقيل المعنى : لا يقدرون أن يضروا أنفسهم ، أو ينفعوها بشيء والأول هو الأظهر : أى وإذا عجزوا عن دفع ضر عن أنفسهم وجلب نفع لها فهم عن الموت والحياة والنشور أعجز ، لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ولا نشورا ، اعلم أن النشور يطلق فى العربية إطلاقين :

الأول : أن يكون مصدر نشر الثلاثى المتعدى ، تقول : نشر الله الميت ينشره نشراً ونشورا .

والثانى : أن يكون مصدر نشر الميت ينشر نشوراً لازما ، والميت فاعل نشر .

والحاصل : أن فى المادة ثلاث لغات الأولى : أنشره رباعيا بالهمزة ينشره بضم الياء إنشاراً . ومنه قوله تعالى : (ثم إذا شاء أنشره) وقوله تعالى : (وانظر إلى العظام كيف تنشر) بضم النون وبالراء المهملة فى قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو . وهو مضارع أنشره . والثانية نشر الله الميت ينشره بصيغة الثلاثى المتعدى ، والمصدر فى هذه اللغة النشر والنشور ، ومنه قوله هنا : ولا نشورا : أى لا يملكون أن ينشروا أحداً بفتح الياء ، وضم الشين ، والثالثة : نشر الميت بصيغة الثلاثى اللازم ، ومعنى أنشره ، ونشره متعدياً أحياه بعد الموت ، ومعنى نشر الميت لازما حيى الميت وعاش بعد موته ، وإطلاق النشر والنشور على الإحياء بعد الموت ، وإطلاق النشور على الحياة بعد الموت معروف فى كلام العرب ، ومن إطلاقهم نشر الميت لازما فهو ناشر أى عاش بعد الموت قول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى نحرها عاش ولم ينقـــل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميت الناشر

ومن إطلاق النشور بمعنى الإحياء بعد الموت ، مصدر الثلاثى المتعدى . قوله هنا : ولا نشورا : أى بعثا بعد الموت ، ومن إطلاقهم النشور بمعنى الحياة بعد الموت مصدر الثلاثى اللازم قول الآخر :

إذا قبلتها كرعت بفيها كروع السجدية فى الغدير
فيأخذنى العناق ورد فيها بموت فى عظامى أو فتور
فنحيا تارة ونموت أخرى ونخلط ما نموت بالنشور

فقد جعل الغيبوبة من شدة اللذة موتاً ، والإفاقة منها نشوراً ، أى حياة بعد الموت .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (واتخذوا من دونه آلهة) حذف فيه أحد المفعولين : أى اتخذوا من دونه أصناماً آلهة ، كقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة) الآية . والآلهة جمع إله ، فهو فعال مجموع على أفعلة ، لأن الألف التى بعد الهمزة مبدلة من همزة ساكنة هى فاء الكلمة كما قال فى الخلاصة :

ومدا ابدل ثانى الهمزين من كلمة إن يسكن كآثر وأثمن

والإله المعبود فهو فعال بمعنى مفعول ، وإتيان الفعال بمعنى المفعول جاءت منه أمثلة فى اللغة العربية كالإله بمعنى المألوه : أى المعبود ، والكتاب بمعنى المكتوب ، واللباس بمعنى : الملبوس ، والإمام بمعنى المؤتم به . ومعلوم أن المعبود بحق واحد وغيره من المعبودات أسماء سماها الكفار ، ما أنزل الله بهما من سلطان (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن

هم إلا يخرصون)، (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) الآية .

قوله تعالي : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا).

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الذين كفروا وكذبوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا فى هذا القرآن العظيم ، الذى أوحاه الله إليه : (إن هذا إلا إفك افتراه): أى ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعانه عليه على الإفك الذى افتراه قوم آخرون ، قيل : اليهود ، وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمى ، وأبو فكيهة الرومى ، قال ذلك النصر بن الحرث العبدلى .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أن الكفار كذبوه وادعوا عليه أن القرآن كذب اختلقه ، وأنه أعانه على ذلك قوم آخرون جاء مبينا فى آيات أخر كقوله تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وقوله تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج) وقوله تعالى : (وكذب به قومك وهو الحق) الآية . والآيات فى ذلك كثيرة معلومة .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنهم افتروا على النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه أعانه على افتراء القرآن قوم آخرون جاء أيضاً موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى . (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) وقوله تعالى : (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى يرويه محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره

إن هذا إلاقول البشر،وقوله تعالى (وليقولوا درست) كما تقدم إيضاحه فى الأنعام، وقد كذبهم الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة فيما افتروا عليه من البهتان بقوله (فقد جاءوا ظلما وزورا) قال الزمخشرى ظلمهم : أن جعلوا العربى يتلقن من الأعجمى الرومى كلاما عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب والزور هو أن بهتوه بنسبة ماهو برىء منه إليه انتهى . وتكذيبه جل وعلا لهم فى هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً فى مواضع أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) كما تقدم إيضاحه فى سورة النحل وقوله (وكذب به قومك وهو الحق) وقوله تعالى (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر ، وما أدريك ما سقر) الآية ، لأن قوله (سأصليه سقر) بعد ذكر افترائه على القرآن العظيم يدل على عظم افترائه وأنه سيصلى بسببه عذاب سقر ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها ، ومن كل ماقرب إليها من قول وعمل .

واعلم أن العرب تستعمل جاء وأتى بمعنى : فعل . فقوله (فقد جاءوا ظلما) أى فعلوه وقيل بتقدير الباء : أى جاءوا بظلم ، ومن إتيان أتى بمعنى فعل قوله تعالى (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا) الآية . أى بما فعلوه . وقول زهير بن أبى سلمى :

فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب ، لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل ، والعرب تقول : أفكه بمعنى قلبه ، ومنه قوله تعالى فى قوم لوط (والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات) وقوله (والمؤتفكة أهوى) وإنما قيل لها مؤتفكات ، لأن المهلك أفكها أى قلبها كما أوضحه تعالى بقوله (فجعلنا عاليها سافلها) .

قوله تعالى : ﴿ وقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

ذكر جل وعلا فى الأولى من هاتين الآيتين أن الكفار قالوا : إن هذا القرآن أساطير الأولين أى مما كتبه ، وسطره الأولون كأحاديث رستم واسفنديار ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم جمعه ، وأخذه من تلك الأساطير ، وأنه اكتتب تلك الأساطير ، قال الزمخشرى : أى كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكب الماء واصطبه إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه ، وقوله (فهى تملى عليه) أى تلقى إليه ، وتقرأ عليه عند إرادته كتابتها ليكتبها ، والإملاء إلقاء الكلام على الكاتب ليكتبه ، والهمزة مبدلة من اللام تخفيفا ؛ والأصل فى الإملاء الإملال باللام ومنه قوله تعالى (فليكتب وليملل الذى عليه الحق) الآية وقوله (بكرة وأصيلا) البكرة : أول النهار ، والأصيل : آخره .

وماذكره جل وعلا فى هذه الآية من أن الكفار قالوا : إن القرآن أساطير الأولين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم تعلمه من غيره ، وكتبه جاء موضحاً فى آيات متعددة كقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

وقد ذكرنا آنفا الآيات الدالة على أنهم افتروا عليه أنه تعلم القرآن من غيره ، وأوضحنا تعنتهم ، وكذبهم فى ذلك فى سورة النحل ، ودلالة الآيات على ذلك فى الكلام على قوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) الآية فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

ومن الآية الدالة على كذبهم فى قوله (اكتتبها فهى تملى عليه) .

قوله تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) ، وقوله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي إلى قوله تعالى ـ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) الآية ، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب وما ذكر جل وعلا في الآية الأخيرة من قوله (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) الآية . جاء أيضاً موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى (قل نزله روح القدس من ربك) الآية ، وقوله تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآية . وقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) وقوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، وقوله تعالى : (لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) وقوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) ، وقوله تعالى : (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله هنا (الذي يعلم السر في السموات والأرض) أي ومن يعلم السر فلا شك أنه يعلم الجهر .

ومن الآيات الدالة على مادلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه تعالى يعلم السر في السموات والأرض قوله تعالى : (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وقوله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) وقوله تعالى : (أو لم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) وقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) ، وقوله تعالى: (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) ، وقوله تعالى : (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) الآية ، وقوله تعالى:(وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى : فى هذه الآية الكريمة (إنه كان غفورا رحيما) ، قال فيه ابن كثير : هو دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم ، وافترائهم ، وفجورهم ، وبهتانهم ، وكفرهم ، وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وقال تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) .

قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة . انتهى كلام ابن كثير رحمه الله تعالى . وما ذكره واضح .

والآيات الدالة على مثله كثيرة كقوله تعالى : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) ، وقوله تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَا كُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الكفار قالوا فى نبينا صلى الله عليه وسلم ما لهذا الرسول ، يعنون مالهذا الذى يدعى أنه رسول ، وذلك كقول فرعون فى موسى : (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى ماله يأكل الطعام كما نأكله ، فهو محتاج إلى الأكل كاحتياجنا إليه ، ويمشى فى الأسواق

أى لاحتياجه إلى البيع والشراء ، ليحصل بذلك قوته يعنون أنه لو كان رسولا من عند الله ، لكان ملكا من الملائكة لا يحتاج إلى الطعام، ولا إلى المشى فى الأسواق ، وادعاء الكفار أن الذى يأكل كما يأكل الناس، ويحتاج إلى المشى فى الأسواق ، لقضاء حاجته منها ، لا يمكن أن يكون رسولا ، وأن الله لا يرسل إلا ملكا ، لا يحتاج للطعام ، ولا للمشى فى الأسواق ، جاء موضحا فى آيات كثيرة ، وجاء فى آيات أيضاً تكذيب الكفار فى دعواهم هذه الباطلة .

فمن الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذكر عنهم فى هذه الآية قوله تعالى : (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) وقوله تعالى :(ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) ، وقوله تعالى عنهم : (قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) الآية ، وقوله تعالى : (أبشراً منا واحداً نتبعه) . الآية ، وقوله : (فقالوا : أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله) الآية . وقوله تعالى : (قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) .

ومن الآيات التى كذبهم الله بها فى دعواهم هذه الباطلة ، وبين فيها أن الرسل يأكلون ويمشون فى الأسواق ويتزوجون ويولد لهم ، وأنهم من جملة البشر ، إلا أنه فضلهم بوحيه ورسالته ، وأنه لو أرسل للبشر ملكا لجعله رجلا ، وأنه لو كانت فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل عليهم ملكا رسولا، لأن المرسل من جنس المرسل إليهم ، قوله تعالى فى هذه السورة الكريمة : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) وقوله

تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ، أى ولم نجعلهم ملائكة ، لأن كونهم رجالا وكونهم من أهل القرى ، صريح فى أنهم ليسوا ملائكة ، وقوله تعالى : (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار : إنه بشر ، وإنه رسول. وذلك لأن البشرية لا تنافى الرسالة فى قوله تعالى : (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) ، وقوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، وقوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) الآية . وبين جل وعلا أن الرسل قالوا مثل ذلك فى قوله : (قالت رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) الآية ، وقال تعالى : (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) ، وقوله تعالى : (ويمشى فى الأسواق) جمع سوق وهى مؤنثة ، وقد تذكر . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾

اعلم أولا أن لولا فى هذه الآية الكريمة حرف تحضيض على التحقيق ، والتحضيض . هو الطلب بحث ، وشدة ، وإليه أشار فى الخلاصة بقوله :

وبهما التحضيض مزوهلا ألاّ ألا وأولينها الفعلا

وبه تعلم أن المضارع فى قوله : فيكون معه نذيراً منصوب بأن مستترة وجوبا ، لأن الفاء فى جواب الطلب المحض الذى هو التحضيض ، كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

وبعد فا جواب نفى أو طلب محضين أن وسترها حتم نصب

ونظير هذا من النصب بأن المستترة بعد الفاء التى هى جواب التحضيض ، قوله تعالى : (فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) لأن قوله : لولا أخرتنى طلب منه للتأخير بحث وشدة ، كما دل عليه حرف التحضيض الذى هو لولا ، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر :

لولا تعوجين ياسلمى على دنف فتخمدى نار وجد كاد يفنيه

فقوله تعالى فى الآية الكريمة : فأصدق بالنصب ، وقول الشاعر : فتخمدى منصوب أيضاً ، بحذف النون ، لأن الفاء فى جواب الطلب المحض الذى هو التحضيض .

واعلم أن جزم الفعل المعطوف على الفعل المنصوب أعنى قوله : (وأكن من الصالحين) إنما ساغ فيه الجزم ، لأنه عطف على المحل لأن الفاء لو حذفت مع قصد جواب التحضيض لجزم الفعل ، وجواز الجزم المذكور عند الحذف المذكور ، هو الذى سوغ عطف المجزوم على المنصوب . وقد أشار إلى ذلك فى الخلاصة بقوله :

وبعد غير النفى جزما اعتمد إن تسقط الفا والجزاء قد قصد

وبما ذكرنا تعلم أن ما ذكره القرطبى وغيره ، وأشار له الزمخشرى من أن لولا فى الآية للاستفهام ، ليس بصحيح .

واعلم أن الكفار فى هذه الآية الكريمة اقترحوا بحث وشدة عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمور :

الأول : أن ينزل إليه ملك ، فيكون معه نذيرا أى يشهد له بالصدق ، ويعينه على التبليغ .

الثانى : أن يلقى إليه كنز ، أى ينزل عليه كنز من المال ينفق منه ، ويستغنى به عن المشى فى الأسواق .

الثالث : أن تكون له جنة يأكل منها، والجنة فى لغة العرب البستان ومنه قول زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

فقوله : تسقى جنة أى بستانا ، وقوله : سحقا يعنى أن نخله طوال .

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة فى هذه الآية الكريمة التى اقترحها الكفار وطلبوها بشدة وحث ، تعنتا منهم وعناداً ، جاءت مبينة فى غير هذا الموضع ، فبين جل وعلا فى سورة هود اقتراحهم ، لنزول الكنز ، ومجىء الملك معه، وأن ذلك العناد والتعنت قد يضيق به صدره صلى الله عليه وسلم وذلك فى قوله تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير) ، وبين جل وعلا فى سورة بنى إسرائيل اقتراحهم الجنة ، وأوضح أنهم يعنون بها بستانا من نخيل وعنب ، وذلك فى قوله تعالى : (وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) واقتراحهم هذا شبيه بقول فرعون فى موسى : (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم .

وقد قدمنا فى الكلام على آية سورة بنى إسرائيل ، هذه الآيات الدالة على كثرة اقتراح الكفار ، وشدة تعنتهم وعنادهم ، وأن الله لو فعل لهم كل

ما اقترحوا لما آمنوا كما قال تعالى: (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) وقال تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وقال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) الآية ، وقال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية) الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم .

وقال الزمخشرى فى تفسير آية الفرقان هذه : يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق كما نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساعدا فى الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا أيضا فقالوا إن لم يكن مرفودا بذلك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء ، يستظهر به ، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل منه ، ويرتزق كالدهاقين أو يأكلون هم من ذلك البستان ، فينتفعون به فى دنياهم ، ومعاشهم . انتهى منه ، وكل تلك الاقتراحات لشدة تعنتهم ، وعنادهم . وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائى يأكل منها بالمثناة التحتية ، وقرأ حمزة والكسائى : جنة نأكل منها بالنون ، وهذه القراءة هى مراد الزمخشرى بقوله : أو يأكلون هم من ذلك البستان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الظالمين وهم الكفار قالوا للذين اتبعوا النبى ، صلى الله عليه وسلم : (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) يعنون : أنه أثر فيه السحر فاختلط عقله فالتبس عليه أمره ، وقال مجاهد : مسحوراً : أى مخدوعا كقوله : فأنى تسحرون : أى من أين تخدعون ، وقال بعضهم : مسحورا : أى له سحر أى رئة فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب ، فهو بشر مثلكم ، وليس بملك ، وقد قدمنا كلام أهل العلم فى قوله : مسحورا بشواهده العربية فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ولما ذكر الله هذا الذى قاله الكفار فى نبيه صلى الله عليه وسلم ، من الإفك والبهتان خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ، وما قاله الكفار فى هذه الآية أعنى قولهم : (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) وما قاله الله لنبيه فى ذلك ، وهو قوله : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) الآية . جاء كله مصرحا به فى سورة بنى إسرائيل فى قوله تعالى : (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) .

قال الزمخشرى: ضربوا لك الأمثال قالوا : فيك تلك الأقوال ، واقترحوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة ، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك ، وإلقاء كنز عليك من السماء ، وغير ذلك ، فبقوا متحيرين ضلالا لا يجدون قولا يستقرون عليه ، أو فضلوا عن الحق ، فلا يجدون طريقا إليه اهـ .

والأظهر عندى فى معنى الآية ماقاله غير واحد من أن معنى : ضربوا لك الأمثال : أنهم تارة يقولون إنك ساحر ، وتارة مسحور ، وتارة مجنون ، وتارة شاعر ، وتارة كاهن ، وتارة كذاب ، ومن ذلك ماذكر الله عنهم من

قوله هنا : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه) الآية ، وقوله (وقالوا أساطير الأولين) وقوله (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وقوله تعالى (فضلوا) أى عن طريق الحق ، لأن الأقوال التى قالوها ، والأمثال التى ضربوها كلها كذب وافتراء ، وكفر مخلد فى نار جهنم ، فالذين قالوها هم أضل الضالين ، وقوله تعالى (فلا يستطيعون سبيلا) فيه أقوال كثيرة متقاربة .

وأظهرها أن معنى : فلا يستطيعون سبيلا : أى طريقاً إلى الحق والصواب ، ونفى الاستطاعة المذكور هنا كقوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وقوله تعالى (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وقد قدمنا أيضاً معنى الظلم والضلال وما فيهما من الإطلاقات فى اللغة مع الشواهد العربية فى مواضع متعددة من هـذا الكتاب المبارك ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الكفار كذبوا بالساعة أى أنكروا القيامة من أصلها لإنكارهم البعث بعد الموت والجزاء ، وأنه جل وعلا اعتد أى هيأ وأعد لمن كذب بالساعة : أى أنكر يوم القيامة سعيراً : أى ناراً شديدة الحر يعذبه بها يوم القيامة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم ، كما سترى الآيات

الدالة على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى . وهذان الأمران المذكوران فى هذه الآية الكريمة ، وهما تكذيبهم بالساعة ، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير جاءا موضحين فى آيات أخر ، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث ، والجزاء بعد الموت ، فقد جاء فى آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى (إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) وقوله تعالى (من يحيى العظام وهى رميم) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار ، فقد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ماتدرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) إلى قوله (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) فقوله : ومأواكم النار بعد قوله (قلتم ماندرى ما الساعة) الآية ، يدل على أن قولهم : ماتدرى ما الساعة هو سبب كون النار مأواهم ، وقوله بعده (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً) لاينافى ذلك لأن من اتخاذهم آيات الله هزواً تكذيبهم بالساعة ، وإنكارهم البعث كما لايخفى ، وكقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فقد بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من سورة الرعد أن إنكارهم البعث ، الذى عبروا عنه باستفهام الإنكار فى قوله تعالى عنهم (أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد) جامع بين أمرين .

الأول منهما : أنه عجب من العجب لكثرة البراهين القطعية الواضحة الدالة على ما أنكروه .

والثانى منهما : وهو محل الشاهد من الآية أن إنكارهم البعث المذكور كفر مستوجب للنار وأغلالها والخلود فيها ، وذلك فى قوله تعالى مشيراً إلى

الذين أنكروا البعث (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ومعلوم أن إنكار البعث إنكار للساعة ، وكقوله تعالى (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) أى لا يصدنك من لا يؤمن بالساعة عن الإيمان بها ، فتردى : أى تهلك لعدم إيمانك بها، والردى الهلاك ، وهو هنا عذاب النار بسبب التكذيب بالساعة ، وقد قال تعالى (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) وقوله تعالى فى آية طه هذه : فتردى ، يدل دلالة واضحة على أنه إن صده من لا يؤمن بالساعة عن التصديق بها، أن ذلك يكون سبباً لرداه أى هلاكه بعذاب النار كما لا يخفى ، وكقوله تعالى (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) فآية الروم هذه ، تدل على أن الذين كذبوا بلقاء الآخرة وهم الذين كذبوا بالساعة معدودون مع الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، وأنهم فى العذاب محضرون . وهو عذاب النار . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (بل كذبوا بالساعة) أظهر الأقوال فيه عندى أنه متصل بما يليه ، وأن بل فيه للإضراب الانتقالى ، وقد أوضحنا معنى السعير مع بعض الشواهد العربية فى أول سورة الحج ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن النار يوم القيامة ، إذا رأت الكفار من مكان بعيد : أى فى عرصات المحشر اشتد غيظها على من كفر

بربها ، وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها ، وسمعوا زفيرها .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة بين بعضه فى سورة الملك ، فأوضح فيها شدة غيظها على من كفر بربها ، وأنهم يسمعون لها أيضاً شهيقاً مع الزفير الذى ذكره فى آية الفرقان هذه ، وذلك فى قوله تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ) أى يكاد بعضها ينفصل عن بعض من شدة غيظها ، على من كفر بالله تعالى .

وللعلماء أقوال فى معنى الزفير والشهيق ، وأقربها أنهما يمثلهما معاً صوت الحمار فى نهيقه ، فأوله زفير ، وآخره الذى برده فى صدره شهيق .

والأظهر أن معنى قوله تعالى (سمعوا لها تغيظا) أى سمعوا غليانها من شدة غيظها ، ولما كان سبب الغليان التغيظ أطلقه عليه ، وذلك أسلوب عربى معروف . وقال بعض أهل العلم : سمعوا لها تغيظاً : أى أدركوه ، والإدراك يشمل الرؤية والسمع ، وعلى هذا فالسمع مضمن معنى الإدراك ، وما ذكرنا أظهر .

وقال القرطبى : قيل المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم ، ثم ذكر فى آخر كلامه أن هذا القول هو الأصح .

مسألة

اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة ، كما صرح الله بذلك فى قوله هنا : (إذا رأتهم من مكان بعيد) ورؤيتها إياهم من مكان بعيد ، تدل على حدة بصرها كما لا يخفى ، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به فى قوله (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) والأحاديث الدالة

على ذلك كثيرة ، كحديث محاجة النار مع الجنة ، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها فى نفسين ، ونحو ذلك ، ويكفى فى ذلك أن الله جل وعلا صرح فى هذه الآية ، أنها تراهم وأن لها تغيظا على الكفار، وأنها تقول : هل من مزيد .

واعلم أن مايزعمه كثير من المفسرين وغيرهم ، من المنتسبين للعلم من أن النار لاتبصر ، ولا تتكلم ، ولا تغتاظ . وأن ذلك كله من قبيل المجاز ، أو أن الذى يفعل ذلك خزنتها كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحى الصحيحة بلا مستند ، والحق هو ما ذكرنا .

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة ، لايجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، كما هو معلوم فى محله .

وقال القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة : إن القول بأن النار تراهم هو الأصح ، ثم قال لما روى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كذب على متعمداً فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا. قيل يا رسول الله أو لها عينان ؟ قال : أو ماسمعتم الله عز وجل يقول : إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا، يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول : وكلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه » وفى رواية « يخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم » ذكره رزين فى كتابه ، وصححه ابن العربى فى قبسه ، وقال : أى تفصلهم عن الخلق فى المعرفة ، كما يفصل الطائر حب السمسم عن التربة ، وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق فيقول: إنى وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين»

وفى الباب عن أبى سعيد قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . انتهى محل الغرض من كلام القرطبى .

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج الطبرانى ، وابن مردويه من طريق مكحول ، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله علية وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعداً من بين عينى جهنم . قالوا يا رسول الله : وهل لجهنم من عين ؟ قال : نعم أما سمعتم الله يقول : إذا رأتهم من مكان بعيد . فهل تراهم إلا بعينين » وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، من طريق خالد بن دريك ، عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يقل علىّ مالم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عينى جهنم مقعداً قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : نعم أما سمعتم الله يقول : إذا رأتهم من مكان بعيد إلى آخر كلامه » ، وفيه شدة هول النار ، وأنها تزفر زفرة يخاف منها جميع الخلائق .

نرجو الله جل وعلا أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ، ومن كل ماقرب إليها من قول وعمل .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِـــدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

ذكر جل وعلا فى هـــذه الآية الكريمة : أن أهل النار إذا ألقوا : أى طرحوا فى مكان ضيق من النار ، فى حال كونهم مقرنين ، دعوا هنالك : أى فى ذلك المكان الضيق ثبوراً، فيقال لهم : لاتدعوا ثبورا واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ، فقوله : مكانا منصوب على الظرف ، كما قال أبو حيان فى البحر المحيط .

وما ذكره هنا من أنهم يلقون فى مكان ضيق من النار ، جاء مذكورا أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة)وقوله تعالى (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) ومعنى مؤصدة فى الموضعين بهمز، وبغير همز: مطبقة أبوابها، مغلقة عليهم كما أوضحناه بشواهده العربية فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) ومن كان فى مكان مطبق مغلق عليه ، فهو فى مكان ضيق ، والعياذ بالله ، وقد ذكر أن الواحد منهم يجعل فى محله من النار بشدة كما يدق الوتد فى الحائط ، وعن ابن مسعود : أن جهنم تضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . والزج بالضم : الحديدة التى فى أسفل الرمح .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : مقرنين : أى فى الأصفاد بدليل قوله تعالى فى سورة إبراهيم (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد) والأصفاد القيود . والأظهر أن معنى مقرنين : أن الكفار يقرن بعضهم إلى بعض فى الأصفاد والسلاسل ، وقال بعض أهل العلم : كل كافر يقرن هو وشيطانه ،وقد قال تعالى (حتى إذا جاءنا قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) .

وهذا أظهر من قول من قال : مقرنين مكتفين ، ومن قول من قال : مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال ، والثبور : الهلاك والويل والخسران .

وقال ابن كثير : والأظهر أن الثبور يجمع الخسار والهلاك والويل والدمار . كما قال موسى لفرعون : (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) أى هالكا ، قال عبد الله بن الزبعرى السهمى :

إذا جارى الشيطان فى سنن الغسـ ـى ومن مال ميـــله مثبور . اهـ

وقال الجوهرى فى صحاحه : والثبور الهلاك والخسران أيضا ، قال الكميت:

ورأت قضاعة فى الأيا من رأى مثبور وثابر

أى مخسور وخاسر يعنى فى انتسابها لليمن . اهـ منه .

وقوله تعالى (دعوا هنالك ثبورا) معنى دعائهم الثبور هو قولهم: واثبوراه ، يعنون : ياويل ، ويا هلاك ، تعال ، فهذا حينك وزمانك .

وقال الزمخشرى : ومعنى وادعوا ثبورا كثيراً أنكم وقعتم فيما ليس ثبور كم فيه واحدا ، إنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان ، كل نوع منها ثبور ، لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم . اهـ .

تنبيـــه

اعلم أنه تعالى فى هذه الآية الكريمة قال : مكانا ضيقاً ، وكذلك فى الأنعام فى قوله تعالى : (يجعل صدره ضيقاً حرجاً) وقال فى هود (وضائق به صدرك) فما وجه التعبير فى سورة هود ، بقوله: ضائق على وزن فاعل، وفى الفرقان والأنعام بقوله : ضيقاً على وزن فيعل ، مع أنه فى المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيق ، فهو ضيق .

والجواب عن هذا هو أنه تقرر فى فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقا ، كما أشار له ابن مالك فى لاميته بقوله :

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ ـحدوث نحو غد ذا فارح جذلا

وإن لم يقصد به الحدوث ، والتجدد بقى على أصله .

وإذا علمت ذلك ماعلم أن قوله تعالى فى سورة هود (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك) أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر ، ويتجدد

له بسبب عنادهم وتعنتهم فى قولهم (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) ولما كان كذلك ، قيل فيه : ضائق بصيغة اسم الفاعل، أما قوله : ضيقا فى الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث ، ولذلك بقى على أصله .

ومن أمثلة إتيان الفيعل على فاعل إن قصد به الحدوث قوله تعالى (وضائق به صدرك) وقول قيس بن الخطيم الأنصارى :

أبلغ خـــداشا أننى ميت كل امرىء ذى حسب مائت

فلما أراد حدوث الموت قال : مائت بوزن فاعل ، وأصله ميت على وزن فيعل .

ومن أمثلته فى فعل بفتح فكسر قول أبى عمرو أشجع بن عمرو السلمى يرثى قتيبة بن مسلم :

فما أنا من رزء وإن جل جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

فلما نفى أن يحدث له فى المستقبل فرح ولا جزع قال جازع وفارح، والأصل: جزع وفرع .

ومثاله فى فعيل قول لبيد :

حسبت التقى والجود خير تجارة رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا

فلما أراد حدوث الثقل قال: ثاقلا والأصل ثقيل ، وقول السمهرى العكلى:

بمنزلة أما اللئيم فســامن بها وكرام الناس باد شحوبها

فلما أراد حدوث السمن قال : فسامن والأصل سمين .

واعلم أن قراءة ابن كثير ضيقا بسكون الياء فى الموضعين راجعة فى المعنى إلى قراءة الجمهور بتشديد الياء لأن إسكان الياء تخفيف كهين ولين ، فى هين ولين .والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾

التحقيق أن الإشارة فى قوله : أذلك راجعة إلى النار ، وما يلقاه الكفار فيها من أنواع العذاب كما ذكره جل وعلا بقوله :(وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) إلى قوله تعالى : (وادعوا ثبورا كثيراً) ، وغير هذا من الأقوال لايعول عليه ، كقول من قال : إن الإشارة راجعة إلى الكنز والجنة فى قوله تعالى : (أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة) الآية ، وكقول من قال : إنها راجعة إلى الجنات والقصور المعلقة على المشيئة فى قوله تعالى : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) والتحقيق إن شاء الله أنه لما ذكر شدة عذاب النار وفظاعته قال : أذلك العذاب خير أم جنة الخلد الآية .

وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة ، جاء أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة الصافات (إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) إلى قوله (يهرعون) وكقوله تعالى (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) الآية .

وفى هذه الآيات وأمثالها فى القرآن إشكال معروف ، وهو أن يقال : لفظة خير فى الآيات المذكورة صيغة تفضيل كما قال فى الكافية :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

كما قدمناه موضحا فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) الآية .

والمعروف فى علم العربية أن صيغة التفضيل تقتضى المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل ، إلا أن المفضل أكثر فيه وأفضل من المفضل عليه ، ومعلوم أن المفضل عليه فى الآيات المذكورة الذى هو عذاب النار لا خير فيه البتة ، وإذن فصيغة التفضيل فيها إشكال .

والجواب عن هذا الإشكال من وجهين :

الأول : أن صيغة التفضيل قد تطلق فى القرآن ، وفى اللغة مراداً بها مطلق الاتصاف ، لا تفضيل شىء على شىء . وقد مناه مراراً وأكثرنا من شواهده العربية فى سورة النور وغيرها .

الثانى : أن من أساليب اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شىء بالفضيلة ، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل ، يريدون بها خصوص ذلك الشىء بالفضل ، كقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أتهجوه ولست له بكفء فشرّ كما لخيركما الفداء

وكقول العرب : الشقاء أحب إليك ، أم السعادة ؟ وقوله تعالى : (قال رب السجن أحبّ إلى) الآية .

قال أبو حيان فى البحر المحيط فى قوله تعالى : (أذلك خير) الآية ، وخير هنا ليست تدل على الأفضلية ، بل هى على ما جرت به عادة العرب فى بيان فضل الشىء ، وخصوصيته بالفضل دون مقابله كقوله :

* فشركما لخيركما الفداء *

وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة ، وكقوله : (السجن أحب إلى مما يدعونني إليه) وهذا الاستفهام على سبيل التوقيف والتوبيخ . اهـ الغرض من كلام أبي حيان .

وعلى كل حال فعذاب النار شر محض لا يخالطه خير البتة كما لا يخفى ، والوجهان المذكوران في الجواب متقاربان .

وقوله تعالى في هذه الآية : (أم جنة الخلد التي وعد المتقون) العائد محذوف : أي وعدها المتقون ، والآية تدل على أن الوعد الصادق بالجنة ، يحصل بسبب التقوى .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك بإيضاح في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : (كذلك يجزي الله المتقين) وقوله تعالى : (لهم فيها ما يشاءون) العائد أيضاً محذوف كالذي قبله : أي ما يشاءونه ، وحذف العائد المنصوب بالفعل أو الوصف كثير ، كما قال في الخلاصة :

والحذف عندهم كثير منجلي في عائد متصل إن انتصب
بفعل أو وصف كمن نرجو يهب

وهذه الآية الكريمة ، تدل على أن أهل الجنة يجدون كل ما يشاءونه من أنواع النعيم .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون) والآيات المذكورة تدل على أن حصول كل ما يشاءه الإنسان لا يكون إلا في الجنة ، وقوله : (كانت لهم جزاء ومصيرا) المصير مكان الصيرورة ، وقد مدح الله جزاءهم ومحله كقوله تعالى : (نعم الثواب وحسنت مرتفقا) لأن حسن المكان وجودته من أنواع النعيم .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : (كان على ربك وعداً مسئولا) فيه وجهان معروفان .

أحدهما : أن معنى كونه مسئولا أن المؤمنين كانوا يسألونه ، وكانت الملائكة أيضاً تسأله لهم ، أما سؤال المسلمين له فقد ذكره تعالى : بقوله عنهم : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) وسؤال الملائكة لهم إياه ذكره تعالى أيضاً فى قوله : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) الآية ، وقال بعض العلماء : مسئولا : أى واجباً لأن ما وعد الله به فهو واجب الوقوع ، لأنه لا يخلف الميعاد ، وهو جل وعلا يوجب على نفسه بوعده الصادق ما شاء لامعقب لحكمه ويستأنس لهذا القول بلفظة على فى قوله : (كان على ربك وعداً مسئولا) كقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال بعض أهل العلم : إن المسلمين يوم القيامة يقولون : قد فعلنا فى دار الدنيا كل ما أمرتنا به فأنجز لنا ما وعدتنا ، والقولان الأولان أقرب من هذا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ، قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم : نحشرهم ، بالنون الدالة على العظمة ، وقرأ ابن كثير ، وحفص ، عن عاصم : يحشرهم بالياء

المثناة التحتية ، وقرأ عامة السبعة غير ابن عامر،فيقول بالياء المثناة التحتية ، وقرأ ابن عامر فنقول بنون العظمة .

فتحصل أن ابن كثير وحفصاً يقرآن بالياء التحتية فيهما ، وأن ابن عامر يقرأ بالنون فيهما ، وأن باقي السبعة يقرءون : نحشرهم بالنون ، فيقول بالياء ، وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه يحشر الكفار يوم القيامة ، وما كانوا يعبدون من دونه : أى يجمعهم جميعاً فيقول للمعبودين : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء فزينتم لهم أن يعبدوكم من دونى ، أم هم ضلوا السبيل: أى كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دونى من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك ولا أن تزينوه لهم ، وأن المعبودين يقولون : سبحانك أى تنزيها لك عن الشركاء وكل مالا يليق بجلالك وعظمتك، ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء : أى ليس للخلائق كلهم ، أن يعبدوا أحدا سواك لانحن ولا هم ، فنحن مادعوناهم إلى ذلك ، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ، من غير أمرنا ، ونحن برآء منهم ، ومن عبادتهم ، ثم قال : (ولكن متعتهم وآباءهم) أى طال عليهم العمر ، حتى نسوا الذكر أى نسوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك ، لاشريك لك ، وكانوا قوما بوراً قال ابن عباس أى هلكى ، وقال الحسن البصرى ومالك عن الزهرى : أى لاخير فيهم اهـ. الغرض من كلام ابن كثير .

وقال أبوحيان فى البحر: ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء: أى ما كان يصح لنا ولا يستقيم إلى آخر كلامه .

وإذا عرفت ماذكره جل وعلا فى هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له، فاعلم أن العلماء اختلفوا فى المعبودين .فقال بعضهم: المرادبهم الملائكة وعيسى وعزير قالوا : هذا القول يشهد له القرآن ، لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن

عبادة من عبدهم ، كما قال فى الملائكة : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وقال فى عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب) وجواب الملائكة وجواب عيسى كلاهما شبيه بجواب المعبودين فى آية الفرقان هذه ، ولذلك اختار غير واحد من العلماء أن المعبودين الذين يسألهم الله فى سورة الفرقان هذه هم خصوص العقلاء ، دون الأصنام .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندى شمول المعبودين المذكورين للأصنام ، مع الملائكة وعيسى ، وعزير لأن ذلك تدل عليه قرينتان قرآنيتان.

الأولى : أنه عبر عن المعبودين المذكورين بما التى هى لغير العاقل فى قوله : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) الآية . فلفظة ماتدل على شمول غير العقلاء ، وأنه غلب غير العاقل لكثرته .

القرينة الثانية : هى دلالة آيات من كتاب الله ، على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم : أى لا يعلمون بها لكونهم غير عقلاء كقوله تعالى فى سورة يونس (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون. وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم، نظراً إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء كما أوضحناه فى غير هذا الموضع ، وكقوله تعالى فى الأحقاف (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فقد دل قوله تعالى

(وهم عن دعائهم غافلون) على أنهم لا يعقلون ، ومع ذلك قال (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وكقوله تعالى فى العنكبوت (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) الآية . فصرح بأنهم أوثان ، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضا. وكقوله تعالى (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (حتى نسوا الذكر) الظاهر أن معنى نسوا تركوا . والأظهر أن الذكر هو ماجاءت به الرسل من التوحيد ، وقيل ذكر الله بشكر نعمه ، والأصح أن قوله بوراً معناه هلكى ، وأصله اسم مصدر يقع على الواحد وعلى الجماعة ، فمن إطلاقه على الجماعة قوله هنا (وكانوا قوما بورا) وقوله فى سورة الفتح (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بوراً) ومن إطلاقه على المفرد قول عبد الله بن الزبعرى السهمى رضى الله عنه .

يا رسول المليك إن لسانى راتق مافتقت إذ أنا بور

ويطلق البور على الهلاك . وعن ابن عباس أنها لغة أهل عمان، وهم من أهل اليمن ، ومنه قول الشاعر :

فلا تكفروا ماقد صنعنا إليكم وكافوا به فالكفر بور لصانعه

واعلم أن ماذكره الزمخشرى فى هذه الآية ، وأطنب فيه من أن الله لا يضل أحداً مذهب المعتزلة ، وهو مذهب باطل وبطلانه فى غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإياك أن تغتر به ، وما ذكر عن الحسن البصرى ، ومالك ، عن الزهرى من أن معنى بورا لاخير فيهم له وجه فى اللغة العربية ، ولكن التحقيق أنه ليس معنى الآية ، وأن معنى بوراً هلكى كما تقدم، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية : أن المعبودين كذبوا العابدين وذلك فى قوله عنهم (قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) .

ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من تكذيب المعبودين للعابدين ، جاء فى آيات أخر كقوله تعالى (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وكقوله تعالى (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) وقوله) فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) وقوله تعالى : (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِمْ مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

قال ابن كثير : ومن يظلم منكم أى يشرك بالله ، وذكره القرطبى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وهذا التفسير تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: (والكافرون هم الظالمون) وقوله تعالى : (ولاتدع من دون الله مالاينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين)وقوله تعالى:(إن الشرك لظلم عظيم) وقد ثبت فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر الظلم فى قوله تعالى: (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) فقال : أى بشرك كما قدمناه موضحاً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه جعل بعض الناس فتنة لبعض .

وهـذا المعنى الذى دلت عليه الآية ذكره فى قوله تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) الآية .

وقال القرطبي فى تفسير قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ومعنى هذا : أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير عليه أن يواسيه ، ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغنى عليه أن لا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ، كما قال الضحاك فى معنى : أتصبرون : أى على الحق ، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لَمْ نعاف، والأعمى يقول لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة ، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره وكذلك العلماء ، وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى ، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر ، وذلك عن الضجر. انتهى محل الغرض من كلام القرطبي .

وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض . فاعلم أن قوله تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) الآية. فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين، حيث احتقروهم وازدروهم ، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم فى زعمهم لفقرهم ، ورثاثة حالهم ، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم إنهم قالوا فيهم (لو كان خيراً ماسبقونا إليه) وقال (أأنزل عليه الذكر من بيننا) إلى غير ذلك من الآيات ، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم فى الدنيا كما قال تعالى (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون..) إلى قوله تعالى: (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون، هل ثوب

الكفار ما كانوا يفعلون) وقوله تعالى (ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) وقوله تعالى : أتصبرون ، أى على الحق أم لاتصبرون . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الذين لا يرجون لقاء الله قالوا . لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ، ولولا فى هذه الآية للتحضيض .

والمعنى أنهم طلبوا بحث وشدة أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم ، وهذا التعنت الذى ذكره الله عنهم هنا من طلبهم إنزال الملائكة عليهم ، أو رؤيتهم ربهم ذكره فى غير هذا الموضع كقوله تعالى: (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وقولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) قيل: فتوحى إلينا كما أوحت إليك ، وهذا القول يدل له قوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) الآية وقيل: لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عيانا ، وهذا يدل له قوله تعالى (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى معاينة على القول بذلك ، وقد قدمنا الأقوال فى ذلك فى سورة بنى إسرائيل .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : لا يرجون . قال بعض العلماء : لا يرجون أى لا يخافون لقاء الله لعدم إيمانهم بالبعث. والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع . قال بعض العلماء : ومنه قوله تعالى : (مالكم لا ترجون لله وقارا) قال أى لا تخافون لله عظمة ، ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نوب عواسل

فقوله لم يرج لسعها : أى لم يخف لسعها ، وقال بعض أهل العلم : إطلاق الرجاء على الخوف لغة تهامة ، وقال بعض العلماء : لا يرجون لقاءنا لا يأملون ، وعزاه القرطبي لابن شجرة وقال : ومنه قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

أى أتأمل أمة الخ. والذى لا يؤمن بالبعث لا يخاف لقاءالله، لأنه لا يصدق بالعذاب ، ولا يأمل الخير من تلقائه ، لأنه لا يؤمن بالثواب .

وقوله جل وعلا (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى أضمروا التكبر عن الحق فى قلوبهم ، واعتقدوه عنادا وكفرا ، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى : (إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) وقوله تعالى : (وعتو عتوا كبيرا)أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان يقال : عتا علينا فلان : أى تجاوز الحد فى ظلمنا ، ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر ، يدل على أنه بالغ فى إفراطه ، وأنهم بلغوا غاية الاستكبار ، وأقصى العتو، وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات ، ووضوح الحق وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة ، أو رؤية الله استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال ، والتقريع ، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنت واستكبر عن قبول الحق ، كما فى قوله تعالى : (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) وقوله تعالى : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقدسألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) الآية وقوله تعالى (وإذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) واستدلال المعتزلة بهذه الآية ، وأمثالها على أن رؤية الله مستحيلة استدلال باطل ومذهبهم والعياذ بالله من أكبر الضلال ،

وأعظم الباطل ، وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية : إن الله لا يرى قول باطل ، وكلام فاسد .

والحق الذي لا شك فيه : أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقاً ومفهوماً . كما أوضحناه في غير هذا الموضع .

وقد قدمنا في هذه السورة وفي سورة بني إسرائيل الآيات الدالة على أن الله لو فعل لهم كل ما اقترحوا لما آمنوا ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم ، أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم : أي لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير ، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم ، وتكون يوم القيامة ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين .

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت ، كقوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وقوله تعالى : (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضاً ، ويدل لذلك قوله تعالى : (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لا بشرى يومئذ للمجرمين) يدل بدليل خطابه : أى مفهوم مخالفته ، أن غير المجرمين يوم يرون الملائكة تكون لهم البشرى ، وهذا المفهوم من هذه الآية جاء مصرحا به فى قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة . (ويقولون حجراً محجوراً) أظهر القولين فيه عندى أنه من كلام الكفار ، يوم يرون الملائكة . لا من كلام الملائكة وإيضاحه : أن الكفار الذين اقترحوا إنزال الملائكة إذا رأوا الملائكة توقعوا العذاب من قبلهم ، فيقولون حينئذ للملائكة : حجراً محجوراً :أى حراما محرما عليكم أن تمسونا بسوء أى لأننا لم نرتكب ذنباً نستوجب به العذاب ، كما أوضحه تعالى بقوله عنهم (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) فقولهم : ما كنا نعمل من سوء: أى لم نستوجب عذابا فتعذيبنا حرام محرم ، وقد كذبهم الله فى دعواهم هذه بقوله : (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) وعادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، أنهم يقولون هذا الكلام : أى حجرا محجورا عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك .

وقد ذكر سيبويه هذه الكلمة أعنى : حجراً محجوراً فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو :معاذالله ، وعمرك الله ، ونحو ذلك وقوله : حجراً محجوراً ، أصله من حجره بمعنى منعه ، والحجر الحرام ، لأنه ممنوع ومنه قوله : (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) أى حرام (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) ومنه قول المتلمس :

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

فقوله حرام تأكيد لقوله حجر لأن معناه حرام وقول الآخر :

ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً وأصبحت من أدنى حموتها حما

وقول الآخر :

قالت وفيها حيرة وذعر عوذ بربى منكم وحجر

وقوله : محجوراً توكيد لمعنى الحجر. قال الزمخشرى : كقول العرب : ذيل ذائل . والذيل الهوان ، وموت مائت ، وأما على القول بأن حجراً محجوراً من قول الملائكة، فمعناه : أنهم يقولون للكفار حجراً محجوراً . أى حراماً محرماً أن تكون للكفار اليوم بشرى ، أو أن يغفر لهم ، أو يدخلون الجنة وهذا القول اختاره ابن جرير ، وابن كثير وغير واحد .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (يوم يرون الملائكة) قال الزمخشرى: يوم منصوب بأحد شيئين ، إما بما دل عليه لا بشرى أى يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ، أو يعدمونها ، ويومئذ للتكرير ، وإما بإضمار اذكر : أى اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم قال لا بشرى يومئذ للمجرمين .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) الآية . وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية . وغير ذلك فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة : أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهى فى نصف نهار ، ووجه ذلك أن قوله : مقيلا : أى مكان قيلولة وهى الاستراحة فى نصف النهار ، قالوا : وهذا الذى فهم من هذه الآية الكريمة ، جاء بيانه فى قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً) .

ويفهم من قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً) الآية . أن أصحاب النار ليسوا كذلك وأن حسابهم غير يسير .

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى قريباً من هذه الآية (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا) فقوله : على الكافرين يدل على أنه على المؤمنين غير عسير ، كما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية. وقوله تعالى (فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) وقوله تعالى (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) وإذا علمت مما ذكرنا ماجاء من الآيات فيه بيان لقوله : أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا ، فهذه أقوال بعض المفسرين فى المعنى الذى ذكرنا فى الآية .

قال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله (خير مستقراً وأحسن مقيلا) قال فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وذلك مثل قوله (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب

إلى أهله مسروراً) وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم . وصححه عن ابن مسعود . قال : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) وقرأ (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إنما هى ضحوة . فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر ، وأبو نعيم فى الحلية ، عن إبراهيم النخعى : كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة ، نصف النهار . فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، فذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمن ، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون فى رياض الجنة ، حين يفرغ الناس من الحساب ، وذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) إلى أن قال : وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، الساعة التى يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم ، للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قيلولتهم فى الجنة ، وأطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم فذلك قوله . أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) انتهى منه .

وذكر نحوه القرطبى مرفوعا وقال : ذكره المهدوى . والظاهر أنه لا يصح

مرفوعاً ، وقال القرطبي أيضاً : « وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقلت ما أطول هذا اليوم . فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة » وهو ضعيف أيضاً ، وما ذكره عن ابن مسعود من أنه قرأ ثم (إن مقيلهم لإلى الجحيم) معلوم أن ذلك شاذ لا تجوز القراءة به ، وأن القراءة (الحق ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) .

واعلم أن قول قتادة في هذه الآية معروف مشهور ، وعليه فلا دليل في الآية لما ذكرنا ، وقول قتادة هو أن معنى قوله (وأحسن مقيلا) أي منزلا ومأوى ، وهذا التفسير لا دليل فيه على القيلولة في نصف النهار كما ترى .

وقد بينا في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : وجه الجمع بين مادل عليه قوله هنا (وأحسن مقيلا) من انقضاء الحساب في نصف نهار ، وبين مادل عليه قوله تعالى (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) وذكرنا الآيات المشيرة إلى الجمع ، وبعض الشواهد العربية .

واعلم أن المشهور في كلام العرب أن المقيل القيلولة أو مكانها ، وهي الاستراحة نصف النهار زمن الحر مثلا ، وإن لم يكن معها نوم ، ومنه قوله :

جزى الله خير الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد

أي نزلا فيها وقت القائلة ، كما قاله صاحب اللسان ، وما فسر به قتادة الآية ، من أن المقيل المنزل والمأوى ، معروف أيضاً في كلام العرب . ومنه قول ابن رواحة :

اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله

فقوله : يزيل الهام عن مقيله ، يعنى : يزيل الرؤوس عن مواضعها من الأعناق ، ومعلوم أن المقيل فيه المحل الذى تسكن فيه الرؤوس والظاهر أن من هذا القبيل قول أحيحة بن الجلاح الأنصارى :

وما تدرى وإن أجمعت أمراً بأى الأرض يدركك المقيل

وعليه فالمعنى : بأى الأرض يدركك الثواء والإقامة بسبب الموت أو غيره من الأسباب ، وصيغة التفضيل فى قوله هنا (خير مستقراً وأحسن مقيلا) تكلمنا على مثلها قريباً فى الكلام على قوله تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد) الآية .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن السماء تتشقق يوم القيامة بالغمام ، وأن الملائكة تنزل تنزيلا . وقال القرطبى : تتشقق السماء بالغمام أى عن الغمام قال : والباء وعن يتعاقبان كقولك : رميت بالقوس ، وعن القوس انتهى ويستأنس لمعنى عن بقوله تعالى (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) الآية .

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة فى هذه الآية الكريمة من تشقق السماء يوم القيامة ووجود الغمام ، وتنزيل الملائكة كلها جاءت موضحة فى غير هذا الموضع .

أما تشقق السماء يوم القيامة فقد بينه جل وعلا فى آيات كثيرة من كتابه كقوله تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) وقوله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) وقوله (إذا السماء انشقت) الآية وقوله تعالى (فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت) الآية

فقوله : فرجت : أى شقت ، فكان فيها فروج أى شقوق كقوله ، (إذا السماء انفطرت) وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) وأما الغمام ونزول الملائكة ، فقد ذكرهما معًا فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) الآية. وقد ذكر جل وعلا نزول الملائكة فى آيات أخرى كقوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) الآية وقوله تعالى (ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) .

قال الزمخشرى : والمعنى : أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون، وفى أيديهم صحف أعمال العباد . انتهى منه .

وقرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر تشقق بتشديد الشين ، والباقون بتخفيفها بحذف إحدى التاءين ، وقرأ ابن كثير : وننزل الملائكة بنونين الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة مع تخفيف الزاى ، وضم اللام، مضارع أنزل ، والملائكة بالنصب مفعول به ، والباقون بنون واحدة وكسر الزاى المشددة ماضياً مبنياً للمفعول ، والملائكة مرفوعاً نائب فاعل نزل ، والأظهر أن يوم منصوب باذكر مقدرا ، كما قاله القرطبى ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الملك الحق يوم القيامة له جل وعلا دون غيره ، وأن يوم القيامة كان عسيراً على الكافرين .

وهذان الأمران المذكوران فى هذه الآية الكريمة جاءا موضحين فى آيات من كتاب الله أما كون الملك له يوم القيامة ، فقد ذكره تعالى فى آيات من كتابه كقوله جل وعلا : (ملك يوم الدين) وقوله : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقوله تعالى : (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وأما كون يوم القيامة عسيراً على الكافرين ، فقد قدمنا الآيات الدالة عليه قريبا فى الكلام على قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا) الآية.

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ، لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾

من المشهور عند علماء التفسير أن الظالم الذى نزلت فيه هذه الآية ، هو عقبة بن أبى معيط ، وأن فلانا الذى أضله عن الذكر أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف ، وذكر بعضهم أن فى قراءة بعض الصحابة . ليتنى لم أتخذ أبيا خليلا ، وهو على تقدير ثبوته من قبيل التفسير ، لا القراءة ، وعلى كل حال فالعبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب ، فكل ظالم أطاع خليله فى الكفر، حتى مات على ذلك يجرى له مثل ما جرى لابن أبى معيط .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآيات الكريمة جاء موضحا فى غيرها . فقوله : (ويوم يعض الظالم على يديه) كناية عن شدة الندم والحسرة ، لأن النادم ندما شديدا ، يعض على يديه ، وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذى

دلت عليه هذه الآية ، جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى فى سورة يونس: (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط) الآية . وقوله تعالى فى سورة سبأ : (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) الآية . وقوله تعالى : (قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها) الآية. والحسرة أشد الندامة وقوله تعالى : (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) إلى غير ذلك من الآيات ، وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول فى دار الدنيا ، واتخذ معه سبيلا : أى طريقا إلى الجنة فى قوله هنا : (يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) وقوله تعالى : (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) وقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) إلى غير ذلك من الآيات .

والسبيل التى يتمنى الكافر أن يتخذها مع الرسول المذكورة فى هذه الآية ، ذكرت أيضا فى آيات أخر كقوله تعالى فى هذه السورة الكريمة سورة الفرقان (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) وقوله تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) فى المزمل والإنسان ، ويقرب من معناه المآب المذكور فى قوله تعالى (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) وما ذكره هنا من أن الكافر ينادى بالويل ، ويتمنى أنه لم يتخذ من أضله خليلا ، ذكره فى غير هذا الموضع ، أما دعاء الكفار بالويل : فقد تقدم فى قوله تعالى(وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لاتدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبورا كثيرا)وأما تمنيهم لعدم طاعة من أضلهم ، فقد ذكره أيضا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا) فلفظة لو فى قوله (لو أن لنا كرة) للتمنى ، ولذلك نصب الفعل المضارع بعد الفاء فى قوله (فنتبرأ منهم) الآية. وهو دليل واضح على ندمهم

على موالاتهم ، وطاعتهم فى الدنيا ، وما ذكره جل وعلا هنا من أن أخلاء الضلال من شياطين الإنس والجن ، يضلون أخلاءهم عن الذكر بعد إذ جاءهم ذكره فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) وقوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية وقوله تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس) الآية ، وقوله تعالى (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وقوله تعالى (حتى إذا ادارکوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) وقوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) الآيات . إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله تعالى هنا (وكان الشيطان للإنسان خذولا) الأظهر أنه من كلام الله ، وليس من كلام الكافر النادم يوم القيامة ، والخذول صيغة مبالغة ، والعرب تقول : خذله إذا ترك نصره مع كونه يترقب النصر منه ، ومنه قوله تعالى (وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده) وقول الشاعر :

إن المرء ميتا بانقضاء حياته ولكن بأن يبغى عليه فيخذلا

وقول الآخر :

إن الألى وصفوا قومى لهم فبهم هذا اعتصم تلق من عاداك مخذولا

ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) وقوله تعالى

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى ما لاترون) الآية . وقوله تعالى فى هذه الآية (لقد أضلنى عن الذكر) الأظهر أن الذكر القرآن وقوله (لم اتخذ فلانا) العرب تطلق لفظة فلان كناية عن العلم : أى لم أتخذ أبيا أو أمية خليلا ، ويكنون عن علم الأنثى بفلانة ومنه قول عروة بن حزام العذرى :

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة أضحت خلة لفلان

وقوله (يعض الظالم) من عضض بكسر العين فى الماضى ، يعض بفتحها فى المضارع على القياس ، ومنه قول الحارث بن وعلة الذهلى :

الآن لما ابيض مسربتى وعضضت من نابى على جذم

فإن الرواية المشهورة فى البيت عضضت بكسر الضاد الأولى وفيها لغة بفتح العين فى الماضى ، والكسر أشهر ، وعض تتعدى بعلى كما فى الآية وبيت الحارث بن وعلة ، المذكورين وربما عديت بالباء ومنه قول ابن أبى ربيعة :

فقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء ، قد يدخل قرينه النار والتحذير من قرين السوء مشهور معروف ، وقد بين جل وعلا فى سورة الصافات: أن رجلا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أى يهلكه بعذاب النار ، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار ، وذلك فى قوله تعالى (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) يقول : أئنك لمن المصدقين ، إلى قوله تعالى (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين).

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

معنى هذه الآية الكريمة ظاهر ، وهو أن نبينا صلى الله عليه وسلم شكا إلى ربه هجر قومه ، وهم كفار قريش لهذا القرآن العظيم أى تركهم لتصديقه ، والعمل به ، وهذه شكوى عظيمة ، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم ، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام والآداب والمكارم ، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ، ويعتبر بما فيه من الزواجر والقصص والأمثال .

واعلم أن السبكى قال إنه استنبط من هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان مسألة أصولية ، وهى أن الكف عن الفعل فعل . والمراد بالكف الترك ، قال فى طبقاته : لقد وقفت على ثلاثة أدلة تدل على أن الكف فعل لم أر أحداً عثر عليها .

أحدها : قوله تعالى : (وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) فإن الأخذ التناول والمهجور المتروك ، فصار المعنى تناولوه متروكا أى: فعلوا تركه. انتهى محل الغرض منه بواسطة نقل صاحب نشر البنود ، شرح مراقى السعود فى الكلام على قوله :

* فكفنا بالنهى مطلوب النبى *

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : استنباط السبكى من هذه الآية أن الكف فعل وتفسيره لها بما يدل على ذلك ، لم يظهر لى كل الظهور ، ولكن هذا المعنى الذى زعم أن هذه الآية الكريمة دلت عليه ، وهو كون الكف فعلا دلت عليه آيتان كريمتان من سورة المائدة ، دلالة واضحة لا لبس فيها ، ولا نزاع - فعلى تقدير صحة ما فهمه السبكى من آية الفرقان هذه فإنه قد بينته بإيضاح الآيتان المذكورتان من سورة المائدة . أما الأولى منهما فهى قوله تعالى : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) فترك الربانيين والأحبار نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت سماه الله جل وعلا

فى هذه الآية الكريمة صنعا فى قوله : (لبئس ما كانوا يصنعون) . أى وهو تركهم النهى المذكور ، والصنع أخص من مطلق الفعل ، فصراحة دلالة هذه الآية الكريمة على أن الترك فعل فى غاية الوضوح كما ترى .

وأما الآية الثانية فهى قوله تعالى : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقد سمى جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : تركهم التناهى ، عن المنكر فعلا ، وأنشأ له الذم بلفظة بئس التى هى فعل جامد لإنشاء الذم فى قوله : (لبئس ما كانوا يفعلون) أى وهو تركهم التناهى ، عن كل منكر فعلوه ، وصراحة دلالة هذه الاية أيضاً على ما ذكروا واضحة كما ترى .

وقد دلت أحاديث نبوية على ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فقد سمى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث ترك أذى المسلمين إسلاما ، ومما يدل من كلام العرب على أن الترك فعل قول بعض الصحابة فى وقت بنائه صلى الله عليه وسلم لمسجده بالمدينة :

لئن قعدنا والنبى يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

فسمى قعودهم عن العمل ، وتركهم له عملا مضللا ، وقد أشار صاحب مراقى السعود إلى أن الكف فعل على المذهب . أى وهو الحق . وبين فروعا مبنية على ذلك نظمها الشيخ الزقاق فى نظمه المسمى بالمنهج المنتخب ، وأورد أبيات الزقاق فى ذلك وقال: وجلبتها هنا على سبيل التضمين ، وهذا النوع يسمى استعانة ، وهو تضمين بيت فأكثر بقوله :

فكفنا بالنهى مطلوب النبى ... والكف فعل فى صحيح المذهب

له فروع ذكرت فى المنهج ... وسردها من بعد ذا البيت يجى

من شرب أوخيط ذكاة فضل ما ... وعمد رسم شهادة وما

عطل ناظر وذو الرهن كذا مفرط فى العلف فادر المآخذا
وكالتى ردت بعيب وعدم وليها وشبهها مما علم

فالأبيات الثلاثة الأخيرة من نظم الشيخ الزقاق المسمى بالمنهج المنتخب ، وفيها بعض الفروع المبنية على الخلاف فى الكف ، هل هو فعل ، وهو الحق أو لا ، وقول الزقاق فى الأول من أبياته من شرب متعلق بقوله قبله :

وهل كمن فعل تارك كمن له بنفع قدرة لكن كمن

من شرب الخ فقوله : من شرب بيان للنفع الكامن فى قوله : له بنفع قدرة ، لكن كمن : أى لكنه ترك النفع مع قدرته عليه ، فتركه له كفعله لما حصل بسبب تركه من الضرر على القول بأن الترك فعل ، ومراده بقوله : من شرب أن من عنده فضل شراب ، وترك إعطاءه لمضطر حتى مات عطشا ، فعلى أن الترك فعل يضمن ديته ، وعلى أنه ليس بفعل ، فلا ضمان عليه ، وفضل الطعام كفضل الشراب فى ذلك ، وقوله : أو خيط يعنى أن من منع خيطا عنده ممن شق بطنه ، أو كانت به جائفة ، حتى مات ضمن الدية على القول بأن الترك فعل ، وعلى عكسه فلا ضمان ، وقوله : ذكاة : يعنى أن من مر بصيد لم ينفذ مقتله وأمكنته تذكيته فلم يذكه حتى مات ، هل يضمنه أولا على الخلاف المذكور ؟

وقوله : فضل ما : يعنى أن من عنده ماء فيه فضل عن سقى زرعه ولجاره زرع ولا ماء له ، إذا منع منه الماء ، حتى هلك زرعه ، هل يضمنه أو لا على الخلاف المذكور ، وقوله : وعمد : يعنى أنه إذا كانت عنده عمد جمع عمود فمنعها من جار له جدار يخاف سقوطه حتى سقط ، هل يضمن أو لا ؟ وقوله : رسم شهادة : يعنى أن من منع وثيقة فيها الشهادة بحق حتى ضاع الحق ، هل

يضمنه أو لا ؟ وقوله : وما عطل ناظر : يعنى أن الناظر على مال اليتيم مثلا إذا عطل دوره ، فلم يكرها ، حتى فات الانتفاع بكرائها زمنا أو ترك الأرض حتى تبورت هل يضمن أو لا ، وقوله : وذو الرهن : يعنى إذا عطل المرتهن كراء الرهن ، حتى فات الانتفاع به زمنا ، وكان كراؤه له أهمية ، هل يضمن أولا ؟ وقوله : كذا مفرط فى العلف : يعنى أن من ترك دابة عند أحد ومعها علفها ، وقال له قدم لها العلف ، فترك تقديمه لها حتى ماتت ، هل يضمن أو لا ، والعلف فى البيت بسكون الثانى ، وهو تقديم العلف بفتح الثانى .

وقوله : وكالتى ردت بعيب وعدم . وليها : يعنى أن الولى القريب إذا زوج وليته ، وفيها عيب يوجب رد النكاح وسكتت الزوجة ، ولم تبين عيب نفسها وفلس الولى هل يرجع الزوج على الزوجة بالصداق أو لا ؟ فهذه الفروع وما شابهها مبنية على الخلاف فى الكف هل هو فعل أولا ؟ والصحيح أن الكف فعل ، كما دل عليه الكتاب والسنة واللغة ، كما تقدم إيضاحه ، وعليه فالصحيح لزوم الضمان فيما ذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

لما شكا النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه فى قوله : (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أنزل الله قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا) الآية ، تسلية له صلى الله عليه وسلم : أى كما جعلنا الكفار أعداء لك ، يكذبونك ، ويتخذون القرآن الذى أنزل إليك مهجورا ، كذلك الجعل جعلنا لكل نبى عدوا : أى جعلنا لك أعداء ، كما جعلنا لكل نبى عدوا .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا) الآية. قد قدمنا إيضاحه فى الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس) الآية، وقوله تعالى: (وكفى بربك هادياً ونصيرا) قد قدمنا الكلام مستوفى على كفى اللازمة، والمتعدية بشواهده العربية فى سورة الإسراء فى الكلام على قوله: (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقوله: (وكفى بربك هادياً) جاء معناه موضحاً فى آيات كثيرة، كقوله (من يهد الله فهو المهتد) وقوله تعالى: (قل إن هدى الله هو الهدى) وقوله: ونصيرا: أى وكفى بربك نصيرا، جاء معناه أيضاً فى آيات كثيرة، كقوله تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

تقدمت الآيات التى بمعناه فى آخر سورة الإسراء فى الكلام على قوله تعالى: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) الآية، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (كذلك لنثبت به فؤادك) أى كذلك الإنزال مفرقا بحسب الوقائع أنزلناه لا جملة كما اقترحوا، وقوله (لنثبت به فؤادك) أى أنزلناه مفرقاً، لنثبت فؤادك بإنزاله مفرقاً.

قال بعضهم: معناه لنقوى بتفريقه فؤادك على حفظه، لأن حفظه شيئا فشيئا أسهل من حفظه مرة واحدة، لو نزل جملة واحدة.

وقال بعضهم: ومما يؤكد ذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه أمى لا يقرأ ولا يكتب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الكفار يحشرون على وجوههم إلى جهنم يوم القيامة ، وأنهم شر مكانا ، وأضل سبيلا . وبين فى مواضع أخر أنهم تكب وجوههم فى النار ويسحبون على وجوههم فيها ، كقوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) الآية ، وقوله تعالى : (يوم تقلب وجوههم فى النار) الآية وقوله تعالى : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) وبين جل وعلا فى سورة بنى إسرائيل أنهم يحشرون على وجوههم ، وزاد مع ذلك أنهم يحشرون عميا وبكما وصما ، وذكر فى سورة طه أن الكافر يحشر أعمى . قال فى سورة بنى إسرائيل: (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) وقال فى سورة طه (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك : أتتك آياتنا فنسيتها) الآية .

وقد بينا وجه الجمع بين آية بنى إسرائيل وآية طه المذكورتين مع الآيات الدالة على أن الكفار يوم القيامة يبصرون ويتكلمون ويسمعون كقوله تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) وقوله تعالى (قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) وقوله تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (ونحشره يوم القيامة أعمى) وكذلك بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى الكلام على آية بنى إسرائيل المذكورة .

وصيغة التفضيل فى قوله (أنتم شر مكانا وأضل سبيلا) قد قدمنا الكلام فى مثلها فى الكلام على قوله (أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) والمكان محل الكينونة . والظاهر أنه يكون حسياً ، ومعنوياً . فالحسى ظاهر ، والمعنوى

كقوله تعالى: (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا) الآية ، والسبيل الطريق وتذكر وتؤنث كما تقدم ، ومن تذكير السبيل قوله تعالى: (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) ومن تأنيثها قوله تعالى : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم ، فى الكلام على قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ .

قد قدمنا بعض الآيات الدالة على كيفية إغراقهم فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) .

قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ .

الأظهر عندى أن قوله (وعادا وثمودا) معطوف على قوله : وقوم نوح الآية ، وأن قوم نوح مفعول به لأغرقنا محذوفة دل عليها قوله بعده :(أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) على حد قوله فى الخلاصة :

فالسابق انصبه بفعل أضمرا حتما موافق لما قد ذكرا

أى أهلكنا قوم نوح بالغرق ، وأهلكنا عادا وثمودا وأصحاب الرس ، وقروناً بين ذلك كثيراً ، أى وأهلكنا قروناً كثيرة بين ذلك المذكور من قوم نوح ، وعاد ، وثمود .

والأظهر أن القرون الكثير المذكور بعد قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقبل أصحاب الرس وقد دلت آية من سورة إبراهيم على أن بعد عاد ، وثمود ، خلقا كفروا وكذبوا الرسل ، وأنهم لا يعلمهم إلا الله جل وعلا .

وتصريحه بأنهم بعد عاد وثمود ، يوضح ماذكرنا وذلك فى قوله تعالى : (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) .

وقد قدمنا كلام أهل العلم فى معنى قوله (فردوا أيديهم فى أفواههم) والإشارة فى قوله (بين ذلك) راجعة إلى عاد ، وثمود ، وأصحاب الرس : أى بين ذلك المذكور ورجوع الإشارة ، أوالضمير بالإفراد مع رجوعهما إلى متعدد باعتبار المذكور أسلوب عربى معروف ومنه فى الإشارة قوله تعالى : (قال إنه يقول : إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) أى ذلك المذكور من الفارض والبكر ، وقوله تعالى : (وكان بين ذلك قواما) أى بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر وقول عبد الله بن الزبعرى السهمى ،

إن للخير والشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أى وكلا ذلك المذكور من الخير والشر ، ومنه فى الضمير قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأنه أى ماذكر من خطوط السواد والبلق ، وقد قدمنا هذا البيت .

أما عاد وثمود فقد جاءت قصة كل منهما مفصلة فى آيات متعددة ،

وأما أصحاب الرس فلم يأت فى القرآن تفصيل قصتهم ولا اسم نبيهم، وللمفسرين فيهم أقوال كثيرة تركناها لأنها لادليل على شىء منها.

والرس فى لغة العرب البئر التى ليست بمطوية، وقال الجوهرى فى صحاحه: إنها البئر المطوية بالحجارة، ومن إطلاقها على البئر قول الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فياليتهم يحفرون الرساسا

وقول النابغة الجعدى:

سبقت إلى فرط ناهل تنابلة يحفرون الرساسا

والرساس فى البيتين جمع رس، وهى البئر، والرس واد فى قول زهير فى معلقته:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للفم

وقوله فى هذه الآية (وقرونا كثيرا) جمع قرن. وهو هنا الجيل من الناس الذين اقترنوا فى الوجود فى زمان من الأزمنة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة، أن كلا من الماضين المهلكين من قوم نوح وعاد، وثمود، وأصحاب الرس، والقرون الكثيرة بين ذلك: أنه ضرب لكل منهم الامثال ليبين لهم الحق بضرب المثل، لأنه يصير به المعقول كالمحسوس، وأنه جل وعلا تبر كلا منهم تتبيراً، أى أهلكهم جميعا إهلا كا مستأصلا، والتتبير الإهلاك والتكسير ومنه قوله تعالى: (وليتبروا ماعلوا تتبيرا) وقوله تعالى: (إن هؤلاء متبرما هم فيه) أى باطل، وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلا كا، وهذان الأمران المذكوران فى هذه الآية الكريمة، وهما أنه جل وعلا ضرب لكل منهم الأمثال، وأنه تبرهم كلهم تتبيرا جاءا مذكورين فى غير هذا الموضع.

أما ضربه الأمثال للكفار ،فقد ذكره جل وعلا فى غير هذا الموضع كقوله فى سورة إبراهيم : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ، وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) وأما تقبيره جميع الأمم لتكذيبها رسلها ، فقد جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى سورة الأعراف : (وما أرسلنا فى قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون،ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) وقوله تعالى فى سورة سبأ : (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) وقوله فى الزخرف : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وقوله تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع الأمم كذبوا رسلهم ، وأن الله أهلكم بسبب ذلك ، وقد بين جل وعلا فى آية أخرى أن هذا العموم لم يخرج منه إلا قوم يونس دون غيرهم ، وذلك فى قوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه ضرب الأمثال لكل منهم ، لم يبين فيه هنا هل ضرب الأمثال أيضا لهذه الآية الكريمة التى هى آخر الأمم فى هذا القرآن ، كما ضربها لغيرهم من الأمم ، ولكنه تعالى بين فى آيات كثيرة أنه ضرب لهذه الأمة الأمثال فى هذا القرآن العظيم ، ليتفكروا بسببها ، وبين أنها لا يعقلها إلا أهل العلم ، وأن الله يهدى بها قوما ، ويضل بها آخرين .

وهذه الآيات الدالة على ذلك كله فمنها قوله تعالى : (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) ، وقوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) وقوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ، وقوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ، وقوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) ، الآية . والآيات الدالة على ذلك كثيرة معلومة ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ .

أقسم جل وعلا فى هذه الآية ، أن الكفار الذين كذبوا نبينا صلى الله عليه وسلم ، قد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء، وهو أن الله أمطر عليها حجارة من سجيل ، وهى سذوم قرية قوم لوط ، وهذان الأمران المذكوران فى هذه الآية الكريمة ، وهما أن الله أمطر هذه القرية مطر السوء الذى هو حجارة السجيل ، وأن الكفار أتوا عليها ، ومروا بها جاء موضحاً فى آيات أخرى .

أما كون الله أمطر عليها الحجارة المذكورة ، فقد ذكره جل وعلا فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) ، وبين فى سورة الذاريات أن السجيل المذكور نوع من الطين، وذلك فى قوله تعالى : (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين) ،

ولا شك أن هذا الطين وقعه أليم . شديد مهلك . وكقوله تعالى : (وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين) ، وقوله تعالى : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) الآية .

وأما كونهم قد أتوا على تلك القرية المذكورة فقد جاء موضحاً أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) والمراد بأنهم مروا على قرية قوم لوط ؛ أن مرورهم عليها ، ورؤيتهم لها خالية من أهلها ليس فيها داع ، ولا مجيب ، لأن الله أهلك أهلها جميعاً لكفرهم وتكذيبهم رسوله لوطا فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر عن تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لئلا ينزل بالذين كذبوه مثل مانزل بقوم لوط من العذاب والهلاك، ولذا وبخهم على عدم الاعتبار بما أنزل بها من العذاب كقوله فى آية الصافات المذكورة (أفلا تعقلون) ، وكقوله تعالى : فى آية الفرقان هذه (أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً) فقوله : أفلم يكونوا يرونها : توبيخ لهم على عدم الاعتبار كقوله فى الآية الأخرى : أفلا تعقلون ، ومعلوم أنهم يمرون عليها مصبحين ، وبالليل وأنهم يرونها ، وكقوله تعالى : (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم) يعنى : أن ديار قوم لوط بسبيل مقيم : أى بطريق مقيم ، يمرون فيه عليها فى سفرهم إلى الشام ، وقوله تعالى : (بل كانوا لا يرجون نشوراً) ، أى لا يخافون بعثا ، ولا جزاء أو لا يرجون بعثا وثوابا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ .

تقدم إيضاحه فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوًا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) ، وما قالوه هنا : من أنهم صبروا على آلهتهم ، بين فى سورة (ص) أن بعضهم أمر به بعضاً فى قوله تعالى : (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : أرأيت من اتخذ إلهه هواه : أى مهما استحسن من شىء ورآه حسنا فى هوى نفسه كان دينه ، ومذهبه إلى أن قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول . اهـ منه .

وذكر صاحب الدر المنثور : أن ابن أبى حاتم وابن مردويه أخرجا عن ابن عباس أن عبادة الكافر للحجر الثانى مكان الأول : هى سبب نزول هذه الآية ، ثم قال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن أبى رجاء العطاردى ، قال : كانوا فى الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز ويعبدون الحجر ، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه ، رموا به وعبدوا الآخر ، فإذا فقدوا الآخر أمروا مناديا فنادى : أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه ، فأنزل الله هذه الآية : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) ، وأخرج ابن منذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان .

وأخرج ابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن :

(أرأيت من اتخذ إلهه هواه) . قال : لا يهوى شيئاً إلا تبعه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : كل ما هوى شيئاً ركبه ، وكل ما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ، ولا تقوى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قيل له أفى أهل القبلة شرك ؟ قال . نعم المنافق مشرك، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله ، وإن المنافق عبد هواه ثم تلا هـــذه الآية : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) .

وأخرج الطبرانى ، عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ماتحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع » انتهى محل الغرض من كلام صاحب الدر المنثور .

وإيضاح أقوال العلماء المذكورة فى هذه الآية : أن الواجب الذى يلزم العمل به ، هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقة لما أمره به معبوده جل وعلا ، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه ، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه ، وإذن فكونه اتخذ إلهه هواه فى غاية الوضوح .

وإذا علمت هذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله جل وعلا بينه فى غير هذا الموضع فى قوله : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله) الآية ، وقوله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أفأنت تكون عليه وكيلا) : استفهام إنكار فيه معنى النفى .

والمعنى : أن من أضله الله فاتخذ إلهه هواه ، لا تكون أنت عليه وكيلا أى حفيظا تهديه ، وتصرف عنه الضلال الذى قدره الله عليه ، لأن الهدى بيد الله وحده لا بيدك ، والذى عليك إنما هو البلاغ ، وقد بلغت .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) الآية ، وقوله تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) الآية . وقوله تعالى : (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) ، وقوله تعالى : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) الآية ، وقوله فى آية فاطر المذكورة آنفاً : (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) الآية ، وقوله تعالى فى آية الجاثية المذكورة آنفا أيضاً (فمن يهديه من بعد الله) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

أم فى هذه الآية الكريمة هى المنقطعة وأشهر معانيها أنها جامعة بين معنى بل الإضرابية ، واستفهام الإنكار معاً ، والإضراب المدلول عليه بها هنا إضراب انتقالى :

والمعنى : بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون : أى لا تعتقد ذلك

ولا تظنه ، فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه : أى لا يدركونه بعقولهم إن هم إلا كالأنعام أى ما هم إلا كالأنعام ، التى هى الإبل والبقر والغنم فى عدم سماع الحق ، وإدراكه ، بل هم أضل من الأنعام : أى أبعد عن فهم الحق ، وإدراكه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (بل هم أضل سبيلا) قال الزمخشرى : فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأنعام ؟

قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعانها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى . اهـ منه .

وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فاعلم أن الله بينه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة الأعراف : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ، وقوله تعالى فى البقرة : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه هو الذى جعل لخلقه الليل لباسا ، والنوم سباتا ، وجعل لهم النهار نشورا ، أما جعله لهم الليل لباسا ، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطى جميع من فى الأرض بظلامه ، صار لباسا لهم ، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه ، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار فى ظلام الليل ، واستتاره به حتى ينجو منهم ، ونحو ذلك من الفوائد التى تحصل بسبب لباس الليل كما قال أبو الطيب المتنبى :

وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتا فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات : الراحة ، من تعب العمل بالنهار ، لأن النوم يقطع العمل النهارى ، فينقطع به التعب ، وتحصل الاستراحة ، كما هو معروف .

وقال الجوهرى فى صحاحه : السبات النوم وأصله الراحة ، ومنه قوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا) ، وقال الزمخشرى فى الكشاف : والسبات : الموت ، والمسبوت : الميت ، لأنه مقطوع الحياة وهذا ، كقوله : (وهو الذى يتوفاكم بالليل) .

فإن قلت : هل لا فسرته بالراحة ؟

قلت : النشور فى مقابلته يأباه إباء العيوف الورد ، وهو مرفق اه محل الغرض منه .

وإيضاح كلامه : أن النشور هو الحياة بعد الموت كما تقدم إيضاحه ، وعليه فقوله : (وجعل النهار نشورا) أى حياة بعد الموت ، وعليه فالموت هو المعبر عنه بالسبات فى قوله : (والنوم سباتا) وإطلاق الموت على النوم معروف فى

القرآن العظيم كقوله تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) وقوله : (ثم يبعثكم فيه) فيه دليل على ما ذكره الزمخشرى ، لأن كلا من البعث والنشور ، يطلق على الحياة بعد الموت ، وكقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، وقال الجوهرى فى صحاحه : والمسبوت الميت والمغشى عليه . اهـ .

والذين قالوا : إن السبات فى الآية الراحة بسبب النوم من تعب العمل بالنهار ، قالوا : إن معنى قوله تعالى : (وجعل النهار نشورا) أنهم ينشرون فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسبابهم ، والظاهر أن هذا التفسير فيه حذف مضاف ، أو هو من النعت بالمصدر ، وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى (وجعلنا النهار معاشا) وقوله تعالى فى القصص : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار فى السعى للمعاش .

وإذا علمت هذا فاعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحا فى مواضع أخر كقوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا) وقوله تعالى : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

وقوله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) الآية .

وقد أوضحنا هذا فى الكلام على هذه الآية .

وكقوله تعالى : (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى) وقوله تعالى : (والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها) إلى غير ذلك من الآيات .

وفى الآيات المذكورة بيان أن الليل والنهار آيتان من آياته ونعمتان من نعمه جلى وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ .

قد قدمنا الآية الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) على قراءة من قرأ بشرا بالباء .

وآية الأعراف وآية الفرقان المذكورتان تدلان على أن المطر رحمة من الله لخلقه .

وقد بين ذلك فى مواضع أخر كقوله تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها) وقوله تعالى : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

التحقيق أن الضمير فى قوله : ولقد صرفناه ، راجع إلى ماء المطر المذكور فى قوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) كما روى عن ابن عباس وابن مسعود ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد، خلافا لمن قال : إن الضمير المذكور راجع إلى القرآن كما روى عن عطاء الخراسانى وصدر به القرطبى ، وصدر الزمخشرى بما يقرب منه .

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير فى : صرفناه ، عائد إلى ماء المطر .

فاعلم أن المعنى : ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً فى بعض السنين على بعض البلاد ، ومنعنا المطر فى بعض السنين عن بعض البلاد ، فيكثر الخصب فى بعضها ، والجدب فى بعضها الآخر . وقوله : ليذكروا أى صرفناه بينهم ، لأجل أن يتذكروا : أى يتذكر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر ، نعمة الله عليهم ، فيشكروا له ، ويتذكر الذين أجدبت أرضهم مانزل بهم من البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى الله جل وعلا، ليرحمهم ويسقيهم . وقوله : (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى كفر النعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم : مطرنا بنوء كذا .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة أشار له جل وعلا فى سورة الواقعة فى قوله تعالى : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) فقوله : رزقكم : أى المطر ، كما قال تعالى : (وينزل لكم من السماء رزقا) وقوله : (أنكم تكذبون) أى بقولكم : مطرنا بنوء كذا ، ويزيد هذا إيضاحاً الحديث الثابت فى صحيح مسلم ، وقد قدمناه بسنده ومتنه مستوفى، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب » .

وقد قدمنا أن قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) يدخل فيه من قال مطرنا بنوء كذا . ومن قال مطرنا بالبخار ، يعنى أن البحر يتصاعد منه بخار الماء ، ثم يتجمع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل، وأن المطر منه كما تقدم إيضاحه فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ .

المعنى : لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة ، وبعثنا فى كل قرية نذيرا يتولى مشقة إنذارها عنك : أى ولكننا اصطفيناك ، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس ، تعظيما لشأنك ، ورفعاً من منزلتك ، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام فى إبلاغ الرسالة ولا تطع الكافرين الآية .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من اصطفائه صلى الله عليه وسلم بالرسالة لجميع الناس ، جاء موضحا ، فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) وقوله : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . وقوله : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) الآية .

وقد قدمنا إيضاح هذا فى أول هذه السورة الكريمة فى الكلام على قوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله : (فلا تطع الكافرين) ذكره أيضا فى غير هذا الموضع . كقوله تعالى : (ولا تطع الكافرين والمنافقين) الآية . وقوله (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) وقوله : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) الآية . وقوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين) .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : وجاهدهم به : أى بالقرآن كما روى عن ابن عباس .

والجهاد الكبير المذكور فى هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) الآية . وقال تعالى : (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم)

وقوله تعالى : (فلا تطع الكافرين) ، من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم ، لا يطيع الكافرين ولكنه يأمر ، وينهى ليشرع لأمته على لسانه كما أوضحناه فى سورة بنى إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ .

اعلم أن لفظة : مرج تطلق فى اللغة إطلاقين .

الأول : مرج بمعنى أرسل وخلى . من قولهم : مرج دابته إذا أرسلها إلى المرج ، وهو الموضع الذى ترعى فيه الدواب ، كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء

وعلى هذا فالمعنى : أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر .

والإطلاق الثانى مرج بمعنى : خلط ، ومنه قوله تعالى : (فى أمر مريج) أى مختلط ، فعلى القول الأول : فالمراد بالبحرين الماء العذب فى جميع الدنيا ، والماء الملح فى جميعها .

وقوله : (هذا عذب فرات) يعنى به ماء الآبار ، والأنهار والعيون فى أقطار الدنيا .

وقوله : (وهذا ملح أجاج) أى البحر الملح ، كالبحر المحيط ، وغيره من البحار التى هى ملح أجاج ، وعلى هذا التفسير فلا إشكال .

وأما على القول الثانى بأن مرج بمعنى خلط ، فالمعنى : أنه يوجد فى بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب فى مجرى واحد ، ولا يختلط أحدهما

بالآخر ، بل يكون بينهما حاجز من قدرة الله تعالى ، وهذا محقق الوجود فى بعض البلاد ، ومن المواضع التى هو واقع فيها المحل الذى يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسى بجنب مدينة سانلويس ، وقد زرت مدينة سانلويس عام ست وستين وثلاثمائة وألف هجرية ، واغتسلت مرة فى نهر السنغال ، ومرة فى المحيط ، ولم آت محل اختلاطهما ، ولكن أخبرنى بعض المرافقين الثقاة أنه جاء إلى محل اختلاطهما ، وأنه جالس يغرف بإحدى يديه عذباً فراتاً، وبالأخرى ملحاً أجاجا ، والجميع فى مجرى واحد ، لايختلط أحدهما بالآخر . فسبحانه جل وعلا ما أعظمه ، وما أكمل قدرته .

وهذا الذى ذكره جل وعلا فى هذه الآية جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة فاطر : (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) وقوله تعالى : (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان) أى لا يبغى أحدهما على الآخر فيمتزج به ، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور فى سورة الفرقان ، وسورة الرحمن قد بين تعالى فى سورة النمل أنه حاجز حجز به بينهما ، وذلك فى قوله جل وعلا : (أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) . وهذا الحاجز هو اليبس من الأرض ، الفاصل بين الماء العذب ، والماء الملح على التفسير الأول .

وأما على التفسير الثانى فهو حاجز من قدرة الله غير مرئى للبشر ، وأكد شدة حجزه بينهما بقوله هنا (وحجرا محجورا) ، والظاهر أن قوله هنا : حجرا أى منعاً ، وحراما قدريا وأن محجورا توكيد له أى منعا شديداً للاختلاط بينهما ، وقوله : (هذا عذب) صفة مشبهة من قولهم: عذب الماء بالضم فهو عذب. وقوله فرات صفة مشبهة أيضاً ، من فرت الماء بالضم ، فهو فرات ، إذا كان شديد

العذوبة . وقوله : وهذا ملح ، صفة مشبهة أيضاً من قولهم : ملح الماء بالضم والفتح فهو ملح .

قال الجوهرى فى صحاحه : ولا يقال مالح إلا فى لغه ردية اه .

وقد أجاز ذلك بعضهم واستدل له بقول القائل :

ولو تفلت فى البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقوله : أجاج : صفة مشبهة أيضاً من قولهم : أج الماء يؤج أجوجا فهو أجاج : أى ملح مر ، فالوصف بكونه أجاجا يدل على زيادة المرارة على كونه ملحا ، والعلم عندالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

قال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير هذه الآية الكريمة : فقسم البشر قسمين ، ذوى نسب أى ذكورا ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن كقوله : (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ، (وكان ربك قديرا) حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين ذكر وأنثى . انتهى منه .

وهذا التفسير الذى فسر به الآية يدل له ما استدل عليه به وهو قوله تعالى : (ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) وهو دليل على أن آية الفرقان هذه بينتها آية القيامة المذكورة ، وفى هذه الآية الكريمة أقوال أخر غير ما ذكره الزمخشرى .

منها : ما ذكر ابن كثير قال : فجعله نسباً وصهرا ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصهر صهرا، وانظر بقية الأقوال فى الآية فى تفسير القرطبى والدر المنثور للسيوطى .

مسـألة

استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة : أن بنت الرجل من الزنى ، لايحرم عليه نكاحها . قال ابن العربى المالكى فى هذه الآية : والنسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى ، على وجه الشرع ، فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ، ولم يكن نسباً محققاً ، ولذلك لم يدخل تحت قوله : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) بنته من الزنى ، لأنها ليست . ببنت له فى أصح القولين لعلمائنا ، وأصح القولين فى الدين ، وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعاً ، فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال ، لايحرم من الحرام ، لأن الله امتن بالنسب، والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليهما ، فلا يلحق الباطل بهما ، ولا يساويهما انتهى منه . بواسطة نقل القرطبى عنه .

وقال القرطبى : اختلف الفقهاء فى نكاح الرجل ابنته من زنى ، أو أخته أو بنت ابنه من زنى : فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم وهو قول أبى حنيفة ، وأصحابه ، وأجاز ذلك آخرون منهم : عبدالملك بن الماجشون، وهو قول الشافعى، وقد مضى هذا فى النساء مجودا . انتهى منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الخلاف فى هذه المسألة مشهور معروف ، وأرجح القولين دليلا فيما يظهر أن الزنى لايحرم به حلال ، فبنته من الزنى ليست بنتاً له شرعاً ، وقد أجمع أهل العلم أنها لاتدخل فى قوله تعالى : (يوصيكم الله

فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) فالإجماع على أنها لا ترث ، ولا تدخل فى آيات المواريث ، دليل صريح على أنها أجنبية منه ، وليست بنتا شرعاً ، ولكن الذى يظهر لنا أنه لا ينبغى له أن يتزوجها بحال . وذلك لأمرين :

الأول : أن كونها مخلوقة من مائه ، يجعلها شبيهة شبها صوريا بابنته شرعا وهذا الشبه القوى بينهما ينبغى أن يزعه عن تزويجها .

الأمر الثانى : أنه لا ينبغى له أن يتلذذ بشىء سبب وجوده معصيته لخالقه جل وعلا ، فالندم على فعل الذنب الذى هو ركن من أركان التوبة ، لا يلائم التلذذ بما هو ناشىء عن نفس الذنب ، وماذكره عن الشافعى من أنه يقول : إن البنت من الزنى لا تحرم ، هو مراد الزمخشرى بقوله :

وإن شافعياً قلت قالوا بأننى أبيح نكاح البنت والبنت تحرم

تنبيـــه

اعلم أنما ذكره صاحب الدر المنثور عن قتادة مما يقتضى أنه استنبط من قوله تعالى فى هذه الآية : (فجعله نسباً وصهراً) أن الصهر كالنسب فى التحريم ، وأن كل واحد منهما تحرم به سبع نساء ، لم يظهر لى وجهه ، ومما يزيده عدم ظهور ضعف دلالة الاقتران عند أهل الأصول ، كما تقدم إيضاحه مراراً ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ .

تقدم إيضاحه فى سورة الحج وغيرها .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ .

الظهير فى اللغة : المعين ، ومنه قوله تعالى : (والملائكة بعد ذلك ظهير) . وقوله تعالى : (قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) .

ومعنى قوله فى هذه الآية الكريمة (وكان الكافر على ربه ظهيراً) على أظهر الأقوال ، وكان الكافر معينا للشيطان ، وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسله ، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل فى سبيله أولياء الله ، الذين يقاتلون فى سبيل الله ، فالكافر يعين الشيطان وحزبه فى سعيهم ، لأن تكون كلمة الله ليست هى العليا ، وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان) الآية ، ومعلوم أن الذى يقاتل فى سبيل الطاغوت ، المقاتلين فى سبيل الله ، أنه على ربه ظهير .

وقوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) على قول من قال : إن الجند المحضرون هم الكفار ، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها ، ومن قاتل عن الأصنام مدافعاً عن عبادتها ، فهو على ربه ظهير ، وكونه ظهيراً على ربه أى معينا للشيطان ، وحزبه على عداوة الله ورسله ، ككونه عدواً له المذكور فى قوله تعالى : (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) . وقوله تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) ومعلوم بالضرورة أن جميع الخلق لو تعاونوا على عداوة الله لا يمكن أن يضروه بشىء وإنما يضرون بذلك أنفسهم : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة الأعراف وأول سورة الكهف

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لاَ يَمُوتُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله فى سورة الفاتحة ، فى الكلام على قوله تعالى : (وإياك نستعين) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وكفى به بذنوب عباده خبيرا بصيرا) .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

قد قدمنا الآية التى فيها تفصيل ذلك فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام) :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة :أن الكفار إذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن أى قال لهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، تجاهلوا الرحمن ، وقالوا : وما الرحمن ، وأنكروا السجود له تعالى ، وزادهم ذلك نفورا عن الإيمان والسجود للرحمن ، وماذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده جل وعلا جاء مذكورا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) .

وقوله تعالى : (فاسجدوا لله واعبدوا) وقد وبخهم تعالى على عدم امتثال ذلك فى قوله تعالى : (وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون) . وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون) وتجاهلهم للرحمن هنا أجابهم عنه تعالى بقوله (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) .

وقوله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) . وقد قدمنا طرفا من هذا فى الكلام على هذه الآية ؛ وقد قدمنا أيضاً أنهم يعلمون أن الرحمن هو الله ، وأن تجاهلهم له تجاهل عارف ، وأدلة ذلك . وقوله هنا : وزادهم نفورا ، جاء معناه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى: (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) .

وقوله تعالى : (بل لجوا فى عتو ونفور) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ .

قد قدمنا كلام أهل العلم فى معنى تبارك فى أول هذه السورة الكريمة .

والبروج فى اللغة : القصور العالية ، ومنه قوله تعالى : (ولو كنتم فى بروج مشيدة) .

واختلف العلماء فى المراد بالبروج فى الآية ، فقال بعضهم : هى الكواكب العظام . قال ابن كثير: وهوقول مجاهد ، وسعيد بن جبير،وأبى صالح،والحسن، وقتادة ، ثم قال: وقيل هى قصور فىالسماء للحرس . ويروى هذا عن على،وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبى صالح أيضاً، والقول الأول أظهراللهم إلا أن تكون الكواكب العظام ، هى قصور للحرس فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) اهـ . محل الغرض من كلام ابن كثير .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : البروج منازل الكواكب السبعة السيارة الحمل ،والثور ، والجوزاء ، والسرطان، والأسد، والسنبلة ، والميزان، والعقرب، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، سميت البروج التى هى القصور العالية ، لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها ، واشتقاق البرج من التبرج لظهوره . اهـ منه .

وما ذكره جل وعلا هنا من أنه جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وهو الشمس ، وقمراً منيراً، بينه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين) وقوله تعالى : (والسماء ذات البروج) وقوله تعالى : (وجعلنا سراجا وهاجا) وقوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع

سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً) وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائى : وجعل فيها سراجاً بكسر السين وفتح الراء بعدها ألف على الإفراد ، وقرأه حمزة والكسائى : سرجا بضم السين ، والراء جمع سراج ، فعلى قراءة الجمهور بإفراد السراج ، فالمراد به الشمس ، بدليل قوله تعالى : (وجعل الشمس سراجا) وعلى قراءة حمزة والكسائى بالجمع . فالمراد بالسرج الشمس ، والكواكب العظام .

وقد قدمنا فى سورة الحجر أن ظاهر القرآن أن القمر فى السماء المبنية لا السماء التى هى مطلق ماعلاك ، لأن الله بين فى سورة الحجر ، أن السماء التى جعل فيها البروج هى المحفوظة ، والمحفوظة هى المبنية فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقوله (وبنينا فوقكم سبعا شداداً) وليست مطلق ماعلاك ، والبيان المذكور فى سورة الحجر فى قوله تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها) الآية . فآية الحجر هذه دالة على أن ذات البروج هى المبنية ، المحفوظة لا مطلق ماعلاك .

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه جل وعلا فى آية الفرقان هذه ، بين أن القمر فى السماء التى جعل فيها البروج ، لأنه قال هنا (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) وذلك دليل على أنها ليست مطلق ماعلاك ، وهذا الظاهر لا ينبغى للمسلم العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : يوجد فى كلام بعض السلف ، أن القمر فى فضاء بعيد من السماء ، وأن علم الهيئة دل على ذلك ، وأن الأرصاد الحديثة بينت ذلك .

قلنا : ترك النظر فى علم الهيئة عمل بهدى القرآن العظيم ، لأن الصحابة رضى الله عنهم لما تاقت نفوسهم إلى تعلم هيئة القمر منه صلى الله عليه وسلم ، وقالوا

له يانبى الله : مابال الهلال يبدو دقيقا ثم لم يزل يكبر حتى يستدير بدرا ؟ نزل القرآن بالجواب بما فيه فائدة للبشر وترك مالا فائدة فيه ، وذلك فى قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وهذا الباب الذى أرشد القرآن العظيم إلى سده لما فتحه الكفرة كانت نتيجة فتحه الكفر ، والإلحاد وتكذيب الله ورسوله من غير فائدة دنيوية ، والذى أرشد الله إليه فى كتابه هو النظر فى غرائب صنعه ، وعجائبه فى السماوات والأرض ليستدل بذلك على كمال قدرته تعالى ، واستحقاقه للعبادة وحده ، وهذا المقصد الأساسى لم يحصل للناظرين فى الهيئة من الكفار .

وعلى كل حال فلا يجوز لأحد ترك ظاهر القرآن العظيم إلا لدليل مقنع يجب الرجوع إليه كما هو معلوم فى محله .

ولاشك أن الذين يحاولون الصعود إلى القمر بآلاتهم ويزعمون أنهم نزلوا على سطحه سينتهى أمرهم إلى ظهور حقارتهم ، وضعفهم ، وعجزهم ، وذلهم أمام قدرة خالق السماوات والأرض جل وعلا .

وقد قدمنا فى سورة الحجر أن ذلك يدل عليه قوله تعالى : (أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، جندما هنالك مهزوم من الأحزاب) .

فإن قيل : الآيات التى استدللت بها على أن القمر فى السماء المحفوظة فيها احتمال على أسلوب عربى معروف ، يقتضى عدم دلالتها على ما ذكرت ، وهو عود الضمير إلى اللفظ وحده دون المعنى .

وإيضاحه أن يقال فى قوله (جعل فى السماء بروجا) هى السماء المحفوظة ، ولكن الضمير فى قوله : (وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) راجع إلى مطلق لفظ

السماء الصادق بمطلق ماعلاك فى اللغة ، وهذا أسلوب عربى معروف وهو المعبر عنه عند علماء العربية بمسألة:عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر ، ومنه قوله تعالى (ومايعمر من معمرولاينقص من عمره إلا فى كتاب) أىولا ينقص من عمر معمر آخر .

قلنا : نعم هذا محتمل ، ولكنه لم يقم عليه عندنا دليل يجب الرجوع إليه ، والعدول عن ظاهر القرآن العظيم لايجوز إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، وظاهر القرآن أولا بالاتباع والتصديق من أقوال الكفرة ، ومقلديهم والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

ماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، من أن عباده الصالحين، يبيتون لربهم سجداً وقياما ، يعبدون الله ، ويصلون له بينه فى غير هذا الموضع كقوله

تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وقوله تعالى: (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) . وقوله تعالى: (يبيتون) قال الزجاج: بات الرجل يبيت : إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم ، قال زهير :

فبتنا قياما عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

انتهى بواسطة نقل القرطبي .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ .

الأظهر أن معنى قوله : كان غراما : أى كان لازما دائماً غير مفارق، ومنه سمى الغريم لملازمته ، ويقال : فلان مغرم بكذا أى لازم له ، مولع به .

وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (ولهم عذاب مقيم) . وقوله (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) . وقوله: (فسوف يكون لزاما) وقوله تعالى (فلن نزيدكم إلا عذابا) . وقوله : (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) وقوله : (ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور) . وقوله تعالى: (كلما خبت زدناهم سعيرا) . وقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب . وقال ابن زيد : الغرام الشر . وقال أبو عبيدة : الهلاك . قاله القرطبي . وقول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ ـط جزيلا فإنه لا يبـــال

يعنى يكن عذابه دائما لازما . وكذلك قول بشر بن أبى حازم :

ويوم النسار ويوم الجفا ر كانا عذابا وكان غراما

وذلك هو الأظهر أيضاً فى قول الآخر :

وما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر : ولم يقتروا بضم الياء المثناة التحتية وكسر التاء مضارع أقتر الرباعى ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو : ولم يقتروا بفتح المثناة التحتية ، وكسر المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثى كضرب، وقرأه عاصم وحمزة ، والكسائى، ولم يقتروا بفتح المثناة التحتية،وضم المثناة الفوقية مضارع قتر الثلاثى كنصر، والإقتار على قراءة نافع وابن عامر، والقتر على قراءة الباقين معناهما واحد، وهو التضييق المخل بسد الخلة اللازم ، والإسراف فى قوله تعالى : لم يسرفوا ، مجاوزة الحد فى النفقة .

واعلم أن أظهر الأقوال فى هذه الآية الكريمة ، أن الله مدح عباده الصالحين بتوسطهم فى إنفاقهم ، فلا يجاوزون الحد بالإسراف فى الإنفاق، ولا يقترون أى لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم .

وقال بعض أهل العلم : الإسراف فى الآية : الإنفاق فى الحرام والباطل ، والاقتار منع الحق الواجب ، وهذا المعنى وإن كان حقاً فالأظهر فى الآية هو القول الأول .

قال ابن كثير رحمه الله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية :

أى ليسوا مبذرين فى إنفاقهم ، فيصرفوا فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصروا فى حقهم فلا يكفوهم بل عدلا خيارا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ، ولا هذا . انتهى محل الغرض منه .

وقوله تعالى : (وكان بين ذلك قواما) أى بين ذلك المذكور من الإسراف والقتر . قواما : أى عدلا وسطا سالما من عيب الإسراف والقتر .

وأظهر أوجه الإعراب عندى فى الآية هو ماذكره القرطبى ، قال : وقواما خبر كان واسمها مقدر فيها أى كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواما ، ثم قال قاله الفراء ، وباقى أوجه الإعراب فى الآية ليس يوجبه عندى كقول من قال : إن لفظة بين هى اسم كان ، وأنها لم ترفع لبنائها بسبب إضافتها إلى مبنى ، وقول من قال : إن بين هى خبر كان ، وقواما حال مؤكدة له ومن قال إنهما خبران كل ذلك ليس بوجيه عندى ، والأظهر الأول . والظاهر أن التوسط فى الإنفاق الذى مدحهم به شامل لإنفاقهم على أهليهم ، وإنفاقهم المال فى أوجه الخير .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع ، فمن ذلك أن الله أوصى نبيه صلى الله عليه وسلم بالعمل بمقتضاه فى قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية ، فقوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى ممسكة عن الإنفاق إمساكا كليا ، يؤدى معنى قوله هنا ولم يقتروا . وقوله : ولا تبسطها كل البسط ، يؤدى معنى قوله هنا : لم يسرفوا . وأشار تعالى إلى هذا المعنى فى قوله : (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) وقوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) الآية . على أصح التفسيرين .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى فى أول سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) .

مسألة

هذه الآية - الكريمة التى هى قوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية والآيات التى ذكرناها معها ، قد بينت أحد ركنى مايسمى الآن بالاقتصاد .

وإيضاح ذلك أنه لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصلين لا ثالث لهما .

الأول منهما : اكتساب المال .

والثانى منهما : صرفه فى مصارفه ، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج ، ولا فائدة فى واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر ، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً فى أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرق جاهل بأوجه صرفه ، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة ، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً فى صرف المال فى مصارفه المنتجة إلا أنه أخرق جاهل بأوجه اكتسابه . فإنه لاينقصه حسن نظره فى الصرف مع أنه لم يقدر على تحصيل شىء يصرفه . والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبهتهم على الاقتصاد فى الصرف .

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين ، وأن الآيات المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما وهو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر دلت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة ، كالتجارات ، وغيرها كقوله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ، وقوله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، وقوله تعالى : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) ، والمراد بفضل الله فى الآيات المذكورة ربح

التجارة ، وكقوله تعالى : (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) ، وقد قدمنا فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) الآية . أنواع الشركات ، وأسماءها ، وبينا مايجوز منها ، وما لا يجوز عند الأئمة الأربعة وأوضحنا ما اتفقوا على منعه ، وما اتفقوا على جوازه ، وما اختلفوا فيه ، وبه تعلم كثرة الطرق التى فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة .

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين هما اكتساب المال وصرفه فى مصارفه . فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين ، لابد له من أمرين ضروريين له :

الأول منهما : معرفة حكم الله فيه ، لأن الله جل وعلا لم يبح اكتساب المال بجميع الطرق التى يكتسب بها المال ، بل أباح بعض الطرق ، وحرم بعضها كما قال تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) ، ولم يبح الله جل وعلا ، صرف المال فى كل شىء بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه ، كما قال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) الآية . وقال تعالى فى الصرف الحرام : (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) الآية ، فمعرفة حكم الله فى اكتساب المال وفى صرفه فى مصارفه أمر ضرورى لابد منه ، لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام ، وقال المكتسب من وجه حرام ، لا خير فيه البتة ، وقد يصرف المال فى وجه حرام ، وصرفه فى ذلك حسرة على صاحبه .

الأمر الثانى : هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال ، فقد يعلم الإنسان

مثلا أن التجارة فى النوع الفلانى مباحة شرعا ، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال ، من ذلك الوجه الشرعى ، وكم من متصرف يريد الربح ، فيعود عليه تصرفه بالخسران ، لعدم معرفته بالأوجه التى يحصل بها الربح . وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف فى الشىء الفلانى مباح ، وفيه مصلحة ، ولكنه لا يهتدى إلى معرفة الصرف المذكور ، كما هو مشاهد فى المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة ، فإن جواز الصرف فيها معلوم ، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة ، لا يعلمه كل الناس .

وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة :

الأول: معرفة حكم الله فى الوجه الذى يكتسب به المال ، واجتناب الاكتساب به ، إن كان محرما شرعا :

الثانى : حسن النظر فى اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض ، وما لا يبيحه .

الثالث: معرفة حكم الله فى الأوجه التى يصرف فيها المال ، واجتناب المحرم منها.

الرابع : حسن النظر فى أوجه الصرف ، واجتناب ما لا يفيد منها ، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلا بمصلحته ، وكان مرضيا لله جل وعلا ، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك ، لأن من جمع المال بالطرق التى لا يبيحها الله جل وعلا فلا خير فى ماله ، ولا بركة كما قال تعالى : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقال تعالى : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) الآية .

وقد تكلمنا على مسائل الربا فى آية الربا فى سورة البقرة وتكلمنا على أنواع الشركات وأسمائها ، وبينا ما يجوز منها وما لا يجوز فى سورة الكهف

فى الكلام على قوله تعالى : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) الآية .

ولا شك أنه يلزم المسلمين فى أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكون كفيلا بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية ، وصرفه فى مصارفه المنتجة الجائزة شرعا لأن الاقتصاد الموجود الآن فى أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم ، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين ، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئاً منها يجوز شرعاً ، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية ، أو على غرر ، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم فى أقطار الدنيا ، فإنك لا تكاد تجد شيئاً منها سالما من الغرر ، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن المعلوم أن من يدعى إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات ، من المعاصرين أنه مخطىء فى ذلك ، ولأنه لا دليل معه بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

أى إذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم كراماً مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم فى لغوهم ، وهو كل كلام لا خير فيه كما تقدم .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحه جل وعلا بقوله : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) ، وقد قدمنا الآيات الدالة على معاملة عباد الرحمن للجاهلين ، فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (قال : سلام عليك سأستغفر لك ربى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ .

قال الزمخشرى : لم يخروا عليها ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له، ونفى للصمم والعمى كما تقول : لا يلقانى زيد مسلما ، هو نفى للسلام لا للقاء .

والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها ، حرصا على استماعها وأقبلوا على الذكر بها ، وهم فى إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية . انتهى محل الغرض منه .

ولا يخفى أن لهذه الآية الكريمة دلالتين : دلالة بالمنطوق ،ودلالة بالمفهوم، فقد دلت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمن،أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها، لم يكبوا عليها فى حال كونهم صماً عن سماع مافيها من الحق، وعمياناً عن إبصارهم ، بل هم يكبون عليها سامعين ما فيها من الحق مبصرين له .

وهذا المعنى دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) الآية . ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا القرآن ، فزادته إيمانا أنه لم يخر عليها أصم أعمى . وكقوله تعالى : (وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول:أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وقوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دلت الآية المذكورة أيضاً بمفهومها : أن الكفرة المخالفين ، لعباد الرحمن الموصوفين فى هذه الآيات ، إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صما ـ

وعميانا : أى لا يسمعون ما فيها من الحق ، ولا يبصرونه ، حتى كأنهم لم يسمعوها أصلا .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة بمفهومها جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى سورة لقمان (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) وقوله تعالى فى الجاثية . (ويل لكل أفاك ، أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم، وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) ، وقوله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

والظاهر أن معنى خرور الكفار على الآيات ، فى حال كونهم صما وعميانا، هو إكبابهم على إنكارها ، والتكذيب بها ، خلافا لما ذكره الزمخشرى فى الكشاف ، والصم فى الآية جمع أصم : والعميان جمع أعمى والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

الظاهر أن المراد بالغرفة فى هذه الآية الكريمة جنسها الصادق بغرف كثيرة، كما يدل عليه قوله تعالى : (وهم فى الغرفات آمنون) . وقوله تعالى : (لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار) الآية .

وقد أوضحنا هذا فى أول سورة الحج وفى غيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰماً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (وتحيتهم فيها سلام) .

قوله تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ .

العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يقولون: ماعبأت بفلان أى ماباليت به ، ولا أكترثت به : أى ما كان له عندى وزن ، ولاقدر يستوجب الاكتراث ، والمبالاة به ، وأصله من العبء وهو الثقل ومنه قول أبى زيد يصف أسدا :

كان بنحره وبمنكبيه عبيراً بات يعبؤه عروس

وقوله : يعبؤه : أى يجعل بعضه فوق بعض لمبالاته به واكتراثه به .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن كلام أهل التفسير فى هذه الآية الكريمة : يدور على أربعة أقوال :

واعلم أولا أن العلماء اختلفوا فى المصدر فى قوله : لولا دعاؤكم ، هل هو مضاف إلى فاعله ، أو إلى مفعوله ، وعلى أنه مضاف إلى فاعله فالمخاطبون بالآية ، داعون : لامدعون : أى مايعبؤبكم ربى لولا دعاؤكم : أى عبادتكم له. وأما على أن المصدر مضاف إلى مفعوله فالمخاطبون بالآية ، مدعون ، لاداعون : أى مايعبؤبكم ، لولا دعاؤه إياكم إلى توحيده ، وعبادته على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام .

واعلم أيضاً أن ثلاثة من الأقوال الأربعة المذكورة فى الآية مبنية على كون المصدر فيها مضاف إلى فاعله . والرابع : مبنى على كونه مضافاً إلى مفعوله .

أما الأقوال الثلاثة المبنية على كونه مضافاً إلى فاعله .

فالأول منها أن المعنى : مايعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم : أى عبادتكم له وحده جل وعلا ، وعلى هذا القول فالخطاب عام للكافرين والمؤمنين ثم أفرد الكافرين دون المؤمنين بقوله (فقد كذبتم) الآية .

والثانى منها : أن المعنى : لولا دعاؤكم أيها الكفار له وحده عند الشدائد والكروب : أى ولو كنتم ترجعون إلى شركم ، إذا كشف الضر عنكم .

والثالث : أن المعنى مايعبؤبكم ربى : أى مايصنع بعذابكم ، لولادعاؤكم معه آلهة أخرى ، ولا يخفى بعد هـذا القول ، وأن فيه تقدير مالا دليل عليه ، ولا حاجة إليه .

أما القول الرابع المبنى على أن المصدر فى الآية ، مضاف إلى مفعوله فهو ظاهر ، أى مايعبؤبكم ربى لولا دعاؤه إياكم على ألسنة رسله .

وإذا عرفت هذه الأقوال فاعلم أن كل واحد منها ، قد دل عليه قرآن وسنبين هنا إن شاء الله تعالى دليل كل قول منها من القرآن مع ذكر مايظهر لنا أنه أرجحها .

أما هذا القول الأخير المبنى على أن المصدر فى الآية مضاف إلى مفعوله ، وأن المعنى: مايعبؤ بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإيمان به ،وتوحيده ، وعبادته على ألسنة رسله ، فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى فى أول سورة هود : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقوله تعالى فى أول سورة الكهف (إنا جعلنا ماعلى

الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وقوله فى أول سورة الملك : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة فى خلقه السماوات والأرض ، وجميع ماعلى الأرض والموت والحياة ، هى أن يدعوهم على ألسنة رسله ، ويبتليهم أى أن يختبرهم أيهم أحسن عملا .

وهـذه الآيات تبين معنى قوله تعالى : (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى هذه الآيات إيضاح لأن معنى قوله : لولا دعاؤكم : أى دعاؤه إياكم على ألسنة رسله ، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملا ، وعلى هذا فلا إشكال فى قوله : فقد كذبتم : أى مايعبؤ بكم لولا دعاؤه إياكم : أى وقد دعاكم فكذبتم ، وهـذا القول هو وحده الذى لا إشكال فيه . فهو قوى بدلالة الآيات المذكورة عليه .

وأما القول بأن معنى : لولا دعاؤكم : أى إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشدائد ، والكروب ، فقد دلت على معناه آيات كثيرة كقوله تعالى : (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) وقوله تعالى : (جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين) .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية ، وهـذا القول وإن دلت عليه آيات كثيرة ، فلا يظهر كونه هو معنى آية الفرقان هذه .

وأما القول بأن المعنى : مايصنع بعذابكم، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى،فقد دل على معناه قوله تعالى (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) الآية .

والقول الأول الذى هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلا ، وهو أن المعنى : لولا دعاؤكم : أى عبادتكم له وحده ، قد دل عليه جميع الآيات الدالة على مايعطيه الله لمن أطاعه ، وما أعده لمن عصاه ، وكثرتها معلومة لا خفاء بها .

واعلم أن لفظة ما ، فى قوله (قل مايعبؤبكم ربى) قال بعض أهل العلم: هى استفهامية . وقال بعضهم : هى نافية وكلاهما له وجه من النظر .

واعلم أن قول من قال : لولا دعاؤكم : أى دعاؤكم إياى لأغفر لكم ، وأعطيكم ماسألتم راجع إلى القول الأول ، لأن دعاء المسألة داخل فى العبادة كما هو معلوم . وقوله : فقد كذبتم : أى بما جاءكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قدمنا فى الكلام على قوله تعالى : (إن عذابها كان غراما) أن معنى قوله تعالى (فسوف يكون لزاما) أى سوف يكون العذاب ملازماً لهم غير مفارق ، كما تقدم إيضاحه .

وقال جماعة من أهل العلم : إن المراد بالعذاب اللازم لهم المعبرعن لزومه لهم بقوله (فسوف يكون لزاما) أنه ماوقع من العذاب يوم بدر ، لأنهم قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، والذين قتلوا منهم أصابهم عذاب القتل ، واتصل به عذاب البرزخ والآخرة فهو ملازم لايفارقهم بحال ، وكون اللزام المذكور فى هذه الآية : العذاب الواقع يوم بدر . نقله ابن كثير عن عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب، ومحمد بن كعب القرظى، ومجاهد،والضحاك ،وقتادة ،والسدى، وغيرهم ثم قال : وقال الحسن البصرى (فسوف يكون لزاما) أى يوم القيامة .

ولا منافاة بينهما . انتهى من ابن كثير ، ونقله صاحب الدر المنثور عن أكثر المذكورين وغيرهم .

وقال جماعة من أهل العلم : إن يوم بدر ذكره الله تعالى فى آيات من كتابه ، قالوا هو المراد بقوله تعالى : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) أى يوم بدر (دون العذاب الأكبر) أى يوم القيامة ، وأنه هو المراد بقوله : (فسوف يكون لزاما) ، وأنه هو المراد بالبطش والانتقام ، فى قوله تعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) وأنه هو الفرقان الفارق بين الحق والباطل فى قوله تعالى (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) وهو يوم بدر ، وأنه هو الذى فيه النصر فى قوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) الآية ، وكون المراد بهذه الآيات المذكورة يوم بدر ثبت بعضه فى الصحيح ، عن ابن مسعود ، وهو المراد بقول الشيخ أحمد البدوى الشنقيطى فى نظمه للمغازى فى الكلام على بدر :

وقد أتى منوها فى الذكر

لأنه العذاب واللزام وأنه البطش والانتقام
وأنه الفرقان بين الكفر والحق والنصر سجيس الدهر

ومعنى سجيس الدهر : أى مدته .

وأظهر الأقوال فى الآية عندى، هو القول بأن المصدر فيها مضاف إلى مفعوله لجريانه على اللغة الفصيحة من غير إشكال ولا تقدير ، وممن قال به قتادة . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وفى آخر سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (ولا تحزن عليهم) وقوله تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أشار جل وعلا فى هذه الآية الكريمة إلى أن كثرة ما أنبت فى الأرض، من كل زوج كريم : أى صنف حسن من أصناف النبات ، فيه آية دالة على كمال قدرته .

وقد أوضحنا فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك أن إحياء الأرض بعد موتها ، وإنبات النبات فيها بعد عدمه من البراهين القاطعة على بعث الناس بعد الموت .

وقد أوضحنا دلالة الآيات القرآنية على ذلك فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم) إلى قوله : (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) وفى أول سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر

فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (إنى أخاف أن يكذبون) أى بسبب أنى قتلت منهم نفساً ، وفررت منهم لما خفت أن يقتلونى بالقتيل الذى قتلته منهم ، ويوضح هذا المعنى الترتيب بالفاء فى قوله تعالى : (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) ، لأن من يخاف القتل فهو يتوقع التكذيب . وقوله (ولا ينطلق لسانى) أى من أجل العقدة المذكورة فى قوله تعالى عن موسى (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) قدمنا فى الكلام على آية طه هذه بعض الآيات الدالة على مايتعلق بهذا المبحث .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) .

قوله تعالى عن نبيه موسى : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

لم يبين هنا هذا الذنب الذى لهم عليه الذى يخاف منهم أن يقتلوه بسببه ، وقد بين فى غير هذا الموضع أن الذنب المذكور هو قتله لصاحبهم القبطى ، فقد صرح تعالى بالقتل المذكور فى قوله تعالى: (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون) فقوله (قتلت منهم نفساً) مفسر لقوله (ولهم على ذنب) ، ولذا رتب بالفاء على كل واحد منهما . قوله (فأخاف أن يقتلون) وقد أوضح تعالى قصة قتل موسى له بقوله فى القصص (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) وقوله (فقضى عليه) أى قتله ، وذلك هو الذنب المذكور فى آية الشعراء هذه .

وقد بين تعالى أنه غفر لنبيه موسى ذلك الذنب المذكور ، وذلك فى قوله تعالى : (قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له) الآية .

قوله تعالى : ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾

صيغة الجمع فى قوله (إنا معكم مستمعون) للتعظيم ، وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية من رده على موسى خوفه القتل من فرعون وقومه، بحرف الزجر الذى هو كلا ، وأمره أن يذهب هو وأخوه بآياته مبينا لهما أن الله معهم : أى وهى معية خاصة بالنصر والتأييد ، وأنه مستمع لكل مايقول لهم فرعون أوضحه أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى) . وقوله تعالى : (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم وطه ، وبينا فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى (فقولا إنا رسولا ربك) وجه تثنيته الرسول فى طه ، وإفراده هنا فى الشعراء مع شواهده العربية .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾

تربية فرعون لموسى هذه التى ذكرها له هى التى ذكر مبدؤها فى قوله تعالى : (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون) وقوله تعالى : (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) الآية .

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

أبهم جل وعلا هذه الفعلة التى فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله : التى فعلت ، وقد أوضحها فى آيات أخر ، وبين أن الفعلة المذكورة هى قتله نفسا منهم كقوله تعالى (فوكزه موسى فقضى عليه) . وقوله تعالى (قال رب إنى قتلت منهم نفساً) الآية . وقوله عن الإسرائيلى الذى استغاث بموسى مرتين (قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) .

وأظهر الأقوال عندى فى معنى قوله : وأنت من الكافرين : أن المراد به كفر النعمة ، يعنى أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيراً ، وإحساننا إليك تتقلب فى نعمتنا فكفرت نعمتنا ، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفساً منا ، وباقى الأقوال تركناه لأن هذا أظهرها عندنا .

وقال بعض أهل العلم : رد موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية بقوله

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) يعنى تعبيدك لقومى ، وإهانتك لهم لايعتبر معه إحسانك إلى لأنى رجل واحد منهم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

أى قال موسى مجيباً لفرعون: فعلتها إذا : أى إذ فعلتها وأنا فى ذلك الحين من الضالين : أى قبل أن يوحى الله إلى ، ويبعثنى رسولا ، وهذا هو التحقيق إن شاء الله فى معنى الآية .

وقول من قال من أهل العلم : وأنا من الضالين ، أى من الجاهلين ، راجع إلى ماذكرنا ، لأنه بالنسبة إلى ماعلمه الله من الوحى يعتبرقبله جاهلا : أى غير عالم بما أوحى الله إليه .

وقد بينا مراراً فى هـذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق فى القرآن وفى اللغة العربية ثلاثة إطلاقات .

الإطلاق الأول : يطلق الضلال مراداً به الذهاب عن حقيقة الشىء . فتقول العرب فى كل من ذهب عن علم حقيقة شىء ضل عنه ، وهذا الضلال ذهاب عن علم شىء ما ، وليس من الضلال فى الدين .

ومن هذا المعنى قوله هنا : وأنا من الضالين: أى من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم ، والأسرار التى لاتعلم إلا عن طريق الوحى ، لأنى فى ذلك الوقت لم يوح إلى ومنه على التحقيق (ووجدك ضالا فهدى) أى ذاهبا عما علمك من العلوم التى لاتدرك إلا بالوحى .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى) فقوله (لايضل ربى) أى لايذهب عنه علم شىء كائنا ما كان ، وقوله تعالى (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل

إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) فقوله : أن تضل إحداهما : أى تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده : فتذكر إحداهما الأخرى ، وقوله تعالى عن أولاد يعقوب (إن أبانا لفى ضلال مبين) وقوله (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) على التحقيق فى ذلك كله . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

والإطلاق الثانى وهو المشهور فى اللغة ، وفى القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر ، وعن طريق الحق إلى الباطل ، وعن طريق الجنة إلى النار ومنه قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

والإطلاق الثالث : هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال ، تقول العرب : ضل الشىء إذا غاب واضمحل ، ومنه قولهم : ضل السمن فى الطعام ، إذا غاب فيه واضمحل ، ولأجل هذا سمت العرب الدفن فى القبر إضلالا ، لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل .

ومن هذا المعنى قوله تعالى: (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) الآية يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض ، فضلوا فيها : أى غابوا فيها واضمحلوا .

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن،قول نابغة ذبيان يرثى النعمان بن الحرث ابن أبى شمر الغسانى :

فإن تحيى لا أملك حياتى وإن تمت فما فى حياة بعد موتك طائل

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

وقول المخبل السعدى يرثى قيس بن عاصم :

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها وفارسها فى الدهر قيس بن عاصم

فقول الذبيانى : فآب مضلوه : يعنى فرجع دافنوه ، وقول السعدى :

أضلت أى دفنت ، ومن إطلاق الضلال أيضاً على الغيبة والاضمحلال قول الأخطل :

كنت القذى فى موج أكدر مزبد قذف الأتى به فضل ضلالا

وقول الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحى المضل أين ساروا

وزعم بعض أهل العلم : أن للضلال إطلاقا رابعاً : قال : ويطلق أيضاً على المحبة قال : ومنه قوله (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) قال أى فى حبك القديم ليوسف ، قال ومنه قول الشاعر :

هـذا الضلال أشاب منى المفرقا والعارضين ولم أكن متحققا
عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى بعـد الضلال فهلها قد أخلقا

وزعم أيضاً أن منه قوله (ووجدك ضالا) قال أى محبا للهداية فهداك ، ولا يخفى سقوط هذا القول . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى عن نبيه موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ .

خوفه منهم هذا الذى ذكر هنا أنه سبب لفراره منهم ، قد أوضحه تعالى وبين سببه فى قوله (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) وبين خوفه المذكور بقوله تعالى (فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لابتداء رسالته المذكورة هنا فى سورة مريم وغيرها .

وقوله (فوهب لى ربى حكما) قال بعضهم : الحكم هنا هو النبوة ، وممن روى عنه ذلك السدى .

والأظهر عندى : أن الحكم هو العلم النافع الذى علمه الله إياه بالوحى والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة : أن فرعون لا يعلم شيئاً عن رب العالمين، وكذلك قوله تعالى عنه (قال فمن ربكما ياموسى) وقوله : (ماعلمت لكم من إله غيرى) وقوله : (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) ولكن الله جل وعلا بين أن سؤال فرعون فى قوله (ومارب العالمين). وقوله :(فمن ربكما ياموسى) تجاهل عارف أنه عبد مربوب لرب العالمين بقوله تعالى:(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا)وقوله تعالى فى فرعون وقومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) .

وقد أوضحنا هذا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وفى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى (قال فمن ربكما ياموسى ؟)

قوله تعالى : ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ...﴾

إلى آخر القصة .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة طه ، والأعراف ، قوله تعالى: (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون، قالوا نعبد أصناماً فنظل

لها عاكفين - إلى قوله - إلا رب العالمين) قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (واذكر فى الكتاب إبراهيم) الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى مواضع من هذا الكتاب المبارك فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى (قال فاذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) وفى الحجر فى الكلام على قوله تعالى (وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ، تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

مادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن أهل النار يختصمون . فيها جاء موضحاً فى مواضع أخر من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: (هذا فوج مقتحم معكم لامرحباً بهم إنهم صالوا النار :قالوا بل أنتم لامرحبابكم) إلى قوله تعالى: (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) .

وقد قدمنا إيضاح هذا بالآيات القرآنية فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (حتى إذا ادارکوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) وفى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا) الآية . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (تالله إن كنا لفى ضلال مبين ،إذ نسويكم برب العالمين)، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾

قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يقبل فيها شفاعة) الآية . وفى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

دلت هذه الآية الكريمة على أمرين :

الأول منهما : أن الكفار يوم القيامة ، يتمنون الرد إلى الدنيا ، لأن لو فى قوله هنا (لو أن لنا) للتمنى ، والكرة هنا : الرجعة إلى الدنيا ، وأنهم زعموا أنهم إن ردوا إلى الدنيا كانوا من المؤمنين المصدقين للرسل ، فيما جاءت به ، وهذان الأمران قد قدمنا الآيات الموضحة لكل واحد منهما .

أما تمنيهم الرجوع إلى الدنيا فقد أوضحناه بالآيات القرآنية فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) وأما زعمهم أنهم إن ردوا إلى الدنيا آمنوا ، فقد بينا الآيات الموضحة له فى الأعراف فى الكلام على الآية المذكورة وفى الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الآيات .

قد قدمنا الكلام عليها فى سورة الحج ، وفى غيرها ، وتكلمنا على قوله تعالى (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب . وبينا الآيات الموضحة لذلك فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) الآية.

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى عن قوم نوح (ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قد قدمنا مايدل عليه من القرآن فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى عن نوح (وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) الآية .

وأوضحنا بالآيات القرآنية فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) إلى قوله (فتطردهم فتكون من الظالمين) وفى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ .

قوله تعالى هنا عن نوح (قال رب إن قومى كذبون) أوضحه فى غير هذا الموضع كقوله (قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاءى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) وقوله هنا (فافتح بينى وبينهم فتحا) أى احكم بينى وبينهم حكما ، وهذا الحكم الذى سأل ربه إياه هو إهلاك الكفار ، وإنجاؤه هو ومن آمن معه ، كما أوضحه تعالى فى آيات أخر كقوله تعالى (فدعا ربه أنى

مغلوب فانتصر) وقوله تعالى (قال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله هنا عن نوح (ونجنى ومن معى من المؤمنين) قد بين فى آيات كثيرة أنه أجاب دعاءه هذا كقوله هنا (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) ، وقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) الآية ، وقوله تعالى(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم)، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقوله هنا (ثم أغرقنا بعد الباقين) جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) وقوله تعالى (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) إلى غير ذلك من الآيات ، والمشحون الملوء ومنه قول عبيد ابن الأبرص :

شحنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط

والفلك : يطلق على الواحد والجمع ، فإن أطلق على الواحد جاز تذكيره كقوله هنا (فى الفلك المشحون) وإن جمع أنث ، والمراد بالفلك هنا السفينة ، كما صرح تعالى بذلك فى قوله (فأنجيناه وأصحاب السفينة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

قال أكثر أهل العلم : إن أصحاب الأيكة هم مدين . قال ابن كثير : وهو الصحيح، وعليه فتكون هذه الآية بينتها الآيات الموضحة قصة شعيب مع مدين، ومما استدل به أهل هذا القول أنه قال هنا لأصحاب الأيكة (أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)وهذا الكلام ذكر الله عنه أنه قاله لمدين فى مواضع متعددة كقوله فى هود (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله

مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا فى سورة الأعراف قولنا : فإن قيل الهلاك الذى أصاب قوم شعيب ذكر الله جل وعلا فى الأعراف أنه رجفة ، وذكر فى هود أنه صيحة ، وذكر فى الشعراء أنه عذاب يوم الظلة .

فالجواب ماقاله ابن كثير رحمه الله فى تفسيره قال : وقد اجتمع عليهم ذلك كله ؛ أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام . انتهى ، وعلى القول بأن شعيباً أرسل إلى أمتين : مدين وأصحاب الأيكة ، وأن مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة فلا إشكال . وقد جاء ذلك فى حديث ضعيف عن عبد الله ابن عمرو ، وممن روى عنه هذا القول قتادة وعكرمة ، وإسحاق بن بشر .

وقد قدمنا بعض الآيات الموضحة لهذا فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم) ، وأوضحنا هنالك أن نافعا ، وابن عامر ، وابن كثير قرأوا ليكة فى سورة الشعراء ، وسورة (ص) بلام مفتوحة أول الكلمة ، وتاء مفتوحة آخرها من غير همز . ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف ، وأن الباقين قرأوا : الأيكة بالتعريف ، والهمز وكسر التاء وأن الجميع اتفقوا على ذلك فى (ق والحجر) . وأوضحنا هنا لك توجيه القراءتين فى الشعراء و(ص) ومعنى الأيكة فى اللغة مع بعض الشواهد العربية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

الجبلة الخلق ومنه قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيراً) وقد استدل بآية (يس) المذكورة على آية الشعراء هذه ابن زيد نقله عنه ابن كثير ،ومن ذلك قول الشاعر :

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبلة

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

أكد جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، وأنه نزل به الروح الأمين الذى هو جبريل على قلب نبينا صلى الله عليهما وسلم ، ليكون من المنذرين به ، وأنه نزل عليه بلسان عربى مبين ، وما ذكره جل وعلا هنا أوضحه فى غير هذا الموضع ، أما كون هذا القرآن تنزيل رب العالمين فقد أوضحه جل وعلا فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين) وقوله تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) وقوله تعالى(طه،ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى،إلا تذكرة لمن يخشى،تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) وقوله تعالى(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) الآية . وقوله تعالى (يس،والقرآن الحكيم،إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم،تنزيل العزيز الرحيم،لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وقوله (نزل به الروح الأمين) بينه أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآية ، وقوله (لتكون من المنذرين) أى نزل به عليك لأجل أن تكون من

المنذرين به ، جاء مبينا فى آيات أخر كقوله تعالى (المص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به) الآية ، أى أنزل إليك لتنذر به ، وقوله تعالى (تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) الآية وقوله (بلسان عربى مبين) ذكره أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقوله تعالى (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) الآية .

وقد بينا معنى اللسان العربى بشواهده فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (وهذا لسان عربى مبين) وقد أوضحنا معنى إنزال جبريل القرآن على قلبه صلى الله عليه وسلم بالآيات القرآنية فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾

قد قدمنا هذه الآية الكريمة ، مع مايوضحها من الآيات فى النحل فى الكلام على قوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) الآية .

واعلم أن كل صوت غير عربى تسميه العرب أعجم ، ولو من غير عاقل ومنه قول حميد بن ثور يذكر صوت حمامة :

فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربيا شاقه صوت أعجما

قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

قوله : سلكناه : أى أدخلناه كما قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية والشواهد

العربية فى سورة هود ، فى الكلام على قوله تعالى : (قلنا احمل فيها من زوجين اثنين) الآية ، والضمير فى سلكناه قيل : للقرآن ، وهو الأظهر ، وقيل ، للتكذيب والكفر المذكور فى قوله : (ما كانوا به مؤمنين) ، وهؤلاء الكفار الذين ذكر الله جل علا فى هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم : هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب ،وسبق فى علم الله : أنهم أشقياء كما يدل لذلك قوله تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقد أوضحنا شدة تعنت هؤلاء ،وأنهم لا يؤمنون بالآيات فى سورة الفرقان وفى سورة بنى إسرائيل وغيرهما . وقوله : (كذلك سلكناه) نعت لمصدر محذوف. أى كذلك السلك أى الإدخال. سلكناه : أى أدخلناه فى قلوب المجرمين ، وإيضاحه على أنه القرآن أن الله أنزله على رجل عربى فصيح بلسان عربى مبين ، فسمعوه وفهموه لأنه بلغتهم ، ودخلت معانيه فى قلوبهم ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، لأن كلمة العذاب حقت عليهم ،وعلى أن الضمير فى سلكناه للكفر والتكذيب فقو عنهم (ما كانوا به مؤمنين) يدل على إدخال الكفر والتكذيب فى قلوبهم ، أى كذلك السلك سلكناه الخ .

قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾

لفظة هل هنا يراد بها التمنى ، والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار أى الإمهال ، وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحا ، وأنهم لم يجابوا إلى ماطلبوا ، كقوله تعالى : (وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب ، نجب دعوتك ونتبع الرسل، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) وأوضح أنهم لا ينظرون فى آيات من كتابه

كقوله تعالى : (فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) وقوله تعالى : (وما كانوا إذاً منظرين) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ الآية ، وذكرنا طرفا منه فى سورة (يونس) فى الكلام على قوله تعالى : (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون ، أثم إذا ما وقع ءآمنتم به ءالئن وقد كنتم به تستعجلون) .

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾

قد قدمنا إيضاحه فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (يود أحدكم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) .

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الدالة عليه كقوله تعالى : (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وقوله تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن

تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله : ذكرى أعربه بعضهم مرفوعاً ، على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هذه ذكرى ، وأعربه بعضهم منصوبا ، وفى إعرابه على أنه منصوب أوجه .

منها : أنه ماناب عن المطلق من قوله : منذرون لأن أنذر وذكر متقاربان .

ومنها : أنه مفعول من أجله ، أى منذرون من أجل الذكرى بمعنى التذكرة .

ومنها : أنها حال من الضمير فى منذرون، أى ينذرونهم فى حال كونهم ذوى تذكرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحه له فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ .

قد أوضحنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) بالدليل القرآنى أن النبى صلى الله عليه وسلم يخاطب بمثل هذا الخطاب، والمراد التشريع لأمته مع بعض الشواهد العربية ، وقوله هنا (فلا تدع مع الله إلها آخر) الآية . جاء معناه فى آيات كثيرة كقوله (لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) . وقوله تعالى :

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً) ، وقوله تعالى : (لئن أشركت ليحبطن عملك) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

هذا الأمر فى هذه الآية الكريمة بإنذاره خصوص عشيرته الأقربين ، لاينافى الأمر بالإنذار العام ، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية كقوله تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، وقوله تعالى : (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) ، وقوله تعالى : (وتنذر به قوماً لداً) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وفى الحجر فى الكلام على قوله تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقد وعدنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) بأنا نوضح معنى خفض الجناح ، وإضافته إلى الذل فى سورة الشعراء فى هذا الموضع ، وهذا وفاؤنا بذلك الوعد ، ويكفينا فى الوفاء به أن ننقل كلامنا فى رسالتنا المسماة : منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز .

فقد قلنا فيها مانصه : والجواب عن قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل) أن الجناح هنا مستعمل فى حقيقته ، لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه . قال تعالى : (واضمم إليك جناحك من الرهب) ، والخفض مستعمل فى معناه الحقيقى ، الذى هو ضد الرفع ، لأن مريد البطش يرفع جناحيه ، ومظهر الذل ، والتواضع يخفض جناحيه ، فالأمر بخفض الجناح للوالدين

كناية عن لين الجانب لهما ، والتواضع لهما كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ، وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع ، ولين الجانب . أسلوب معروف ومنه قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجنا ح فلا تك فى رفعه أجدلا

وأما إضافة الجناح إلى الذل ، فلا تستلزم المجاز كما يظنه كثير ، لأن الإضافة فيه كالإضافة فى قولك : حاتم الجود .

فيكون المعنى :واخفض لهما الجناح الذليل من الرحمة ، أو الذلول على قراءة الذل بالكسر ، وما يذكر عن أبى تمام من أنه لما قال :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صب استعذبت ماء بكائى

جاءه رجل فقال له : صب لى فى هذا الإناء شيئاً من ماء الملام ، فقال له: إن أتيتنى بريشة من جناح الذل صببت لك شيئاً من الملام فلا حجة فيه ، لأن الآية لايراد بها أن للذل جناحاً ، وإنما يراد بها خفض الجناح المتصف بالذل للوالدين من الرحمة بهما ، وغاية ما فى ذلك إضافة الموصوف إلى صفته كحاتم الجود ، ونظيره فى القرآن الإضافة فى قوله (مطر السوء ، وعذاب الهون) أى مطر حجارة السجيل الموصوف بسوئه من وقع عليه ، وعذاب أهل النار الموصوف بهون من وقع عليه. والمسوغ لإضافة خصوص الجناح إلى الذل مع أن الذل من صفة الإنسان لا من صفة خصوص الجناح ، أن خفض الجناح كنى به عن ذل الإنسان ، وتواضعه ولين جانبه لوالديه رحمة بهما ، وإسناد صفات الذات لبعض أجزائها من أساليب اللغة العربية كإسناد الكذب ، والخطيئة إلى الناصية فى قوله تعالى : (ناصية كاذبة خاطئة) ،وكإسناد الخشوع ، والعمل والنصب إلى الوجوه فى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة) ،

وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن، وفى كلام العرب. وهذا هو الظاهر فى معنى الآية، ويدل عليه كلام السلف من المفسرين .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله فى الصواعق : إن معنى إضافة الجناح إلى الذل أن للذل جناحاً معنوياً يناسبه لاجناح ريش والله تعالى أعلم . انتهى . وفيه إيضاح معنى خفض الجناح .

والتحقيق : أن إضافة الجناح إلى الذل من إضافة الموصوف إلى صفته كما أوضحنا . والعلم عند الله تعالى . وقال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى : (لمن اتبعك من المؤمنين) ، فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله : (لمن اتبعك من المؤمنين) ؟

قلت : فيه وجهان ؛ أن يسميهم قبل الدخول فى الإيمان مؤمنين ،لمشارفتهم ذلك. وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان : صنف صدق واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، وصنف لم يوجد منهم إلا التصديق فحسب ، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق ، لايخفض لهما الجناح .

والمعنى : من المؤمنين عشيرتك وغيرهم ، أى أنذر قومك فإن اتبعوك ، وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره . انتهى منه .

والأظهر عندى فى قوله : (لمن اتبعك من المؤمنين) أنه نوع من التوكيد يكثر مثله فى القرآن العظيم كقوله (يقولون بأفواههم) الآية . ومعلوم أنهم إنما يقولون بأفواههم وقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ومعلوم أنهم إنما يكتبونه بأيديهم ، وقوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) ، وقوله تعالى (حسداً من عند أنفسهم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى الآية قرينة ، تدل على عدم صحته ، وذكرنا أمثلة متعددة لذلك فى الترجمة وفيما مضى من الكتاب .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله هنا (وتقلبك فى الساجدين) قال فيه بعض أهل العلم المعنى : وتقلبك فى أصلاب آبائك الساجدين : أى المؤمنين بالله كآدم ونوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل .

واستدل بعضهم لهذا القول فيم بعد إبراهيم من آبائه بقوله تعالى عن إبراهيم (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وممن روى عنه هذا القول ابن عباس نقله عنه القرطبى ، وفى الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول وهى قوله تعالى قبله مقترنا به (الذى يراك حين تقوم) فإنه لم يقصد به أنه يقوم فى أصلاب الآباء إجماعاً ، وأول الآية مرتبط بآخرها : أى الذى يراك حين تقوم إلى صلاتك ، وحين تقوم من فراشك ، ومجلسك (ويرى تقلبك فى الساجدين) أى المصلين ، على أظهر الأقوال ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، يتقلب فى المصلين قائماً ، وساجداً وراكعاً ، وقال بعضهم : الذى يراك حين تقوم أى إلى الصلاة وحدك وتقلبك فى الساجدين : أى المصلين إذا صليت بالناس .

وقوله هنا (الذى يراك حين تقوم) الآية . يدل على الاعتناء به صلى الله عليه وسلم ، ويوضح ذلك قوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) الآية .

وقوله : وتوكل قرأه عامة السبعة غير نافع وابن عامر : وتوكل بالواو ، وقرأه نافع وابن عامر فتوكل بالفاء ، وبعض نسخ المصحف العثمانى فيها الواو وبعضها فيها الفاء ، وقوله هنا (وتوكل على العزيز الرحيم) قد قدمنا الآيات

الموضحة له فى سورة الفاتحة فى الكلام على قوله تعالى (وإياك نستعين) ، وبسطنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع بيان معنى التوكل فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ .

الشعراء : جمع شاعر كجاهل وجهلاء ، وعالم وعلماء ، والغاوون : جمع غاو وهو الضال ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (يتبعهم الغاوون) يدل على أن اتباع الشعراء من أتباع الشيطان بدليل قوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقرأ هذا الحرف نافع وحده : يتبعهم بسكون التاء المثناة ، وفتح الباء الموحدة ، وقرأه الباقون يتبعهم بتشديد المثناه ، وكسر الموحدة ومعناها واحد .

وما ذكره تعالى فى هذه الآية الكريمة فى قوله (والشعراء يتبعهم الغاوون) يدل على تكذيب الكفار فى دعواهم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم شاعر ، لأن الذين يتبعهم الغاوون ، لا يمكن أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم .

ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات مبيناً أنهم ادعوا عليه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وتكذيب الله لهم فى ذلك ، أما دعواهم أنه صلى الله عليه وسلم شاعر ، فقد ذكره تعالى فى قوله عنهم (بل قالوا أضغاث أحلام بل هو شاعر) الآية ، وقوله تعالى (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وقوله تعالى : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وأما تكذيب الله لهم فى ذلك ، فقد ذكره فى قوله تعالى (وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون) الآية. وقوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ، وقوله تعالى :

(ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدق المرسلين) ، لأن قوله تعالى (بل جاء بالحق) الآية . تكذيب لهم فى قولهم (إنه شاعر مجنون).

مسألتان تتعلقان بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه قال « لأن يمتلىء جوف رجل قيحا يريه خير له من أن يمتلئ شعرا » رواه الشيخان فى صحيحيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقوله فى الحديث ، يريه بفتح المثناة التحتية وكسر الراء بعدها ياء ، مضارع ورى القيح جوفه ، يريه ، وريا إذا أكله وأفسده ، والأظهر أن أصل وراه أصاب رئته بالإفساد .

واعلم أن التحقيق الذى لا ينبغى العدول عنه أن الشعر كلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح .

ومن الأدلة القرآنية على ذلك أنه تعالى لما ذم الشعراء بقوله (يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) استثنى من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى قوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) الآية .

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق أى الحديث الصحيح المصرح بأن امتلاء الجوف بالقيح المفسد له خير من امتلائه من الشعر ، محمول على من أقبل على الشعر ، واشتغل به عن الذكر ، وتلاوة القرآن ، وطاعة الله تعالى ، وعلى الشعر القبيح المتضمن للكذب ، والباطل كذكر الخمر ومحاسن النساء الأجنبيات ونحو ذلك .

المسألة الثانية : اعلم أن العلماء اختلفوا فى الشاعر إذا اعترف فى شعره بما يستوجب حدا ، هل يقام عليه الحد ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يقام عليه لأنه أقر به والإقرار تثبت به الحدود .

والثانى : أنه لا يحد بإقراره فى الشعر لأن كذب الشاعر فى شعره أمر معروف معتاد واقع لا نزاع فيه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندى : أن الشاعر إذا أقر فى شعره بما يستوجب الحد ، لا يقام عليه الحد ، لأن الله جل وعلا صرح هنا بكذبهم فى شعرهم فى قوله (وإنهم يقولون مالا يفعلون) فهذه الآية الكريمة تدرأ عنهم الحد ، ولكن الأظهر أنه إن أقر بذلك استوجب بإقراره به الملام والتأديب وإن كان لا يحد به ، كما ذكره جماعة من أهل الأخبار فى قصة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه المشهورة مع النعمان بن عدى بن نضلة .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة وقد ذكر محمد بن إسحق ، ومحمد بن سعد فى الطبقات ، والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان من أرض البصرة ، وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... ورقاصة تجذو على كل منسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : إى والله إنه ليسوءنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، وكتب إليه عمر : بسم الله الرحمن الرحيم (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) أما بعد : فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

وأيم الله إنه ليسوءنى ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذلك الشعر إلا شيء طفح على لسانى ، فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا ، وقد قلت ماقلت فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون مالا يفعلون، ولكنه ذمه عمر ولامه على ذلك وعزله به. انتهى محل الغرض، من كلام ابن كثير وهذه القصة يستأنس بها لما ذكرنا .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن سليمان بن عبد الملك لما سمع قول الفرزدق :

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

قال له : قد وجب عليك الحد ، فقال الفرزدق : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فلم يحده مع إقراره بموجب الحد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

هذا الذى ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون مالا يفعلون ، بين فى آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده جل وعلا ، وذلك فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ، والمقت فى لغة العرب : البغض الشديد فقول الإنسان ما لا يفعل كما ذكر عن الشعراء يبغضه الله ، وإن كان قوله مالا يفعل فيه تفاوت ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى

﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً) الآية . مع شواهده العربية .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

أثنى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بذكرهم الله كثيراً ، وهذا الذى أثنى عليهم به هنا من كثرة ذكر الله ، وأمر به فى آيات أخر وبين جزاءه قال تعالى (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا) ، وقال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) الآية . وقال تعالى : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له كقوله تعالى : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) فى آخر سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

المنقلب هنا المرجع والمصير . والأظهر أنه هنا مصدر ميمى ، وقد تقرر فى فن الصرف أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف كان كل من مصدره الميمى ، واسم مكانه واسم زمانه على صيغة اسم المفعول .

والمعنى : وسيعلم الذين ظلموا أى مرجع يرجعون . وأى مصير يصيرون ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من أن الظالمين سيعلمون يوم القيامة المرجع الذى يرجعون : أى يعلمون العاقبة السيئة التى هى مآلهم ، ومصيرهم ومرجعهم ، جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) ، وقوله تعالى : (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) ، وقوله تعالى (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) والآيات بمثل ذلك كثيراً جداً ، وقوله (أى منقلب) ماناب عن المطاق من قوله (ينقلبون) وليس مفعولا به (وسيعلم) ، قال القرطبى رحمه الله: وأى منصوب ينقلبون ، وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بسيعلم لأن أيا وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكره النحويون ، قال النحاس : وحقيقة القول فى ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله ، لدخل بعض المعانى فى بعض . انتهى منه . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (هدى للمتقين) .

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ .

إلى آخر القصة تقدم إيضاحه فى مريم وطه والأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾

قد قدمنا أنها وراثة علم ودين لا وراثة مال فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) الآية ، وبينا هناك الأدلة على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يورث عنهم المال .

قوله تعالى :﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) وقوله (ألا يسجدوا لله) . الآية كقوله تعالى (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه

تعبدون) وقوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (الذى يخرج الخبأ) قال بعض أهل العلم : الخبأ فى السموات : المطر ، والخبأ فى الأرض: النبات ، والمعادن، والكنوز ، وهذا المعنى ملائم لقوله (يخرج الخبأ) وقال بعض أهل العلم: الخبأ : السر والغيب أى يعلم ما غاب فى السموات ، والأرض، كما يدل عليه قوله بعده (ويعلم ما يخفون ومايعلنون)وكقوله فى هذه السورة الكريمه (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) كما أوضحناه فى سورة هود ، وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير الكسائى : ألا يسجدوا لله بتشديد اللام فى لفظة ألا ، ولا خلاف على هذه القراءة أن يسجدوا فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظة لا ، فالفعل المضارع على هذه القراءة ، وأن المصدرية المدغمة فى لا ينسبك منهما مصدر فى محل نصب على الأظهر ، وقيل فى محل جر وفى إعرابه أوجه .

الأول : أنه منصوب على أنه مفعول من أجله : أى وزين لهم الشيطان أعمالهم ، من أجل ألا يسجدوا لله : أى من أجل عدم سجودهم لله ، أو فصدهم عن السبيل ، لأجل ألا يسجدوا لله ، وبالأول قال الأخفش . وبالثانى قال الكسائى ، وقال اليزيدى وغيره : هو منصوب على أنه بدل من أعمالهم : أى وزين لهم الشيطان أعمالهم ، ألا يسجدوا أى عدم سجودهم ، وعلى هذا فأعمالهم هى عدم سجودهم لله ، وهذا الإعراب يدل على أن الترك عمل كما أوضحناه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) وقال بعضهم : إن المصدر المذكور فى محل خفض على أنه بدل من السبيل . أو على أن العامل فيه فهم لا يهتدون ، وعلى هذين الوجهين فلفظة لا صلة، فعلى الأول منهما . فالمعنى : فصدهم عن السبيل سجودهم لله، وعلى

هذا فسبيل الحق الذى صدوا عنه ، هو السجود لله ، ولا زائدة للتوكيد ، وعلى الثانى فالمعنى : فهم لا يهتدون لأن يسجدوا لله أى للسجود له ، ولا زائدة أيضا للتوكيد ، ومعلوم فى علم العربية أن المصدر المنسبك من فعل ، وموصول حرفى إن كان الفعل فيه منفيا ذكرت لفظة عدم قبل المصدر ، ليؤدى بها معنى النفى الداخل على الفعل ، فقولك مثلا : عجبت من أن لاتقوم. إذا سبكت مصدره لزم أن تقول : عجبت من عدم قيامك ، وإذا كان الفعل مثبتا لم تذكر مع المصدر لفظة عدم ، فلوقلت عجبت من أن تقوم ، فإنك تقول فى سبك مصدره : عجبت من قيامك كما لا يخفى ، وعليه فالمصدر المنسبك من قوله (ألا يسجدوا) يلزم أن يقال فيه عدم السجود إلا إذا اعتبرت لفظة لا زائدة ، وقد أشرنا فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) إلا أنا أوضحنا الكلام على زيادة لا لتوكيد الكلام فى كتابنا [دفع إيهام إلا ضطراب عن آيات الكتاب] فى أول سورة البلد فى الكلام ، على قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد) وسنذكر طرفا من كلامنا فيه هنا .

فقد قلنا فيه : الأول وعليه الجمهور. أن لا هنا صلة على عادة العرب فإنها ربما لفظت بلفظة لا ،من غير قصد معناها الأصلى بل لمجرد تقوية الكلام ، وتوكيده كقوله تعالى (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألاتتبعنى) يعنى أن تتبعنى ، وقوله تعالى (ما منعك ألا تسجد) أى أن تسجد على أحد القولين . ويدل له قوله تعالى فى سورة ص (مامعنك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقوله تعالى (لئلا يعلم أهل الكتاب) وقوله تعالى (فلا وربك لايؤمنون) الآية أى فوربك، وقوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، أى والسيئة ، وقوله تعالى (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) على أحد القولين ، وقوله تعالى (وما يشعركم

أنها إذا اجاءت لايؤمنون على أحـــد القولين ، وقوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا) الآية ـ على أحد الأقوال الماضية ـ وكقول أبى النجم :

فما ألوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفندرا

يعنى أن تسخر ، وقول الآخر :

وتلحينني فى اللهو ألا أحبه وللهو داع دائب غير غافل

يعنى أن أحبه ، ولا زائدة ، وقول الآخر :

أبى جوده لاالبخل واستعجلت به نعم من فتى لايمنع الجود قاتله

يعنى أبا جوده البخل ، ولا زائدة على خلاف فى زيادتها فى هـذا البيت الأخير ، ولاسيما على رواية البخل بالجر ، لأن لا عليها مضاف بمعنى لفظة لا ، فليست زائدة على رواية الجر وقول امرىء القيس :

فلا وأبيك أنبت العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

يعنى وأبيك ، وأنشد الفراء لزيادة لا فى الكلام الذى فيه معنى الجحد قول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله دينهم والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعنى وعمر ولا صلة ، وأنشد الجوهرى لزيادتها قول العجاج :

فى بئر لا حور سرى وما شعر بإفكه حتى رأى الصبح جشر

والحور الهلكة يعنى فى بئر هلكة ولا صلة. قاله أبو عبيدة وغيره . وأنشد الأصمعى لزيادتها قول ساعدة الهزلى :

أفعنك لا برق كأن وميضه غاب تسنمه ضرام مثقب

ويروى أفنك وتشيمه بدل أفعنك وتسنمه ، يعنى أفعنك برق ، ولا صلة ، ومن شواهد زيادتها قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لا يتقطع

يعنى كاد يتقطع ، وأما استدلال أبى عبيدة لزيادتها بقول الشماخ :

أعائش ما لقومك لا أراهم يضيعون الهجان مع المضيع

فغلط منه ، لأن لا فى بيت الشماخ هذا نافية لا زائدة ، ومقصوده أنها تنهاه عن حفظ ماله ، مع أن أهلها يحفظون مالهم ، أى لا أرى قومك يضيعون مالهم وأنت تعاتبيننى فى حفظ مالى ، وماذكره الفراء من أن لفظة لا لاتكون صلة إلا فى الكلام الذى فيه معنى الجحد ، فهو أغلبى لايصح على الإطلاق ، بدليل بعض الأمثلة المتقدمة التى لاجحد فيها كهذه الآية ، على القول بأن لافيها صلة ، وكبيت ساعدة الهذلى ، وما ذكره الزمخشرى من زيادة لا فى أول الكلام دون غيره ، فلا دليل عليه . انتهى محل الغرض من كتابنا : [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] .

وقرأ هذا الحرف الكسائى وحده من السبعة : ألا يسجدوا بتخفيف اللام من قوله ألا ، وعلى قراءة الكسائى هذه ، فلفظة ألا حرف استفتاح ، وتنبيه ويا حرف نداء ، والمنادى محذوف تقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا ، واسجدوا فعل أمر ومعلوم فى علم القراءات ، أنك إذا قيل لك : قف على كل كلمة بانفرادها فى قراءة الكسائى أنك تقف فى قوله : ألا يسجدوا ثلاث وقفات الأولى : أن تقف على ألا . والثانية : أن تقف على يا ، والثالثة : أن تقف على اسجدوا ، وهذا الوقف وقف اختبار لا وقف اختيار ، وأما على قراءة الجمهور ، ، فإنك تقف وقفتين فقط . الأولى : على ألا ، ولا تقف على أن لأنها مدغمة فى لا ، والثانية : أنك تقف على يسجدوا .

واعلم أنه على قراءة الكسائى قد حذف فى الخط ألفان ، الأولى : الألف المتصلة بياء النداء ، والثانية : ألف الوصل فى قوله : اسجدوا ، ووجه بعض أهل

العلم إسقاطهما فى الخط ، بأنهما لما سقطتا فى اللفظ ، سقطتا فى الكتابة قالوا ومثل ذلك فى القرآن كثير .

واعلم أن جمهور أهل العلم على ما ذكرنا فى قراءة الكسائى من أن لفظة ألا للاستفتاح والتنبيه ، وأن يا حرف نداء حذف منه الألف فى الخط ، واسجدوا/فعل أمر قالوا ، وحذف المنادى مع ذكر أداة النداء أسلوب عربى معروف ، ومنه قول الأخطل :

ألا يا اسلمى ياهند هند بنى بكر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

وقول ذى الرمة :

ألا يا سلمى يا دارمى على البلا ولا زال منهلا بجرعائك القطر

فقوله فى البيتين ألا يا اسلمى : أى يا هذه اسلمى ، وقول الآخر :

* ألا يا اسلمى ذات الدماليج والعقد *

وقول الشماخ :

ألا يا اصبحانى قبل غارة سنجالى وقبل منايا قد حضرن وآجالى

يعنى ألا ياصحبى اصبحانى ، ونظيره قول الآخر :

* ألا يا اسقيانى قبل خيل أبى بكر *

ومنه قول الآخر :

فقالت ألا يا اسمع أعظك بخطبة فقلت سمعنا فانطقى وأصيبى

يعنى ألا يا هذا اسمع ، وأنشد سيبويه لحذف المنادى مع ذكر أداته قول الشاعر :

يالعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار

بضم التاء من قوله : لعنة الله ، ثم قال فيالغير اللعنة يعنى أن المراد : يا قوم لعنة الله إلى آخره ، وأنشد صاحب اللسان لحذف المنادى ، مع ذكر أداته مستشهداً لقراءة الكسائى المذكورة قول الشاعر :

يا قاتل الله صبيانا تجىء بهم أم الهنيئين من زندلها وارى

ثم قال كأنه أراد يا قوم قاتل الله صبيانا ، وقول الآخر :

يا من رأى بارقا أكفكفه بين ذراعى وجبهة الأسد

ثم قال كأنه دعا يا قوم يا إخوتى ، فلما أقبلوا عليه قال من رأى ، وأنشد بعضهم لحذف المنادى مع ذكر أداته قول عنترة فى معلقته :

ياشاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

قالوا : التقدير : ياقوم انظروا شاة ما قنص .

واعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا : أن يا على قراءة الكسائى ، وفى جميع الشواهد التى ذكرنا ليست للنداء ، وإنما هى للتنبيه فكل من ألا ويا : حرف تنبيه كرر للتوكيد ، وممن روى عنه هذا القول أبو الحسن بن عصفور ، وهذا القول اختاره أبو حيان فى البحر المحيط ، قال فيه : والذى أذهب إليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ، ليست : يا فيه للنداء ، وحذف المنادى ، لأن المنادى عندى لايجوز حذفه ، لأنه قد حذف الفعل العامل فى النداء ، وانحذف فاعله لحذفه ، ولو حذف المنادى لكان فى ذلك حذف جملة النداء ، وحذف متعلقه ، وهو المنادى ، فكان ذلك إخلالا كبيرا ، وإذا أبقينا المنادى ولم نحذفه كان ذلك دليلا على العامل فيه جملة النداء وليس حرف النداء حرف جواب كنعم ، ولا ، وبلى ، وأجل ، فيجوز حذف الجمل بعدهن لدلالة ماسبق من

السؤال ، على الجمل المحذوفة ، فيما عندى فى تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به ألا التى للتنبيه ، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ولقصد المبالغة فى التوكيد ، وإذا كان قد وجد التوكيد فى اجتماع الحرفين المختلفين اللفظ العاملين فى قوله: فأصبحن لا يسألنني عن بما به : والمتفق اللفظ العاملين فى قوله :

* ولا للما بهم أبدا دواء *

وجاز ذلك ، وإن عدوه ضرورة أو قليلا باجتماع غير العاملين ، وهما مختلفا اللفظ يكون جائزا ، وليس يا فى قوله :

* يا لعنة الله والأقوام كلهم *

حرف نداء عندى ، بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدأ ، وليس مما حذف منه المنادى لما ذكرناه . انتهى الغرض من كلام أبى حيان ، وما اختاره له وجه من النظر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومما له وجه من النظر عندى فى قراءة الكسائى ، أن يكون قوله : يا اسجدوا فعل مضارع حذفت منه نون الرفع ، بلا ناصب ، ولا جازم ، ولا نون توكيد ، ولا نون وقاية .

وقد قال بعض أهل العلم : إن حذفها لا لموجب مما ذكر لغة صحيحة .

قال النووى فى شرح مسلم فى الجزء السابع عشر فى صفحة ٢٠٧ ما نصه : قوله: يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا . كذا هو فى عامة النسخ ، كيف يسمعوا ، وأنى يجيبوا من غير نون وهى لغة صحيحة ، وإن كانت قليلة الاستعمال ، وسبق بيانها مرات. ومنها الحديث السابق فى كتاب الإيمان « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا » انتهى منه ، وعلى أن حذف نون الرفع لغة صحيحة . فلا مانع من يكون قوله تعالى : (يسجدوا) فى قراءة

الكسائى فعل مضارع ، ولاشك أن هذا له وجه من النظر ، وقد اقتصرنا فى سورة الحجر على أن حذفها مقصور على السماع ، وذكرنا بعض شواهده . والعلم عند الله تعالى .

تنبيهـــان

الأول : اعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه محل سجدة على كلتا القراءتين ، لأن قراءة الكسائى فيها الأمر بالسجود ، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود ، وتوبيخه . وبه تعلم أن قول الزجاج ، ومن وافقه أنها ليست محل سجدة على قراءة الجمهور ، وإنما هى محل سجود على قراءة الكسائى ، خلاف التحقيق وقد نبه على هذا الزمخشرى وغيره .

التنبيه الثانى : اعلم أنه على قراءة الجمهور ، لايحسن الوقف على قوله : لايهتدون . وعلى قراءة الكسائى ، يحسن الوقف عليه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ويعلم مايخفون ومايعلنون) قرأه حفص والكسائى بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأه الباقون : يخفون ، ويعلنون بالتحتية على الغيبة ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾

جاء معناه موضحاً فى آيات متعددة ، كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾

جاء معناه موضحاً أيضاً فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى (وقال موسى إن

تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) وقوله تعالى (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) وقوله تعالى (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)وقوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحاً إلى ثمود ، فإذا هم فريقان يختصمون ، ولم يبين هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) فهذه خصومتهم ، وأعظم أنواع الخصومة ، الخصومة فى الكفر والإيمان .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

قوله اطيرنا بك : أى تشاءمنا بك ، وكان قوم صالح إذا نزل بهم قحط أو بلاء أو مصائب قالوا: ماجاءنا هذا إلا من شؤم صالح، ومن آمن به. والتطير:

التشاؤم ، وأصل اشتقاقه من التشاؤم بزجر الطير .

وقد بينا كيفة التشاؤم والتيامن بالطير فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى : (قال طائركم عند الله) قال بعض أهل العلم : أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله ، فالشر الذى أصابكم بذنوبكم لا بشؤم صالح ، ومن آمن به من قومه .

وقد قدمنا معنى طائر الإنسان فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) ، ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من تشاؤم الكفار بصالح ، ومن معه من المؤمنين جاء مثله موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى تشاؤم فرعون وقومه بموسى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى فى تطير كفار قريش ، بنبينا صلى الله عليه وسلم (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) والحسنة فى الآيتين النعمة كالرزق والخصب ، والعافية . والسيئة المصيبة بالجدب والقحط ، ونقص الأموال ، والأنفس ، والثمرات ، وكقوله تعالى (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم) أى بليتكم جاءتكم من ذنوبكم ، وكفركم .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (بل أنتم قوم تفتنون) ، قال بعض العلماء : تختبرون . وقال بعضهم : تعذبون كقوله (يوم هم على النار يفتنون) وقد قدمنا إن أصل الفتنة فى اللغة ، وضع الذهب فى النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص ؟ وأنها أطلقت فى القرآن على أربعة معان :

الأول : أطلاقها على الإحراق بالنار كقوله تعالى (يوم هم على النار يفتنون)

وقوله تعالى (الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أى حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين . وقد اختاره بعض المحققين .

المعنى الثانى : إطلاق الفتنة على الاختبار، وهذا هو أكثرها استعمالا كقوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقوله تعالى (وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

الثالث : إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة ، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال كقوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أى حتى لا يبقى شرك ، وهذا التفسير الصحيح ، دل عليه الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقد دل عليه فى قوله بعده فى البقرة (ويكون الدين لله) وفى الأنفال (ويكون الدين كله لله) فإنه يوضح أن معنى : لا تكون فتنة ، أى لا يبقى شرك ، لأن الدين لا يكون كله لله ، مادام فى الأرض مشرك كما ترى .

وأما السنة ففى قوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله » الحديث. فقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية التى ينتهى إليها قتاله للناس ، هى شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو واضح فى أن معنى: لا تكون فتنة : لا يبقى شرك ، فالآية والحديث كلاهما دال على أن الغاية التى ينتهى إليها قتال الكفار هى ألا يبقى فى الأرض شرك ، إلا أنه تعالى فى الآية عبر عن هذا المعنى بقوله (حتى لا تكون فتنة) وقد عبر صلى الله عليه وسلم عنه بقوله « حتى يشهدوا ألا إله إلا الله » فالغاية فى الآية والحديث واحدة فى المعنى ، كما ترى .

الرابع : هو إطلاق الفتنة على الحجة فى قوله تعالى (ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) أى لم تكن حجتهم ، كما قاله غير واحد . والعلم عند الله تعالى . . . .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ .

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن نبى الله صالحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام نفعه الله بنصرة وليه : أى أوليائه لأنه مضاف إلى معرفة ، ووجه نصرتهم له ، أن التسعة المذكورين فى قوله تعالى : (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا) أى تحالفوا بالله ، لنبيتنه : أى لنباغتنه بياتاً : أى ليلا فنقتله ونقتل أهله معه (ثم لنقولن لوليه) أى أوليائه وعصبته (ماشهدنا مهلك أهله) أى ولا مهلكه هو ، وهذا يدل على أنهم لا يقدرون أن يقتلوه علناً ، لنصرة أوليائه له ، وإنكارهم شهود مهلك أهله دليل على خوفهم من أوليائه . والظاهر أن هذه النصرة عصبية نسبية لا تمت إلى الدين بصلة ، وأن أولياءه ليسوا مسلمين .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا المعنى فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك) الآية . وفى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقوله تعالى فى هذه الآية : تقاسموا التحقيق أنه فعل أمر محكى بالقول . وأجاز الزمخشرى ، وابن عطية أن يكون ماضيا فى موضع الحال ، والأول هو الصواب إن شاء الله ، ونسبه أبو حيان للجمهور ، وقوله فى هذه الآية : وإنا لصادقون ، التحقيق فيه أنهم كاذبون فى قولهم : وإنا لصادقون كما لا يخفى ، وبه تعلم أن ما تكلفه الزمخشرى فى الكشاف من كونهم صادقين

لا وجه له كما نبه عليه أبو حيان ، وأوضحه وقرأ عامة السبعة غير حمزة والكسائى لنبيتنه بالنون المضمومة بعد اللام ، وفتح الفوقية المثناة التى بعد التحتية المثناة ، وقرأ حمزة والكسائى : لتبيتنه بالتاء الفوقية المضمومة بعد اللام ، وضم التاء الفوقية التى بعد الياء التحتية ، وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائى : ثم لنقولن بالنون المفتوحة ، موضع التاء ، وفتح اللام الثانية ، وقرأ حمزة والكسائى ثم لتقولن بفتح التاء الفوقية بعد اللام الأولى ، وضم اللام الثانية ، وقرأ عاصم : مهلك أهله بفتح الميم ، والباقون بضمها ، وقرأ حفص عن عاصم : مهلك بكسر اللام والباقون بفتحها .

فتحصل أن حفصاً عن عاصم قرأ مهلك بفتح الميم وكسر اللام ، وأن أبا بكر أعنى شعبة قرأ عن عاصم : مهلك بفتح الميم واللام ، وأن غير عاصم قرأ مهلك أهله بضم الميم وفتح اللام ، فعلى قراءة من قرأ مهلك بفتح الميم ، فهو مصدر ميمى من هلك الثلاثى ، ويحتمل أن يكون اسم زمان أو مكان . وعلى قراءة من قرأ مهلك بضم الميم ، فهو مصدر ميمى من أهلك الرباعى ، ويحتمل أن يكون أيضاً اسم مكان أو زمان .

قوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآيات الكريمة ثلاثة أمور :

الأول : أنه دمر جميع قوم صالح ، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وذلك فى قوله : (أنا مادمرناهم وقومهم أجمعين)

أى وهم قوم صالح وثمود (فتلك بيوتهم خاوية) أى خالية من السكان لهلاك جميع أهلها (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم الذى هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التى جعلها آية لهم . وقال بعضهم : خاوية : أى ساقطا أعلاها على أسفلها .

الثانى : أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية : أى عبرة يتعظ بها من بعدهم ، فيحذر من الكفر ، وتكذيب الرسل ، لئلا ينزل به مما نزل بهم من التدمير . وذلك فى قوله : (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) .

الثالث : أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب ، وهم نبى الله صالح ومن آمن به من قومه ، وذلك فى قوله تعالى : (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهذه الأمور الثلاثة التى ذكرها جل وعلا هنا جاءت موضحة فى آيات أخر .

أما إنجاؤه نبيه صالحا ، ومن آمن به وإهلاكه ثمود ، فقد أوضحه جل وعلا فى مواضع من كتابه كقوله فى سورة هود (ولما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) . وآية هود هذه قد بينت أيضاً التدمير المجمل فى آية النمل هذه ، فالتدمير المذكور فى قوله تعالى : (أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) بينت آية هود أنه الإهلاك بالصيحة ، فى قوله تعالى : (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى وهم موتى ، وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية ، فقد أوضحه أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فيهم (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو . وابن عامر : إنا دمرناهم بكسر همزة ،

إنا على الاستئناف ، وقرأه الكوفيون وهم : عاصم وحمزة والكسائى : أنا دمرناهم بفتح همزة أنا وفى إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها على قراءة الكوفيين أوجه : منها . أنه بدل من عاقبة مكرهم ، ومنها : أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره هى : أى عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم .

وهذان الوجهان ، هما أقرب الأوجه عندى للصواب ، ولذا تركنا غيرهما من الأوجه ، والضمير فى قوله : مكرهم وفى قوله : دمرناهم راجع إلى التسعة المذكورين ، فى قوله تعالى · (وكان فى المدينة تسعة رهط) الآية . وقوله : (خاوية) حال من بيوتهم ، والعامل فيه الإشارة الكامنة فى معنى تلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات التى فيها إيضاح قصة لوط وقومه فى سورة هود فى الكلام على قصة لوط وقومه ، وبينا هناك كلام أهل العلم ومناقشة أدلتهم فى عقوبة فاعل فاحشة اللواط ، وذكرنا الآيات المبينة لها أيضاً فى سورة الحجر فى الكلام على قصة لوط وقومه ، وذكرنا بعض ذلك فى سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ الآيات .

قد أوضحنا ما تضمنته من البراهين على البعث فى أول سورة البقرة ، وأول سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية ، وفى مواضع أخر .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

أظهر أقوال أهل العلم عندى فى هذه الآية الكريمة أن المعنى : بل ادراك علمهم : أى تكامل علمهم فى الآخرة ، حين يعاينونها أى يعلمون فى الآخرة علما كاملا ، ما كانوا يجهلونه فى الدنيا ، وقوله : (بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) أى فى دار الدنيا ، فهذا الذى كانوا يشكون فيه فى دار الدنيا ، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل ، يعلمونه فى الآخرة علما كاملا لا يخالجه شك ، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث ، والجزاء .

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين فى الآية لأن القرآن دل عليه دلالة واضحة فى آيات متعددة كقوله تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) فقوله : أسمع بهم ، وأبصر يوم يأتوننا بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذى كانوا ينكرونه يوم يأتوننا : أى يوم القيامة ، وهذا يوضح معنى قوله (بل ادارك علمهم فى الآخرة) أى تكامل علمهم فيها لمبالغتهم فى سمع الحق وإبصاره فى ذلك الوقت . وقوله : (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) يوضح معنى قوله : (بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) لأن ضلالهم المبين اليوم : أى فى دار الدنيا ، هو شكهم فى الآخرة ، وعماهم عنها . وكقوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أى علمك اليوم بما كنت تنكره فى الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد : أى قوى كامل .

وقد بينا فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] فى سورة الشورى ، فى الجواب عما يتوهم من التعارض بين قوله تعالى : (ينظرون من طرف خفى) ، وقوله تعالى : (فبصرك اليوم حديد) أن المراد بحدة البصر فى ذلك اليوم : كمال العلم وقوة المعرفة . وقوله تعالى : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فقوله : إنا موقنون : أى يوم القيامة ، يوضح معنى قوله هنا : (بل ادارك علمهم فى الآخرة) ، وكقوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) فعرضهم على ربهم صفا يتدارك به علمهم ، لما كانوا ينكرونه . وقوله : (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) صريح فى أنهم فى الدنيا كانوا فى شك وعمى عن البعث والجزاء ، كما ترى إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم أن قوله : بل ادارك فيه اثنتا عشرة قراءة اثنتان منها فقط سبعيتان ، فقد قرأه عامة السبعة ، غير ابن كثير وأبى عمرو : بل ادارك بكسر اللام من بل وتشديد الدال بعدها ألف والألف التى قبل الدال همزة وصل ، وأصله تدارك بوزن : تفاعل : وقد قدمنا وجه الإدغام ، واستجلاب همزة الوصل فى تفاعل وتفعل وأمثلة ذلك فى القرآن ، وبعض شواهده العربية فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (فإذا هى تلقف ما يأفكون) وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو : بل أدرك بسكون اللام من بل ، وهمزة قطع مفتوحة ، مع سكون الدال على وزن : أفعل .

والمعنى على قراءة الجمهور : بل ادارك علمهم : أن تدارك بمعنى : تكامل . كقوله : (حتى إذا ادارکوا فيها جميعا) وعلى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو : بل أدرك .

قال البغوى : أى بلغ ولحق . كما يقال أدركه علمى إذا لحقه وبلغه ، والإضراب فى قوله تعالى : (بل ادارك ، بل هم فى شك ، بل هم منها عمون) إضراب انتقالى ، والظاهر أن من فى قوله تعالى : (بل هم منها عمون) بمعنى عن ، وعمون جمع عم ، وهو الوصف من عمى يعمى فهو أعمى وعم ، ومنه قوله تعالى : (إنهم كانوا قوما عمين) وقول زهير فى معلقته :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

ومن ذلك اختلافهم فى عيسى ، فقد قدمنا فى سورة مريم ادعاءهم على أمه الفاحشة ، مع أن طائفة منهم آمنت به ، كما يشير إليه قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) والطائفة التى آمنت قالت الحق فى عيسى ، والتى كفرت افترت عليه ، وعلى أمه . كما تقدم إيضاحه فى سورة مريم .

وقد قص الله عليهم فى سورة مريم وسورة النساء وغيرهما حقيقة عيسى ابن مريم ، وهى : أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، ولما بين لهم حقيقة أمره مفصلة فى سورة مريم قال ذلك عيسى ابن مريم (قول الحق الذى فيه يمترون) وذلك يبين بعض ما دل عليه قوله تعالى هنا : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

اعلم أن التحقيق الذى دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن ، أن معنى قوله هنا : إنك لا تسمع الموتى لا يصح فيه من أقوال العلماء ، إلا تفسيران :

الأول أن المعنى : إنك لا تسمع الموتى : أى لا تسمع الكفار ، الذين أمات الله قلوبهم ، وكتب عليهم الشقاء فى سابق علمه إسماع هدى وانتفاع ، لأن الله كتب عليهم الشقاء ، فختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على قلوبهم الأكنة ، وفى آذانهم الوقر ، وعلى أبصارهم الغشاوة ، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع : ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا أنه جل وعلا قال بعده : (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى : إنك لا تسمع الموتى : أى الكفار الذين هم أشقياء فى علم الله إسماع هدى وقبول للحق كما تسمع ذلك الإسماع ، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ، فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفى فى الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها ، لمن يؤمن بآياته ، فهو مسلم دليل واضح على أن المراد بالموت فى الآية : موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الروح للبدن ، ولو كان المراد بالموت فى قوله : (إنك لا تسمع الموتى) مفارقة الروح للبدون لما قابل قوله : إنك لا تسمع الموتى بقوله : إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ، بل لقابله

بما يناسبه كأن يقال : إن تسمع إلا من لم يمت : أى يفارق روحه بدنه كما هو واضح .

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المواد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول .

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) ، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى فى قوله : والموتى يبعثهم الله : الكفار ، ويدل له مقابلة الموتى فى قوله : والموتى يبعثهم الله بالذين يسمعون فى قوله : (إنما يستجيب الذين يسمعون) ويوضح ذلك قوله تعالى قبله : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية) أى فافعل ، ثم قال : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ، إنما يستجيب الذين يسمعون) الآية ، وهذا واضح فيما ذكرنا ، ولو كان يراد بالموتى من فارقت أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم كأن يقال : إنما يستجيب الأحياء : أى الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم . وكقوله تعالى : (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) .

فقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : أو من كان ميتاً : أى كافراً ، فأحييناه : أى بالإيمان والهدى . وهذا لانزاع فيه ، وفيه إطلاق الموت ، وإرادة الكفر بلا خلاف . وكقوله : لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) . وكقوله تعالى : (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى لا يستوى المؤمنون والكافرون .

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) الآية . وما فى معناها من الآيات كلها ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) الآية . وقوله تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) الآية . وقوله : (ولا تحزن عليهم) الآية . وقوله تعالى : (فلا تأس على القوم الكافرين) ، وكقوله تعالى : (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) الآية . وقوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقوله تعالى : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) إلي غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه . ولما كان يحزنه كفرهم ، وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له صلى الله عليه وسلم بين له فيها : أنه لا قدرة له صلى الله عليه وسلم على هدى من أضله الله ، فإن الهدى والإضلال بيده جل وعلا وحده وأوضح له أنه نذير ، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم .

ومن الآيات النازلة تسلية لهصلى الله عليه وسلم قوله هنا : (إنك لا تسمع الموتى) أى لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا يعنى ما تسمع إسماع هدى وقبول ، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون .

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) الآية ، وقوله تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وقوله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) الآية . وقوله تعالى : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا

مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) إلى غير ذلك من الآيات ، ولو كان معنى الآية ، وما شابهها : إنك لا تسمع الموتى : أى الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان فى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ، كما ترى .

واعلم أن آية النمل هذه جاءت آيتان أخريان بمعناها :

الأولى منهما : قوله تعالى فى سورة الروم : (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ولفظ آية الروم هذه كلفظ آية النمل التى نحن بصددها ، فيكفى فى بيان آية الروم ما ذكرنا فى آية النمل .

والثانية منهما قوله تعالى فى سورة فاطر : (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) وآية فاطر هذه كآية النمل والروم المتقدمتين ، لأن المراد بقوله : فيها من فى القبور الموتى ، فلا فرق بين قوله : (إنك لا تسمع الموتى) وبين قوله : (وما أنت بمسمع من فى القبور) لأن المراد بالموتى ومن فى القبور واحد كقوله تعالى : (وأن الله يبعث من فى القبور) أى يبعث جميع الموتى من قبر منهم ومن لم يقبر ، وقد دلت قرائن قرآنية أيضاً على أن معنى آية : فاطر هذه كمعنى آية الروم ، منها قوله تعالى قبلها : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) الآية ، لأن معناها : لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووفقه فصار ممن يخشى ربه بالغيب ، ويقيم الصلاة وما أنت بمسمع من فى القبور : أى الموتى أى الكفار الذين سبق لهم الشقاء كما تقدم . ومنها قوله تعالى أيضا : (وما يستوى الأعمى والبصير) أى المؤمن والكافر . وقوله تعالى قبلها : (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى المؤمنون والكفار . ومنها قوله تعالى بعد : (إن أنت إلا نذير) أى ليس الإضلال والهدى بيدك ما أنت إلا نذير : أى وقد بلغت .

التفسير الثانى : هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل ، ولكن المراد بالسماع المنفى فى قوله (إنك لا تسمع الموتى) خصوص السماع المعتاد الذى ينتفع صاحبه به ، وأن هذا مثل ضرب للكفار ، والكفار يسمعون الصوت ، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع كما قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) ، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكفار ، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذى ينتفعون به ، وأما سماع آخر فلا ، وهذا التفسير الثانى جزم به واقتصر عليه العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله فى هذا المبحث .

وهذا التفسير الأخير دلت عليه أيضاً آيات من كتاب الله جاء فيها التصريح بالبكم والصمم والعمى مسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ، والمراد بصممهم صممهم عن سماع ماينفعهم ، دون غيره ، فهم يسمعون غيره ، وكذلك فى البصر والكلام ، وذلك كقوله تعالى فى المنافقين : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) . فقد قال فيهم صم بكم مع شدة فصاحتهم ، وحلاوة ألسنتهم كما صرح به فى قوله تعالى فيهم (وإن يقولوا تسمع لقولهم) أى لفصاحتهم وقوله تعالى (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم (وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بألسنة حداد) هم الذين قال الله فيهم (صم بكم عمى) وما ذلك ، إلا أن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شىء خاص ، وهو ماينتفع به من الحق ، فهذا وحده هو الذى صموا عنه : فلم يسمعوه ، وبكموا عنه فلم ينطقوا به ، وعموا عنه فلم يروه مع أنهم يسمعون غيره ويبصرونه ، وينطقون به كما قال تعالى : (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء) الآية ، وهذا واضح كما ترى .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح مع شواهده العربية فى كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، فى سورة البقرة فى الكلام على وجه الجمع بين قوله فى المنافقين : (صم بكم عمى) مع قوله فيهم : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) وقوله فيهم : (سلقوكم بألسنة حداد) وقوله فيهم أيضا : (وإن يقولوا تسمع لقولهم) ، وقد أوضحنا هناك أن العرب تطلعه الصمم وعدم السماع على السماع ، الذى لا فائدة فيه ، وذكرنا بعض الشواهد العربية على ذلك .

مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة

اعلم أن الذى يقتضى الدليل رجحانه هو أن الموتى فى قبورهم يسمعون كلام من كلمهم ، وأن قول عائشة رضى الله عنها ومن تبعها : إنهم لا يسمعون استدلالا بقوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) وما جاء بمعناها من الآيات غلط منها رضى الله عنها ، وممن تبعها .

وإيضاح كون الدليل يقتضى رجحان ذلك مبنى على مقدمتين .

الأولى منهما : أن سماع الموتى ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أحاديث متعددة ، ثبوتا لا مطعن فيه . ولم يذكر صلى الله عليه وسلم أن ذلك خاص بإنسان ولا بوقت .

والمقدمة الثانية : هى أن النصوص الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم فى سماع الموتى لم يثبت فى الكتاب ولا فى السنة شىء يخالفها ، وتأويل عائشة رضى الله عنها بعض الآيات ، على معنى يخالف الأحاديث المذكورة ، لا يجب الرجوع إليه . لأن غيره فى معنى الآيات أولى بالصواب منه ، فلا ترد النصوص الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم بتأول بعض الصحابة بعض الآيات ، وسنوضح هنا إن

شاء الله صحة المقدمتين المذكورتين ، وإذا ثبت بذلك أن سماع الموتى ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من غير معارض صريح . علم بذلك رجحان ما ذكرنا ، أن الدليل يقتضى رجحانه .

أما المقدمة الأولى وهى ثبوت سماع الموتى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قال البخارى فى صحيحه : حدثنى عبد الله بن محمد ، سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى طلحة : « أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه ، وقالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان : أى سركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قال فقال عمر : يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماتكلم من أجساد لا أرواح لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » قال قتادة أحياهم الله له ، حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيرا ونقمة وحسرة ، وندما . فهذا الحديث الصحيح أقسم فيه النبى صلى الله عليه وسلم : أن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع لما يقول صلى الله عليه وسلم من أولئك الموتى بعد ثلاث. وهو نص صحيح صريح فى سماع الموتى ، ولم يذكر صلى الله عليه وسلم فى ذلك تخصيصا ، وكلام قتادة الذى ذكره عنه البخارى اجتهاد منه فيما يظهر .

وقال البخارى فى صحيحه أيضا : حدثنى عثمان ، حدثنا عبدة عن هشام ، عن أبيه ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « وقف النبى صلى الله عليه وسلم

على قليب بدر فقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول . فذكر لعائشة فقالت إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت : إنك لا تسمع الموتى حتى قرأت الآية) » انتهى من صحيح البخارى . وقد رأيته أخرج عن صحابيين جليلين ، هما ابن عمر ، وأبو طلحة تصريح النبى صلى الله عليه وسلم بأن أولئك الموتى يسمعون ما يقول لهم ، ورد عائشة لرواية ابن عمر بما فهمت من القرآن مردود كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

وقد أوضحنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أن ردها على ابن عمر أيضا روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن الميت يعذب ببكاء أهله بما فهمت من الآية مردود أيضا ، وأوضحنا أن الحق مع ابن عمر فى روايته لا معها فيما فهمت من القرآن . وقال البخارى فى صحيحه أيضا : حدثنا عياش ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا سعيد ، قال : وقال لى خليفة : حدثنا ابن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا فى الجنة » الحديث ، وقد رأيت فى هذا الحديث الصحيح ، تصريح النبى صلى الله عليه وسلم ، بأن الميت فى قبره ، يسمع قرع نعال من دفنوه إذا رجعوا ، وهو نص صحيح صريح فى سماع الموتى ، ولم يذكر صلى الله عليه وسلم فيه تخصيصاً .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه : حدثنى إسحاق بن عمر بن سليط الهذلى ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال : قال أنس : كنت مع عمر

(ح) وحدثنا شيبان بن فروخ واللفظ له : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت، عن أنس بن مالك قال : كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال. الحديث. وفيه : فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله . قال: فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما اخطأوا الحدود التى حد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم ، فقال يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإنى قد وجدت ماوعدنى الله حقا . قال عمر : يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف نكلم أجسادا لا أرواح فيها ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئا » حدثنا هداب بن خالد : حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال : يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، ياعتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعدكم الله حقا ، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا ، فسمع عمر قول النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يسمعوا ، وأنى يجيبوا وقد جيفوا ؟ قال : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا . ثم أمر بهم فسحبوا فالقوا فى قليب بدر » ثم ذكر مسلم بعد هذا رواية أنس عن أبى طلحة ، التى ذكرناها عن البخارى ، فترى هذه الأحاديث الثابتة فى الصحيح عن عمر وابنه أنس وأبى طلحة رضى الله عنهم ، فيها التصريح من النبى صلى الله عليه وسلم ، بأن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع من أولئك الموتى لما يقوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقسم صلى الله عليه سلم على ذلك ولم يذكر تخصيصا ، وقال مسلم رحمه الله فى صحيحه أيضا : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا يونس ابن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك

قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه » الحديث. وفيه تصريح النبي صلى الله عليه وسلم بسماع الميت في قبره قرع النعال وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى ، وظاهره العموم في كل من دفن وتولى عنه قومه ، كما ترى .

ومن الأحاديث الدالة على عموم سماع الموتى ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ويحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد قال : يحيى بن يحيى : أخبرنا وقال الآخران : حدثنا إسماعيل ابن جعفر عن شريك ، وهو ابن أبي نمر ، عن عطاء بن يسار ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ماتوعدون غدا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » ، ولم يقم قتيبة قوله : وأتاكم ما توعدون ، وفي رواية في صحيح مسلم عنها قالت: كيف أقول لهم يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال قولي: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » ثم قال مسلم رحمه الله : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، وزهير بن حرب قالا : حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول في رواية أبي بكر : السلام على أهل الديار وفي رواية زهير: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » انتهى من صحيح مسلم . وخطابه صلى الله عليه وسلم لأهل القبور بقوله :

« السلام عليكم » وقوله : « وإنا إن شاء الله بكم » ، ونحو ذلك يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم ولا شك أن ذلك ليس من شأن العقلاء فمن البعيد جدا صدوره منه صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى إن شاء الله ذكر حديث عمرو بن العاص الدال على أن الميت فى قبره يستأنس بوجود الحى عنده .

وإذا رأيت هذه الأدلة الصحيحة الدالة على سماع الموتى ، فاعلم أن الآيات القرآنية كقوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) وقوله : (وما أنت بمسمع من فى القبور) لا تخالفها . وقد أوضحنا الصحيح من أوجه تفسيرها وذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه ، وأن استقراء القرآن يدل عليه .

وممن جزم بأن الآيات المذكورة لا تنافى الأحاديث الصحيحة التى ذكرنا أبو العباس ابن تيمة رحمه الله فقد قال فى الجزء الرابع من مجموع الفتاوى من صحيفة خمس وتسعين ومائتين إلى صحيفة تسع وتسعين ومائتين ما نصه : وقد تعاد الروح إلى البدن فى غير وقت المسألة كما فى الحديث الذى صححه ابن عبد البر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر الرجل الذى كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وفى سنن أبى داود وغيره عن أوس بن أبى أوس الثقفى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن خير أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علىّ من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة على قالوا يارسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ، ما يضيق هذا الوقت عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التى فى القبور تنعم وتعذب إذا شاء الله ذلك كما يشاء وأن الأرواح باقية بعد

مفارقة البدن ومنعمة أو معذبة . ولذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام على الموتى ، كما ثبت فى الصحيح والسنن : أنه كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا صوت المعذبين فى قبورهم ، ورأوهم بعيونهم ، يعذبون فى قبورهم فى آثار كثيرة معروفة ، ولكن لا يجب أن يكون دائماً على البدن فى كل وقت ، بل يجوز أن يكون فى حال .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية ابن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة : أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإننى وجدت ماوعدنى ربى حقا . فسمع عمر رضى الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يسمعون وقد جيفوا ؟ فقال : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر » وقد أخرجاه فى الصحيحين ، عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ، فقال : « هل وجدتم ماوعد كم ربكم حقا ؟ وقال إنهم ليسمعون الآن ما أقول . فذكر ذلك لعائشة فقالت : وهم ابن عمر ، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم ليعلمون الآن أن الذى قلت لهم هو الحق ثم قرأت قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) حتى قرأت الآية » .

وأهل العلم بالحديث اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر وإن كانا لم يشهدا بدرا ، فإن أنساً روى ذلك عن أبى طلحة ، وأبو طلحة شهد بدراً كما

روى أبو حاتم فى صحيحه ، عن أنس ، عن أبى طلحة رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر ، وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم فى عرصتهم ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها فركبها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، وقالوا ما نراه ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفاء الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم : يافلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، قال عمر بن الخطاب : يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماتكلم من أجساد ولا أرواح فيها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم توبيخاً ، وتصغيراً ، ونقمة ، وحسرة ، وتنديماً ، وعائشة . قالت فيما ذكرته كما تأولت .

والنص الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم مقدم على تأويل من تأول من أصحابه وغيره ، وليس فى القرآن ما ينفى ذلك . فإن قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) ، إنما أراد به السماع المعتاد الذى ينفع صاحبه ، فإن هذا مثل ضربه الله للكفار ، والكفار تسمع الصوت ، لكن لا تسمع سماع قبول يفقه ، وانتباع كما قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) ، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السماع ، بل السماع المعتاد كما لم ينف ذلك عن الكفار ، بل انتفى عنهم السماع المعتاد الذى ينتفعون به . وأما سماع آخر فلا ينفى عنهم. وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعالهم ، إذا ولوا مدبرين ، فهذا موافق لهذا فكيف يرفع ذلك . انتهى محل الغرض من كلام أبى العباس ابن تيمية رحمه الله ، وقد تراه صرح فيه بأن تأول عائشة لا يرد به النص الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ،

وأنه ليس فى القرآن ما ينفى السماع الثابت للموتى فى الأحاديث الصحيحة .

وإذا علمت به أن القرآن ليس فيه ماينفى السماع المذكور ، علمت أنه ثابت بالنص الصحيح ، من غير معارض .

والحاصل : أن تأول عائشة رضى الله عنها بعض آيات القرآن ، لا ترد به روايات الصحابة العدول الصحيحة الصريحة عنه صلى الله عليه وسلم ، ويتأكد ذلك بثلاثة أمور :

الأول : هو ما ذكرناه الآن من أن رواية العدل لا ترد بالتأويل .

الثانى :أن عائشة رضى الله عنها لما أنكرت رواية ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم إنهم ليسمعون الآن ما أقول . قالت : إن الذى قاله صلى الله عليه وسلم : إنهم ليعلمون الآن أن الذى كنت أقول لهم هو الحق ، فأنكرت السماع ونفته عنهم ، وأثبتت لهم العلم ، ومعلوم أن من ثبت له العلم صح منه السماع كما نبه عليه بعضهم .

الثالث : هو ما جاء عنها مما يقتضى رجوعها ، عن تأويلها المذكور إلى الروايات الصحيحة .

قال ابن حجر فى فتح البارى : ومن الغريب أن فى المغازى لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد ، عن عائشة مثل حديث أبى طلحة وفيه : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ، وأخرجه أحمد بإسناد حسن . فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة ، لكونها لم تشهد القصة. انتهى منه ، واحتمال رجوعها لما ذكر قوى،لأن مايقتضى رجوعها ثبت بإسنادين .

قال ابن حجر : إن أحدهما جيد . والآخر حسن ، ثم قال ابن حجر : قال

الإسماعيلى : كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ، ما لامزيد عليه ، لكن لاسبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه ، أواستحالته . انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر .

وقال ابن القيم فى أول كتاب الروح : المسألة الأولى : وهى هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟ قال ابن عبد البر : ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «مامن مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » فهذا نص فى أنه يعرفه بعينه ، ويرد عليه السلام .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلى بدر ، فألقوا فى قليب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم « يافلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا ، فقال له عمر : يارسول الله : ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ، فقال : والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون جوابا » وثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبى صلى الله عليه وسلم لأمته إذا سلموا على أهل القبور ، أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم أن الميت يعرف زيارة الحى له ، ويستبشر له : قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور :

باب فى معرفة الموتى بزيارة الأحياء

حدثنا محمد بن عون ، حدثنا يحيى بن يمان ، عن عبد الله بن سمعان ، عن زيد بن أسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » حدثنا محمد بن قدامة الجوهرى ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، أخبرنا هشام بن سعد ، حدثنا زيد بن أسلم ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام » .

وذكر ابن القيم رحمه الله فى كلام أبى الدنيا وغيره آثاراً تقتضى سماع الموتى ، ومعرفتهم لمن يزورهم ، وذكر فى ذلك مرائى كثيرة جداً ، ثم قال : وهذه المرائى ، وإن لم تصلح بمجردها لإثبات مثل ذلك ، فهى على كثرتها ، وأنها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى العشر الأواخر » يعنى ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شىء ، كان كتواطىء روايتهم له ، ومما قاله ابن القيم رحمه الله فى كلامه الطويل المذكور وقد ثبت فى الصحيح : أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه ، فروى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن ابن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياق الموت ، فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار الحديث ، وفيه : فإذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار ، فإذا دفنتمونى ، فسنوا على التراب سنا ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ماتنحر الجزور ، ويقسم لحمها ، حتى استأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى ، فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم له .

ومعلوم أن هذا الحديث له حكم الرفع ، لأن استئناس المقبور بوجود الأحياء عند قبره لامجال للرأى فيه . ومما قاله ابن القيم فى كلامه الطويل المذكور، ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائراً ، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره ، لم يصح أن يقال: زاره ، وهذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم . وكذلك السلام عليهم أيضاً ، فإن السلام على من لايشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين . نسأل الله لنا ولكم العافية » وهذا السلام ، والخطاب ، والنداء لموجود يسمع ، ويخاطب ، ويعقل ، ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

ومما قاله ابن القيم فى كلامه الطويل قوله : وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلى على هذا فقال : ذكر ماجاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ، ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال : ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم « مامن رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ويروى من حديث أبى هريرة مرفوعاً قال : « فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام » قال ويروى من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم » ، واحتج الحافظ أبو محمد فى هذا الباب بما رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » ثم ذكر ابن القيم عن عبد الحق وغيره مرائى ، وآثاراً فى الموضوع ثم قال فى كلامه الطويل ،

ويدل على هذا أيضاً ماجرى عليه عمل الناس قديماً ، وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة ، وكان عبثاً . وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه ، واحتج عليه بالعمل .

ويروى فيه حديث ضعيف : ذكر الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره فيقول : يافلان ابن فلانة » الحديث . وفيه : اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً » الحديث . ثم قال ابن القيم رحمه الله : فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف في العمل به ، وما أجرى الله سبحانه العادة قط ، بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، وهي أكمل الأمم عقولا ، وأوفرها معارف تطبق على مخاطبة من لايسمع ، وتستحسن ذلك لاينكره منها منكر بل سنه الأول للآخر ، ويقتدي فيه الآخر بالأول ، فلولا أن الخطاب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم ، وهذا وإن استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لابأس به « أن النبي صلى الله عليه وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال : سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل » فأخبر أنه يسأل حينئذ ، وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا مدبرين ، ثم ذكر ابن القيم رحمه الله قصة الصعب بن جثامة ، وعوف بن مالك ، وتنفيذ عوف لوصية الصعب له في المنام بعد موته ، وأثنى على عوف بن مالك بالفقه في تنفيذه وصية الصعب بعد موته لما علم صحة ذلك بالقرائن ، وكان في الوصية التي نفذها عوف

إعطاء عشرة دنانير ليهودى من تركة الصعب كانت ديناً له عليه ، ومات قبل قضائها .

قال ابن القيم : وهذا من فقه عوف بن مالك رضى الله عنه ، وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد موته ، وعلم صحة قوله بالقرائن التى أخبره بها . من أن الدنانير عشرة وهى فى القرن ، ثم سأل اليهودى فطابق قوله مافى الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر ، فأعطى اليهودى الدنانير ، وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل أكثر المتأخرين ينكر ذلك ، ويقول : كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعب ، وهى لأيتامه وورثته إلى يهودى بمنام ، ثم ذكر ابن القيم رحمه الله تنفيذ خالد وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما وصية ثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه بعد موته ، وفى وصيته المذكورة قضاء دين عينه لرجل فى المنام ، وعتق بعض رقيقه ، وقد وصف للرجل الذى رآه فى منامه الموضع الذى جعل فيه درعه الرجل الذى سرقها ، فوجدوا الأمر كما قال ، وقصته مشهورة .

وإذا كانت وصية الميت بعد موته قد نفذها فى بعض الصور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك يدل على أنه يدرك ويعقل ويسمع ، ثم قال ابن القيم رحمه الله فى خاتمة كلامه الطويل : والمقصود جواب السائل وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها ، فمعرفته بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى اهـ .

فكلام ابن القيم هذا الطويل الذى ذكرنا بعضه جملة وبعضه تفصيلا فيه من الأدلة المقنعة ما يكفى فى الدلالة على سماع الأموات ، وكذلك الكلام الذى نقلنا عن شيخه أبى العباس بن تيمية رحمهما الله تعالى وفى كلامهما الذى نقلنا عنهما أحاديث صحيحة ، وآثار كثيرة ، ومرائى متواترة وغير ذلك ، ومعلوم أن ما ذكرنا فى كلام ابن القيم من تلقين الميت بعد الدفن ، أنكره بعض أهل العلم ، وقال إنه بدعة ، وأنه لادليل عليه ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد وأنه

لم يعمل به إلا أهل الشام ، وقد رأيت ابن القيم رحمه الله استدل له بأدلة : منها : أن الإمام أحمد رحمه الله سئل عنه ، فاستحسنه ، واحتج عليه بالعمل . ومنها : أن عمل المسلمين اتصل به فى سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار . ومنها : أن الميت يسمع قرع نعال الدافنين ، إذا ولوا مدبرين ، واستدلاله رحمه الله بهذا الحديث الصحيح استدلال قوى جداً ، لأنه إذا كان فى ذلك الوقت يسمع قرع النعال ، فلأن يسمع الكلام الواضح بالتلقين من أصحاب ، النعال أولى وأحرى ، واستدلاله لذلك بحديث أبى داود « سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل » له وجه من النظر ، لأنه إذا كان يسمع سؤال السائل فإنه يسمع تلقين الملقن . والله أعلم .

والفرق بين سماعه سؤال الملك وسماعه التلقين من الدافنين محتمل احتمالا قوياً ، وما ذكره بعضهم من أن التلقين بعد الموت لم يفعله إلا أهل الشام ، يقال فيه : إنهم هم أول من فعله ، ولكن الناس تبعوهم فى ذلك كما هو معلوم عند المالكية والشافعية . قال الشيخ الحطاب فى كلامه على قول خليل بن إسحاق المالكى فى مختصره ، وتلقينه الشهادة : وجزم النووى باستحباب التلقين بعد الدفن . وقال الشيخ زروق فى شرح الرسالة والإرشاد ، وقد سئل عنه أبو بكر ابن الطلاع من المالكية ، فقال : هو الذى نختاره ونعمل به ، وقد روينا فيه حديثاً عن أبى أمامة ليس بالقوى ، ولكنه اعتضد بالشواهد ، وعمل أهل الشام قديماً إلى أن قال : وقال فى المدخل : ينبغى أن يتفقده بعد انصراف الناس عنه ، من كان من أهل الفضل والدين ، ويقف عند قبره تلقاء وجهه ويلقنه ، لأن الملكين عليهما السلام ، إذ ذاك يسألانه وهو يسمع قرع نعال المنصرفين .

وقد روى أبو داود فى سننه عن عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » إلى أن قال : وقد كان سيدى أبو حامد

ابن البقال ، وكان من كبار العلماء والصلحاء ، إذا حضر جنازة عزى وليها بعد الدفن ، وانصرف مع من ينصرف ، فيتوارى هنيهة حتى ينصرف الناس ، ثم يأتى إلى القبر ، فيذكر الميت بما يجاوب به الملكين عليهما السلام . انتهى محل الغرض من كلام الحطاب. وما ذكره من كلام أبى بكر بن الطلاع المالكى له وجه قوى من النظر ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى ، ثم قال الحطاب : واستحب التلقين بعد الدفن أيضاً القرطبي والثعالبي وغيرهما ، ويظهر من كلام الأبى فى أول كتاب الجنائز يعنى من صحيح مسلم ، وفى حديث عمرو بن العاص فى كتاب : الإيمان ميل إليه. انتهى من الحطاب . وحديث عمرو بن العاص المشار إليه ، هو الذى ذكرنا محل الغرض منه فى كلام ابن القيم الطويل المتقدم .

قال مسلم فى صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى العنزى ، وأبو معن الرقاشى ، وإسحاق بن منصور ، كلهم عن أبى عاصم واللفظ لابن المثنى : حدثنا الضحاك ، يعنى أباعاصم قال: أخبرنا حيوة بن شريح قال : قال: حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار. الحديث، وقد قدمنا محل الغرض منه بلفظه فى كلام ابن القيم المذكور ، وقدمنا أن حديث عمرو هذا له حكم الرفع ، وأنه دليل صحيح على استئناس الميت بوجود الأحياء عند قبره .

وقال النووى فى روضة الطالبين مانصه : ويستحب أن يلقن الميت بعد الدفن فيقال : يا عبد الله ابن أمة الله اذكر ماخرجت عليه من الدنيا : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأنت رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن

إماماً ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين إخواناً ، ورد به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت: هذا التلقين استحبه جماعات من أصحابنا ، منهم القاضي حسين، وصاحب التتمة ، والشيخ نصر المقدسي في كتابه التهذيب ، وغيرهم ، ونقله القاضي حسين عن أصحابنا مطلقاً. والحديث الوارد فيه ضعيف ، لكن أحاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم من المحدثين وغيرهم ، وقد اعتضد هذا الحديث بشواهد من الأحاديث الصحيحة ، كحديث « اسألوا له التثبيت » ووصية عمرو بن العاص : أقيموا عند قبري قدرما تنحر جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ماذا أراجع به رسل ربي . رواه مسلم في صحيحه ، ولم يزل أهل الشام على العمل بهذا التلقين ، من العصر الأول ، وفي زمن من يقتدى به . اهـ محل الغرض من كلام النووي .

وبما ذكر العلامة ابن القيم وابن الطلاع ، وصاحب المدخل من المالكية ، والنووي من الشافعية ، كما أوضحنا كلامهم تعلم أن التلقين بعد الدفن له وجه قوي من النظر ، لأنه جاء فيه حديث ضعيف ، واعتضد بشواهد صحيحة ، وبعمل أهل الشام قديما ، ومتابعة غيرهم لهم .

وبما علم في علم الحديث من التساهل في العمل بالضعيف، في أحاديث الفضائل ولا سيما المعتضد منها بصحيح ، وإيضاح شهادة الشواهد له أن حقيقة التلقين بعد الدفن مركبة من شيئين :

أحدهما : سماع الميت كلام ملقنه بعد دفنه .

والثاني : انتفاعه بذلك التلقين ، وكلاهما ثابت في الجملة ، أما سماعه لكلام الملقن فيشهد له سماعه لقرع نعل الملقن الثابت في الصحيحين ، وليس سماع كلامه بأبعد من سماع قرع نعله كما ترى . وأما انتفاعه بكلام الملقن فيشهد له انتفاعه بدعاء الحي ، وقت السؤال في حديث « سلوا لأخيكم التثبيت فإنه يسأل

الآن » واحتمال الفرق بين الدعاء والتلقين قوي جداً كما ترى ، فإذا كان وقت السؤال ينتفع بكلام الحي الذي هو دعاؤه له، فإن ذلك يشهد لانتفاعه بكلام الحي الذي هو تلقينه إياه ، وإرشاده إلى جواب الملكين ، فالجميع في الأول سماع من الميت لكلام الحي ، وفي الثاني انتفاع من الميت بكلام الحي وقت السؤال ، وقد علمت قوة احتمال الفرق بين الدعاء والتلقين .

وفي ذلك كله : دليل على سماع الميت كلام الحي ، ومن أوضح الشواهد للتلقين بعد الدفن السلام عليه ، وخطابه خطاب من يسمع ، ويعلم عند زيارته كما تقدم إيضاحه ، لأن كلا منهما خطاب له في قبره ، وقد انتصر ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة الروم في كلامه على قوله تعالى: (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) إلى قوله : (فهم مسلمون) لسماع الموتى وأورد في ذلك كثيراً من الأدلة التي قدمنا في كلام ابن القيم ، وابن أبي الدنيا ، وغيرهما وكثيراً من المرائي الدالة على ذلك ، وقد قدمنا الحديث الدال على أن المرائي إذا تواترت أفادت الحجة . ومما قال في كلامه المذكور ، وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية (فإنك لا تسمع الموتى) على توهيم عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، إلى أن قال : والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لما لها من الشواهد على صحتها ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه » الحديث .

وقد قدمناه في هذا المبحث مراراً وبجميع ما ذكرنا في هـذا المبحث في الكلام على آية النمل هذه تعلم أن الذي يرجحه الدليل: أن الموتى يسمعون سلام الأحياء وخطابهم سواء قلنا : إن الله يرد عليهم أرواحهم، حتى يسمعوا الخطاب

ويردوا الجواب ، أو قلنا : إن الأرواح أيضاً تسمع وترد بعد فناء الأجسام ، لأنا قد قدمنا أن هذا ينبنى على مقدمتين ، ثبوت سماع الموتى بالسنة الصحيحة ، وأن القرآن لا يعارضها على التفسير الصحيح الذى تشهد له القرائن القرآنية ، واستقراء القرآن ، وإذا ثبت ذلك بالسنة الصحيحة من غير معارض من كتاب ، ولا سنة ظهر بذلك رجحانه على تأول عائشة رضى الله عنها ، ومن تبعها بعض آيات القرآن كما تقدم إيضاحه ، وفى الأدلة التى ذكرها العلامة ابن القيم فى كتاب الروح . على ذلك مقنع للمنصف ، وقد زدنا عليها ما رأيت ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

ظاهر هذه الآية الكريمة خصوص الحشر بهذه الأفواج المكذبة بآيات الله ، ولكنه قد دلت آيات كثيرة على عموم الحشر لجميع الخلائق ، كقوله تعالى بعد هذا بقليل (وكل أتوه داخرين) وقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا). وقوله تعالى(ويوم نحشرهم جميعاً) وقوله تعالى (ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] فى آية النمل هذه فى الكلام على وجه الجمع بين قوله تعالى فيها : (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) الآية وبين قوله تعالى (وكل أتوه داخرين) ونحوها من الآيات ، وذكرنا قول الألوسى فى تفسيره أن قوله (وكل أتوه داخرين) فى الحشر العام لجميع الناس للحساب والجزاء . وقوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) الآية .فى الحشر الخاص بهذه الأفواج المكذبة ،لأجل التوبيخ المنصوص

عليه فى قوله هنا (حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما) الآية . وهذا يدل عليه القرآن كما ترى . وقال بعضهم : هذه الأفواج التى تحشر حشراً خاصاً هى رؤساء أهل الضلال وقادتهم ، وعليه فالآية كقوله تعالى : (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) والفوج : الجماعة من الناس . ومنه قوله تعالى : (يدخلون فى دين الله أفواجا) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فهم يوزعون) أى يرد أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، ثم يدفعون جميعاً كما قاله غير واحد .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : أى يسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، ومقصوده بسؤالهم عن اعتقادهم وقوله تعالى (أكذبتم بآياتى) ، لأن التصديق بآيات الله التى هى هذا القرآن . من عقائد الإيمان ، التى لابد منها كما هو معلوم فى حديث جبريل وغيره ، ومقصوده بسؤالهم عن أعمالهم قوله تعالى (أماذا كنتم تعملون) والسؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع ، فقد وبخهم تعالى فيه على فساد الاعتقاد ، وفساد الأعمال ، والتوبيخ عليهما معا المذكور هنا جاء مثله فى قوله تعالى(فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى) كما أشار له ابن كثير رحمه الله فقوله تعالى : فلا صدق ، وقوله : ولكن كذب توبيخ على فساد الاعتقاد . وقوله : ولا صلى : توبيخ على إضاعة العمل .

قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾

الظاهر أن القول الذى وقع عليهم هو كلمة العذاب ، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ونحو ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: (فهم لا ينطقون) ، ظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) وقوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) الآية ، مع أنه بينت آيات أخر من كتاب الله أنهم ينطقون يوم القيامة ، ويعتذرون ، كقوله تعالى عنهم : (والله ربنا ما كنا مشركين) وقوله تعالى عنهم : (فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء) وقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا) الآية. وقوله تعالى عنهم(ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) وقوله تعالى : (ونادوا يا مالك) الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كلامهم يوم القيامة .

وقد بينا الجواب عن هذا فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] فى سورة المراسلات فى الكلام على قوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) وما ذكرنا من الآيات ، فذكرنا أن من أوجه الجواب عن ذلك ، أن القيامة مواطن ، ففى بعضها ينطقون ، وفى بعضها لا ينطقون ، فإثبات النطق لهم ونفيه عنهم كلاهما منزل حال ووقت غير حال الآخر ووقته . ومنها أن نطقهم المثبت لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه ، والنطق المنفى عنهم : خاص بما لهم فيه فائدة ومنها غير ذلك ، وقد ذكر شيئا من أجوبة ذلك فى الفرقان ، وطه والإسراء .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا

فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، ويكون فى الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول ، وذكرنا فى ترجمته أيضا أن من أنواع البيان التى تضمنها الاستدلال على المعنى ، بكونه هو الغالب فى القرآن ، لأن غلبته فيه ، تدل على عدم خروجه من معنى الآية ، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة فى هذا الكتاب المبارك ، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معاً آية النمل هذه .

وإيضاح ذلك : أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) يدل على أن الجبال الآن فى دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة : أى واقفة ساكنة غير متحركة ، وهى تمر مر السحاب ، ونحوه قول النابغة يصف جيشا :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البيان ، يبينان عدم صحة هذا القول .

أما الأول منهما : وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته ، فهو أن قوله تعالى : (وترى الجبال) معطوف على قوله : ففزع ، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات) الآية . أى ويوم ينفخ فى الصور ، فيفزع من فى السماوات ، وترى الجبال. فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ فى الصور لا الآن .

وأما الثانى : وهو كون هذا المعنى هو الغالب فى القرآن فواضح، لأن جميع الآيات التى فيها حركة الجبال كلها فى يوم القيامة ، كقوله تعالى (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا) وقوله تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) وقوله تعالى (وسيرت الجبال فكانت سرابا) وقوله تعالى (وإذا الجبال سيرت) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (صنع الله الذى أتقن كل شىء) جاء نحوه فى آيات كثيرة كقوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وتسيير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسييرها كل ذلك صنع متقن . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إن الله خبير بما تفعلون)

قد قدمنا الآيات التى بمعناه فى أول سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) إلى قوله (إنه عليم بذات الصدور) .

قوله تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾

اعلم أن الحسنة فى هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات .

الأول حسنة . هى فعل خير من أفعال العبد ، كالإنفاق فى سبيل الله ، وبذل النفس والمال فى إعلاء كلمة الله ، ونحو ذلك ومعنى قوله تعالى (فله خير منها)

بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات ، أن الثواب مضاعف ، فهو خير من نفس العمل ، لأن من أنفق درهما واحدا فى سبيل الله فأعطاه الله ثواب سبعمائه درهم فله عند الله ثواب هو سبعمائة درهم مثلا ، خير من الحسنة التى قدمها التى قدمها التى هى إنفاق درهم واحد ، وهذا لا إشكال فيه كما ترى .

وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها ، هى وحدها وكقوله تعالى (وإن تك حسنة يضاعفها) وقوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) الآية .

وأما النوع الثانى من الحسنة : فكقول من قال من أهل العلم : إن المراد بالحسنة فى هذه الآية : لا إله إلا الله ، ولا يوجد شىء خير من لا إله إلا الله .. بل هى أساس الخير كله ، والذى يظهر على هذا المعنى أن لفظة خير ليست صيغة تفضيل .

وأن المعنى فله خير عظيم عند الله حاصل له منها : أى منها أى من قبلها ومن أجلها وعليه فلفظة من فى الآية كقوله تعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً) أى من أجل خطياتهم أغرقوا ، فأدخلوا ناراً . وأما على الأول فخير صيغة تفضيل ، ويحتمل عندى . أن لفظة خير على الوجه الثانى صيغة تفضيل أيضا ، ولا يراد بها تفضيل شىء على لا إله إلا الله ، بل المراد أن كلمة لا إله إلا الله تعبد بها العبد فى دار الدنيا ، وتعبده بها فعبده بها فعله المحض ، وقد أثابه الله فى الآخرة على تعبده بها ، وإثابة الله فعله جل وعلا ، ولا شك أن فعل الله خير من فعل عبده ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾

دلت على معناه آيات من كتاب الله كقوله تعالى فى أمنهم من الفزع (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة) الآية. وقوله تعالى فى أمنهم (فلهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون). وقوله تعالى (أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة) الآية. وقوله تعالى (وهم من فزع يومئذ) قرأه عاصم، وحمزة، والكسائى بتنوين فزع، وفتح ميم يومئذ، وقرأه الباقون بغير تنوين، بل بالإضافة إلى يومئذ، إلا أن نافعا قرأ بفتح ميم يومئذ مع إضافة فزع إليه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بإضافة فزع إلى يومئذ مع كسر ميم يومئذ، وفتح الميم وكسرها من نحو يومئذ قد أوضحناه بلغاته وشواهده العربية مع بيان المختار من اللغات فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية: وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأنس بن مالك رضى الله عنهم، وعطاء، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وإبراهيم النخعى، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد ابن كعب، وزيد بن أسلم، والزهرى، والسدى، والضحاك، والحسن وقتادة، وابن زيد فى قوله تعالى (ومن جاء بالسيئة) يعنى: الشرك.

وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين:

الأول: أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيئة كالشرك يكب وجهه فى النار.

والثانى : أن السيئة إنما تجزى بمثلها من غير زيادة ، وهذان الأمران جاءا موضحين فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى الأول منهما (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) وكقوله تعالى فى الثانى منهما (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) الآية . وقوله تعالي (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) وقوله تعالي (جزاء وفاقا) .

وإذا علمت أن السيئات لا تضاعف ، فاعلم أن السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان كقوله تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أو حرمة الزمان كقوله تعالي فى الأشهر الحرم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) .

وقد دلت آيات من كتاب الله أن العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف ، كقوله تعالى فى نبينا صلى الله عليه وسلم (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) وقوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) الآية ، وكقولة تعالي فى أزواجه صلى الله عليه وسلم (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) الآية ، وقد قدمنا طرفا من الكلام على هذا فى الكلام ، على قوله تعالي (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) مع تفسير الآية ، ومضاعفة السيئة المشار إليها فى هاتين الآيتين ، إن كانت بسبب عظم الذنب ، حتى صار فى عظمه كذنبين ، فلا إشكال ، وإن كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة ، لأن السيئة لا تجزى إلا بمثلها ، والجميع محتمل ، والعلم عند الله تعالي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾

جاء معناه موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى (قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) الآية . وقوله تعالي (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

قد قدمنا الآيات التى فيها زيادة إيضاح لقوله (وأمرت أن أكون من المسلمين) فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (وأمرت أن أكون أول من أسلم) الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لقوله تعالى هنا : وأن أتلوا القرآن فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

جاء معناه مبينا فى آيات كثيرة كقوله تعالي (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) . وقوله تعالي (إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) وقوله تعالي (فتول عنهم فما أنت بملوم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾

جاء معناه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى

أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

جاء معناه موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) إلي غير ذلك من الآيات.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم : عما تعملون بتاء الخطاب ، وقرأ الباقون عما يعملون بياء الغيبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

قد قدمنا أن قوله هنا : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا) هو الكلمة فى قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل) الآية ، ولم يبين هنا السبب الذى جعلهم به أئمة جمع إمام ، أى قادة فى الخير ، دعاة إليه على أظهر القولين . ولم يبين هنا أيضاً الشىء الذى جعلهم وارثيه ، ولكنه تعالى بين جميع ذلك فى غير هذا الموضع ، فبين السبب الذى جعلهم به أئمة فى قوله تعالى : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فالصبر واليقين ، هما السبب فى ذلك ، وبين الشىء الذى جعلهم له وارثين بقوله تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) الآية . وقوله تعالى : (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين) ، وقوله تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ .

اعلم أن التحقيق إن شاء الله ، أن اللام فى قوله : (ليكون لهم عدوا وحزنا) لام التعليل المعروفة بلام كى ، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز ، ويدل على ذلك قوله تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) .

وإيضاح ذلك قوله تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) صريح فى أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته جل وعلا ، إلى ما سبق به علمه ، وقد صرف مشيئة فرعون ، وقومه بمشيئته جل وعلا ، إلى التقاطهم موسى ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فكأنه يقول : قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدواً وحزنا ، وهذا معنى واضح ، لا لبس فيه ولا إشكال كما ترى .

وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : ولكن إذا نظر إلى معنى السياق ، فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه : أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ، ليجعله عدوا لهم وحزنا ، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه . انتهى محل الغرض من كلامه ، وهذا المعنى هو التحقيق فى الآية إن شاء الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) كما بينا وجهه آنفا .

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين ، وينشدون له الشواهد من أن اللام فى قوله . ليكون : لام العاقبة ، والصيرورة خلاف الصواب ، وأن مايقوله البيانيون ، من أن اللام فى قوله : ليكون فيها استعارة تبعية ، فى متعلق معنى الحرف ، خلاف الصواب أيضا .

وإيضاح مراد البيانيين بذلك ، هو أن من أنواع تقسيمهم لما يسمونه الاستعارة التى هى عندهم ، مجاز علاقته المشابهة أنهم يقسمونها إلى استعارة أصلية ، واستعارة تبعية ، ومرادهم بالاستعارة الأصلية : الاستعارة فى أسماء الأجناس الجامدة والمصادر ، ومرادهم باستعارة التبعية قسمان :

أحدهما : الاستعارة فى المشتقات كاسم الفاعل والفعل .

والثانى : الاستعارة فى متعلق معنى الحرف ، وهو المقصود بالبيان .

فمثال الاستعارة الأصلية عندهم : رأيت أسداً على فرسه ، ففى لفظة أسد

فى هذا المثال : استعارة أصلية تصريحية عندهم ، فإنه أراد تشبيه الرجل الشجاع بالأسد لعلاقة الشجاعة ، فحذف المشبه الذى هو الرجل الشجاع ، وصرح بالمشبه به الذى هو الأسد ، على سبيل الاستعارة التصريحية ، وصارت أصلية ، لأن الأسد اسم جنس جامد .

ومثال الاستعارة التبعية ، فى المشتق عندهم قولك : الحال ناطقة بكذا ، فالمراد عندهم : تشبيه دلالة الحال بالنطق بجامع الفهم ، والإدراك بسبب كل منهما ، فحذف الدلالة التى هى المشبه ، وصرح بالنطق الذى هو المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، واشتق من النطق اسم الفاعل الذى هو ناطقة ، فجرت الاستعارة التبعية فى اسم الفاعل الذى هو ناطقة ، وإنما قيل لها تبعية ، لأنها إنما جرت فيه تبعاً لجريانها فى المصدر ، الذى هو النطق ، لأن المشتق تابع للمشتق منه ، ولا يمكن فهمه بدون فهمه ، وهذا التوجيه أقرب من غيره مما يذكرونه من توجيه ما ذكر .

ومثال الاستعارة التبعية عندهم فى متعلق معنى الحرف فى زعمهم هذه الآية الكريمة ، قالوا : اللام فيها كلفظ الأسد فى المثال الأول ، فإنه أطلق على غير الأسد لمشابهة بينهما ، قالوا : وكذلك اللام أصلها موضوعة للدلالة على العلة الغائية ، وعلة الشىء الغائية : هى ما يحمل على تحصيله ليحصل بعد حصوله ، قالوا : والعلة الغائية للالتقاط فى قوله تعالى : فالتقطه هى المحبة والنفع والتبنى : أى اتخاذهم موسى ولدا ، كما صرحوا بأن هذا هو الباعث لهم على التقاطه وتربيته ، فى قوله تعالى عنهم : (قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ، فهذه العلة الغائبة عندهم هى التى حملتهم على التقاطه ، لتحصل لهم هذه العلة بعد الالتقاط .

قالوا : ولما كان الحاصل فى نفس الأمر بعد الالتقاط ، هو ضد ما رجوه

وأملوه ، وهو العداوة والحزن ، شبهت العداوة والحزن الحاصلان بالالتقاط بالمحبة والتبنى والنفع، التى هى علة الالتقاط الغائية بجامع الترتب فى كل منهما ، فالعلة الغائية : تترتب على معلولها دائما ترتب على معلولها دائما ترتب رجاء الحصول ، فتبنيهم لموسى ومحبته كانوا يرجون ترتبهما على التقاطهم له ، ولما كان المترتب فى نفس الأمر على التقاطهم له ، هو كونه عدواً لهم وحزنا ، صار هذا الترتب الفعلى شبيها بالترتب الرجائى ، فاستعيرت اللام الدالة على العلة الغائية المشعرة بالترتب الرجائى للترتب الحصولى الفعلى الذى لا رجاء فيه .

وإيضاحه : أن ترتب الحزن والعداوة على الالتقاط أشبه ترتب المحبة والتبنى على الالتقاط ، فأطلقت لام العلة الغائية فى الحزن والعداوة ، لمشابهتهما للتبنى والمحبة فى الترتب ، كما أطلق لفظ الأسد على الرجل الشجاع ، لمشابهتهما فى الشجاعة .

وبعض البلاغيين يقول : فى هذا جرت الاستعارة الأصلية أولا بين المحبة والتبنى ، وبين العداوة والحزن اللذين حصولها هو المجرور، فكانت الاستعارة فى اللام تبعاً للاستعارة فى المجرور ، لأن اللام لا تستقل فيكون ما اعتبر فيها تبعاً للمجرور ، الذى هو متعلق معنى الحرف ، وبعضهم يقول : جرت الاستعارة أولا فى العلية والغرضية ، وتبعيتها فى اللام ، وهناك مناقشات فى التبعية فى معنى الحرف تركناها ، لأن غرضنا بيان مرادهم بالاستعارة التبعية فى هذه الآية بإيجاز .

وإذا علمت مرادهم بما ذكر ، فاعلم أن التحقيق إن شاء الله هو ما قدمنا ، وقد أوضحنا فى رسالتنا المسماة [منع جواز المجاز فى المنزل للتعبد والإعجاز] أن التحقيق : أن القرآن لا مجاز فيه ، وأوضحنا ذلك بالأدلة الواضحة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى مرتكبين الخطيئة التى هى الذنب العظيم كقوله تعالى(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً) وقوله تعالى : (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) الآية .

ومن إطلاق الخاطىء على المذنب العاصى . قوله تعالى : (ولاطعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون) . وقوله تعالى : (ناصية كاذبة خاطئة). وقوله : (إنك كنت من الخاطئين) والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ الآيات

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة مريم .

واعلم أنا ربما تركنا كثيراً من الآيات التى تقدم إيضاحها من غير إحالة عليها لكثرة ماتقدم إيضاحه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾

ما ذكره جل وعلا فى هـذه الآية الكريمة من إتباعه اللعنة لفرعون وجنوده ، بينه أيضاً فى سورة هود بقوله فيهم (وأتبعوا فى هذ لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (من المقبوحين) قال الزمخشرى : أى من المطرودين المبعدين ، ولايخفى أن المقبوحين اسم مفعول ، قبحه إذا صيره قبيحاً ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا يهدى من أحب هدايته ، ولكنه جل وعلا هو الذى يهدى من يشاء هداه ، وهو أعلم بالمهتدين .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) الآية . وقوله : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وقوله (وهو أعلم بالمهتدين) جاء معناه موضحاً فى آيات كثيرة كقوله : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وقوله تعالى : (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وقد أوضحنا سابقاً أن الهدى المنفى عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى هنا (إنك لا تهدى من أحببت) هو هدى التوفيق ، لأن التوفيق بيد الله وحده ، وأن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه ، ونزول قوله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت) فى أبى طالب مشهور معروف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) الآية .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

كقوله تعالى: (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، والوجه من الصفات التى يجب الإيمان بها مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق ، كما أوضحناه فى سورة الأعراف وفى غيرها .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحدا) ، وقد تركنا ذكر إحالات كثيرة فى سورة القصص هذه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : (الٓمٓ ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة مستوفىً فى أول سورة هود ، والاستفهام فى قوله : أحسب الناس : للانكار .

والمعنى : أن الناس لا يتركون دون فتنة : أى ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا ، بل إذا قالوا آمنا فتنوا : أى امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء ، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق فى قوله آمنا من غير الصادق .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينا فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) وقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقوله تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) وقوله تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) الآية . وقوله تعالى: (وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور) . وقوله تعالى : (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) إلى غير ذلك من الآيات ، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله هنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا) الآية .

وقد بينت السنة الثابتة أن هـذا الابتلاء المذكور فى هـذه الآية يبتلى به المؤمنون على قدرما عندهم من الإيمان، كقوله صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل » .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾

يعنى أن من الناس من يقول : آمنا بالله بلسانه ، فإذا أوذى فى الله : أى آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس ، صارفة له عن الدين إلى الردة ، والعياذ بالله ، كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصى . ومعنى فتنة الناس : الأذى الذى يصيبه من الكفار ؟ وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذى هو الفتنة ، وهذا قال به غير واحد .

وعليه فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن المنافقين الذين يقولون : آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى ، وهم معهم جعلوا فتنة الناس : أى أذاهم ، كعذاب الله. وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين ، فنصرهم على الكفار ، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم . قال : أولئك المنافقون . ألم نكن معكم يعنون : أنهم مع المؤمنين ومن جملتهم ، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم .

وهذا المعنى جاء فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب . قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) وقوله تعالى : (وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) . وقد قدمنا طرفاً من هذا فى سورة النساء .

وقد بين تعالى أنهم كاذبون فى قولهم : إنا كنا معكم ، وبين أنه عالم بما تخفى صدورهم من الكفر والنفاق بقوله : (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ (إلى قوله) وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وزيادة إيضاحها من السنة الصحيحة فى سورة النحل، فى الكلام على قوله تعالى: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

تقدم إيضاحه فى هود وغيرها .

وقوله تعالى هنا : (وجعلناها آية للعالمين) يعنى سفينة نوح ، كقوله تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله مايركبون) ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون) ، وفى سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا — إلى قوله — وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام ، على قوله تعالى : (حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا) الآية . وفى سورة الفرقان وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾

الضمير فى قوله : ذريته راجع إلى إبراهيم .

والمعنى : أن الأنبياء والمرسلين الذين أنزلت عليهم الكتب بعد إبراهيم

كلهم من ذرية إبراهيم ، وما ذكره هنا عن إبراهيم ذكر فى سورة الحديد : أن نوحاً مشترك معه فيه ، وذلك واضح لأن إبراهيم من ذرية نوح مع أن بعض الأنبياء من ذرية نوح دون إبراهيم ، وذلك فى قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه أتى إبراهيم أجره أى جزاء عمله فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة أيضاً من الصالحين .

وقال بعض أهل العلم : المراد بأجره فى الدنيا : الثناء الحسن عليه فى دار الدنيا من جميع أهل الملل على اختلافهم إلى كفار ومؤمنين . والثناء الحسن المذكور ، هو لسان الصدق فى قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) وقوله تعالى : (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) . وقوله (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) لايخفى أن الصلاح فى الدنيا يظهر بالأعمال الحسنة ، وسائر الطاعات ، وأنه فى الآخرة يظهر بالجزاء الحسن، وقد أثنى الله فى هذه الآية الكريمة على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقد أثنى على إبراهيم أيضاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً) وقوله تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم،وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾الآية .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا (إلى قوله) لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بعض الشواهد ، فى سورة هود فى الكلام على قصة لوط ، وفى سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا (إلى قوله) فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

تقدم إيضاحه فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قصته مع قومه وفى الشعراء أيضاً .

قوله تعالى : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَكَانُوا سَابِقِينَ ، فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ .

الظاهر أن قوله : وعادا : مفعول به لأهلكنا مقدرة ، ويدل على ذلك قوله قبله (فأخذتهم الرجفة) أى أهلكنا مدين بالرجفة، وأهلكنا عادا . ويدل للإهلاك المذكور قوله بعده (وقد تبين لكم من مساكنهم) أى هى خالية منهم لإهلاكهم. وقوله : بعده أيضاً (فكلا أخذنا بذنبه) .

وقد أشار جل وعلا فى هذه الآيات الكريمة إلى إهلاك عاد ، وثمود ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، ثم صرح بأنه أخذ كلا منهم بذنبه ، ثم فصل على سبيل مايسمى فى البديع باللف والنشر المرتب، أسباب إهلاكهم فقال: (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) ، وهى الريح يعنى: عاداً ، بدليل قوله (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) وقوله (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ونحو ذلك من الآيات . وقوله تعالى (ومنهم من أخذته الصيحة) يعنى ثمود بدليل قوله تعالى فيهم (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود). وقوله (ومنهم من خسفنا به الأرض) يعنى قارون بدليل قوله تعالى فيه (فخسفنا به وبداره الأرض) الآية . وقوله تعالى: (ومنهم من أغرقنا) يعنى فرعون وهامان بدليل قوله تعالى (ثم أغرقنا الآخرين) ونحو ذلك من الآيات .

والأظهر فى قوله فى هذه الآية: وكانوا مستبصرين، أن استبصارهم المذكور هنا بالنسبة إلى الحياة الدنيا خاصة ، كما دل عليه قوله تعالى: (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) . وقوله تعالى: (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) ونحو ذلك من الآيات . وقوله (وما كانوا سابقين) ، كقوله تعالى: (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء مايحكمون) .

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ، إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى: (فمثله كمثل الكلب) الآية وفى مواضع أخر .

قوله تعالى : ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى: (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته) الآية .

قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عن ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه ، وتفسير إلا الذين ظلموا منهم فى آخر سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) .

قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف ، وفى آخر سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى) وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (ماعندى ماتستعجلون به) وفى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (أثم إذا ماوقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون) وفى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾

نادى الله جل وعلا عباده المؤمنين ، وأكد لهم أن أرضه واسعة ، وأمرهم أن يعبدوه وحده دون غيره ، كما دل عليه تقديم المعمول الذى هو إياى ، كما بيناه فى الكلام على قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين)

والمعنى : أنهم إن كانوا فى أرض لايقدرون فيها على إقامة دينهم ، أو يصيبهم فيها أذى الكفار ، فإن أرض ربهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم ، ويسلمون فيه من أذى الكفار ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقوله تعالى : (وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

جاء معناه موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى فى سورة آل عمران : (كل كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) وقوله (كل من عليها فان) وقوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾

قد قدمنا معنى وعملوا الصالحات موضحاً فى أول سورة الكهف ، وقدمنا معنى لنبوئنهم فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية . وذكرنا الآيات التى ذكرت فيها الغرف فى آخر الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (أولئك يجزون الغرفة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن كثيراً من الدواب التى لاتحمل رزقها لضعفها ، أنه هو جل وعلا يرزقها ، وأوضح هذا المعنى فى قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ — إلى قوله — ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له غاية الإيضاح فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه إلى قوله تبيعا) ، وفى مواضع أخر .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ الآية :

امتن الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، على قريش ، بأنه جعل لهم حرماً آمنا يعنى حرم مكة ، فهم آمنون فيه على أموالهم ودمائهم ، والناس الخارجون عن الحرم ، يتخطفون قتلا وأسرا .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً فى آيات أخر كقوله تعالى فى القصص : (وقالوا إن نتبع الهوى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا) الآية . وقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وقوله تعالى : (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) الآية . وقوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الذين جاهدوا فيه ، أنه

يهديهم إلى سبل الخير والرشاد ، وأقسم على ذلك بدليل اللام فى قوله : لنهدينهم .

وهذا المعنى جاء مبينا فى آيات أخر كقوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) . وقوله تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) الآية . كما تقدم إيضاحه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى آخر سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾

قوله تعالى : وعد الله ، مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله قبله (وهم من بعد غلبهم سيغلبون) إلى قوله :(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) هو نفس الوعد كما لا يخفى ، أى وعدالله ذلك وعدا .

وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أربعة أمور :

الأول : أنه لا يخلف وعده .

والثانى : أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون .

والثالث : أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .

والرابع : أنهم غافلون عن الآخرة . وهذه الأمور الأربعة جاءت موضحة فى غير هذا الموضع .

أما الأول منها : وهو كونه لا يخلف وعده ، فقد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إن الله لا يخلف الميعاد) . وقد بين تعالى أن وعيده للكفار لا يخلف أيضاً فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدى) الآية .

والتحقيق : أن القول الذى لا يبدل لديه فى هذه الآية الكريمة ، هو وعيده للكفار .

وكقوله تعالى : (كل كذب الرسل فحق وعيد) . وقوله : (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) ، فقوله : حق فى هاتين الآيتين . أى وجب وثبت ، فلا يمكن تخلفه بحال .

وأما الثانى منها : وهو أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، فقد بين تعالى فى آيات أن أكثر الناس هم الكافرون كقوله تعالى : (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) . وقوله تعالى : (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) ، وقوله تعالى: (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) . وقوله تعالى : (إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك) ، وقوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بين جل وعلا أيضاً فى آيات من كتابه أن الكفار لا يعلمون كقوله تعالى : (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) . وقوله تعالى : (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)، وقوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقوله تعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقوله تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ، وقوله تعالى : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الثالث منها : وهو كونهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، فقد جاء أيضاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) أى فى الدنيا . وقوله تعالى : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) الآية .

وأما الرابع منها : وهو كونهم غافلين عن الآخرة فقد جاء فى آيات كثير كقوله تعالى عنهم : (هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا) الآية .

وقوله تعالى عنهم : (وما نحن بمنشرين ، وما نحن بمبعوثين ، من يحيى العظام وهى رميم) والآيات فى ذلك كثيرة معلومة .

تنبيـــه

اعلم أنه يجب على كل مسلم فى هذا الزمان : أن يتدبر آية الروم هـذه تدبراً كثيراً ، ويتبين مادلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس .

وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التى ابتلى الله بها ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج ، لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها ، واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك ، فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق ، وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق ، وهذا جهل فاحش ، وغلط فادح . وفى هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله فى كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة ، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه ، وما أعظمه ، وما أحسن تعليمه .

فقد أوضح جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون ، ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولا أولياً ، فقد نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل ، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمن خلقهم ، فأبرزهم من العدم إلى الوجود ، ورزقهم ، وسوف يميتهم ، ثم يحييهم ، ثم يجازيهم على أعمالهم ، ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذى يقيمون فيه إقامة أبدية فى عذاب فظيع دائم ، ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم

كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة ، ثم لما نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعا من العلم فى غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره.

وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعيبين عظيمين :

أحدهما : قلته وضيق مجاله ، لأنه لايجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا ، والعلم المقصود على ظاهر من الحياة الدنيا فى غاية الحقارة ، وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض جل وعلا ، والعلم بأوامره ونواهيه ، وبما يقرب عبده منه ، وما يبعده منه ، ومايخلد فى النعيم الأبدى من أعمال الخير والشر .

والثانى منهما : هو دناءة هدف ذلك العلم ، وعدم نيل غايته ، لأنه لايتجاوز الحياة الدنيا ، وهى سريعة الانقطاع والزوال ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوى أن أجود أوجه الإعراب فى قوله (يعلمون ظاهرا) أنه بدل من قوله قبله لايعلمون ، فهذا العلم كلا علم لحقارته .

قال الزمخشرى فى الكشاف ، وقوله : يعلمون بدل من قوله : لايعلمون ، وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ،وسد مسده لعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لايتجاوز الدنيا .

وقوله (ظاهراً من الحياة الدنيا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطنا فظاهرها مايعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها وباطنها ، وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة ، وفى تنكير الظاهر أنهم لايعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها . وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ . وغافلون خبره ، والجملة خبر ، هم الأولى ، وأن يكون تكريراً للأولى ، وغافلون : خبر الأولى ، وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن

الغفلة عن الآخرة، ومقرها، ومحلها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع . انتهى كلام صاحب الكشاف .

وقال غيره : وفى تنكير قوله : ظاهراً تقليل لمعلومهم ، وتقليله يقربه من النفى ، حتى يطابق المبدل منه .اهـ . ووجهه ظاهر .

واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية ، كما أوضحنا ذلك غاية الإيضاح فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) وهذه العلوم الدنيوية التى بينا حقارتها بالنسبة إلى ماغفل عنه أصحابها الكفار ، إذا تعلمها المسلمون ، وكان كل من تعليمها واستعمالها . مطابقاً لما أمر الله به ، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : كانت من أشرف العلوم وأنفعها ، لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جل وعلا ، وإصلاح الدنيا والآخرة ، فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فالعمل فى إعداد المستطاع من القوة امتثالا لأمر الله تعالى وسعيا فى مرضاته ، وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة ، كما ترى والآيات بمثل ذلك كثيرة . والعلم عندالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾

لما بين جل وعلا أن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ، ثم ذكر أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم غافلون ، أنكر عليهم غفلتهم عن الآخرة ، مع شدة وضوح أدلتها بقوله : (أولم يتفكروا فى أنفسهم) الآية ؛ والتفكر التأمل ، والنظر العقلى ، وأصله إعمال الفكر ، والمتأخرون يقولون :

الفكر فى الاصطلاح حركة النفس فى المعقولات . وأما حركتها فى المحسوسات فهو فى الاصطلاح تخييل .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : فى أنفسهم يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل : أو لم يحدثوا التفكر فى أنفسهم : أى فى قلوبهم الفارغة من الفكر ، والفكر لا يكون إلا فى القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك : اعتقده فى قلبك وأضمره فى نفسك ، وأن يكون صلة للتفكر كقولك : تفكر فى الأمر أجال فيه فكره ، وماخلق متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل معناه : فيعلموا ، لأن فى الكلا دليلا عليه إلا بالحق ، وأجل مسمى أى ماخلقها باطلا وعبثاً بغير غرض صحيح ، وحكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لابد لها أن تنتهى إليه ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، والثواب ، والعقاب .

ألا ترى إلى قوله : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا ، والباء فى قوله : إلا بالحق مثلها فى قولك : دخلت عليه بثياب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو متلبس بالسرج واللجام غير منفك عنهما ، وكذلك المعنى : ماخلقها إلا وهى متلبسة بالحق مقترنة به .

فإن قلت : إذا جعلت فى أنفسهم صلة للتفكر فما معناه ؟

قلت : معناه أو لم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم ، وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها فتدبروا ماأودعها الله ظاهراً ، وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذى دبر أمرها على الإحسان

إحساناً ، وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد بلقاء ربهم الأجل المسمى. انتهى كلام صاحب الكشاف فى تفسير هذه الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة : من أن خلقه تعالى للسماوات والأرض وما بينهما لا يصح أن يكون باطلا ، ولا عبثاً بل ما خلقهما إلا بالحق ، لأنه لو كان خلقهما عبثا لكان ذلك العبث باطلا ولعباً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً ، بل ما خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما بينهما إلا بالحق ، وذلك أنه يخلق فيهما الخلائق ، ويكلفهم فيأمرهم وينهاهم ويعدهم ويوعدهم ، حتى إذا انتهى الأجل المسمى لذلك بعث الخلائق ، وجازاهم فيظهر فى المؤمنين صفات رحمته ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، وتظهر فى الكافرين صفات عظمته ، وشدة بطشه ، وعظم نكاله ، وشدة عدله ، وإنصافه ، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) فقوله تعالى :(إن يوم الفصل) الآية بعد قوله : (ماخلقناهما إلا بالحق): يبين ماذكرنا . وقوله تعالى : (وماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) الآية .

فقوله تعالى : (وإن الساعة لآتية) بعد قوله :(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) يوضح ذلك ، وقد أوضحه تعالى فى قوله : (ولله مافى السموات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى).

وقد بين جل وعلا أن الذين يظنون أنه خلقهما باطلا لا لحكمة الكفار وهددهم على ذلك الظن الكاذب بالويل من النار، وذلك فى قوله تعالى (وما خلقنا

السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)، وبين جل وعلا أنه لو لم يبعث الخلائق ويجازهم ، لكان خلقه لهم أولا عبثا ، ونزه نفسه عن ذلك العبث سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علوا كبيراً ، وذلك فى قوله تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

فهذه الآيات القرآنية تدل على أنه تعالى ما خلق الخلق إلا بالحق ، وأنه لابد باعثهم ، ومجازيهم على أعمالهم ، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون هذا ، فكانوا غافلين عن الآخرة كافرين بلقاء ربهم .

وقوله تعالى فى الآيات المذكورة ومابينهما : أى مابين السماوات والأرض ، يدخل فيه السحاب المسخر بين السماء والأرض ، والطير صافات ، ويقبض بين السماء والأرض والهواء الذى لاغنى للحيوان عن استنشاقه .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر فى الكلام ، على قوله تعالى : (وإنها لبسبيل مقيم) وفى المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) الآية . وفى هود فى الكلام على قوله تعالى : (وماهى من الظالمين ببعيد) وفى الإسراء فى الكلام على قوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) الآية وفى غير ذلك .

وقوله تعالى فى آية الروم هذه : (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض

وعمروها أكثر مما عمروها) جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو ، كان عاقبة : بضم التاء اسم كان ، وخبرها السوأى . وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى : ثم كان عاقبة الذين بفتح التاء ، خبر كان قدم على اسمها على حد قوله فى الخلاصة :

وفى جميعها توسط الخبر أجـــز . . . . . .

وعلى هذه القراءة فالسوأى اسم كان ، وإنما جرد الفعل من التاء مع أن السوأى مؤنثة لأمرين :

الأول : أن تأنيثها غير حقيقى .

والثانى : الفصل بينها وبين الفعل كما هو معلوم . وأما على قراءة ضم التاء فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقى فقط .

وأظهر الأقوال فى معنى الآية عندى ، أن المعنى على قراءة ضم التاء ، كانت عاقبة المسيئين السوأى وهى تأنيث الأسوإ ، بمعنى الذى هو أكثر سوءاً : أى كانت عاقبتهم العقوبة ، التى هى أسوأ العقوبات ، أى أكثرها سوءاً وهى النار أعاذنا الله ، وإخواننا المسلمين منها .

وأما على قراءة فتح التاء ، فالمعنى : كانت السوأى عاقبة الذين أساءوا ،

ومعناه واضح مما تقدم ، وأن معنى قوله . أن كذبوا : أى كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا .

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدى شؤمه إلى شقاء صاحبه ، وسوء عاقبته ، والعياذ بالله . كقوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . وقوله : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) . وقوله : (بل طبع الله عليها بكفرهم) .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) ، وفى الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ، وفى غير ذلك .

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال : إن السوأى منصوب بأساءوا : أى اقترفوا الجريمة السوأى خلاف الصواب . وكذلك قول من قال : إن أن فى قوله : أن كذبوا تفسيرية ، فهو خلاف الصواب أيضاً ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى البقرة ، والنحل ، والحج ، وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (ولا يقبل منها شفاعة) الآية وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم ، فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ، وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ أن قوله هنا ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ الآيتين من الآيات التى أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس ، وأوضحنا وجه ذلك مع إيضاح جميع الآيات التى أشير فيها إلى أوقات الصلوات الخمس .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى ذكرنا براهين البعث فى سورة البقرة فى الكلام ، على قوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ . وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون ﴾ الآية ، وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم ﴾ الآية ، وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) الآية :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

قوله : (ومن آياته خلق السماوات والأرض) قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام ، على قوله تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض) الآية . وقوله : (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) ، قد أوضح تعالى فى غير هذا الموضع : أن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال ، والثمار ، والدواب ، والأنعام كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته ، واستحقاقه للعبادة وحده . قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) ، واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه ، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر جل وعلا ، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال .

وقد أوضح تعالى إبطال تأثير الطبيعة غاية الإيضاح بقوله فى سورة الرعد : (وفى الأرض قطع متجاورات) إلى قوله : (لقوم يعقلون) . وقرأ هذا الحرف حفص وحده عن عاصم (إن فى ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام : جمع عالم الذى هو ضد الجاهل . وقرأه الباقون : للعالمين بفتح اللام كقوله : رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله

تعالى : (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) . الآية . وفى سورة الفرقان . وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الآية .

وقد قدمنا مايوضحه من الآيات مع تفسير قوله : (خوفاً وطمعاً) فى سورة الرعد ، فى الكلام على قوله تعالى : (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) الآية ، وسنحذف هنا بعض الإحالات لكثرتها .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه بالقرآن فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام ، على قوله تعالى : (يمحق الله الربا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ .

أى يتفرقون فريقين : أحدهما فى الجنة ، والثانى : فى النار .

وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله كقوله تعالى فى هذه السورة الكريمة (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) وقوله تعالى (وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير) ويدل لهذا قوله بعده (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً

فلأنفسهم يمهدون ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لايحب الكافرين) وقد أشار تعالى أيضاً للتفرق المذكور هنا فى قوله تعالى : (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) .

قوله تعالى : ﴿إِنْ تُسمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِئَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى: (إنك لاتسمع الموتى) الآية .

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ .

قد بين تعالى الضعف الأول الذى خلقهم منه فى آيات من كتابه ، وبين الضعف الأخير فى آيات أخر ، قال فى الأول (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقال: (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وقال تعالى : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) الآية . وقال(فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق) وقال : (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال فى الضعف الثانى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وقال : (ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون) إلى غير ذلك من الآيات ، وأشار إلى القوة بين الضعفين فى آيات من كتابه كقوله : (فإذا هو خصيم مبين) وإطلاقه نفس الضعف ، على ماخلق الإنسان منه ، قد أوضحنا وجهه فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (خلق الإنسان من عجل) الآية . وقرأ عاصم وحمزة من ضعف فى المواضع الثلاثة المخفوضة ، والمنصوب بفتح الضاد فى جميعها ، وقرأ الباقون بالضم .

و ختار حفص القراءة بالضم وفاقاً للجمهور للحديث الوارد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عطية العوفى أنه أعنى ابن عمر قرأ عليه صلى الله عليه وسلم : من ضعف بفتح الضاد ، فرد عليه صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يقرأها بضم الضاد ، والحديث رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، ورواه غيرهما والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس ، فى الكلام على قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الكفار إذا بعثوا يوم القيامة ، وأقسموا أنهم مالبثوا غير ساعة يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان ، ويدخل فيهم الملائكة ، والرسل ، والأنبياء ، والصالحون : والله لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لاتعلمون .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى سورة يس على أصح التفسيرين ، وذلك فى قوله تعالى : (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) .

والتحقيق أن هذا قول الكفار عند البعث ، والآية تدل دلالة لا لبس فيها،

على أنهم ينامون نومة قبل البعث كما قاله غير واحد ، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان : هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون : أي هذا البعث بعد الموت ، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله ، وصدق المرسلون في ذلك ، كما شاهدتموه عيانا فقوله في يس : (هذا ماوعد الرحمن) قول الذين أوتوا العلم والإيمان ،على التحقيق ، وقد اختاره ابن جرير ، وهو مطابق لمعنى قوله : (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) الآية .

والتحقيق أن قوله هذا : إشارة إلى ماوعد الرحمن وأنها من كلام المؤمنين ، وليست إشارة إلى المرقد في قول الكفار (من بعثنا من مرقدنا هذا) ، وقوله في كتاب الله : أي فيما كتبه وقدره وقضاه . وقال بعض العلماء : إن قوله : (هذا ماوعد الرحمن) الآية من قول الكفار ، ويدل له قوله في الصافات : (وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

قد قدمنا ما فيه من اللغات ، والشواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : (ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ، فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : (وقالوا

لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) وفى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون) الآية ، وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

قد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا) أن الله تعالى قد بين فى بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم ، بخطاب لايريد به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يريد به التشريع .

وبينا أن من أصرح الآيات فى ذلك قوله تعالى : مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أف) الآية ، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، بزمن طويل ، فلاوجه البتة لاشتراط بلوغهما ، أوبلوغ أحدهما الكبرعنده . بل المراد تشريع بر الوالدين لأمته ، بخطابه صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن قول من يقول : إن الخطاب فى قوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) لمن يصح خطابه من المكلفين ، وأنه كقول طرفة بن العبد :

* ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا *

خلاف الصواب .

والدليل على ذلك قوله بعد ذكر المعطوف على قوله : (فلا تقل لهما أف ـ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) الآية ، ومعلوم أن قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك) خطاب له صلى الله عليه وسلم كما ترى ، وذكرنا هناك بعض الشواهد العربية على خطاب الإنسان ، مع أن المراد بالخطاب فى الحقيقة غيره .

وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى : (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)وقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) . وقوله : (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) . وقوله : (لا تجعل مع الله إلها آخر) يراد به التشريع لأمته لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك الكفر الذى نهى عنه .

فائـــدة

روى من غير وجه : أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ناداه رجل من الخوارج فى صلاة الفجر ، فقال (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ، فأجابه علىّ رضى الله عنه وهو فى الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لقوله : (هدى ورحمة للمحسنين) فى أول سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ألٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الكافر إذا تتلى عليه آيات الله ، وهى هذا القرآن العظيم ، ولى مستكبرا : أى متكبرا عن قبولها ، كأنه لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا أى صمما وثقلا ما نعاله من سماعها ، ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشره بالعذاب الأليم .

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين. من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) ، وقد قال تعالى هنا : (كأن فى أذنيه وقرا) على سبيل التشبيه ، وصرح فى غير هذا الموضع أنه جعل فى أذنيه الوقر بالفعل فى قوله : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) . والظاهر أن الوقر

المذكور على سبيل التشبيه الوقر الحسى ، لأن الوقر المعنوى يشبه الوقر الحسى والوقر المجعول على آذانهم بالفعل ، هو الوقر المعنوى المانع من سماع الحق فقط ، دون سماع غيره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة الرعد ، فى الكلام على قوله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) الآية .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد ، فى الكلام على قوله تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) الآية . وفى أول سورة الفرقان .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

دلت هذه الآية الكريمة : على أن الشرك ظلم عظيم .

وقد بين تعالى ذلك فى آيات أخر كقوله تعالى : (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) ، وقوله تعالى : (والكافرون هم الظالمون) ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فسر الظلم فى قوله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) بأنه الشرك ، وبين ذلك بقوله هنا (إن الشرك لظلم عظيم) ، وقد أوضحنا هذا سابقاً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ .

معناه لا تتكبر على الناس . فنى الآية نهى عن التكبر على الناس، والصعر الميل ، والمتكبر يميل وجهه عن الناس، متكبراً عليهم ، معرضاً عنهم، والصعر الميل وأصله : داء يصيب البعير يلوى منه عنقه ، ويطلق على المتكبر يلوى عنقه ، ويميل خده عن الناس تكبرا عليهم ، ومنه قول عمرو بن جنى التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعّر خده أقمنا له من ميله فتقوّما

وقول أبى طالب :

وكنا قديما لا نقر ظلامة إذا ما ثنوا صعر الرءوس نقيمها

ومن إطلاق الصعر على الميل قول النمر بن تولب العلكى :

إنا أتيناك وقد طال السفر نقود خيلا ضمرا فيها صعر

وإذا علمت أن معنى قوله : (ولا تصعر خدك للناس) لا تتكبر عليهم، فاعلم أنا قدمنا فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) الآيات القرآنية الدالة على التحذير من الكبر المبينة لكثرة عواقبه السيئة ، وأوضحنا ذلك مع بعض الآيات الدالة على حسن التواضع ، وثناء الله على المتواضعين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه وتفسير الآية فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى مواضع كقوله : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) الآية . وقوله تعالى : (ولا تمش فى الأرض مرحا) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ من يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى أول سورة الحج .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

قدمنا الآيات الموضحة له أيضاً فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية ، وفى الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ، بل إياه تدعون) الآية ، وفى غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

قد قدمنا فى سورة الأنعام أن هذه الخمسة المذكورة فى خاتمة سورة لقمان : أنها هى مفاتح الغيب المذكورة فى قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أوضح ذلك بالسنة الصحيحة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يدبر الأمر من السماء ، إلى الأرض ، وأنه يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة .

وأشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله : (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) ، وقد بين في سورة الحج أن اليوم عنده تعالى كألف سنة مما يعده الناس ، وذلك في قوله تعالى : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقد قال تعالى في سورة سأل سائل : (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

وقد ذكرنا في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] الجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : هو ما أخرجه ابن أبي حاتم ، من طريق سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التي

خلق الله فيها السموات والأرض ، ويوم الألف فى سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ، ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة .

الوجه الثانى : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : (فذلك يومئذ يوم عسير، على الكافرين غير يسير) وقوله تعالى : (يقول الكافرون هذا يوم عسر) .

وقد أوضحنا هذا الوجه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، وقد ذكرنا فى [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب، عن ابن أبى مليكة أنه حضر كلا من ابن عباس وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها ، ويقول : لا أدرى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة أن الذى يقبض أرواح الناس ملك واحد معين ، وهذا هو المشهور ، وقد جاء فى بعض الآثار أن اسمه عزرائيل .

وقد بين تعالى فى آيات أخر أن الناس تتوفاهم ملائكة لا ملك واحد كقوله تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية ، وقوله تعالى : (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) وقوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) الآية . وقوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) إلى غير ذلك من الآيات .

وإيضاح هذا عند أهل العلم أن الموكل بقبض الأرواح ملك واحد ، هو المذكور هنا ، ولكن له أعوان يعملون بأمره ينتزعون الروح إلى الحلقوم ، فيأخذها ملك الموت ، أو يعينونه إعانة غير ذلك .

وقد جاء فى حديث البراء بن عازب الطويل المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر فيه « أن ملك الموت إذا أخذ روح الميت أخذها من يده بسرعة ملائكة فصعدوا بها إلى السماء وقد بين فيه صلى الله عليه وسلم ماتعامل به روح المؤمن وروح الكافر بعد أخذ الملائكة له من ملك الموت حين يأخذها من البدن » وحديث البراء المذكور صححه غير واحد ، وأوضح ابن القيم فى كتاب الروح بطلان تضعيف ابن حزم له .

والحاصل : أن حديث البراء المذكور ، دل على أن مع ملك الموت ملائكة آخرين يأخذون من يده الروح ، حين يأخذه من بدن الميت . وأما قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فلا إشكال فيه ، لأن الملائكة لا يقدرون أن يتوفوا أحداً إلا بمشيئته جل وعلا (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا) .

فتحصل : أن إسناد التوفى إلى ملك الموت فى قوله هنا (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) لأنه هو المأمور بقبض الأرواح ، وأن إسناده للملائكة فى قوله تعالى : (فكيف إذا توفتهم الملائكة) الآية . ونحوها من الآيات ، لأن لملك الموت أعواناً يعملون بأمره ، وأن إسناده إلى الله فى قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها) لأن كل شىء كائناً ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء) الآية . وفى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) الآية .

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان الآيات الدالة على العواقب السيئة ، الناشئة عن الأعراض ، عن التذكير بآيات الله فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه) .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ .

قد قدمنا بعض الآيات الموضحة له فى آخر سورة مريم ، فى الكلام على قوله تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) .

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن ذلك لآيات لأولى النهى) وقد أوضحنا تفسير الأرض الجرز مع بعض الشواهد العربية فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزا) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ .

أظهر أقوال أهل العلم عندى هو أن الفتح فى هذه الآية الكريمة ، هو الحكم والقضاء ، وقد قدمنا أن الفتاح القاضى وهى لغة حميرية قديمة . والفتاحة الحكم والقضاء ، ومنه قوله :

ألا من مبلغ عمراً رسولا بأنى عن فتاحتكم غنى

وقد جاءت آيات تدل على أن الفتح الحكم ، كقوله تعالى عن نبيه شعيب (على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) أى احكم بيننا بالحق ، وأنت خير الحاكمين .

وقوله تعالى عن نبيه نوح : (قال رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحاً) الآية . أى احكم بينى وبينهم حكما . وقوله تعالى : (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) وقوله تعالى : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أى إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم ، ومن النبى صلى الله عليه وسلم فقد جاءكم الفتح : أى الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر ، كما قاله غير واحد ، وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر ، جاء أبو جهل ، وتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم إنا قطان بيتك نسقى الحجيج ، ونفعل ونفعل ، وإن محمداً قطع الرحم وفرق الجماعة ، وعاب الدين ، وشتم الآلهة ، وسفه أحلام الآباء ، اللهم أهلك الظالم منا ومنه فطلب الحكم على الظالم ، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر ، وصاروا إلى الخلود فى النار إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى قول من قال : من أهل العلم إن المراد بالفتح فى الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة فلا إشكال فى قوله تعالى : (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) وعلى القول بأن المراد بالفتح فى الآية الحكم بينهم فى الدنيا بهلاك الكفار . كما وقع يوم بدر ، فالظاهر أن معنى قوله تعالى : (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) أى إذا عاينوا الموت ؛ وشاهدوا القتل بدليل قوله تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وقوله تعالى : (وليست التوبة للذين يعملون

السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) الآية . وقوله تعالى : فى فرعون (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم : إن الفتح فى هذه الآية : فتح مكة أنه غير صواب بدليل قوله تعالى : (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) ومعلوم أن فتح مكة لا يمنع انتفاع المؤمن فى وقته بإيمانه كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ .

جاء معناه موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) ومعلوم أن التربص هو الانتظار . وقوله تعالى : (قل انتظروا إنا منتظرون) إلى غير ذلك من الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية.

قد قدمنا الآيات الموضحة لمثله فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تجعل مع الله إلها آخر) الآية ، وما دلت عليه آية الأحزاب هذه ، من أن الخطاب الخاص لفظه بالنبى صلى الله عليه وسلم يشمل حكمه جميع الأمة ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾

فى هذا الحرف أربع قراءات سبعية : قرأه عاصم وحده : تظاهرون بضم التاء وتخفيف الظاء بعدها ألف فهاء مكسورة مخففة ، وقرأه حمزة والكسائى : تظاهرون بفتح التاء بعدها ظاء مفتوحة مخففة ، فألف فهاء مفتوحة مخففة ، وقرأه ابن عامر وحده كقراءة حمزة والكسائى : إلا أن ابن عامر يشدد الظاء ، وهما يخففانها ، وقرأه نافع وابن كثير ، وأبو عمرو : تظهرون بفتح التاء بعدها ظاء فهاء مفتوحتان مشددتان بدون ألف ، فقوله تعالى : تظاهرون ، على قراءة عاصم مضارع ظاهر بوزن فاعل ، وعلى قراءة حمزة ، والكسائى فهو مضارع تظاهر بوزن تفاعل حذفت فيه إحدى التاءين على حد قوله فى الخلاصة :

وما بتاءين ابتدى قد يقتصر فيـــه على تاكتبين العبر

فالأصل على قراءة الأخوين تتظاهرون ، فحذفت إحدى التاءين وعلى قراءة ابن عامر ، فهو مضارع تظاهر أيضا ، كقراءة حمزة والكسائى ، إلا أن إحدى التاءين ، أدغمت فى الظاء ، ولم تحذف وماضيه اظاهر كادارك ، واثاقلتم ، وادارأتم ، بمعنى تدارك. الخ

وعلى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو فهو مضارع تظهر على وزن تفعل ، وأصله تتظهرون بتاءين ، فأدغمت إحدى التاءين فى الظاء ، وماضيه : اظهر نحو اطيرنا وازينت بمعنى : تطيرنا ، وتزينت ، كما قدمنا إيضاحه فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (فإذا هى تلقف ما يأفكون) فعلم مما ذكرنا أن قولهم ظاهر من امرأته ، وتظاهر منها ، وتظهر منها كلها بمعنى واحد ، وهو أن يقول لها : أنت على كظهر أمى ، يعنى أنها حرام عليه ، وكانوا يطلقون بهذه الصيغة فى الجاهلية .

وقد بين الله جل وعلا فى قوله هنا : (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) ، أن من قال لامرأته : أنت على كظهر أمى : لا تكون أما له بذلك ، ولم يزد هنا على ذلك ، ولكنه جل وعلا أوضح هذا فى سورة المجادلة ، فبين أن أزواجهم اللائى ظاهروا منهن لسن أمهاتهم ، وأن أمهاتهم هن النساء التى ولدنهم خاصة دون غيرهن ، وأن قولهم : أنت على كظهر أمى منكر من القول وزور .

وقد بين الكفارة اللازمة فى ذلك عند العود وذلك فى قوله تعالى : ﴿الذين يظهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ، والذين يظهرون من

نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) .

فقوله تعالى فى آية الأحزاب هذه : (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) كقوله تعالى فى سورة المجادلة (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) ، وقد رأيت ما فى سورة المجادلة، من الزيادة والإيضاح لما تضمنته آية الأحزاب هذه .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : قد علمت من القرآن أن الإقدام على الظهار من الزوجة حرام حرمة شديدة كما دل عليه قوله تعالى : (وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا) فما صرح الله تعالى ، بأنه منكر وزور فحرمته شديدة كما ترى . وبين كونه كذبا وزورا بقوله : (ماهن أمهاتهم إن امهاتهم إلا اللائى ولدنهم) وقوله تعالى : (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) .

وأشار بقوله تعالى : (وإن الله لعفو غفور) أن من صدر منه منكر الظهار وزوره، إن تاب إلى الله من ذلك توبة نصوحا غفر له ذلك المنكر والزور ، وعفا عنه ، فسبحانه ما أكرمه ، وما أحلمه .

المسألة الثانية : فى بيان العود الذى رتب الله عليه الكفارة فى قوله : (ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) وإزالة إشكال فى الآية .

اعلم أن هذه المسألة قد بيناها فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] وسنذكر هنا كلامنا المذكور فيه تتميما للفائدة .

ففى دفع إيهام الاضطراب ما نصه : قوله تعالى : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) . لا يخفى أن ترتيبه تعالى الكفارة بالعتق على الظهار والعود معاً يفهم منه أن الكفارة لا تلزم إلا بالظهار والعود معا . وقوله تعالى : (من قبل أن يتماسا) صريح فى أن التكفير يلزم كونه من قبل العود إلى المسيس .

اعلم أولا : أن ما رجحه ابن حزم من قول داود الظاهرى ، وحكاه ابن عبد البر عن بكير بن الأشج ، والفراء ، وفرقة من أهل الكلام وقال ابه شعبة : من أن معنى (ثم يعودون لما قالوا) هو عودهم إلى لفظ الظهار ، فيكررونه مرة أخرى قول باطل، بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستفصل المرأة التى نزلت فيها آية الظهار ، هل كرر زوجها صيغة الظهار أو لا ، وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم فى الأقوال كما تقدم مراراً .

والتحقيق أن الكفارة ومنع الجماع قبلها ، لا يشترط فيهما تكرير صيغة الظهار ، وما زعمه بعضهم أيضاً من أن الكلام فيه تقديم وتأخير، وتقديره : (والذين يظهرون من نسائهم فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ثم يعودون لما قالوا) سالمين من الإثم بسبب الكفارة، غير صحيح أيضاً لما تقرر فى الأصول من وجوب الحمل على بقاء الترتيب ، إلا لدليل . وإليه الإشارة بقول صاحب مراقى السعود :

كذاك ترتيب لإيجاب العمل بما له الرجحان مما يحتمل

وسنذكر إن شاء الله الجواب عن هذا الإشكال على مذاهب الأئمة الأربعة رضى الله عنهم وأرضاهم .

فنقول وبالله تعالى نستعين : معنى العود عند مالك فيه قولان ، تؤولت المدونة على كل واحد منهما وكلاهما مرجح .

الأول : أنه العزم على الجماع فقط .

الثانى : أنه العزم على الجماع وإمساك الزوجة معا ، وعلى كلا القولين فلا إشكال فى الآية .

لأن المعنى حينئذ : والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعزمون على الجماع أو عليه مع الإمساك ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فلا منافاة بين العزم على الجماع ، أو عليه مع الإمساك ، وبين الإعتاق قبل المسيس .

وغاية ما يلزم على هذا القول حذف الإرادة ، وهو واقع فى القرآن كقوله تعالى : (إذا قمتم إلى الصلاة) أى أردتم القيام إليها ، وقوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن) أى أردت قراءته (فاستعذ بالله) الآية .

ومعنى العود عند الشافعى : أن يمسكها بعد المظاهرة زمانا يمكنه أن يطلقها فيه فلا يطلق ، وعليه فلا إشكال فى الآية أيضاً ، لأن إمساكه إياها الزمن المذكور ، لا ينافى التفكير قبل المسيس ، كما هو واضح .

ومعنى العود عند أحمد : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه . أما العزم فقد بينا أنه لا إشكال فى الآية على القول به ، وأما على القول بأنه الجماع .

فالجواب : أنه إن ظاهر وجامع قبل التكفير يلزمه . الكف عن المسيس مرة أخرى ، حتى يكفر ، ولا يلزم من هذا جواز الجماع الأول قبل التكفير ، لأن الآية على هذا القول ، إنما بينت حكم ما إذا وقع الجماع قبل التكفير ، وأنه وجوب التكفير قبل مسيس آخر ، وأما الإقدام على المسيس الأول ، فحرمته معلومة من عموم قوله تعالى : (من قبل أن يتماسا) .

ومعنى العود عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى : هو العزم على الوطء ، وعليه فلا إشكال كما تقدم . وما حكاه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره عن مالك من أنه حكى عنه أن العود الجماع ، فهو خلاف المعروف من مذهبه ، وكذلك ما حكاه عن أبى حنيفة من أن العود هو العود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فهو خلاف المقرر فى فروع الحنفية من أنه العزم على الوطء كما ذكرنا ، وغالب ما قيل فى معنى العود راجع إلى ما ذكرنا من أقوال الأئمة رحمهم الله .

وقال بعض العلماء : المراد بالعود الرجوع إلى الاستمتاع بغير الجماع ، والمراد بالمسيس فى قوله : (من قبل أن يتماسا) خصوص الجماع وعليه فلا إشكال ، ولا يخفى عدم ظهور هذا القول .

والتحقيق عدم جواز الاستمتاع بوطء أو غيره قبل التكفير لعموم قوله : (من قبل أن يتماسا) ، وأجاز بعضهم الاستمتاع بغير الوطء ، قائلا : إن المراد بالمسيس فى قوله : (من قبل أن يتماسا) نفس الجماع لا مقدماته ، وممن قال بذلك : الحسن البصرى ، والثورى ، وروى عن الشافعى فى أحد القولين .

وقال بعض العلماء اللام فى قوله : لما قالوا بمعنى فى أى يعودون فيما قالوا بمعنى يرجعون فيه ، كقوله صلى الله عليه وسلم « الواهب العائد فى هبته » الحديث . وقيل اللام بمعنى : عن : أى يعودون عما قالوا : أى يرجعون عنه ، وهو قريب مما قبله .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن العود له مبدأ ومنتهى ، فمبدؤه العزم على الوطء ومنتهاه الوطء بالفعل ، فمن عزم على الوطء فقد عاد بالنية ، فتلزمه الكفارة لإباحة الوطء ، ومن وطئ بالفعل تحتم فى حقه اللزوم ، وخالف بالإقدام على الوطء قبل التكفير .

ويدل لهذا قوله صلى الله عليه وسلم : لما قال « إذا التقا المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . وقالوا : يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فبين أن العزم على الفعل عمل يؤخذ به الإنسان .

فإن قيل : ظاهر الآية المتبادر ، منها يوافق قول الظاهرية الذى قدمنا بطلانه، لأن الظاهر المتبادر من قوله : لما قالوا إنه صيغة الظهار ، فيكون العود لما تكريرها مرة أخرى .

فالجواب : أن المعنى : لما قالوا إنه حرام عليهم ، وهو الجماع ، ويدل لذلك وجود نظيره فى القرآن فى قوله تعالى : (ونرثه مايقول) أى مايقول إنه يؤتاه من مال وولد فى قوله : (لأوتين مالا وولدا) ، وما ذكرنا من أن من جامع قبل التكفير ، يلزمه الكف عن المسيس مرة أخرى ، حتى يكفر ، هو التحقيق خلافاً لمن قال : تسقط الكفارة بالجماع قبل المسيس كما روى عن الزهرى ، وسعيد بن جبير ، وأبى يوسف ، ولمن قال : تلزم به كفارتان كما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكره بعضهم عن عمرو بن العاص وعبد الرحمن ابن مهدى . ولمن قال تلزمه ثلاث كفارات ، كما رواه سعيد بن منصور ، عن الحسن ، وإبراهيم . والعلم عند الله تعالى . انتهى بطوله من [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] .

المسألة الثالثة : أظهر قولى أهل العلم عندى أنه لو قال لها : أنت على كظهر ابنتى ، أو أختى ، أو جدتى ، أو عمتى أو أمى من الرضاع ، أو أختى من الرضاع أو شبهها بعضو آخر غير الظهر ، كأن يقول : أنت على كرأس ابنتى أو أختى الخ ، أو كبطن من ذكر ، أو فرجها ، أو فخذها أن ذلك كله ظهار ، إذ لافرق فى المعنى بينه ، وبين أنت على كظهر أمى ، لأنه فى جميع ذلك شبه امرأته بمن هى

فى تأبيد الحرمة كأمه ، فمعنى الظهار محقق الحصول فى ذلك .

قال ابن قدامة فى المغنى : وهـذا قول أكثر أهل العلم منهم : الحسن ، وعطاء ، وجابر بن زيد ، والشعبي ، والنخعى ، والزهرى ، والثورى ، والأوزاعى ، ومالك ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأى ، وهو جديد قولى الشافعى .وقال فى القديم : لا يكون الظهار إلا بأم أو جدة لأنها أم أيضاً ،لأن اللفظ الذى ورد به القرآن مختص بالأم ، فإذا عدل عنه لم يتعلق به ما أوجبه الله تعالى فيه ، ولنا أنهن محرمات بالقرابة ، فأشبهن الأم ، فأما الآية فقد قال فيها : (وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا) وهذا موجود فى مسألتنا ، فجرى مجراه ، وتعليق الحكم بالأم لا يمنع ثبوت الحكم فى غيرها إذا كانت مثلها .

الضرب الثالث : أن يشبهها بظهر من تحرم عليه على التأبيد سوى الأقارب ، كالأمهات المرضعات والأخوات من الرضاعة ،وحلائل الآباء ، والأبناء ،وأمهات النساء ، والربائب اللاتى دخل بأمهن فهو ظهار أيضاً ،والخلاف فيها كالتى قبلها ، ووجه المذهبين ماتقدم ، ويزيد فى الأمهات المرضعات دخولها فى عموم الأمهات فتكون داخلة فى النص ، وسائرهن فى معناها ، فثبت فيهن حكمها . انتهى من المغنى . وهو واضح كما ترى .

فرعان يتعلقان بهذه المسألة

الأول : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فيما إذا شبه امرأته بظهر من تحرم عليه تحريماً موقتاً ، كأخت امرأته ، وعمتها وكالأجنبية ، فقال بعض أهل العلم : هو ظهار وهو قول أصحاب مالك ، وهو عندهم من نوع الكناية الظاهرة ، وهو

إحدى الروايتين ، عن أحمد واختارها الخرقى ، والرواية الأخرى عن أحمد : أنه ليس بظهار، وهو مذهب أبى حنيفة ، والشافعى .

وحجة القول الأول : أنه شبه امرأته بمحرمة ، فأشبه مالو شبهها بالأم ، لاشتراك الجميع فى التحريم ، لأنه مجرد قوله : أنت على حرام ، إذا نوى به الظهار ، يكون ظهاراً على الأظهر . والتشبيه بالمحرمة تحريم ، فيكون ظهاراً .

وحجة القول الثانى : أن التى شبه بها امرأته ، ليست محرمة على التأبيد ، فلا يكون لها حكم ظهر الأم إلا إن كان تحريمها مؤبداً كالأم ، ولما كان تحريمها غير مؤبد كان التشبيه بها ليس بظهار كما لوشبهها بظهر حائض ، أو محرمة من نسائه ، وأجاب المخالفون عن هذا : بأن مجرد التشبيه بالمحرمة يكفى فى الظهار لدخوله فى عموم قوله : (وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا)، قالوا : وأما الحائض ، فيباح الاستمتاع بها فى غير الفرج ، والمحرمة يحل له النظر إليها ولمسها من غير شهوة ، وليس فى وطء واحدة منهما حد بخلاف مسألتنا . انتهى من المغنى مع تصرف يسير لا يخل بالمعنى .

وقال صاحب المغنى : واختار أبو بكر : أن الظهار لا يكون إلا من ذوات المحرم من النساء، قال : فبهذا أقول .

وقال بعض العلماء: إن شبه امرأته بظهر الأجنبية ، كان طلاقاً . قاله بعض المالكية اهـ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر أقوال أهل العلم عندى وأجراها على الأصول، هو قول من قال : إنه يكون مظاهراً، ولو كانت التى شبه امرأته بظهرها غير مؤبدة التحريم ، إذ لاحاجة لتأبيد التحريم ، لأن مدار الظهار على تحريم الزوجة بواسطة تشبيهها بمحرمة وذلك حاصل بتشبيهها بامرأة محرمة فى الحال،

ولو تحريماً مؤقتاً لأن تحريم الزوجة حاصل بذلك فى قصد الرجل ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثانى : فى حكم ما لو قال لها : أنت على كظهر أبى أو ابنى أو غيرهما من الرجال ، لا أعلم فى ذلك نصاً من كتاب ، ولا سنة . والعلماء مختلفون فيه . فقال بعضهم : لا يكون مظاهراً بذلك ، قال ابن قدامة فى المغنى : وهو قول أكثر العلماء ، لأنه شبيه بما ليس بمحل للاستمتاع فأشبه ما لو قال : أنت على كمال زيد ، وهل فيه كفارة ؟ على روايتين : إحداهما : فيه كفارة ، لأنه نوع تحريم فأشبه ما لو حرم ماله . والثانية : ليس فيه شىء ، ونقل ابن القاسم عن أحمد ، فيمن شبه امرأته بظهر الرجل ، لا يكون ظهارا ، ولم أره يلزم فيه شىء ، وذلك لأنه تشبيه لامرأته بما ليس بمحل للاستمتاع ، أشبه التشبيه بمال غيره . وقال بعضهم : يكون مظاهراً بالتشبيه بظهر الرجل . وعزاه فى المغنى لابن القاسم صاحب مالك ، وجابر بن زيد . وعن أحمد روايتان ، كالمذهبين المذكورين ، وكون ذلك ظهاراً هو المعروف عند متأخرى المالكية .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر جريان هذه المسألة على مسألة أصولية فيها لأهل الأصول ثلاثة مذاهب ، وهى فى حكم ما إذا دار اللفظ بين الحقيقة العرفية والحقيقة اللغوية ، على أيهما يحمل . والصحيح عند جماعات من الأصوليين : أن اللفظ يحمل على الحقيقة الشرعية أولا إن كانت له حقيقة شرعية ، ثم إن لم تكن شرعية حمل على العرفية ثم اللغوية ، وعن أبى حنيفة : أنه يحمل على اللغوية قبل العرفية ، قال : لأن العرفية ، وإن ترجحت بغلبة الاستعمال فإن الحقيقة اللغوية مترجحة بأصل الوضع .

والقول الثالث : أنهما لا تقدم إحداهما على الأخرى بل يحكم باستوائهما فيكون اللفظ مجملا لاستواء الاحتمالين فيهما فيحتاج إلى بيان المقصود من الاحتمالين

بنية أو دليل خارج . وإلى هذه المسألة أشار فى مراقى السعود بقوله :

واللفظ محمول على الشرعى إن لم يكن فمطلق العرفى
فاللغوى على الجلى ولم يجد بحث عن المجاز فى الذى انتخب
ومذهب النعمان عكس مامضى والقول بالإجمال فيه مرتضى

وإذا علمت ذلك ، فاعلم أن قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أبى مثلا لاينصرف فى الحقيقة العرفية ، إلى الاستمتاع بالوطء أو مقدماته ، لأن العرف ليس فيه استمتاع بالذكور ، فلا يكون فيه ظهار. وأما على تقديم الحقيقة اللغوية ، فمطلق تشبيه الزوجة بمحرم ولو ذكرا ، يقتضى التحريم فيكون بمقتضى اللغة له حكم الظهار ، والظاهر أن قوله : أنت على كالميتة والدم ، وكظهر البهيمة ، ونحو ذلك ، كقوله : أنت على كظهر أبى فيجرى على حكمه . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة : اعلم أن قول الرجل لامرأته أنت على حرام ، أو إن دخلت الدار فأنت حرام ، ثم دخلتها فيها للعلماء نحو عشرين قولا كما هو معروف فى محله .

وقد دلت آية الظهار هذه على أن أقيس الأقوال ، وأقربها لظاهر القرآن قول من قال : إن تحريم الزوجة ظهار ، تلزم فيه كفارة الظهار ، وليس بطلاق .

وإيضاح ذلك : أن قوله : أنت على كظهر أمى معناه : أنت على حرام : وقد صرح تعالى بلزوم الكفارة فى قوله : أنت على كظهر أمى ، ولا يخفى أن أنت على حرام مثلها فى المعنى كما ترى .

وقال فى المغنى : وذكر إبراهيم الحربى عن عثمان وابن عباس ، وأبى قلابة ، وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، والبتى . أنهم قالوا : التحريم

ظهار . اهـ . وأقرب الأقوال بعد هذا الظاهر القرآن القول بكفارة اليمين ، والاستغفار لقوله : (لقد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وقوله : (والله غفور رحيم) بعد قوله : لم تحرم الآية .

المسألة الخامسة : الأظهر أن قوله : أنت عندى أو منى أو معى كظهر أمى لا فرق بينه وبين قوله : أنت على كظهر أمى فهو ظهار كما قاله غير واحد ، وهو واضح كما ترى .

المسألة السادسة : أظهر أقوال أهل العلم عندى فيمن قال لامرأته : أنت علىّ كأمى أو مثل أمى ، ولم يذكر الظهر أنه لا يكون ظهارا إلا أن ينوى به الظهار ، لاحتمال اللفظ معانى أخرى غير الظهار ، مع كون الاستعمال فيها مشهورا ، فإن قال : نويت به الظهار ، فهو ظهار فى قول عامة العلماء . قاله فى المغنى ، وإن نوى به أنها مثلها فى الكرامة عليه والتوقير أو أنها مثلها فى الكبر أو الصفة فليس بظهار والقول قوله فى نيته . قاله فى المغنى .

وأما إن لم ينو شيئا فقد قال فى المغنى : وإن أطلق ، فقال أبو بكر هو صريح فى الظهار ، وهو قول مالك ، ومحمد بن الحسن . وقال ابن أبى موسى : فيه روايتان أظهرهما : أنه ليس بظهار حتى ينويه ، وهذا قول أبى حنيفة والشافعى ، لأن هذا اللفظ يستعمل فى الكرامة أكثر مما يستعمل فى التحريم ، فلم ينصرف إليه بغير نية ككنايات الطلاق . انتهى منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا القول هو الأظهر عندى ، لأن اللفظ المذكور ، لا يتعين للظهار لا عرفا ولا لغة ، إلا لقرينة تدل على قصده الظهار .

قال ابن قدامة فى المغنى : ووجه الأول يعنى القول بأن ذلك ظهار أنه

شبه امرأته بجملة أمه ، فكان مشبها لها بظهرهما ، فيثبت الظهار كما لو شبهها به منفرداً .

والذى يصح عندى فى قياس المذهب أنه إن وجدت قرينة تدل على الظهار مثل أن يخرجه مخرج الحلف ، فيقول : إن فعلت كذا فأنت على مثل أمى ، أو قال ذلك حال الخصومة ، والغضب فهو ظهار ، لأنه إذا خرج مخرج الحلف فالحلف يراد للامتناع من شىء أوالحث عليه ، وإنما يحصل ذلك بتحريمها عليه، ولأن كونها مثل أمه فى صفتها أو كرامتها لا يتعلق على شرط فيدل على أنه إنما أراد الظهار ؟ ووقوع ذلك فى حال الخصومة والغضب دليل على أنه أراد به مايتعلق بأذاها ، ويوجب اجتنابها وهو الظهار ، وإن عدم هـذا فليس بظهار ، لأنه محتمل لغير الظهار احتمالا كثيراً . فلا يتعين الظهار فيه بغير دليل. ونحوهذا قول أبى ثور . انتهى محل الغرض من المغنى ، وهو الأظهر فلا ينبغى العدول عنه والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة : أظهر أقوال أهل العلم عندى أنه إن قال : الحل على حرام أو ما أحل الله على حرام ، أو ما أنقلب إليه حرام وكانت له امرأة أنه يكون مظاهراً ، وذلك لدخول الزوجة فى عموم الصيغ المذكورة .

قال فى المغنى : نص على ذلك أحمد فى الصور الثلاث اه . وهو ظاهر .

وهذا على أقيس الأقوال ، وهو كون التحريم ظهاراً ، وأظهر القولين عندى فيمن قال : ما أحل الله من أهل ومال حرام على أنه يلزمه الظهار ، مع لزوم مايلزم فى تحريم ما أحل الله من مال ، وهو كفارة يمين عند من يقول بذلك ، وعليه فتلزمه كفارة ظهار وكفارة يمين .

وهذا الذى استظهرنا هو الذى اختاره ابن عقيل خلافاً لما نقله فى المغنى

عن أحمد ونصره من أنه يكفى فيه كفارة الظهار عن كفارة اليمين ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثامنة : أظهر أقوال أهل العلم عندى ، فيمن قال لامرأته : أنت علىّ حرام كظهر أمتى ، أو أنت علىّ كظهر أمى حرام : أنه يكون مظاهراً مطلقاً ، ولا ينصرف للطلاق ، ولو نواه ، لأن الصيغة صريحة فى الظهار .

المسألة التاسعة : أظهر أقوال أهل العلم عندى فيمن قال : لامرأته أنت طالق كظهر أمى ، أن الطلاق إن كان بائنا بانت به ، ولا يقع ظهار بقوله : كظهر أمى ، لأن تلفظه بذلك وقع ، وهى أجنبية فهو كالظهار من الأجنبية ، وإن كان الطلاق رجعياً ، ونوى بقوله كظهر أمى الظهار كان مظاهراً ، لأن الرجعية زوجة يلحقها الظهار والطلاق ، وإن لم ينو به الظهار ، فلا يكون ظهاراً ، لأنه أتى بصريح الطلاق أولا ، وجعل قوله : كظهر أمى صفة له ، وصريح الطلاق لاينصرف إلى الظهار . ونقل فى المغنى هذا الذى استظهرنا عن القاضى . وقال : وهو مذهب الشافعى . وأما لو قدم الظهار على الطلاق فقال : أنت علىّ كظهر أمى طالق ، فالأظهر وقوع الظهار والطلاق معاً سواء كان الطلاق بائنا أو رجعيا ، لأن الظهار لا يرفع الزوجية ، ولا تحصل به البينونة ، لأن الكفارة ترفع حكمه ، فلا يمنع وقوع الطلاق على المظاهر منها . والعلم عند الله تعالى .

المسألة العاشرة : أظهر أقوال أهل العلم عندى : أنه إن شبه أى عضو من امرأته بظهر أمه ، أى عضو من أعضائها ، فهو مظاهر لحصول معنى تحريم الزوجة بذلك . وسواء كان عضو الأم يجوز له النظر إليه كرأسها ويدها أو لا يجوز له كفرجها وفخذها ، وهذا قول مالك ، والشافعى ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، ورواية أخرى : أنه لا يكون مظاهراً ، حتى يشبه جملة امرأته ، لأنه لو حلف بالله لا يمس عضواً معيناً منها لم يسر إلى غيره من أعضائها ، فكذلك المظاهرة ، ولأن هذا ليس بمنصوص

عليه ، ولاهو فى معنى المنصوص، وعن أبى حنيفة : إن شبهها بما يحرم النظر إليه من الأم كالفخذ والفرج فهو ظهار ، وإن شبهها بما يجوز النظر إليه ، كاليد والرأس فليس بظهار ، لأن التشبيه بعضو يحل النظر إليه كالتشبيه بعضو زوجة له أخرى ، فلا يحصل به الظهار ، وإنما استظهرنا أنه ظهار مطلقا ، لأن معنى التحريم حاصل به ، فهو فى معنى صريح الظهار فقولهم: ولاهو فى معنى المنصوص ليس بمسلم ، بل هو فى معناه ، وقياسه على حلفه بالله لا يمس عضواً معيناً منها ظاهر السقوط ، لأن معنى التحريم يحصل ببعض ، والحلف عن بعض لا يسرى إلى بعض آخر ، كما ترى . وقول أبى حنيفة : إن العضو الذى يحل النظر إليه : لايحصل الظهار بالتشبيه به غير مسلم أيضاً ، لأنه وإن جاز النظر إليه فإن التلذذ به حرام ، والتلذذ هو المستفاد من عقد النكاح ، فالتشبيه به مستلزم للتحريم ، والظهار هو نفس التحريم بواسطة التشبيه بعض الأم المحرم .

واعلم أن القول بأن الظهار يحصل بقوله : شعرك ، أو ريقك، أو كلامك على كظهر أمى، له وجه قوى من النظر ، لأن الشعر من محاسن النساء التى يتلذذ بها الأزواج كما بيناه فى سورة الحج ، وكذلك الريق فإن الزوج يمصه ويتلذذ به من امرأته ، وكذلك الكلام كما هو معروف . وأما لوقال لها : سعالك أو بصاقك ، أو نحو ذلك على كظهر أمى ، فالظاهر أن ذلك ليس بشىء ، لأن السعال والبصاق وما يجرى مجراهما ، كالدمع ليس مما يتمتع به عادة والعلم عند الله تعالى .

المسألة الحادية عشرة : اختلف العلماء فيمن قال لأمته : أنت على كظهر أمى ، أو قال ذلك لأم ولده ، فقال بعض أهل العلم : لايصح الظهار من المملوكة، وهو مروى عن ابن عمر ، وعبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، والشعبى، وربيعة ، والأوزاعى ، والشافعى، وأبى حنيفة وأصحابه، وأحمد ، وقال بعضهم : يصح الظهار من الأمة أم ولد كانت أو غيرها ، وهو مذهب مالك ،

وهو مروى أيضاً عن الحسن ، وعكرمة والنخعى ، وعمرو بن دينار ، وسليمان ابن يسار ، والزهرى ، والحكم ، والثورى، وقتادة ، وهو رواية عن أحمد، وعن الحسن ، والأوزاعى : إن كان يطؤها فهو ظهار ، وإلا فلا . وعن عطاء : إن ظاهر من أمته ، فعليه نصف كفارة الظهار من الحرة .

واحتج الذين قالوا : إن الأمة لا يصح الظهار منها بأدلة:

منها : أنهم زعموا أن قوله : يظاهرون من نسائهم يختص بالأزواج دون الإماء .

ومنها : أن الظهار لفظ يتعلق به تحريم الزوجة فلا تدخل فيه الأمة قياساً على الطلاق .

ومنها : أن الظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فنقل حكمه ، وبقى محله ، ومحل الطلاق الأزواج دون الإماء .

ومنها : أن تحريم الأمة تحريم لمباح من ماله ، فكانت فيه كفارة يمين كتحريم سائر ماله عند من يقول : بأن تحريم المال فيه كفارة يمين كما تقدم فى سورة الحج .

قالوا : ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم حرم جاريته مارية ، فلم يلزمه ظهار بل كفارة يمين، كما قال تعالى فى تحريمه إياها (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) ، ثم قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الآية .

واحتج القائلون بصحة الظهار من الأمة بدخولها فى عموم قوله تعالى : (والذين يظهرون من نسائهم) قالوا : وإماؤهم من نسائهم، لأن تمتعهم بإمائهم من تمتعهم بنسائهم قالوا : ولأن الأمة يباح وطؤها ، كالزوجة فصح الظهار منها كالزوجة ،قالوا: وقوله تعالى(يا أيها النبى لم تحرم) نزلت فى تحريمه صلى الله عليه وسلم

شرب العسل فى القصة المشهورة ، لا فى تحريم الجارية وحجة الحسن والأوزاعى وحجة عطاء كلتاهما واضحة مما تقدم .

وقال ابن العربى المالكى فى قول مالك وأصحابه : بصحة الظهار من الأمة ، وهى مسألة عسيرة علينا ، لأن مالكا يقول : إذا قال لأمته أنت على حرام لا يلزم ، فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته ، ولكن تدخل الأمة فى عموم قوله : من نسائهم ، لأنه أراد من محللاتهم .

والمعنى فيه : أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد ، فصح فى الأمة أصله الحلف بالله تعالى اه منه. بواسطة نقل القرطبى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا يبعد بمقتضى الصناعة الأصولية ، والمقرر فى علوم القرآن : أن يكون هناك فرق بين تحريم الأمة وتحريم الزوجة .

وإيضاح ذلك : أن قوله تعالى : (لم تحرم ما أحل الله لك) جاء فى بعض الروايات الصحيحة فى السنن وغيرها ، أنه نزل فى تحريم النبى صلى الله عليه وسلم جاريته مارية أم إبراهيم ، وإن كان جاء فى الروايات الثابتة فى الصحيحين : أنه نزل فى تحريمه العسل الذى كان شربه عند بعض نسائه ، وقصة ذلك مشهورة صحيحة ، لأن المقرر فى علوم القرآن أنه إذا ثبت نزول الآية فى شىء معين ، ثم ثبت بسند آخر صحيح أنها نزلت فى شىء آخر معين غير الأول ، وجب حملها على أنها نزلت فيهما معا ، فيكون لنزولها سببان ، كنزول آية اللعان فى عويمر ، وهلال معاً .

وبه تعلم أن ذلك يلزمه أن يقال : إن قوله تعالى : (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) الآية نزل فى تحريمه صلى الله عليه وسلم العسل على نفسه ، وفى تحريمه جاريته ، وإذا علمت بذلك نزول قوله : لم تحرم ، فى تحريم الجارية :

علمت أن القرآن دل على أن تحريم الجارية لا يحرمها ، ولا يكون ظهاراً منها وأنه تلزم فيه كفارة يمين ، كما صح عن ابن عباس ومن وافقه ، وقد قال ابن عباس : لما بين أن فيه كفارة يمين (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ، ومعناه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كفر عن تحريمه جاريته كفارة يمين ، لأن الله تعالى قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) بعد تحريمه صلى الله عليه وسلم جاريته المذكورة فى قوله : (لم تحرم ما أحل الله لك) ومن قال من أهل العلم : إن من حرم جاريته لاتلزمه كفارة يمين ، وإنما يلزمه الاستغفار فقط ، فقد احتج بقوله تعالى : (والله غفور رحيم) بعد قوله : لم تحرم ، وقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما حرم جاريته قال مع ذلك « والله لا أعود إليها » وهذه اليمين هى التى نزل فى شأنها (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) ، ولم تنزل فى مطلق تحريم الجارية ، واليمين المذكورة ، مع التحريم فى قصة الجارية قال فى نيل الأوطار : رواها الطبرانى بسند صحيح عن زيد بن أسلم . التابعى المشهور ، لكنه أرسله . اهـ. وكذلك رواه عنه ابن جرير .

وقال ابن كثير فى تفسيره : إن الهيثم بن كليب رواه فى مسنده بسند صحيح وساق السند المذكور عن عمر رضى الله عنه ، والمتن فيه التحريم واليمين كما ذكرنا ، وعلى ماذكرنا من أن آية (لم تحرم ما أحل الله لك) نزلت فى تحريمه صلى الله عليه وسلم جاريته ، فالفرق بين تحريم الجارية ، والزوجة ظاهر ، لأن آية لم تحرم دلت على أن تحريم الجارية لا يحرمها ، ولا يكون ظهاراً وآية : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة) الآية . دلت على أن تحريم الزوجة تلزم فيه كفارة الظهار المنصوص عليها فى المجادلة لأن معنى (يظاهرون من نسائهم) على جميع القراءات هو أن يقول أحدهم لامرأته : أنت على كظهر أمى . وهذا لاخلاف فيه ، وقوله : أنت على كظهر أمى معناه

أنت على حرام ، كما تقدم إيضاحه ، وعلى هذا فقد دلت آية التحريم على حكم تحريم الأمة ، وآية المجادلة على حكم تحريم الزوجة ، وهما حكمان متغايران كما ترى ، ومعلوم أن ابن عباس رضى الله عنهما لم يقل بالفرق بينهما بل قال : إن حكم تحريم الزوجة ، كحكم تحريم الجارية المنصوص فى آية التحريم ، ونحن نقول : إن آية الظهار تدل بفحواها على أن تحريم الزوجة ظهار ، لأن أنت على كظهر أمى ، وأنت على حرام معناهما واحد كما لايخفى ،وعلى هذا الذى ذكرنا فلا يصح الظهار من الأمة ، وإنما يلزم فى تحريمها بظهار ، أو بصريح التحريم كفارة يمين أو الاستغفار كما تقدم ، وهذا أقرب لظاهر القرآن ، وإن كان كثير من العلماء على خلافه .

وقد قدمنا أن تحريم الرجل امرأته فيه للعلماء عشرون قولا ، وسنذكرها هنا باختصار ونبين ما يظهر لنا رجحانه بالدليل منها إن شاء الله تعالى .

القول الأول: هو أن تحريم الرجل امرأته لغو باطل، لايترتب عليه شىء . قال ابن القيم فى إعلام الموقعين : وهو إحدى الروايتين ، عن ابن عباس ، وبه قال مسروق ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعطاء ، والشعبي ؛ وداود وجميع أهل الظاهر ، وأكثر أصحاب الحديث ، وهو أحد قولى المالكية . اختاره أصبغ بن الفرج . وفى الصحيح عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يقول : إذا حرم الرجل امرأته ، فليس بشىء (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وصح عن مسروق أنه قال : ما أبالى أحرمت امرأتى أو قصعة من ثريد . وصح عن الشعبي فى تحريم المرأة لهو أهون على من نعلى . وقال أبو سلمة : ما أبالى أحرمت امرأتى أو حرمت ماء النهر . وقال الحجاج ابن منهال: إن رجلا جعل امرأته عليه حراماً ، فسأل عن ذلك حميد بن عبدالرحمن ، فقال حميد قال الله تعالى : (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) . وأنت

رجل تلعب فاذهب فالعب . اهـ منه .

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) . وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وعموم قوله تعالى : (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) . وعموم قوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) الآية . وعموم قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، ومعلوم أن تحريم ما أحل الله ليس من أمرنا.

القول الثاني : أن التحريم ثلاث تطليقات ، قال في أعلام الموقعين : وبه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وزيد بن ثابت ، وابن عمر ، والحسن البصري ، ومحمد عبدالرحمن بن أبي ليلى . وقضى فيها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالثلاث في عدي بن قيس الكلابي ، وقال : والذي نفسي بيده لئن مسستها قبل أن تتزوج غيرك لأرجمنك: وقال في زاد المعاد : وروى عن الحكم بن عتيبة ثم قال : قلت الثابت عن زيد بن ثابت وابن عمر : أن في ذلك كفارة يمين ، وذكر في الزاد أيضاً : أن ابن حزم نقل عن علي الوقف في ذلك ، وحجة هذا القول بثلاث أنها لا تحرم عليه إلا بالثلاث ، فكان وقوع الثلاث من ضرورة كونها حراماً عليه .

القول الثالث : أنها حرام عليه بتحريمه إياها : قال في أعلام الموقعين : وصح هذا أيضاً عن أبي هريرة ، والحسن ، وخلاس بن عمرو ، وجابر بن زيد وقتادة ، ولم يذكر هؤلاء طلاقا بل أمروه باجتنابها فقط . وصح ذلك أيضاً عن علي رضي الله عنه ، فإما أن يكون عنه روايتان ، وإما أن يكون أراد تحريم الثلاث ، وحجة هذا القول أن لفظه إنما اقتضى التحريم ، ولم يتعرض لعدد الطلاق فحرمت عليه بمقتضى تحريمه .

القول الرابع : الوقف. قال فى إعلام الموقعين: صح ذلك أيضاً عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وهو قول الشعبى ، وحجة هذا القول : أن التحريم ليس بطلاق ، وهو لا يملك تحريم الحلال ، إنما يملك إنشاء السبب الذى يحرم به ، وهو الطلاق وهذا ليس بصريح فى الطلاق ، ولا هو مما ثبت له عرف الشرع فى تحريم الزوجة ، فاشتبه الأمر فيه فوجب الوقف للاشتباه .

القول الخامس : إن نوى به الطلاق فهو طلاق ، وإلا فهو يمين . قال فى الأعلام : وهذا قول طاوس والزهرى ، والشافعى ، ورواية عن الحسن اهـ .

وحكى هذا القول أيضاً عن النخعى وإسحاق وابن مسعود وابن عمرو حجة هذا القول ، أن التحريم كناية فى الطلاق ، فإن نواه به كان طلاقا ، وإن لم ينوه كان يميناً لقوله تعالى : (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك) إلى قوله تعالى : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) .

القول السادس :أنه إن نوى به الثلاث فثلاث ، وإن نوى واحدة فواحدة بائنة ، وإن نوى يمينا فهو يمين ، وإن لم ينو شيئاً فهو كذبة لاشىء فيها ، قاله سفيان ، وحكاه النخعى عن أصحابه ، وحجة هذا القول ، أن اللفظ محتمل لما نواه من ذلك فيتبع نيته .

القول السابع : مثل هذا إلا أنه إن لم ينو شيئاً فهو يمين يكفرها ، وهو قول الأوزاعى . وحجة هـــذا القول ظاهر قوله تعالى : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) .

القول الثامن مثل هذا أيضاً ، إلا أنه إن لم ينو شيئاً فواحدة بائنة إعمالا للفظ التحريم ، هكذا ذكر هذا القول فى : أعلام الموقعين ولم يعزه لأحد .

وقال صاحب نيل الأوطار : وقد حكاه ابن حزم عن إبراهيم النخعى .

القول التاسع : أن فيه كفارة الظهار . قال فى أعلام الموقعين : وصح ذلك عن ابن عباس أيضاً ، وأبى قلابة ، وسعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وعثمان البتى ، وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد ، وحجة هذا القول أن الله تعالى جعل تشبيه المرأة بأمه المحرمة عليه ظهاراً وجعله منكراً من القول وزورا ، فإذا كان التشبيه بالمحرمة يعجله مظاهراً ، فإذا صرح بتحريمها كان أولى بالظهار ، وهذا أقيس الأقوال وأفقهها ، ويؤيده أن الله لم يجعل للمكلف التحريم والتحليل ، وإنما ذلك إليه تعالى ، وإنما جعل له مباشرة الأفعال والأقوال ، التى يترتب عليها التحريم والتحليل ، فالسبب إلى العبد وحكمه إلى الله تعالى ، فإذا قال : أنت على كظهر أمى أو قال : أنت على حرام ، فقد قال من القول والزور ، وقد كذب ، فإن الله لم يجعلها كظهر أمه ، ولا جعلها عليه حرام ، فأوجب عليه بهذا القول من المنكر والزور أغلظ الكفارتين وهى كفارة الظهار .

القول العاشر : أنه تطليقة واحدة . وهى إحدى الروايتين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقول حماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، وحجة هذا القول أن تطليق التحريم لا يقتضى التحريم بالثلاث ، بل يصدق بأقله والواحدة متيقنة ، فحمل اللفظ عليها ، لأنها اليقين فهو نظير التحريم بانقضاء العدة .

القول الحادى عشر : أنه ينوى فيما أراد من ذلك ، فيكون له نيته فى أصل الطلاق وعدده ، وإن نوى تحريماً بغير طلاق فيمين مكفرة . قال ابن القيم : وهو قول الشافعى .

وحجة هذا القول : أن اللفظ صالح لذلك كله ، فلا يتعين واحد منها إلا بالنية ، فإن نوى تحريماً مجرداً كان امتناعا منها بالتحريم كامتناعه باليمين ، ولا تحرم عليه فى الموضعين اه . وقد تقدم أن مذهب الشافعى هو القول الخامس .

قال فى نيل الأوطار : وهو الذى حكاه عنه فى فتح البارى بل حكاه عنه ابن القيم نفسه .

القول الثانى عشر : أنه ينوى فى أصل الطلاق وعدده ، إلا أنه إن نوى واحدة كانت بائنة ، وإن لم ينو طلاقاً فهو مؤول ، وإن نوى الكذب فليس بشىء وهو قول أبى حنيفة وأصحابه .

وحجة هذا القول احتمال اللفظ لما ذكره ، إلا أنه نوى واحدة كانت بائنة، لاقتضاء التحريم للبينونة،وهى صغرى وكبرى ، والصغرى هى المتحققة ، فاعتبرت دون الكبرى ، وعنه رواية أخرى إن نوى الكذب دين ، ولم يقبل فى الحكم بل يكون مؤليا ، ولا يكون ظهاراً عنده نواه ، أو لم ينوه ولو صرح به فقال : أعنى بها الظهار لم يكن مظاهراً انتهى من أعلام الموقعين .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار ، بعد أن ذكر كلام ابن القيم : الذى ذكرناه آنفاً إلى قوله : وهو قول أبى حنيفة وأصحابه هكذا قال ابن القيم : وفى الفتح عن الحنفية : أنه إذا نوى اثنتين فهى واحدة بائنة ، وإن لم ينو طلاقا فهى يمين ويصير مؤليا اهـ .

القول الثالث عشر : أنه يمين يكفره ما يكفر اليمين . قال ابن القيم فى أعلام الموقعين : صح ذلك عن أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وعائشة ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعكرمة وعطاء ، ومكحول ، وقتادة ، والحسن ، والشعبى ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وجابر بن زيد ، وسعيد بن جبير ، ونافع ، والأوزاعى ، وأبى ثور ، وخلق سواهم رضى الله عنهم .

وحجة هذا القول ظاهر فى القرآن العظيم ، فإن الله تعالى ذكر فرض تحلة

الأيمان عقب تحريم الحلال ، فلا بد أن يتناوله يقيناً فلا يجوز جعل تحلة الأيمان لغير المذكور قبلها ، ويخرج المذكور عن حكم التحلة التى قصد ذكرها لأجله . اهـ منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر أن ابن القيم أراد بكلامه هذا أن صورة سبب النزول قطعية الدخول ، وأن قوله: (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) نازل فى تحريم الحلال المذكور فى قوله تعالى . (لم تحرم ما أحل الله لك) وما ذكره من شمول قوله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) لقوله : (لم تحرم ما أحل الله لك) على سبيل اليقين . والجزم لا يخلو عندى من نظر لما قدمنا عن بعض أهل العلم من أن قوله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) نازل فى حلف النبى صلى الله عليه وسلم لا يعود لما حرم على نفسه لا فى أصل التحريم ، وقد أشرنا للروايات الدالة على ذلك فى أول هذا البحث .

القول الرابع عشر : أنه يمين مغلظة يتعين فيها عتق رقبة . قال ابن القيم : وصح ذلك أيضاً عن ابن عباس ، وأبى بكر ، وعمر ، وابن مسعود ، وجماعة من التابعين .

وحجة هذا القول أنه لما كان يميناً مغلظة غلظت كفارتها بتحتم العتق ، ووجه تغليظها ، تضمنها تحريم ما أحل الله ، وليس إلى العبد . وقول المنكر والزور ، وإن أراد الخبر فهو كاذب فى إخباره معتد فى إقسامه ، فغلظت كفارته بتحتم العتق كما غلظت كفارة الظهار به أو بصيام شهرين ، أو بإطعام ستين مسكيناً.

القول الخامس عشر : أنه طلاق ثم إنها إن كانت غير مدخول بها ، فهو ما نواه من الواحدة وما فوقها . وإن كانت مدخولا بها فثلاث ، وإن نوى أقل منها ، وهو إحدى الروايتين عن مالك .

وحجة هذا القول : أن اللفظ لما اقتضى التحريم وجب أن يرتب عليه حكمه وغير المدخول بها تحرم بواحدة ، والمدخول بها لا تحرم إلا بالثلاث .

وبعد : ففى مذهب مالك خمسة أقوال هذا أحدها : وهو مشهورها . والثانى أنها ثلاث بكل حال نوى الثلاث أو لم ينوها اختاره عبد الملك فى مبسوطه . والثالث : أنها واحدة بائنة مطلقاً حكاه ابن خويز منداد رواية عن مالك . والرابع : أنه واحدة رجعية ، وهو قول عبد العزيز بن أبى سلمة . والخامس : أنه ما نواه من ذلك مطلقاً ، سواء قبل الدخول أو بعده ، وقد عرفت توجيه هذه الأقوال . انتهى من أعلام الموقعين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : المعروف أن المعتمد من هذه الأقوال عند المالكية : اثنان وهما القول بالثلاث ، وبالواحدة البائنة ، وقد جرى العمل فى مدينة فاس بلزوم الواحدة البائنة فى التحريم . قال ناظم عمل فاس :

وطلقة بائنة فى التحريم وحلف به لعرف الإقليم

ثم قال ابن القيم رحمه الله فى أعلام الموقعين : وأما تحرير مذهب الشافعى فإنه إن نوى به الظهار كان ظهاراً ، وإن نوى التحريم كان تحريماً لا يترتب عليه إلا تقدم الكفارة ، وإن نوى الطلاق كان طلاقاً ، وكان ما نواه . وإن أطلق فلأصحابه فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه صريح فى إيجاب الكفارة .

والثانى : لا يتعلق به شىء .

والثالث : أنه فى حق الأمة صريح فى التحريم الموجب للكفارة ، وفى حق الحرة كناية ، قالوا : إن أصل الآية إنما ورد فى الأمة ، قالوا فلو قال : أنت على

حرام ، وقال أردت بها الظهار والطلاق. فقال ابن الحداد : يقال له عين إحدى الأمرين، لأن اللفظة الواحدة لا تصلح للظهار والطلاق معاً ، وقيل : يلزمه ما بدأ به منهما ، قالوا : ولو ادعى رجل على رجل حقاً أنكره فقال: الحل عليك حرام والنية نيتي لا نيتك مالي عليك شيء فقال : الحل على حرام والنية في ذلك نيتك مالك عندي شيء كانت النية نية الحالف لا المحلف ، لأن النية إنما تكون ممن إليه الإيقاع ثم قال : وأما تحرير مذهب الإمام أحمد فهو أنه ظهار بمطلقة، وإن لم ينوه إلا أن ينوي الطلاق أو اليمين ، فيلزمه ما نواه ، وعنه رواية ثانية أنه يمين بمطلقه ، إلا أن ينوي به الطلاق ، أو الظهار فيلزمه مانواه ، وعنه رواية ثالثة : أنه ظهار بكل حال ، ولو نوى به الطلاق أو اليمين لم يكن يميناً ، ولا طلاقا كما لو نوى الطلاق أو اليمين بقوله : أنت على كظهر أمي ، فإن اللفظين صريحان في الظهار ، فعلى هذه الرواية لو وصله بقوله : أعني به الطلاق ، فهل يكون طلاقاً أو ظهاراً ؟على روايتين : إحداهما : يكون ظهاراً كما لو قال : أنت على كظهر أمي أعني به الطلاق ، أو التحريم ، إذ التحريم صريح في الظهار . والثانية: أنه طلاق ، لأنه قد صرح بإرادته بلفظ يحتمله ، وغايته أنه كناية فيه ، فعلى هذه الرواية إن قال : أعني به طلاقا طلقت واحدة ، وإن قال : أعني به الطلاق ، فهل تطلق ثلاثا أو واحدة ؟ على روايتين مأخذهما هل اللام على الجنس أو العموم ، وهذا تحرير مذهبه وتقريره ، وفي المسألة مذهب آخر وراء هذا كله ، وهو أنه إن أوقع التحريم ، كان ظهاراً ولو نوى به الطلاق ، وإن حلف به كان يمينا مكفرة ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعليه يدل النص والقياس، فإنه إذا أوقعه كان قد أتى منكراً من القول وزوراً ، وكان أولى بكفارة الظهار ممن شبه امرأته بالمحرمة ، وإذا حلف به كان يمينا من الأيمان كما لو حلف بالتزام الحج والعتق والصدقة ، وهذا محض القياس والفقه ألا ترى أنه إذا قال : لله علي أن أعتق ، أو أحج ، أو أصوم ، لزمه ، ولو قال : إن كلمت فلانا فلله علي

ذلك وجه اليمين ، فهو يمين وكذلك لو قال : هو يهودى أو نصرانى كفر بذلك . ولو قال : إن فعل كذا فهو يهودى أو نصرانى كان يمينا . وطرد هذا بل نظيره من كل وجه أنه إذا قال : أنت على كظهر أمى كان ظهارا ، فلو قال : إن فعلت كذا ، فأنت على كظهر أمى كان يمينا ، وطرد هـذا أيضاً إذا قال : أنت طالق كان طلاقا ولو قال : إن فعلت كذا فأنت طالق كان يمينا ، فهذه هى الأصول الصحيحة المطردة المأخوذ من الكتاب والسنة والميزان ، وبالله التوفيق ، انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر أقوال أهل العلم عندى مع كثرتها وانتشارها : أن التحريم ظهار ، سواء كان منجزا أو معلقا ، لأن المعلق على شرط من طلاق أو ظهار يجب بوجود الشرط المعلق عليه ، ولا ينصرف إلى اليمين المكفرة على الأظهر عندى ، وهو قول أكثر أهل العلم .

وقال مالك فى الموطإ : فقال القاسم بن محمد : إن رجلا جعل امرأة عليه كظهر أمه إن هو تزوجها فأمره عمر بن الخطاب إن هو تزوجها ، ألا يقربها حتى يكفر كفارة المتظاهر . اهـ .

ثم قال : وحدثنى عن مالك : أنه بلغه أن رجلا سأل القاسم بن محمد وسليمان بن يسار عن رجل تظاهر من امرأة قبل أن ينكحها ، فقالا : إن نكحها فلا يمسها حتى يكفر كفارة المتظاهر . اهـ .

والمعروف عن جماهير أهل العلم أن الطلاق المعلق يقع بوقوع المعلق عليه ، وكذلك الظهار .

وأما الأمة فالأظهر أن فى تحريمها كفارة اليمين أو الاستغفار ، كما دلت عليه آية سورة التحريم كما تقدم إيضاحه . والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية عشرة : اعلم أن العلماء اختلفوا فى العبد والذمى هل يصح منهما ظهار ؟ وأظهر أقوالهم عندى فى ذلك : أن العبد يصح منه الظهار ، لأن الصحيح دخوله فى عموم النصوص العامة ، إلا ما أخرجه منه دليل خاص ، كما تقدم ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقى السعود :

والعبد والموجود والذى كفر مشمولة له لدى ذوى النظر

وعليه فهو داخل فى عموم قوله : (والذين يظاهرون من نسائهم) ولا يقدح فى هذا أن قوله : (فتحرير رقبة) لايتناوله ، لأنه مملوك لايقدر على العتق لدخوله فى قوله (فمن لم يجد فصيام شهرين) فالأظهر صحة ظهار العبد وانحصار كفارته فى الصوم ، لعدم قدرته على العتق والإطعام ، وأن الذمى لايصح ظهاره، لأن الظهار منكر من القول وزور يكفره الله بالعتق أو الصوم ، أو الإطعام ، والذمى كافر والكافر لايكفر عنه العتق أو الصوم أو الإطعام ما ارتكبه من المنكر والزور لكفره ، لأن الكفر سيئة لاتنفع معها حسنة والعلم عندالله تعالى.

المسألة الثالثة عشرة : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فى الظهار الموقت كأن يقول : أنت على كظهر أمى شهر ، أو حتى ينسلخ شهر رمضان مثلا فقال بعض أهل العلم : يصح الظهار المؤقت ، وإذا مضى الوقت زال الظهار وحلت المرأة بلا كفارة ، ولا يكون عائداً بالوطء بعد انقضاء الوقت .

قال فى المغنى : وهـذا قول أحمد وبه قال ابن عباس ، وعطاء ، وقتادة والثورى ، وإسحاق ، وأبو ثور وأحد قولى الشافعى ، وقوله الأخير لا يكون ظهاراً وبه قال ابن أبى ليلى ، والليث ، لأن الشرع ورد بلفظ . الظهار مطلقاً ، وهذا لم يطلق فأشبه مالو شبهها بمن تحرم عليه فى وقت دون وقت . وقال طاوس: إذا ظاهر فى وقت فعليه الكفارة ، وإن بر وقال مالك : يسقط التوقيت ويكون ظاهراً مطلقاً ، لأن هـذا لفظ يوجب تحريم الزوجة ، فإذا وقته لم يتوقت كالطلاق .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أقرب الأقوال عندى للصواب فى هذه المسألة قول من قال إن الظهار الموقت يصح ويزول بانقضاء الوقت، لأنه جاء مايدل عليه عن النبى صلى الله علية وسلم فى حديث حسنه الترمذى ، وصححه ابن خزيمة وابن الجارود ، وبعض طرقه لايقل عن درجة الحسن، وإن أعل عبد الحق وغيره بعض طرقه بالإرسال ، لأن حديثا صححه بعض أهل العلم أقرب للصواب مما لم يرد فيه شىء أصلا .

قال أبو داود فى سننه : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ومحمد بن العلاء المعنى قالا : ثنا ابن إدريس ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عمر وبن عطاء ، قال ابن العلاء ابن علقمة ابن عياش ، عن سليمان بن يسار ، عن سلمة بن صخر قال ابن العلاء البياضى قال : كنت امرأ أصيب من النساء مالا يصيب غيرى ، فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتى شيئا يتابع بى ، حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينا هى تخدمنى ذات ليلة إذ تكشف لى منها شىء فلم ألبث أن نزوت عليها فلما أصبحت خرجت إلى قومى، فأخبرتهم الخبر. الحديث بطوله ، وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بعتق رقبة ، فذكر أنه لا يجد رقبة ، فأمره بصيام شهرين فذكر أنه لا يقدر ، فأمره بإطعام ستين مسكينا ، فذكر كذلك فأعطاه صلى الله عليه وسلم صدقة قومه بنى زريق من التمر ، وأمره أن يطعم وسقامنها ستين مسكينا ويستعين بالباقى ، ومحل الشاهد من الحديث : أنه ظاهر من امرأته ظهاراً مؤقتا بشهر رمضان ، وجامع فى نفس الشهر الذى جعله وقتا لظهاره ، فدل ذلك على أن الظهار الموقت يصح ، ويلزم ولو كان توقيته لا يصح لبين صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولو كان يتأبد ويسقط حكم التوقيت لبينه صلى الله عليه وسلم ؛ لأن البيان لايجوز تأخيره عن وقت الحاجة إليه .

وقال أبو عيسى الترمذى فى جامعه : حدثنا إسحاق بن منصور ، ثنا هرون

ابن إسماعيل الخزاز ثنا على ابن المبارك ، ثنا يحيى بن أبى كثير ، ثنا أبو سلمة ومحمد بن عبدالرحمن أن سلمان بن صخر الأنصارى أحد بنى بياضة ، جعل امرأته عليه كظهر أمه ، حتى يمضى رمضان الحديث ، ثم قال الترمذى بعد أن ساقه هذا حديث حسن ، يقال سلمان بن صخر ، ويقال سلمة بن صخر البياضى والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم فى كفارة الظهار اهـ وهذه الطريقة التى أخرج بها الترمذى هذا الحديث غير طريق أبى داود التى أخرجه بها وكلتاهما تقوى الأخرى ، والظاهر أن إسناد الترمذى هذا لا يقل عن درجة الحسن ، وماذكروه من أن على بن المبارك المذكور فيه ، كان له عن يحيى بن أبى كثير كتابان أحدهما سماع ، والآخر إرسال ، وأن حديث الكوفيين عنه فيه شىء لا يضر الإسناد المذكور ، لأن الراوى عنه فيه وهو هرون بن إسماعيل الخزاز بصرى لا كوفى ، ولما ساق المجد فى المنتقى حديث سلمة بن صخر المذكور قال : رواه أحمد وأبو داود والترمذى . وقال حديث حسن . وقال الشوكانى فى نيل الأوطار : وأخرجه أيضاً الحاكم ، وصححه ابن خزيمة ، وابن الجارود ، وقد أعله عبد الحق بالانقطاع ، وأن سليمان بن يسار لم يدرك سلمه ، وقد حكى ذلك الترمذى عن البخارى ، وفى إسناده أيضاً محمد بن إسحاق. اهـ كلام الشوكانى .

وقد علمت أن الإسناد الذى ذكرنا عن الترمذى ليس فيه سليمان ابن يسار ، ولا ابن إسحاق ، فالظاهر صلاحية الحديث للاحتجاج ، كما ذكره الترمذى وغيره .

وبذلك تعلم أن الصواب فى هذه المسألة إن شاء الله هو ماذكرنا ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الرابعة عشرة : الأظهر عندى أنه لو قال : أنت على كظهر أمى إن شاء الله أساء الأدب ، ولا تلزمه الكفارة ، وأن الاستثناء بالمشيئة يرفع عنه

حكم الكفارة ، كما يرفع كفارة اليمين بالله ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الخامسة عشرة : الأظهر أنه إن مات أو ماتت ، أو طلقها قبل التكفير لم يلزمه شيء ، وأنه إن عاد فتزوجها بعد الطلاق لا يجوز له مسيسها ، حتى يكفر لأن الله أوجب الكفارة على المظاهر قبل الحنث بالعود ، فلا يعود إلا بعد التكفير ، ولا وجه لسقوط الكفارة بالطلاق فيما يظهر ، مع أن بعض أهل العلم يقول: إن كان الطلاق بعد الظهار بائنا ، ثم تزوجها لم تلزمه كفارة ،وهو مروى عن قتادة . وبعضهم يقول : إن كانت البينونة بالثلاث ، ثم تزوجها بعد زوج لم تلزمه الكفارة لسقوطها بالبينونة الكبرى ، كما أسقطها صاحب القول الذى قبله بالبينونة الصغرى ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة عشرة : إذا ظاهر من نسائه الأربع بكلمة واحدة كأن يقول لهن : أنتن علىّ كظهر أمى ، فقال بعض أهل العلم : تكفى فى ذلك كفارة واحدة .

قال فى المغنى : ولا خلاف فى هذا فى مذهب أحمد وهو قول على وعمر وعروة وطاوس ، وعطاء وربيعة ، ومالك ، والأوزاعى ، وإسحاق ، وأبى ثور ، والشافعى فى القديم ، وقال الحسن ، والنخعى ، والزهرى ، ويحيى الأنصارى ، والحكم ، والثورى ، وأصحاب الرأى ، والشافعى فى الجديد : عليه لكل امرأة كفارة ، لأنه وجد الظهار والعود فى حق كل امرأة منهن فوجب عليه عن كل واحدة كفارة كما لو أفردها به ، ولنا عموم قول عمر وعلى رضى الله عنهما ، رواه عنهما الأثرم ، ولا يعرف لهما مخالف فكان إجماعاً ولأن الظهار كلمة تجب بمخالفتها الكفارة ، فإذا وجدت فى جماعة أوجبت كفارة واحدة كاليمين بالله تعالى ، وفارق ما إذا ظاهر منها بكلمات فإن كل كلمة تقتضى كفارة ترفعها

وتكفر إثمها ، وهاهنا الكلمة واحدة ، فالكفارة واحدة ترفع حكمها وتمحو إثمها ، فلا يبقى لها حكم . انتهى منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أقيس القولين الاكتفاء بكفارة واحدة ، وأحوطهما التكفير عن كل واحدة منهن ، وأما إن ظاهر منهن بكلمات متعددة بأن قال : لكل واحدة منهن بانفرادها أنت على كظهر أمي ، فالأظهر تعدد الكفارة لأن كل كلمة من تلك الكلمات منكر من القول وزور ، فكل واحدة منهما تقتضي كفارة .

قال في المغني : وهذا قول عروة وعطاء، وقال أبو عبد الله بن حامد: المذهب رواية واحدة في هذا . قال القاضي : المذهب عندي ما ذكره الشيخ أبو عبدالله، قال أبو بكر : فيه رواية أخرى أنه تجزئه كفارة واحدة ، واختار ذلك ، وقال هذا الذي قلناه اتباعاً لعمر بن الخطاب ، والحسن ، وعطاء ، وإبراهيم ، وربيعة وقبيصة ، وإسحاق ، لأن كفارة الظهار حق لله تعالى فلم تتكرر بتكرر سببها كالحد ، وعليه يخرج الطلاق ، ولنا أنها أيمان متكررة على أعيان متفرقة ، فكان لكل واحدة كفارة كما لو كفر ثم ظاهر ، ولأنها أيمان لا يحنث في إحداها بالحنث في الأخرى ، فلا تكفرها كفارة واحدة ولأن الظهار معنى يوجب الكفارة ، فتتعدد الكفارة بتعدده في المحال المختلفة كالقتل ، ويفارق الحد ، فإنه عقوبة ، تدرأ بالشبهات. انتهى منه .

وقد علمت أن أظهر الأقوال عندنا تعدد الكفارة في هذه المسألة . وأما إن كرر الظهار من زوجته الواحدة فالظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه ، أنه إن كان كرره قبل أن يكفر عن الظهار الأول ، فكفارة واحدة تكفي، وإن كان كفر

عن ظهاره الأول ، ثم ظاهر بعد التكفير ، فعليه كفارة أخرى لظهاره الواقع بعد التكفير والعلم عند الله تعالى .

المسألة السابعة عشرة : اعلم أن كفارة الظهار هى التى أوضحها الله تعالى بقوله : (فتحرير رقبة) إلى قوله : (فإطعام ستين مسكيناً) .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فى الرقبة ، فى كفارة الظهار ، هل يشترط فيها الإيمان أولا يشترط فيها ؟ فقال بعضهم : لا يشترط فيها الإيمان ، فلو أعتق المظاهر عبداً ذميا مثلا أجزأه ، وممن قال بهذا القول : أبو حنيفة ، وأصحابه ، وعطاء ، والثورى ، والنخعى ، وأبو ثور ، وابن المنذر وهو إحدى الروايتين عن أحمد قاله فى المغنى .

وحجة أهل هذا القول أن الله تعالى قال فى هذه الآية الكريمة (فتحرير رقبة) ولم يقيدها بالإيمان ، فوجب أن يجزىء ماتناوله إطلاق الآية ، قالوا : وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الله فى كتابه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه . وممن قال باشتراط الإيمان فى رقبة كفارة الظهار : مالك ، والشافعى ، والحسن ، وإسحاق ، وأبو عبيدة ، وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد . قاله فى المغنى ، واحتج لأهل هذا القول بما تقرر فى الأصول من حمل المطلق على المقيد .

وقد بينا مسألة حمل المطلق على المقيد فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] فى سورة النساء ، فى الكلام على قوله تعالى فى كفارة القتل الخطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة..) الآية . بقولنا فيه . وحاصل تحرير المقام فى مسألة تعارض المطلق والمقيد : أن لها أربع حالات :

الأولى : أن يتحد حكمهما وسببهما معاً كتحريم الدم ، فإن الله قيده فى

سورة الأنعام ، بكونه مسفوحاً فى قوله تعالى : (إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً) وأطلقه عن القيد بكونه مسفوحاً فى سورة النحل والبقرة والمائدة ، قال فى النحل (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) وقال فى البقرة (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله..) وقال فى المائدة (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير..) الآية . وجمهور العلماء يقولون : بحمل المطلق على المقيد فى هذه الحالة التى هى اتحاد السبب والحكم معاً ، ولذلك كانوا لا يرون بالحمرة التى تعلو القدر من أثر تقطيع اللحم بأسا ، لأنه دم غير مسفوح ، قالوا : وحمله عليه أسلوب من أساليب اللغة العربية ، لأنهم يثبتون ثم يحذفون اتكالا على المثبت ، ومنه قول قيس بن الخطيم الأنصارى :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

فحذف راضون لدلالة راض عليه . وقول ضابىء بن الحارث البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

والأصل : فإنى غريب وقيار أيضاً غريب ، فحذف إحدى الكلمتين لدلالة الأخرى عليها . وقول عمرو بن أحمر الباهلى :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئاً ومن أجل الطوى رمانى

يعنى كنت بريئاً منه ، وكان والدى بريئاً منه أيضاً . وقول النابغة الجعدى :

وقد زعمت بنو سعد بأنى وما كذبوا كبير السن فانى

يعنى زعمت بنو سعد أنى فان وما كذبوا إلخ . وقالت جماعة من أهل الأصول : إن حمل المطلق على المقيد بالقياس، لا بدلالة اللفظ وهو أظهرها. وقيل: بالعقل ، وهو أضعفها وأبعدها .

الحالة الثانية : هى أن يتحد الحكم ، ويختلف السبب ، كالمسألة التى نحن بصددها ، فإن الحكم فى آية المقيد وآية المطلق واحد ، وهو عتق رقبة فى كفارة ، ولكن السبب فيهما مختلف ، لأن سبب المقيد قتل خطأ ، وسبب المطلق ظهار ، ومثل هذا المطلق يحمل على المقيد ، عند الشافعية ، والحنابلة وكثير من المالكية ، ولذا شرطوا الإيمان فى كفارة الظهار حملا لهذا المطلق على المقيد ، خلافاً لأبى حنيفة ، ومن وافقه قالوا : ويعتضد حمل هذا المطلق عن المقيد بقوله صلى الله عليه وسلم فى قصة معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه « اعتقها فإنها مؤمنة » ولم يستفصله عنها ، هل هى فى كفارة أو لا ؟ وترك الاستفصال فى مقام الاحتمال ينزل منزلة العموم فى الأقوال . قال فى مراقى السعود :

ونزلن ترك الاستفصال منزلة العموم فى الأقوال

الحالة الثالثة : عكس هذه : وهى الاتحاد فى السبب مع الاختلاف فى الحكم ، فقيل : يحمل فيها المطلق على المقيد ، وقيل : لا ، وهو قول أكثر العلماء ، ومثلوا له بصوم الظهار ، وإطعامه ، فسببهما واحد وهو الظهار ، وحكمهما مختلف ، لأن أحدهما تكفير بصوم والآخر تكفير بإطعام ، وأحدهما مقيد بالتتابع ، وهو الصوم ، والثانى مطلق عن قيد التتابع ، وهو الإطعام ، فلا يحمل هذا المطلق على هذا المقيد . والقائلون بحمل المطلق على المقيد فى هذه الحالة ، مثلوا لذلك بإطعام الظهار ، فإنه لم يقيد بكونه من قبل أن يتماسا ، مع أن عتقه وصومه قد قيدا بقوله : (من قبل أن يتماسا) ، فيحمل هذا المطلق على المقيد ، فيجب كون الإطعام قبل المسيس ، ومثل له الأخفش بالإطعام فى كفارة اليمين حيث قيد بقوله : (من أوسط ما تطعمون أهليكم) مع إطلاق الكسوة عن القيد بذلك ، فى قوله : أو كسوتهم فيحمل هذا المطلق على المقيد ، فيشترط فى الكسوة أن تكون من أوسط ما تكسون أهليكم .

الحالة الرابعة : أن يختلفا فى الحكم والسبب معاً ، ولا حمل فى هذه إجماعاً وهو واضح ، وهذا فيما إذا كان المقيد واحداً ، أما إذا ورد مقيدان بقيدين مختلفين ، فلا يمكن حمل المطلق على كليهما لتنافى قيديهما ، ولكنه ينظر فيهما ، فإن كان أحدهما أقرب للمطلق من الآخر حمل المطلق على الأقرب له منهما عند جماعة من العلماء فيقيد بقيده ، وإن لم يكن أحدهما أقرب له ، فلا يقيد بقيد واحد منهما ، ويبقى على إطلاقه إذ لا ترجيح بلا مرجح ، ومثال كون أحدهما أقرب للمطلق من الآخر صوم كفارة اليمين ، فإنه مطلق عن قيد التتابع والتفريق ، مع أن صوم الظهار مقيد بالتتابع فى قوله تعالى: (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) ، وصوم التمتع مقيد بالتفريق فى قوله تعالى: (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم) واليمين أقرب إلى الظهار من التمتع ، لأن كلا من صوم الظهار واليمين صوم كفارة بخلاف صوم التمتع ، فيقيد صوم كفارة اليمين بالتتابع عند من يقول بذلك ، ولا يقيد بالتفريق الذى فى صوم التمتع .

وقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات لم تثبت لإجماع الصحابة على عدم كتب متتابعات فى المصاحف العثمانية ، ومثال كونهما ليس أحدهما أقرب للمطلق من الآخر : صوم قضاء رمضان ، فإن الله تعالى قال فيه (فعدة من أيام أخر) ولم يقيده بتتابع ولا تفريق ، مع أنه تعالى قيد صوم الظهار بالتتابع . وصوم التمتع بالتفريق ، وليس أحدهما أقرب إلى صوم قضاء رمضان من الآخر ، فلا يقيد بقيد واحد منهما بل يبقى على الاختيار . إن شاء تابعه ، وإن شاء فرقه والعلم عند الله تعالى . انتهى من [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] مع زيادة يسيرة للإيضاح .

الفرع الثانى : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فى رقبة كفارة الظهار ، هل يشترط

فيها سلامتها من العيوب أولا . فحكى عن داود الظاهرى أنه جوز كل رقبة يقع عليها الاسم ولو كانت معيبة بكل العيوب ، تمسكا بإطلاق الرقبة فى قوله تعالى : (فتحرير رقبة) ، قال : ظاهره ولو معيبة ، لأن الله لم يقيد الرقبة بشىء .

وذهب أكثر أهل العلم إلى اشتراط السلامة من العيوب القوية مع اختلافهم فى بعض العيوب . قالوا : يشترط سلامتها من العيوب المضرة بالعمل ضرراً بينا ، لأن المقصود تمليك العبد منافعه ، وتمكينه من التصرف لنفسه ، ولا يحصل هذا مع مايضر بالعمل ضرراً بينا ، فلا يجزىء الأعمى ، لأنه لايمكنه العمل فى أكثر الصنائع ، ولا المقعد ، ولا المقطوع اليدين أو الرجلين ، لأن اليدين آلة البطش فلا يمكنه العمل مع فقدهما والرجلان آلة المشى ، فلا يتهيأ له كثير من العمل مع تلفهما ، والشلل كالقطع فى هذا .

قالوا : ولايجوز المجنون جنوناً مطبقاً ، لأنه وجد فيه المعنيان : ذهاب منفعة الجنس ، وحصول الضرر بالعمل . قاله فى المغنى ، ثم قال : وبهذا كله قال الشافعى ومالك ، وأبو ثور وأصحاب الرأى . انتهى محل الغرض منه .

وبه تعلم إجماع الأئمة الأربعة على اشتراط السلامة من مثل العيوب المذكورة .

وقال ابن قدامة فى المغنى : ولا يجزىء مقطوع اليد أو الرجل ، ولا أشلهما ولا مقطوع إبهام اليد أو سبابتها أو الوسطى ، لأن نفع اليد يذهب بذهاب هؤلاء ، ولا يجزىء مقطوع الخنصر والبنصر ، من يد واحدة ، لأن نفع اليدين يزول أكثره بذلك . وإن قطعت كل واحدة من يد جاز ، لأن نفع الكفين باق وقطع أنملة الإبهام كقطع جميعها ، فإن نفعها يذهب بذلك لكونها أنملتين ،

وإن كان من غير الإبهام لم يمنع ، لأن منفعتها لا تذهب ، فإنها تصير كالأصابع القصار ، حتى لو كانت أصابعه كلها غير الإبهام قد قطعت من كل واحد منها أنملة لم يمنع ، وإن قطع من الإصبع أنملتان فهو كقطعها ، لأنه يذهب بمنفعتها ، وهذا جميعه مذهب الشافعي أي وأحمد .

وقال أبو حنيفة : يجزىء مقطوع إحدى الرجلين أو إحدى اليدين ، ولو قطعت رجله ويده جميعاً من خلاف أجزأت لأن منفعة الجنس باقية ، فأجزأت في الكفارة كالأعور ، فأما إن قطعتا من وفاق : أي من جانب واحد لم يجز ، لأن منفعة المشي تذهب ، ولنا أن هذا يؤثر في العمل ، ويضر ضرراً بينا . فوجب أن يمنع إجزاءها كما لو قطعتا من وفاق ، ويخالف العور فإنه لا يضر ضرراً بينا ، والاعتبار بالضرر أولى من الاعتبار بمنفعة الجنس ، فإنه لو ذهب شحم أو قطعت أذناه معا أجزأ مع ذهاب منفعة الجنس . ولا يجزىء الأعرج إذا كان عرجا كثيرا فاحشاً ، لأنه يضر بالعمل ، فهو كقطع الرجل إلى أن قال : ويجزىء الأعور في قولهم جميعا .

وقال أبو بكر : فيه قول آخر : إنه لا يجزىء ، لأنه نقص يمنع التضحية والإجزاء في الهدى ، فأشبه العمى ، والصحيح ما ذكرناه . فإن المقصود تكميل الأحكام وتمليك العبد المنافع ، والعور لا يمنع ذلك ، ولأنه لا يضر بالعمل فأشبه قطع إحدى الأذنين ، ويفارق العمى فإنه يضر بالعمل ضرراً بينا ويمنع كثيراً من الصنائع ، ويذهب بمنفعة الجنس ويفارق قطع إحدى اليدين والرجلين . فإنه لا يعمل بإحداهما ما يعمل بهما ، والأعور يدرك بإحدى العينين ما يدرك بهما .

وأما الأضحية والهدى ، فإنه لا يمنع منهما مجرد العور ، وإنما يمنع انخساف العين وذهاب العضو المستطاب ، ولأن الأضحية يمنع فيها قطع الأذن والقرن ، والعتق لا يمنع فيه إلا ما يضر بالعمل ويجزىء المقطوع الأذنين . وبذلك قال أبو حنيفة والشافعي .

وقال مالك وزفر : لا يجزىء ، لأنهما عضوان فيهما الدية ، فأشبها اليدين، ولنا أن قطعهما لا يضر بالعمل الضرر البين ، فلم يمنع كنقص السمع ، بخلاف اليدين ، ويجزىء مقطوع الأنف لذلك ، ويجزىء الأصم إذا فهم بالإشارة والأخرس إذا فهمت إشارته وفهم الإشارة ، وهذا مذهب الشافعى وأبى ثور .

وقال أصحاب الرأى : لا يجزىء ، لأن منفعة الجنس ذاهبة ، فأشبه زائل العقل ، وهذا المنصوص عليه عن أحمد ، لأن الخرس نقص كثير يمنع كثيراً من الأحكام مثل القضاء والشهادة . وأكثر الناس لا يفهم إشارته فيتضرر فى ترك استعماله ، وإن اجتمع الخرس والصمم. فقال القاضى : لا يجزىء ، وهو قول بعض الشافعية لاجتماع النقصين فيه وذهاب منفعتى الجنس ، ووجه الإجزاء أن الإشارة تقوم مقام الكلام فى الإفهام ، ويثبت فى حقه أكثر الأحكام ، فيجزىء لأنه لا يضر بالعمل ولا بغيره .

وأما المريض فإن كان مرجو البرء كالحمى وما أشبهها أجزأ فى الكفارة ، وإن كان غير مرجو الزوال لم يجز .

وأما نضو الخلق يعنى النحيف المهزول خلقة ، فإن كان يتمكن من العمل أجزأ وإلا فلا . ويجزىء الأحمق وهو الذى يصنع الأشياء لغير فائدة ، ويرى الخطأ صواباً . وكذلك يجزىء من يخنق فى بعض الأحيان . والخصى والمجبوب ، والرتقاء والكبير الذى يقدر على العمل ، لأن مالا يضر بالعمل لا يمنع تمليك العبد منافعه ، وتكميل أحكامه ، فيحصل الإجزاء به ، كالسالم من العيوب . انتهى من المغنى مع حذف يسير لا يضر بالمعنى .

ثم قال صاحب المغنى : ويجزىء عتق الجانى والمرهون وعتق المفلس عبده ، إذا قلنا بصحة عتقهم ، وعتق المدبر والخصى وولد الزنا لكمال العتق فيهم .

ولا يجزىء عتق المغصوب ، لأنه لا يقدر على تمكينه من منافعه ، ولا غائب غيبة منقطعة لا يعلم خبره ، لأنه لا تعلم حياته فلا تعلم صحة عتقه ، وإن لم ينقطع خبره أجزأ عتقه ، لأنه عتق صحيح .

ولا يجزىء عتق الحمل ، لأنه لم تثبت له أحكام الدنيا ، ولذلك لم تجب فطرته ، ولا يتيقن أيضاً وجوده وحياته . ولا عتق أم الولد ، لأن عتقها مستحق بسبب غير الكفارة والملك فيها غير كامل ، ولهذا لم يجز بيعها .

وقال طاوس والبتي : يجزىء عتقها ، لأنه عتق صحيح . ولا يجزىء عتق مكاتب أدى من كتابته شيئا . انتهى كلام صاحب المغني ، وقد ذكر فيه غالباً ما في مذاهب الأئمة الأربعة في المسألة .

ومعلوم أن مذهب مالك رحمه الله : اشتراط الإيمان في رقبة الظهار ، واشتراط سلامتها من العيوب المضرة ، فلا يجوز عنده عتق جنين في بطن أمه ، وإن وضعته عتق من غير إجزاء عن الكفارة .

ولا يجزىء عنده مقطوع اليد الواحدة أو الأصبعين أو الأصابع أو الإبهام أو الأذنين ، أو أشل أو أجذم أو أبرص ، أو اصم أو مجنون . وإن أفاق أحيانا ولا أخرس ، ولا أعمى ولا مقعد ، ولا مفلوج ولا يابس الشق ولا غائب منقطع خبره ، ولا المريض مرضاً يشرف به على الموت ولا الهرم هرما شديداً ولا الأعرج عرجا شديداً ، ولا رقيق مشترى بشرط العتق لما يوضع من ثمنه في مقابلة شرط العتق ، ولا من يعتق عليه بالملك كأبيه ولا عبد قال : إن اشتريته فهو حر فلو قال : إن اشتريته فهو حر عن ظهاري ، ففيه لهم تأويلان بالإجزاء وعدمه .

ولا يجزىء عنده المدبر ، ولا المكاتب ، ولو أعتق شركا له في عبد ، ثم قوم عليه نصيب شريكه لم يجزه عن ظهاره عنده ، لأن عتق نصيب الشريك وجب عليه بحكم سراية العتق ، وكذلك لو أعتق نصفه عن ظهاره ، ثم بعد ذلك اشترى

نصفه الآخر فأعتقه تكميلا لرقبة الظهار ، لم يجزه على ظاهر المدونة لتبعيض العتق إن كان معسرا وقت عتق النصف الأول ، ولأن عتق النصف الباقى يلزمه بالحكم ، إن كان موسراً وقت عتق النصف الأول ، ولو أعتق ثلاث رقاب عن أربع زوجات ظاهر منهن لم يجزه من ذلك شيء . لأنه لم تتعين رقبة كاملة عن واحدة منهن .

ويجزىء عند المالكية عتق المغصوب والمريض مرضا خفيفا، والأعرج عرجاً خفيفاً ، ولا يضر عندهم قطع أنملة واحدة أو أذن واحدة ، ويجزىء عندهم الأعور ، ويكره عندهم الخصى ، ويجوز عندهم عتق المرهون والجانى إن افتدياه انتهى .

ومعلوم أن أبا حنيفة لا يشترط الإيمان فى كفارة الظهار كما تقدم . ولم يجزىء عنده الأعمى ولا مقطوع اليدين معا أو الرجلين معا ، ولا مقطوع إبهامى اليدين ولا الأخرس ولا المجنون ولا أم الولد ، ولا المدبر ، ولا المكاتب، إن أدى شيئاً من كتابته ، فإن لم يؤد منها شيئاً أجزأ عنده ، وكذلك يجزىء عنده قريبه الذى يعتق عليه بالملك إن نوى بشرائه إعتاقه عن الكفارة ، وكذلك لو أعتق نصف عبده عن الكفارة ، ثم حرر باقيه عنها أجزأه ذلك ، ويجزىء عنده الأصم والأعور ، ومقطوع إحدى الرجلين وإحدى اليدين من خلاف ، ويجزىء عنده الخصى ، والمجبوب ، ومقطوع الأذنين اهـ .

وقد قدمنا أكثر العيوب المانعة من الإجزاء ، وغير المانعة عند الشافعى فى كلام صاحب المغنى ناقلا عنه ، وكذلك ما يمنع ولا يمنع عند أحمد فاكتفينا بذلك خشية كثرة الإطالة .

الفرع الثالث : اعلم أنه قد دل الكتاب والسنة والإجماع ، على أن الصوم لا يجزىء فى الظهار إلا عند العجز عن تحرير الرقبة ، فإن عجز عن ذلك انتقل

إلى الصوم، وقد صرح تعالى بأنه صيام شهرين متتابعين ، ولا خلاف فى ذلك .

الفرع الرابع : اختلف العلماء فى تحقيق مناط العجز عن الرقبة الموجب للانتقال إلى الصوم ، وقد أجمعوا على أنه إن قدر على عتق رقبة فاضلة عن حاجته أنه يجب عليه العتق ، ولا يجوز له الانتقال إلى الصوم ، وإن كانت له رقبة يحتاج إليها لكونه زمناً أو هرماً أو مريضاً ، أو نحو ذلك من الأسباب التى تؤدى إلى عجزه عن خدمة نفسه .

قال بعضهم : وككونه ممن لا يخدم نفسه عادة ، فقال بعضهم : لا يلزمه الإعتاق، ويجوز له الانتقال إلى الصوم نظراً لحاجته إلى الرقبة الموجودة عنده .

قال فى المغنى : وبهذا قال الشافعى أى وأحمد . وقال أبو حنيفة ، ومالك ، والأوزاعى : متى وجد رقبة لزمه إعتاقها ولم يجز له الانتقال إلى الصيام ، سواء كان محتاجا إليها أو لم يكن ، لأن الله تعالى شرط فى الانتقال إلى الصيام ، ألا يجد رقبة بقوله (فمن لم يجد) وهذا واجد وإن وجد ثمنها ، وهو محتاج إليه لم يلزمه شراؤها . وبه قال أبو حنيفة ، وقال مالك : يلزمه ، لأن وجدان ثمنها كوجدانها . ولنا أن ما استغرقته حاجة الإنسان ، فهو كالمعدوم فى جواز الانتقال إلى الصيام كمن وجد ماء يحتاج إليه للعطش يجوز له الانتقال إلى التيمم . انتهى محل الغرض منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندى فى هذه المسألة : أن الرقبة إن كان يحتاج إليها حاجة قوية ، ككونه زمنا أو هرما لا يستغنى عن خدمتها ، أو كان عنده مال يمكن شراء الرقبة منه ، لكنه محتاج إليه فى معيشته الضرورية أنه يجوز له الانتقال إلى الصوم ، وتعتبر الرقبة كالمعدومة ، وأن المدار فى ذلك على ما يمنعه استحقاق الزكاة من اليسار . فإن كانت الرقبة فاضلة عن ذلك ، لزم إعتاقها ، وإلا فلا . والأدلة العامة المقتضية عدم الحرج فى الدين تدل على ذلك

كقوله تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ونحو ذلك . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس : إن كان المظاهر حين وجوب الكفارة غنياً إلا أن ماله غائب . فالأظهر عندى أنه إن كان مرجو الحضور قريبا لم يجز الانتقال إلى الصوم ، لأن ذلك بمنزلة الانتظار لشراء الرقبة ، وإن كان بعيدا جاز الانتقال إلى الصوم ، لأن المسيس حرام عليه قبل التكفير ، ومنعه من التمتع بزوجته زمنا طويلا فيه إضرار بكل من الزوجين ، وفى الحديث « لا ضرر ولا ضرار » خلافا لبعض أهل العلم فى ذلك .

الفرع السادس : إن كان عنده مال يشترى به الرقبة ، ولكنه لم يجد رقبة يشتريها فله الانتقال إلى الصيام ، لدخوله فى قوله تعالى : (فمن لم يجد فصيام شهرين) الآية ، وهذا واضح ، وأما إن وجد رقبة تباع بزيادة على ثمن مثلها ، ولم يجد رقبة بثمن مثلها ، فلأهل العلم فى ذلك خلاف ، هل يلزمه شراؤها بأكثر من ثمن المثل أولا يلزمه ؟ وأظهر أقوالهم فى ذلك عندى : هو أن الزيادة المذكورة على ثمن المثل إن كانت تجحف بماله ، حتى يصير بها من مصارف الزكاة ، فله الانتقال إلى الصوم . وإلا فلا ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع السابع : أجمع أهل العلم على أن صوم شهرى الظهار يجب تتابعهما أى موالاة صيام أيامهما من غير فصل بينها . ولا خلاف بينهم فى أن من قطع تتابعها لغير عذر : أن عليه استئناف الشهرين من جديد ، وهل يفتقر التتابع إلى نية فيه ، لأهل العلم ثلاثة أقوال :

أحدها : لا يفتقر لنية ، لأنه تتابع واجب فى العبادة فلم يفتقر لنية تخصه كالمتابعة بين ركعات الصلاة .

والثانى : يفتقر لنية التتابع وتجدد النية كل ليلة ، لأن ضم العبادة إلى عبادة

أخرى إذا كان شرطا وجبت فيه النية ، كالجمع بين الصلاتين .

والثالث : تكفى نية التتابع فى الليلة الأولى عن تجديد النية كل ليلة وهذا أقربها ، لأنا لا نسلم أن صوم كل يوم عبادة مستقلة ، بل الأظهر أن صوم الشهرين جميعا عبادة واحدة . لأنه كفارة واحدة،فإذا نوى هذا الصوم أول ليلة فالالزم أن ينويه على وجهه المنصوص فى الكتاب والسنة وهو شهران متتابعان، وهذا يكفيه عن تجديد النية كل ليلة . وهذا ظاهر مذهب مالك ومذهب أحمد عدم الاحتياج إلى نية التتابع مطلقا ، وللشافعية وجهان أحدهما : كمذهب أحمد ، والثانى : يفتقر إلى النية كل ليلة .

الفرع الثامن : اختلف أهل العلم فيما إذا كان قطع تتابع الصوم لعذر كمرض ونحوه ، فقال بعض أهل العلم : إن كان قطع التتابع لعذر فإنه لا يقطع حكم التتابع ، وله أن يبنى على ماصام قبل حصول العذر . وهذا مذهب أحمد .

قال فى المغنى : وروى ذلك عن ابن عباس وبه قال ابن المسيب ، والحسن ، وعطاء ، والشعبى ، وطاوس ، ومجاهد ، ومالك ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، والشافعى فى القديم ، وقال فى الجديد : ينقطع التتابع ، وهذا قول سعيد بن جبير والنخعى والحكم والثورى ، وأصحاب الرأى قالوا : لأنه أفطر لفعله فلزمه الاستئناف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندى فى هذا الفرع أن قطع تتابع صوم كفارة الظهار بالإفطار فى أثناء الشهرين إن كان لسبب لا قدرة له على التحرز عنه ، كالمرض الشديد الذى لا يقدر معه على الصوم أنه يعذر فى ذلك ولا ينقطع حكم التتابع ، لأنه لا قدرة له على التحرز عن ذلك والله جل وعلا يقول (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ويقول : (فاتقوا الله ما استطعتم) ،

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » ، وإن كان يمكنه التحرز عن الإفطار الذى قطع به التتابع كالإفطار للسفر فى أثناء صوم الكفارة ، وكما لو كان ابتداء صومه الكفارة من شعبان ، لأن شهره الثانى رمضان ، وهو لا يمكن صومه عن الكفارة ، وكما لو ابتدأ الصوم فى مدة يدخل فيها يوم النحر أو يوم الفطر أو أيام التشريق ، فإن التتابع ينقطع بذلك ، لأنه قادر على التحرز عن قطعه بما ذكر لقدرته على تأخير السفر عن الصوم كعكسه ، ولقدرته أيضاً على الصوم فى مدة لا يتخللها رمضان ، ولا العيدان ، ولا أيام التشريق كما لا يخفى ، وإذا قطع التتابع بإفطار هو قادر على التحرز عنه بما ذكر ، فكونه يستأنف صوم الشهرين من جديد ظاهر لقوله تعالى (فصيام شهرين متتابعين) وقد ترك التتابع مع قدرته عليه ، هذا هو الأظهر عندنا والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

الأظهر : أنه إن وجب على النساء صوم يجب تتابعه لسبب اقتضى ذلك أن حكمهن فى ذلك كما ذكرنا ، فيعذرن فى كل مالا قدرة لهن على التحرز عنه كالحيض ، والمرض دون غيره كالإفطار للسفر والنفاس ، لأن النفاس يمكن التحرز عنه بالصوم قبله أو بعده ، أما الحيض فلا يمكن التحرز عنه فى صوم شهرين أو شهر ، لأن المرأة تحيض عادة فى كل شهر . والله تعالى أعلم .

الفرع التاسع : فى حكم ما لو جامع المظاهر منها أو غيرها ليلا ، فى أثناء صيام شهرى الكفارة ، وفى هذا الفرع تفصيل لأهل العلم .

اعلم أنه إن جامع فى نهار صوم الكفارة عمداً انقطع تتابع صومه إجماعا ، ولزمه استئناف الشهرين من جديد ، وسواء فى ذلك كانت الموطوءة هى المظاهر

منها أو غيرها وهذا لا نزاع فيه ، وكذلك لو أكل أو شرب عمداً فى نهار الصوم المذكور ، وأما إن كان جماعه ليلا فى زمن صوم الكفارة ، فإن كانت المرأة التى جامعها زوجة أخرى غير المظاهر منها ، فإن ذلك لا يقطع التتابع ، لأن وطء غير المظاهر منها ليلا زمن الصوم مباح له شرعا ، ولا يخل بتتابع الصوم فى أيام الشهرين كما ترى ، وهذا لا ينبغى أن يختلف فيه .

وقال فى المغنى : وليس فى هذا اختلاف نعلمه ، وأما إن كان التى وطئها ليلا زمن الصوم هى الزوجة المظاهر منها ، فقد اختلف فى ذلك أهل العلم : فقال بعضهم : ينقطع التتابع بذلك ويلزمه استئناف الشهرين . وبه قال أبو حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وهو مذهب مالك ، وأحمد فى المشهور عنهما .

وقال ابن قدامة فى المغنى فى شرحه لقول الخرقى : وإن أصابها فى ليال الصوم أفسدت مامضى من صيامه وابتدأ الشهرين ، مانصه : وبهذا قال مالك ، والثورى ، وأبو عبيد ، وأصحاب الرأى ، لأن الله تعالى قال : (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) فأمر بهما خاليين عن وطء ، ولم يأت بهما على ما أمر ، فلم يجزئه ، كما لو وطىء نهاراً ولأنه تحريم للوطء لا يختص بالنهار فاستوى فيه الليل والنهار كالاعتكاف .

وروى الأثرم عن أحمد أن التتابع لا ينقطع بهذا ويبنى ، وهو مذهب الشافعى ، وأبى ثور ، وابن المنذر ، لأنه وطء لا يبطل الصوم ، فلا يوجب الاستئناف كوطء غيرها ، ولأن التتابع فى الصيام عبارة عن إتباع صوم يوم للذى قبله من غير فارق ، وهذا متحقق ، وإن وطء ليلا ، وارتكاب النهى فى الوطء قبل إتمامه إذا لم يخل بالتتابع المشترط لا يمنع صحته وإجزاءه كما لو وطىء قبل الشهرين ، أو وطىء ليلة أول الشهرين ، وأصبح صائماً ، والإتيان بالصوم قبل التماس فى حق هذا لا سبيل إليه ، سواء بنى أو استأنف . انتهى محل الغرض من كلام صاحب المغنى ، وممن قال بهذا القول : أبو يوسف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا القول الأخير هو عدم انقطاع التتابع بجماعة للمظاهر منها فى ليال الصوم هو الأظهر عندى . لأن الصوم فيه مطابق لمنطوق الآية فى التتابع ، لأن الله تعالى قال (فصيام شهرين متتابعين) ، وهذا قد صام شهرين متتابعين ، ولم يفصل بين يومين منهما بفاصل ، فالتتابع المنصوص عليه واقع قطعاً كما ترى ، وكون صومهما متتابعين قبل المسيس واجب بقوله تعالى (من قبل أن يتماسا) لايظهر أنه يبطل حكم التتابع الواقع بالفعل ، ومما يوضحة ما ذكرنا آنفا فى كلام صاحب المغنى من أنه لو جامعها قبل شروعه فى صوم الشهرين ، ثم صامهما متتابعين بعد ذلك ، فلايبطل حكم التتابع بالوطء قبل الشروع فى الصوم ، ولا يقتضى قوله تعالى : من قبل أن يتماسا بطلانه . والعلم عند الله تعالى .

الفرع العاشر : اعلم أنه إن جامع المظاهر منها فى نهار صوم الكفارة ناسياً. فقد اختلف أهل العلم هل يعذر بالنسيان فلا ينقطع حكم التتابع أولا يعذر به ويلزمه الاستئناف ، فقال بعضهم : لا يعذر بالنسيان ، وينقطع التتابع بوطئه ناسيا وهذا مذهب مالك ، وأبى حنيفة ، وإحدى الروايتين عند أحمد ، ومن حجتهم: أن الوطء لايعذر فيه بالنسيان وقال بعضهم : يعذر بالنسيان ، ولا ينطقع حكم التتابع بوطئه ناسياً وهو قول الشافعى ، وأبى ثور وابن المنذر ، قالوا : لأنه فعل المفطر ناسياً ، فأشبه مالو أكل ناسياً. اهـ .

وهذا القول له وجه قوى من النظر ، لأن الله تعالى يقول (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم) الآية ، وقد قدمنا من حديث ابن عباس ، وأبى هريرة فى صحيح مسلم « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال الله تعالى : نعم . قد فعلت » .

الفرع الحادى عشر : إن أبيح له الفطر لعذر يقتضى ذلك ، وقلنا إن فطر

العذر لا يقطع حكم التتابع فوطىء غيرها نهاراً لم ينقطع التتابع ، لأن الوطء لا أثر له فى قطع التتابع ، لأن أصل الإفطار لسبب غيره ، وإن كانت الموطوءة نهاراً هى المظاهر منها جرى على حكم وطئها ليلا ، وقد تكلمنا عليه قريباً ، قال ذلك صاحب المغنى ، ووجهه ظاهر ، وقال أيضاً ؛ وإن لمس المظاهر منها أو باشرها فيما دون الفرج على وجه يفطر به قطع التتابع لإخلاله بموالاة الصيام ، وإلا فلا . يقطع والله تعالى أعلم .اهـ ووجه ظاهر أيضاً .

الفرع الثانى عشر . أجمع العلماء على أن المظاهر إن لم يستطع الصوم انتقل إلى الإطعام ، وهو طعام ستين مسكينا ، وقد نص الله تعالى على ذلك بقوله : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) .

ومن الأسباب المؤدية إلى العجز عن الصوم الهرم وشدة الشبق ، وهو شهوة الجماع التى لا يستطيع صاحبها الصبر عنه ، ومما يدل على أن الهرم من الأسباب المؤدية للعجز عن الصوم ما جاء فى قصة أوس بن الصامت الذى نزلت فى ظهاره من امرأته آية الظهار ، ففى القصة من حديث خولة بنت مالك ابن ثعلبة التى ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت ، ونزل فى ذلك قوله تعالى : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعتق رقبة يعنى زوجها أوساً قالت : لا يجد ، قال : يصوم شهرين متتابعين ؟ قالت : يا رسول الله : إنه شيخ كبير ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكينا » الحديث ، ومحل الشاهد منه أنها لما قالت له : إنه شيخ كبير اقتنع صلى الله عليه وسلم بأن ذلك عذر فى الانتقال ، عن الصوم إلى الإطعام ، فدل على أنه سبب من أسباب العجز عنه ، والحديث وإن تكلم فيه ، فإنه لا يقل بشواهده عن درجة الاحتجاج .

وأما الدليل على أن شدة الشبق عذر كذلك هو ما جاء فى حديث سلمة ابن صخر الذى تكلمنا عليه سابقا فى هذا المبحث ، أنه قال : كنت امرءاً قد أوتيت من جماع النساء مالم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقا من أن أصيب فى ليلتى شيئا فأتتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار .الحديث وفيه قال «فصم شهرين متتابعين، قال: قلت يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصوم . قال : فتصدق » ومحل الشاهد منه أنه لما قال له : صم شهرين أخبره أن جماعه فى زمن الظهار ، إنما جاءه من عدم صبره عن الجماع ، لأنه ظاهر من امرأته ، خوفا من أن تغلبه الشهوة ، فيجامع فى النهار ، فلما ظاهر غلبته الشهوة ، فجامع فى زمن الظهار ، فاقتنع صلى الله عليه وسلم بعذره ، وأباح له الانتقال إلي الإطعام ، وهذا ظاهر .

وقال ابن قدامة فى المغنى : بعد أن ذكر أن الهرم ، والشبق كلاهما من الأسباب المؤدية للعجز عن الصوم للدليل الذى ذكرنا آنفا، وقسنا عليهما مايشبههما فى معناها .

الفرع الثالث عشر : أظهر قولى أهل العلم عندى : أنه لا يجزىء فى الإطعام أقل من إطعام ستين مسكيناً وهو مذهب مالك ، والشافعى ، والمشهور من مذهب أحمد خلافاً لأبى حنيفة القائل : بأنه لو أطعم مسكيناً واحداً ستين يوماً أجزأه ، وهو رواية عن أحمد ، وعلى هذا يكون المسكين فى الآية مأولا بالمد ، والمعنى فإطعام ستين مدا ، ولو دفعت لمسكين واحد فى ستين يوماً .

وإنما قلنا : إن القول بعدم إجزاء أقل من الستين هو الأظهر ، لأن قوله تعالى : مسكيناً تمييز لعدد هو الستون ، فحمله على مسكين واحد خروج بالقرآن عن ظاهره المتبادر منه بغير دليل يجب الرجوع إليه ، وهو لا يصح ، ولا يخفى أن نفع ستين مسكيناً أكثر فائدة من نفع مسكين واحد فى ستين يوما ، لفضل

الجماعة ، وتضافر قلوبهم على الدعاء للمحسن إليهم بالإطعام فيكون ذلك أقرب إلي الإجابة من دعاء واحد ، وستون جمع كثير من المسلمين لا يخلو غالباً من صالح مستجاب الدعوة فرجاء الاستجابة فيهم أقوى منه فى الواحد كما لا يخفى ، وعلى كل حال فقوله تعالى فى محكم كتابه : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) لا يخفى فيه أن قوله : فإطعام ستين مصدر مضاف إلى مفعوله ، فلفظ : ستين الذى أضيف إليه المصدر ، هو عين المفعول به الواقع عليه الإطعام ، وهذا العدد الذى هو المفعول به للإطعام ، مبين بالتمييز الذى هو قوله تعالى : مسكينا ، وبذلك يتحقق أن الإطعام فى الآية واقع على نفس العدد الذى هو ستون ، فالاقتصار به على واحد خروج بنص القرآن ، عن ظاهره المتبادر منه بلا دليل يجب الرجوع عليه كما ترى ، وحمل المسكين فى هذه الآية الكريمة على المد من أمثلة المالكية والشافعية فى أصولهم لما يسمونه التأويل البعيد والتأويل الفاسد ، وقد أشار إلى ذلك صاحب مراقى السعود بقوله :

فجعل مسكين بمعنى المد عليه لائح سمات البعد

الفرع الرابع عشر : فى كلام أهل العلم فى القدر الذى يعطاه كل مسكين من الطعام : اعلم أن العلماء اختلفوا فى ذلك ، فمذهب مالك أنه يعطى كل مسكين من البر الذى هو القمح مدا وثلثى مد ، وإن كان إطعامه من غير البر كالتمر والشعير ، لزمه منه مايقابل المد والثلثين من البر ، قال خليل المالكى فى مختصره فى إطعام كفارة الظهار : لكل مد وثلثان براً ، وإن اقتاتوا تمراً أو مخرجاً فى الفطر فعدله . انتهى محل الغرض منه .

وقال شارحه المواق : ابن يونس ينبغى أن يكون الشبع مدين ، إلا ثلثاً بمد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى عيار مد هشام ، فمن أخرج به أجزأه ، قاله مالك . قال ابن القاسم : فإن كان عيش بلدهم تمراً أو شعيراً أطعم منه المظاهر عدل مد

هشام من البر . انتهى محل الغرض منه ، ومذهب أبى حنيفة : أنه يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا كاملا من تمر أو شعير . ومذهب الشافعى: أنه يعطى كل مسكين مداً مطلقاً ومعلوم : أن المد النبوى ربع الصاع ، قال فى المغنى : وقال أبو هريرة : ويطعم مداً من أى الأنواع كان ، وبهذا قال عطاء والأوزاعى والشافعى اه . ومذهب أحمد : أنه يعطى كل مسكين مدا من بر أو نصف صاع من تمر أو شعير . اه .

وإذا عرفت مذاهب الأئمة فى هذا الفرع ، فاعلم أنا أردنا هنا أن نذكر كلام ابن قدامة فى المغنى فى أدلتهم ، وأقوالهم قال : وجملة الأمر أن قدر الطعام فى الكفارات كلها مد من بر لكل مسكين ، ونصف صاع من تمر أو شعير ، وممن قال : مد بر زيد بن ثابت ، وابن عباس ، وابن عمر ، حكاه عنهم الإمام أحمد ، ورواه عنهم الأثرم ، وعن عطاء وسليمان بن موسى . وقال سليمان بن يسار : أدركت الناس إذا أعطوا فى كفارة اليمين ، أعطوا مداً من حنطة بالمد الأصغر مد النبى صلى الله عليه وسلم . وقال أبو هريرة : يطعم مداً من أى الأنواع كان ، وبهذا قال الأوزاعى وعطاء، والشافعى . لما روى أبو داود بإسناده عن عطاء عن أوس أخى عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاه ـ يعنى المظاهر خمسة عشر صاعاً من شعير إطعام ستين مسكينا .

وروى الأثرم بإسناده ، عن أبى هريرة فى حديث المجامع فى رمضان : أن النبى صلى الله عليه وسلم . أوتى بعرق فيه خمسة عشر صاعا فقال : «خذه وتصدق به » وإذا ثبت فى المجامع فى رمضان بالخبر ثبت فى المظاهر بالقياس عليه ، ولأنه إطعام واجب ، فلم يختلف باختلاف أنواع المخرج كالفطرة وفدية الأذى . وقال مالك : لكل مسكين مدان من جميع الأنواع ، وممن قال مدان من قمح : مجاهد وعكرمة والشعبى والنخعى ، لأنها كفارة تشتمل على صيام ،

وإطعام فكان لكل مسكين نصف صاع كفدية الأذى . وقال الثورى وأصحاب الرأى من القمح مدان ومن التمر والشعير صاع لكل مسكين . لقول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث سلمة بن صخر رضى الله عنه « فأطعم وسقا من تمر » .

رواه الإمام أحمد فى المسند ، وأبو داود وغيرهما ، وروى الخلال بإسناده ، عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » وفى رواية أبى داود ، والفرق ستون صاعاً . وروى ابن ماجه بإسناده عن ابن عباس قال « كفر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصاع من تمر وأمر الناس فمن لم يجد فنصف صاع من بر » .

وروى الأثرم بإسناده ، عن عمر رضى الله عنه قال : أطعم عنى صاعا من تمر أو شعير أو نصف صاع من بر ، ولأنه إطعام للمساكين ، فكان صاعاً من تمر أو شعير ، أو نصف صاع من بر كصدقة الفطر .

ولنا ما روى الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبى يزيد المدنى ، قال: جاءت امرأة من بنى بياضة بنصف وسق شعير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للظاهر « أطعم هذا فإن مدى شعير مكان مد بر » وهذا نص ويدل على أنه مدبر أنه قول زيد ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبى هريرة . ولم نعرف لهم فى الصحابة مخالفاً فكان إجماعاً .

ويدل على أنه نصف صاع من التمر والشعير ، ما روى عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخولة امرأة أوس بن الصامت « اذهبى إلى فلان الأنصارى ، فإن عنده شطر وسق من تمر أخبرنى أنه يريد أن يتصدق به فلتأخذيه فليتصدق به على ستين مسكيناً » .

وفى حديث أوس بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إنى سأعينه بعرق من تمر ، قلت : يا رسول الله فإنى سأعينه بعرق آخر ، قال : قد أحسنت اذهبى فأطعمى بهما عنه ستين مسكيناً وارجعى إلى ابن عمك » .

وروى أبو داود بإسناده ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه قال : العرق : زنبيل يأخذ خمسة عشر صاعاً ، فعرقان يكونان ثلاثين صاعا لكل مسكين نصف صاع ، ولأنها كفارة تشتمل على صيام وإطعام ، فكان لكل مسكين نصف صاع من التمر والشعير ، كفدية الأذى .

فأما رواية أبى داود : أن العرق ستون صاعاً فقد ضعفها ، وقال غيرها أصح منها ، وفى الحديث مايدل على الضعف ، لأن ذلك فى سياق قوله : إنى سأعينه بعرق ، فقالت امرأته : إنى سأعينه بعرق آخر ، فأطعمى بهما عنه ستين مسكيناً ، فلو كان العرق ستين صاعا لكانت الكفارة مائة وعشرين صاعاً ولا قائل به ، وأما حديث المجامع الذى أعطاه خمسة عشر صاعاً فقال : تصدق به . فيحتمل أنه اقتصر عليه إذ لم يجد سواه ، ولذلك لما أخبره بحاجته إليه أمره بأكله .

وفى الحديث المتفق عليه قريب من عشرين صاعاً ، وليس ذلك مذهباً لأحد ، فيدل على أنه اقتصر على البعض الذى لم يجد سواه ، وحديث أوس أخى عبادة ابن الصامت مرسل يرويه عنه عطاء ، ولم يدركه على أنه حجة لنا ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاه عرقاً ، وأعانته امرأته بآخر ، فصارا جميعاً ثلاثين صاعاً ، وسائر الأخبار يجمع بينها وبين أخبارنا ، بحملها على الجواز . وحمل أخبارنا على الإجزاء ، وقد عضد هذا أن ابن عباس : راوى بعضها ومذهبه : أن المد من البر يجزىء . وكذلك أبو هريرة ، وسائر ماذكرنا من الأخبار مع الإجماع الذى نقله سليمان بن يسار والله أعلم . انتهى بطوله من المغنى لابن قدامه ، وقد جمع فيه أقوال

أهل العلم وأدلتهم ، وما نقل عن مالك فى هذا المبحث أصح منه عنه ما ذكرناه قبله فى هذا المبحث .

وقال الشوكانى فى نيل الأوطار فى رواية : والعرق ستون صاعاً ، هذه الرواية تفرد بها معمر بن عبد الله بن حنظلة . قال الذهبى : لا يعرف ، ووثقه ابن حبان ، وفيها أيضاً محمد بن إسحاق ، وقد عنعن ، والمشهور عرفاً أن العرق يسع خمسة عشر صاعاً ، كما روى ذلك الترمذى بإسناد صحيح من حديث سلمة نفسه . اهـ منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد رأيت أقوال أهل العلم فى قدر ما يعطى المسكين من إطعام كفارة الظهار واختلافها وأدلتهم واختلافها .

وأحوط أقوالهم فى ذلك قول أبى حنيفة ، ومن وافقه ، لأنه أحوطها فى الخروج من عهدة الكفارة . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس عشر : فى كيفة الإطعام وجنس الطعام ومستحقه ، أما مستحقه فقد نص الله تعالى على أنه المسكين فى قوله : (فإطعام ستين مسكيناً) والمقرر عند أهل العلم أن المسكين إن ذكر وحده شمل الفقير كعكسه .

وأما كيفيته : فظاهر النصوص أنه يملك كل مسكين قدر ما يجب له من الطعام ، وهو مذهب مالك ، والشافعى ، والرواية المشهورة عن أحمد ، وعلى هذا القول لو غدى المساكين ، وعشاهم بالقدر الواجب فى الكفارة . لم يجزئه حتى يملكهم إياه .

وأظهر القولين عندى : أنه إن غدى كل مسكين وعشاه ، ولم يكن ذلك الغداء والعشاء أقل من القدر الواجب له ، أنه يجزئه ، لأنه داخل فى معنى قوله : (فإطعام ستين مسكيناً) وهذا مروى عن أبى حنيفة ، والنخعى ، وهو رواية عن أحمد ،

وقصة إطعام أنس لما كبر ، وعجز عن الصوم عن فدية الصيام مشهورة . وأما جنس الطعام الذى يدفعه للمساكين، فقد تقدم فى الأحاديث ذكر البر والتمر والشعير ، ولا ينبغى أن يختلف فى هذه الثلاثة .

ومعلوم أن أهل العلم اختلفوا فى طعام كفارة الظهار فقال بعضهم : المجزىء فى ذلك هو مايجزىء فى صدقة الفطر ، سواء كان هو قوت المكفر أو لا ؟ ولا يجزئه غير ذلك ولو كان قوتاً له .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر أقوال أهل العلم عندى : أن جميع الحبوب التى هى قوت بلد المظاهر يجزئه الإخراج منها ، لأنها هى طعام بلده ، فيصدق على من أطعم منها المساكين ، أنه أطعم ستين مسكيناً ، فيدخل ذلك فى قوله تعالى : (فإطعام ستين مسكيناً) ويؤيد ذلك أن القرآن أشار إلى اعتبار أوسط قوت أهله فى كفارة اليمين فى قوله تعالى : (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم) وهذا مذهب الشافعى واختيار أبى الخطاب من الحنابلة .

الفرع السادس عشر : اعلم أن أكثر أهل العلم على أن الإطعام لايجب فيه التتابع ، لأن الله تعالى أطلقه عن قيد التتابع ، ولأن أكثر أهل الأصول ، على أن المطلق لايحمل على المقيد إن اتحد سببهما واختلف حكمهما ، كما فى هذه المسألة. ولا سيما على القول الأصح فى حمل المطلق على المقيد أنه من قبيل القياس ، لامتناع قياس فرع على أصل مع اختلافهما فى الحكم هو معروف فى محله .

الفرع السابع عشر : اعلم أن أهل العلم اختلفوا فيما إذا جامع المظاهر زوجته التى ظاهر منها فى أثناء الإطعام ، هل يلزمه إعادة مامضى من الإطعام ، لبطلانه بالجماع قبل إتمام الإطعام ، أو لايلزمه ذلك ؟ فقال بعض أهل العلم : لايلزمه

ذلك لأن جماعه فى أثناء مالا يشترط فيه التتابع ، فلم يوجب الاستئناف ، وهذا مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد . وأما مذهب مالك : فهو أنه يستأنف الإطعام لأنه جامع فى أثناء كفارة الظهار ، فوجب الاستئناف كالصيام والأول أظهر ، لأن الواقع من الإطعام قبل جماعه يحتاج بطلانه وإلغاؤه إلى دليل يجب الرجوع إليه وليس موجودا . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثامن عشر : إذا قالت المرأة لزوجها أنت علىّ كظهر أبى ، وقالت : إن تزوجت فلاناً ، فهو علىّ كظهر أبى ، فهل يكون ذلك ظهاراً منها أو لا ؟ فقال أكثر أهل العلم : لا يكون ظهاراً . وهو قول الأئمة الأربعة ، وأصحابهم ، وإسحاق ، وأبى ثور وغيرهم ، وقال بعض أهل العلم : تكون مظاهرة وبه قال الزهرى والأوزاعى وروى عن الحسن والنخعى . إلا أن النخعى قال : إذا قالت ذلك بعد ما تزوج ، فليس بشىء . اهـ . والتحقيق أن المرأة لا تكون مظاهرة ، لأن الله جل وعلا لم يجعل لها شيئاً من الأسباب المؤدية لتحريم زوجها عليها ، كما لا يخفى .

تنبيه

اعلم أن الجمهور القائلين : إن المرأة لا تكون مظاهرة . اختلفوا فيما يلزمها إذا قالت ذلك ، إلى ثلاثة مذاهب .

الأول : أن عليها كفارة ظهار ، وإن كانت غير مظاهرة .

والثانى : أن عليها كفارة يمين .

والثالث : لا شىء عليها ، واحتج من قال بأن عليها كفارة ظهار ، وهو رواية عن أحمد : بأنها قالت منكراً من القول وزوراً ، فلزمها أن تكفر عنه

كالرجل ، وبما روى الأثرم بإسناده عن إبراهيم ، عن عائشة بنت طلحة قالت : إن تزوجت مصعب بن الزبير فهو على كظهر أبى ، فسألت أهل المدينة ، فرأوا أن عليها الكفارة ، وبما روى على بن مسهر عن الشيبانى ، قال : كنت جالساً فى المسجد ، أنا وعبد الله بن معقل المزنى ، فجاء رجل حتى جلس إلينا فسألته من أنت فقال : أنا مولى عائشة بنت طلحة التى أعتقتنى عن ظهارها ، خطبها مصعب بن الزبير ، فقالت : هو على كظهر أبى إن تزوجته ، ثم رغبت فيه ، فاستفتت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يومئذ كثير . فأمروها أن تعتق رقبة ، وتتزوجه ، فأعتقتنى وتزوجته . وروى سعيد هذين الأثرين مختصرين من المغنى . وانظر إسناد الأثرين المذكورين .

وأما الذين قالوا : تلزمها كفارة يمين ، وهو قول عطاء ، فقد احتجوا بأنها حرمت على نفسها زوجها وهو حلال لها ، فلزمتها كفارة اليمين اللازمة فى تحريم الحلال المذكورة فى قوله تعالى : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) بعد قوله (لم تحرم ما أحل الله لك) . وأما الذين قالوا : لا شىء عليها ، ومنهم الشافعى ، ومالك ، وإسحاق ، وأبو ثور وغيرهم ، فقد احتجوا بأنها قالت : منكراً من القول وزوراً ، فلم يوجب عليها كفارة ، كالسب والقذف ونحوهما من الأقوال المحرمة الكاذبة .

وأظهر أقوالهم عندنا : أن من يرى فى تحريم الحلال كفارة يمين يلزمها على قوله كفارة يمين ، ومن يرى أنه لا شىء فيه ، فلا شىء عليها على قوله ، وقد قدمنا أقوال أهل العلم فى تحريم الحلال فى الحج ، وفى هذا المبحث . اهـ .

واعلم أن الذين قالوا : تجب عليها كفارة الظهار ، قالوا : لا تجب عليها حتى يجامعها وهى مطاوعة له ، فإن طلقها أو مات أحدهما قبل الوطء ، أو أكرهها على الوطء فلا كفارة عليها ، لأنها يمين ، فلا تجب كفارتها قبل الحنث كسائر

الأيمان ، وعليها تمكين زوجها من وطئها قبل التكفير ، لأنه حق له عليها ، فلا يسقط بيمينها ، ولأنه ليس بظهار انتهى من المغنى وهو ظاهر ، ولنكتف بما ذكرنا من الأحكام المتعلقة بهذه الآية الكريمة ، ومن أراد استقصاء ذلك فهو فى كتب فروع المذاهب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ .

قال ابن كثير : أى فى الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا يجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن ، وأخواتهن بالإجماع اهـ. محل الغرض منه ، وما ذكر من أن المراد بكون أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين هو حرمتهن عليهم ، كحرمة الأم ، واحترامهم لهن ، كاحترام الأم إلخ . واضح لا إشكال فيه ، ويدل له قوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) ، لأن الإنسان لا يسأل أمه الحقيقية من وراء حجاب وقوله تعالى : (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) ومعلوم أنهن رضى الله عنهن ، لم يلدن جميع المؤمنين الذين هن أمهاتهم ، ويفهم من قوله تعالى : (وأزواجه أمهاتهم) أنه هو صلى الله عليه وسلم أب لهم وقد روى عن أبىّ بن كعب ، وابن عباس أنهما قرءا : وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ، وهذه الأبوة أبوة دينية ، وهو صلى الله عليه وسلم أرأف بأمته من الوالد الشفيق بأولاده ، وقد قال جل وعلا فى رأفته ورحمته بهم (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ، وليست الأبوة أبوة نسب كما بينه تعالى بقوله : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ، ويدل لذلك أيضاً حديث أبى هريرة عند أبى داود والنسائى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب

بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة فقوله صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث : « إنما أنا لـكم بمنزلة الوالد » يبين معنى أبوته المذكورة كما لا يخفى .

مسألة

اعلم أن أهل العلم اختلفوا هل يقال لبنات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أخوات المؤمنين أو لا ؟ وهل يقال لإخوانهن كمعاوية ، وعبد الله بن أبى أمية أخوال المؤمنين أو لا؟ وهل يقال لهن : أمهات المؤمنات؟قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن ، وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المسلمين، كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية ، وأمثاله خال المؤمنين فيه قولان للعلماء رضى الله عنهم ؟ ونص الشافعى رضى الله عنه،على أنه لا يقال ذلك . وهل يقال لهن : أمهات المؤمنات،فيدخل النساء فى الجمع المذكر السالم تغليباً فيه قولان ؟ صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى رضى الله عنه . انتهى محل الغرض من كلام ابن كثير .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندى فى ذلك أنه لا يطلق منه إلا ماورد النص بإطلاقه ، لأن الإطلاق المراد به غير الظاهر المتبادر يحتاج إلى دليل صارف إليه ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه وكلام أهل العلم ، فيما يتعلق به من الأحكام فى آخر

الأنفال فى الكلام على قوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه أخذ من النبيين ميثاقهم ثم خص منهم بذلك خمسة : هم أولوا العزم من الرسل ، وهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ولم يبين هنا الميثاق الذى أخذه عليهم ، ولكنه جل وعلا بين ذلك فى غير هذا الموضع ، فبين الميثاق المأخوذ على جميع النبيين بقوله تعالى فى سورة آل عمران : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد قدمنا الكلام على هذه الآية فى سورة مريم فى الكلام على قصة الخضر ، وقد بين جل وعلا الميثاق الذى أخذه على خصوص الخمسة الذين هم أولوا العزم من الرسل فى سورة الشورى فى قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وبما ذكرنا تعلم : أن آية آل عمران وآية الشورى فيهما بيان لآية الأحزاب هذه .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : ومنك ومن نوح من عطف الخاص على العام ، وقد تكلمنا عليه مراراً والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ .

أمر الله جل وعلا المؤمنين فى هذه الآية الكريمة : أن يذكروا نعمته عليهم حين جاءتهم جنود وهم جيش الأحزاب ، فأرسل جل وعلا عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون ، وهذه الجنود التى لم يروها التى امتن عليهم بها هنا فى سورة الأحزاب ، بين أنه من عليهم بها أيضاً فى غزوة حنين ، وذلك فى قوله تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) الآية ، وهذه الجنود هى الملائكة ، وقد بيَّن جل وعلا ذلك فى الأنفال فى الكلام على غزوة بدر ، وذلك فى قوله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) الآية ، وهذه الجنود التى لم يروها التى هى الملائكة ، قد بين الله جل وعلا فى براءة أنه أيد بها نبيه صلى الله عليه وسلم وهو فى الغار وذلك فى قوله : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) الآية .

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يعنى جنود الكفار الذين جاءهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم فى غزوة الخندق قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، ولم يبين هنا الآية التى وعدهم إياه فيها ، ولكنه بين ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ، وممن قال إن آية البقرة المذكورة مبينة لآية الأحزاب هذه : ابن عباس ، وقتادة ، وغير واحد وهو ظاهر .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (وما زادهم إلا إيمانا) الآية ، صريح فى أن الإيمان يزيد وقد صرح الله بذلك فى آيات من كتابه ، فلا وجه للاختلاف فيه مع تصريح الله جل وعلا به فى كتابه ، فى آيات متعددة كقوله تعالى : (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقوله تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه رد الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وأنه كفى المؤمنين القتال ، وهم النبى صلى الله عليه سلم ، وأصحابه . ولم يبين هنا السبب الذى رد به الذين كفروا وكفى به المؤمنين القتال ، ولكنه جل وعلا ، بين ذلك بقوله (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) أى وبسبب تلك الريح ، وتلك الجنود ردهم بغيظهم وكفاكم القتال كما هو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ .

وقد قدمنا الآية الموضحة له فى آخر سورة النمل فى الكلام ، على قوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وفى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ .

ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن من قنت من نساء نبيه صلى الله عليه وسلم لله ولرسوله ، وعمل عملا صالحاً : أن الله جل وعلا يؤتها أجرها مرتين ، والقنوت : الطاعة ، وما وعد الله به جل وعلا من أطاع منهن بإيتائها أجرها مرتين فى هذه الآية الكريمة جاء الوعد بنظيره لغيرهن ، فى غير هذا الموضع ، فمن ذلك وعده لمن آمن من أهل الكتاب بنبيه ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بإتيائه أجره مرتين ، وذلك فى قوله تعالى : (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين) الآية .

ومن ذلك وعده لجميع المطيعين من أمته صلى الله عليه وسلم بإيتائهم كفلين من رحمته تعالى ، وذلك فى قوله جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم) ، الآية .

واعلم أن ظاهر هذه الآية الكريمة من سورة الحديد الذى لا ينبغى العدول عنه ، أن الخطاب بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) الآية . عام لجميع هذه الأمة كما ترى ، وليس فى خصوص مؤمنى أهل الكتاب ، كما فى آية القصص المذكورة آنفا ، وكونه عاما هو التحقيق إن شاء الله ، لظاهر القرآن المتبادر الذى لم يصرف عنه صارف ، فما رواه النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما من حمله آية الحديد هذه على خصوص أهل الكتاب كما فى آية القصص ، خلاف ظاهر القرآن ، فلا يصح الحمل عليه إلا بدليل يجب الوجوع إليه ، وإن وافق ابن عباس فى ذلك الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما . واختاره ابن جرير الطبرى .

والصواب فى ذلك إن شاء الله هو ما ذكرنا ، لأن المعروف عند أهل العلم : أن ظاهر القرآن المتبادر منه ، لا يجوز العدول عنه ، إلا لدليل يجب الرجوع إليه .

وقال ابن كثير : وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية فى حق هذه الأمة : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين) ، أى ضعفين (من رحمته) وزادهم (ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم) ففضلهم بالنور والمغفرة اهـ نقله عنه ابن جرير ، وابن كثير . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، ويكون فى نفس الآية قرينة تدل على

عدم صحة ذلك القول ، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة فى الترجمة ، وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك .

ومما ذكرنا من أمثلة ذلك فى الترجمة قولنا فيها . ومن أمثلته قول بعض أهل العلم : إن أزواجه صلى الله عليه وسلم لايدخلن فى أهل بيته فى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فإن قرينة السياق صريحة فى دخولهن ، لأن الله تعالى قال : (قل لأزواجك إن كنتن تردن) ثم قال فى نفس خطابه لهن : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) ثم قال بعده (واذكرن مايتلى فى بيوتكن) الآية .

وقد أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول ، فلا يصح إخراجها بمخصص ، وروى عن مالك أنها ظنية الدخول ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظنا تصب

فالحق أنهن داخلات فى الآية اهـ من ترجمة هذا الكتاب المبارك .

والتحقيق إن شاء الله : أنهن داخلات فى الآية ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت .

أما الدليل على دخولهن فى الآية ، فهو ماذكرناه آنفا من أن سياق الآية صريح فى أنها نازلة فيهن .

والتحقيق : أن صورة سبب النزول قطعية الدخول كما هو مقرر فى الأصول .

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت . قوله تعالى فى

زوجة إبراهيم : (قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) .

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم : « إنهم أهل البيت ودعا لهم الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً » وقد روى ذلك جماعة من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم منهم أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها وأبو سعيد ، وأنس ، وواثلة بن الأسقع ، وأم المؤمنين عائشة ، وغيرهم رضى الله عنهم .

وبما ذكرنا من دلالة القرآن والسنة : تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعلى وفاطمة والحسن الحسين رضى الله عنهم كلهم .

تنبيـــــه

فإن قيل : إن الضمير فى قوله : (ليذهب عنكم الرجس) وفى قوله : (ويطهركم تطهيراً) ضمير الذكور ، فلو كان المراد نساء النبى صلى الله عليه وسلم لقيل : ليذهب عنكن ويطهركن .

فالجواب من وجهين : الأول : هو ما ذكرنا من أن الآية الكريمة شاملة لهن ولعلى والحسن والحسين وفاطمة ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها ، كما هو معلوم فى محله .

الوجه الثانى : هو أن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل ، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة

الجمع المذكر ، ومنه قوله تعالى فى موسى (فقال لأهله امكثوا) . وقوله : (سآتيكم) . وقوله (لعلى ءاتيكم) . والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد ، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر :

فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال : إن نساء النبى صلى الله عليه وسلم لسن داخلات فى الآية ، يرد عليه صريح سياق القرآن ، وأن من قال : إن فاطمة وعلياً والحسن والحسين ليسوا داخلين فيها ، ترد عليه الأحاديث المشار إليها .

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة والعلم عندالله تعالى . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) ، الآية . يعنى أنه يذهب الرجس عنهم ، ويطهرهم بما يأمر به من طاعة الله ، وينهى عنه من معصيته ، لأن من أطاع الله أذهب عنه الرجس ، وطهره من الذنوب تطهيراً .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوى . واستعار للذنوب الرجس ، وللتقوى الطهر ، لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس . وأما الحسنات فالغرض منها نقى مصون كالثوب الطاهر ، وفى هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ، ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما يرضاه لهم ، وأمرهم به . وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح . وفى هذا دليل بين على أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم من أهل بيته .

تنبيـــــــه

اعلم أنه يكثر فى القرآن العظيم ، وفى اللغة إتيان اللام المكسورة منصوباً بعدها المضارع بعد فعل الإرادة كقوله هنا (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) الآية . وقوله : (يريد الله ليبين لكم) . وقوله : (يريدون ليطفئوا نور الله) الآية . وقوله تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) إلى غير ذلك من الآيات . وكقول الشاعر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

للعلماء فى اللام المذكورة أقوال : منها أنها مصدرية بمعنى أن ، وهو قول غريب . ومنها : أنها لام كى ، ومفعول الإرادة محذوف والتقدير : إنما يريد الله أن يأمركم وينهاكم ، لأجل أن يذهب عنكم الرجس : والرجس كل مستقذر تعافه النفوس ، ومن أقذر المستقذرات معصية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ .

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإبهام فى صلة موصول ، وذكرنا أن من أمثلة ذلك قوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) ، لأن جملة : الله مبديه صلة الموصول الذى هو ما . وقد قلنا فى الترجمة المذكورة : فإنه هنا أبهم هذا الذى أخفاه صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأبداه الله ، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش رضى الله عنها ، حيث أوحى إليه ذلك ، وهى فى ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة ، لأن زواجه إياها هو الذى أبداه الله بقوله (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) وهذا هو التحقيق فى معنى الآية الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه صلى الله عليه وسلم .

وبه تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين من أن ما أخفاه فى نفسه صلى الله عليه وسلم وأبداه الله وقوع زينب فى قلبه ومحبته لها ، وهى تحت زيد ، وأنها سمعته ، قال سبحان مقلب القلوب إلى آخر القصة ، كله لا صحة له ، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً ، مع أنه صرح بأنه مبدى ما أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى محل الغرض من كلامنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك .

وقال القرطبي رحمه الله فى تفسير هذه الآية : واختلف الناس فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة ، وابن زيد ، وجماعة من المفسرين منهم : الطبرى ، وغيره : إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد ، فيتزوجها هو إلى أن قال : وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف يعنى قوله : (أمسك عليك زوجك) اهـ . ولاشك أن هذا القول غير صحيح ، وأنه غير لائق به صلى الله عليه وسلم .

ونقل القرطبي نحوه عن مقاتل ، وابن عباس أيضاً ، وذكر القرطبي عن على بن الحسين أن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن زيداً سيطلق زينب ، وأن الله يزوجها رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن علم هذا بالوحى قال لزيد : أمسك عليك زوجك . وأن الذى أخفاه فى نفسه : هو أن الله سيزوجه زينب رضى الله عنها ، ثم قال القرطبي ، بعد أن ذكر هذا القول : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ماقيل فى تأويل هذه الآية . وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين ، والعلماء الراسخين . كالزهرى ، والقاضى بكر بن العلاء القشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم ، إلى أن قال : فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد ، وربما أطلق بعض المجان لفظ

عشق ، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا أو مستخف بحرمته .

قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول، وأسند إلى على بن الحسين قوله : فعلى بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر ودراً من الدرر أنه إنما عتب الله عليه فى أنه قد أعلمه ، أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد (أمسك عليك زوجك) ، وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه . انتهى محل الغرض منه .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ها هنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها ، فلا نوردها إلى آخر كلامه . وفيه كلام على بن الحسين الذى ذكرنا آنفا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق إن شاء الله فى هذه المسألة : هو ما ذكرنا أن القرآن دل عليه، وهو أن الله أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بأن زيدا يطلق زينب ، وأنه يزوجها إياه صلى الله عليه وسلم ، وهى فى ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكاها زيداً إليه صلى الله عليه وسلم قال له (أمسك عليك زوجك واتق الله) فعاتبه الله على قوله : أمسك عليك زوجك بعد علمه أنها ستصير زوجته هو صلى الله عليه وسلم وخشى مقالة الناس أن يقولوا : لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه فى الوقت الذى هى فيه فى عصمة زيد .

والدليل على هذا أمران :

الأول : هو ما قدمنا من أن الله جل وعلا قال (وتخفى فى نفسك ما الله

مبديه)، وهذا الذى أبداه الله جل وعلا ، هو زواجه إياها فى قوله (فلما قضى زيدمنها وطراً زوجناكها) ولم يبد جل وعلا شيئا مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى .

الأمر الثانى : أن الله جل وعلا صرح بأنه هو الذى زوجه إياها ، وأن الحكمة الإلهية فى ذلك التزويج هى قطع تحريم أزواج الأدعياء فى قوله تعالى : (فلما قضى زيد منهاوطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم) الآية فقوله تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا ، وكون الله هوالذى زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح فى أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التى كانت سبباً فى طلاق زيد لها كما زعموا ، ويوضحه قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) الآية ، لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها،ولم تبق له بها حاجة ، فطلقها باختياره . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾.

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمر بالإكثار من الذكر ، جاء معناه فى آيات أخر كقوله تعالى (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) وقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقوله تعالى(والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) الآية. إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ .

لم يبين هنا المراد بالفضل الكبير فى هذه الآية الكريمة ، ولكنه بينة فى

سورة الشورى فى قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها، أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول ، وذكرنا له أمثلة فى الترجمة ، وأمثلة كثيرة فى الكتاب لم تذكر فى الترجمة ، ومن أمثلته التى ذكرنا فى الترجمة هذه الآية الكريمة فقد قلنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومن أمثلته قول كثير من الناس : إن آية الحجاب أعنى قوله تعالى (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) خاصة بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذى هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة فى قوله تعالى (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذا لم يقل أحد من جميع المسلمين ، إن غير أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن . وقد تقرر فى الأصول: أن العلة قد تعم معلولها ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

وقد تخصص وقد تعمم لأصلها لكنها لاتخرم

انتهى محل الغرض من كلامنا فى الترجمة المذكورة .

وبما ذكرنا تعلم أن فى هذه الآية الكريمة ، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لا خاص بأزواجه صلى الله عليه وسلم ، وإن

كان أصل اللفظ خاصاً بهن ، لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه ، ومسلك العلة الذى دل على أن قوله تعالى : (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) هو علة قوله تعالى : (فاسألوهن من وراء حجاب) هو المسلك المعروف فى الأصول بمسلك الإيماء والتنبيه ، وضابط هذا المسلك المنطبق على جزئياته : هو أن يقترن وصف بحكم شرعى على وجه لو لم يكن فيه ذلك الوصف علة لذلك الحكم لكان الكلام معيباً عند العارفين، وعرف صاحب مراقى السعود دلالة الإيماء والتنبيه فى مبحث دلالة الاقتضاء والإشارة والإيماء ، والتنبيه بقوله :

دلالة الإيمـــاء والتنبيه فى الفن تقصد لدى ذويه
أن يقرن الوصف بحكم إن يكن لغـير علة يعبـه من فطن

وعرف أيضاً الإيماء والتنبيه فى مسالك العلة بقوله :

والثالث الإيما اقتران الوصف بالحكم ملفوظين دون خلف
وذلك الوصف أو النظير قرانه لغـيرها يضـير

فقوله تعالى : (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) لو لم يكن علة لقوله تعالى : (فاسألوهن من وراء حجاب) لكان الكلام معيباً غير منتظم عند الفطن العارف .

وإذا علمت أن قوله تعالى : (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) هو علة قوله : (فاسألوهن من وراء حجاب) وعلمت أن حكم العلة عام .

فاعلم أن العلة قد تعمم معلولها ، وقد تخصصه كما ذكرنا فى بيت مراقى السعود ، وبه تعلم أن حكم آية الحجاب عام لعموم علته ، وإذا كان حكم هذه الآية عاماً ، بدلالة القرينة القرآنية .

فاعلم أن الحجاب واجب ، بدلالة القرآن على جميع النساء .

واعلم أنا فى هذا المبحث نريد أن نذكر الأدلة القرآنية على وجوب الحجاب على العموم ، ثم الأدلة من السنة ، ثم نناقش أدلة الطرفين، ونذكر الجواب عن أدلة من قالوا بعدم وجوب الحجاب، على غير أزواجه صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا آنفا أن قوله : (ذلكم أطهر لقلوبكم) الآية . قرينة على عموم حكم آية الحجاب .

ومن الأدلة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها جميع بدنها حتى وجهها ، قوله تعالى : (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) ، فقد قال غير واحد من أهل العلم إن معنى : يدنين عليهن من جلابيبهن : أنهن يسترن بها جميع وجوههن ، ولا يظهر منهن شىء إلا عين واحدة تبصر بها ، وممن قال به ابن مسعود ، وابن عباس ، وعبيدة السلمانى وغيرهم .

فإن قيل: لفظ الآية الكريمة وهو قوله تعالى:(يدنين عليهن من جلابيبهن) لا يستلزم معناه ستر الوجه لغة ، ولم يرد نص من كتاب ، ولا سنة ، ولا إجماع على استلزامه ذلك ، وقول بعض المفسرين : إنه يستلزمه معارض بقول بعضهم : إنه لا يستلزمه ، وبهذا يسقط الاستدلال بالآية على وجوب ستر الوجه .

فالجواب : أن فى الآية الكريمة قرينة واضحة على أن قوله تعالى فيها : (يدنين عليهن من جلابيبهن) يدخل فى معناه ستر وجوههن بإدناء جلابيبهن عليها ، والقرينة المذكورة : هى قوله تعالى: (قل لأزواجك) ووجوب احتجاب أزواجه وسترهن وجوههن ، لا نزاع فيه بين المسلمين. فذكر الأزواج مع البنات ونساء المؤمنين يدل على وجوب ستر الوجوه بإدناء الجلابيب كما ترى .

ومن الأدلة على ذلك أيضاً : هو ماقدمنا فى سورة النور فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) ، من أن استقراء القرآن يدل

على أن معنى إلا ماظهر منها الملاءة فوق الثياب ، وأنه لا يصح تفسير إلا ماظهر منها بالوجه والكفين كما تقدم إيضاحه .

واعلم أن قول من قال : إنه قد قامت قرينة قرآنية على أن قوله تعالى : (يدنين عليهن من جلابيبهن) لا يدخل فيه ستر الوجه ، وأن القرينة المذكورة هى قوله تعالى : (ذلك أدنى أن يعرفن) ، قال وقد دل قوله : أن يعرفن على أنهن سافرات كاشفات عن وجوههن ، لأن التى تستر وجهها لا تعرف باطل ، وبطلانه واضح ، وسياق الآية يمنعه منعاً باتاً لأن قوله : (يدنين عليهن من جلابيبهن) صريح فى منع ذلك .

وإيضاحه : أن الإشارة فى قوله (ذلك أدنى أن يعرفن) راجعة إلى إدنائهن عليهن من جلابيبهن، وإدناؤهن عليهن من جلابيبهن ، لا يمكن بحال أن يكون أدنى أن يعرفن بسفورهن ، وكشفهن عن وجوههن كما ترى ، فإدناء الجلابيب مناف لكون المعرفة معرفة شخصية بالكشف عن الوجوه كما لا يخفى .

وقوله فى الآية الكريمة لأزواجك : دليل أيضاً على أن المعرفة المذكورة فى الآية ، ليست بكشف الوجوه ، لأن احتجابهن لا خلاف فيه بين المسلمين .

والحاصل : أن القول المذكور تدل على بطلانه أدلة متعددة :

الأول : سياق الآية كما أوضحناه آنفاً .

الثانى : قوله : لأزواجك كما أوضحناه أيضاً .

الثالث : أن عامة المفسرين من الصحابة فمن بعدهم فسروا الآية مع بيانهم سبب نزولها ، بأن نساء أهل المدينة كن يخرجن بالليل لقضاء حاجتهن خارج البيوت وكان بالمدينة بعض الفساق يتعرضون للإماء ، ولا يتعرضون للحرائر ، وكان بعض نساء المؤمنين يخرجن فى زى ليس متميزاً عن زى الإماء ، فيتعرض

لهن أولئك الفساق بالأذى ظناً منهم أنهن إماء . فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يتميزن فى زيهن عن زى الإماء وذلك بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، فإذا فعلن ذلك ورآهن الفساق ، علموا أنهن حرائر ، ومعرفتهم بأنهن حرائر لا إماء هو مبنى قوله (ذلك أدنى أن يعرفن) فهى معرفة بالصفة لا بالشخص. وهذا التفسير منسجم مع ظاهر القرآن كما ترى . فقوله (يدنين عليهن من جلابيبهن) ، لأن إدناءهن عليهن من جلابيبهن يشعر بأنهن حرائر ، فهو أدنى وأقرب ، لأن يعرفن : أى يعلم أنهن حرائر ، فلا يؤذين من قبل الفساق الذين يتعرضون للإماء ، وهـــذا هو الذى فسر به أهل العلم بالتفسير هذه الآية ، وهو واضح ، وليس المراد منه أن تعرض الفساق للإماء جائز بل هو حرام ، ولاشك أن المتعرضين لهن من الذين فى قلوبهم مرض ، وأنهم يدخلون فى عموم قوله (والذين فى قلوبهم مرض) فى قوله تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم) إلى قوله (وقتلوا تقتيلا) .

ومما يدل على أن المتعرض لما لا يحل من النساء من الذين فى قلوبهم مرض، قوله تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) الآية ، وذلك معنى معروف فى كلام العرب ، ومنه قول الأعشى :

حافظ للفرج راض بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض

وفى الجملة : فلا إشكال فى أمر الحرائر بمخالفة زى الإماء ليهابهن الفساق، ودفع ضرر الفساق عن الإماء لازم ، وله أسباب أخر ليس منها إدناء الجلابيب .

تنبيـــــه

قد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) أن الفعل الصناعى عند النحويين ينحل عن مصدر وزمن . كما قال ابن مالك فى الخلاصة :

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولى الفعـــل كأمن من أمن

وأنه عند جماعات من البلاغيين ينحل عن مصدر ، وزمن ونسبة .

وإذا علمت ذلك : فاعلم أن المصدر والزمن كامنان فى مفهوم الفعل إجماعا ، وقد ترجع الإشارات والضمائر تارة إلى المصدر الكامن فى مفهوم الفعل ، وتارة إلى الزمن الكامن فيه .

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن فيه قوله تعالى هنا : (يدنين عليهن) ، ثم قال : (ذلك أدنى أن يعرفن) أى ذلك الإدناء المفهوم من قوله : يدنين .

ومثال رجوع الإشارة للزمن الكامن فيه قوله تعالى : (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) . فقوله : ذلك يعنى زمن النفخ المفهوم من قوله : ونفخ : أى ذلك الزمن يوم الوعيد .

ومن الأدلة على أن حكم آية الحجاب عام هو ما تقرر فى الأصول ، من أن خطاب الواحد يعم حكمه جميع الأمة ، ولا يختص الحكم بذلك الواحد المخاطب ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى سورة الحج فى مبحث النهى عن لبس المعصفر ، وقد قلنا فى ذلك ، لأن خطاب النبى صلى الله عليه وسلم لواحد من أمته يعم حكمه جميع الأمة ، لاستوائهم فى أحكام التكليف ، إلا بدليل خاص يجب الرجوع إليه ،

وخلاف أهل الأصول فى خطاب الواحد ، هل هو من صيغ العموم الدالة على عموم الحكم ؟ خلاف فى حال لا خلاف حقيقى ، فخطاب الواحد عند الحنابلة صيغة عموم ، وعند غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم ، أن خطاب الواحد لا يعم ، لأن اللفظ للواحد لا يشمل بالوضع غيره ، وإذا كان لا يشمله وضعا ، فلا يكون صيغة عموم. ولكن أهل هذا القول موافقون ، على أن حكم خطاب الواحد عام لغيره ، ولكن بدليل آخر غير خطاب الواحد وذلك الدليل بالنص والقياس .

أما القياس فظاهر ، لأن قياس غير ذلك المخاطب عليه بجامع استواء المخاطبين فى أحكام التكليف من القياس الجلى . والنص كقوله صلى الله عليه وسلم فى مبايعة النساء : « إنى لا أصافح النساء ، وما قولى لامرأة واحدة إلا كقولى لمائة امرأة » .

قالوا ومن أدلة ذلك حديث : « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة » . قال ابن قاسم العبادى فى الآيات البينات : اعلم أن حديث حكمى على الواحد حكمى على الجماعة : لا يعرف له أصل بهذا اللفظ ، ولكن روى الترمذى وقال حسن صحيح. والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان قوله صلى الله عليه وسلم فى مبايعة النساء « إنى لا أصافح النساء » وساق الحديث كما ذكرناه ، وقال صاحب كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة » وفى لفظ « كحكمى على الجماعة » ليس له أصل بهذا اللفظ. كما قاله العراقى فى تخريج أحاديث البيضاوى . وقال فى الدرر كالزركشى لا يعرف . وسئل عنه المزى والذهبى فأنكراه ، نعم يشهد له ما رواه الترمذى والنسائى من حديث أميمة بنت رقيقة ، فلفظ النسائى ما قولى لامرأة واحدة إلا كقولى لمائة امرأة ، ولفظ الترمذى « إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » ، وهو من الأحاديث التى ألزم الدارقطنى الشيخين

بإخراجها لثبوتها على شرطهما ، وقال ابن قاسم العبادى فى شرح الورقات الكبير : حكمى على الواحد لا يعرف له أصل إلى آخره ، قريباً مما ذكرناه عنه . انتهى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الحديث المذكور ثابت من حديث أميمة بنت رقيقة بقافين مصغرا ، وهى صحابية من المبيعات ، ورقيقة أمها ، وهى أخت خديجة بنت خويلد . وقيل : عمتها ، واسم أبيها بجاد بموحدة ثم جيم ابن عبد الله ابن عمير التيمى ، تيم بن مرة . وأشار إلى ذلك فى مراقى السعود بقوله :

خطاب واحـــد لغير الحنبل من غير رعى النص والقيس الجلى

انتهى محل الغرض منه .

وبهذه القاعدة الأصولية التى ذكرنا تعلم أن حكم آية الحجاب عام ، وإن كان لفظها خاصا بأزواجه صلى الله عليه وسلم ، لأن قوله لامرأة واحدة من أزواجه ، أو من غيرهن كقوله لمائة امرأة ، كما رأيت إيضاحه قريبا .

ومن الأدلة القرآنية الدالة على الحجاب قوله تعالى : (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم) ، لأن الله جل وعلا بين فى هذه الآية الكريمة ، أن القواعد أى العجائز اللاتى لا يرجون نكاحا : أى لا يطمعن فى النكاح لكبر السن وعدم حاجه الرجال إليهن يرخص لهن برفع الجناح عنهن فى وضع ثيابهن ، بشرط كونهن غير متبرجات بزينة ، ثم إنه جل وعلا مع هذا كله قال : (وأن يستعففن خير لهن) أى يستعففن عن وضع الثياب خير لهن ، أى واستعفافهن عن وضع ثيابهن مع كبر سنهن وانقطاع طمعهن فى التزويج ، وكونهن غير متبرجات بزينة خير لهن .

وأظهر الأقوال فى قوله : أن يضعن ثيابهن : أنه وضع ما يكون فوق الخمار ، والقميص من الجلاليب ، التى تكون فوق الخمار والثياب .

فقوله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : (وأن يستعففن خير لهن) دليل واضح على أن المرأة التى فيها جمال ولها طمع فى النكاح ، لا يرخص لها فى وضع شىء من ثيابها ولا الإخلال بشىء من التستر بحضرة الأجانب .

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام ، وأن ما ذكرنا معها من الآيات فيه الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب، علمت أن القرآن دل على الحجاب ، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة ، بأزواجه صلى الله عليه وسلم ، فلاشك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين فى الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة ، فمن يحاول منع نساء المسلمين كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم ، من الاقتداء بهن فى هذا الأدب السماوى الكريم المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، مريض القلب كما ترى .

واعلم أنه مع دلالة القرآن على احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب ، قد دلت على ذلك أيضاً أحاديث نبوية ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما وغيرهما من حديث عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت » أخرج البخارى هذا الحديث فى كتاب النكاح فى باب : لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم إلخ . ومسلم فى كتاب السلام فى باب : تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ، فهذا الحديث الصحيح صرح فيه النبى صلى الله عليه وسلم بالتحذير الشديد من الدخول على النساء، فهو دليل واضح على منع الدخول عليهن ، وسؤالهن متاعاً إلا من وراء

حجاب ، لأن من سألها متاعاً لا من وراء حجاب ، فقد دخل عليها ، والنبى صلى الله عليه وسلم حذَّره من الدخول عليها ، ولما سأله الأنصارى عن الحمو الذى هو قريب الزوج الذى ليس محرماً لزوجته كأخيه وابن أخيه وعمه وابن عمه ونحو ذلك . قال له صلى الله عليه وسلم : الحمو الموت ، فسمى صلى الله عليه وسلم دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير محرم لها باسم الموت ، ولا شك أن تلك العبارة هى أبلغ عبارات التحذير ، لأن الموت هو أفظع حادث يأتى على الإنسان فى الدنيا كما قال الشاعر :

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبله

والجبلة : الخلق ، ومنه قوله تعالى : (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) ، فتحذيره صلى الله عليه وسلم هذا التحذير البالغ من دخول الرجال على النساء ، وتعبيره عن دخول القريب على زوجة قريبه باسم الموت ، دليل صحيح نبوى على أن قوله تعالى : (فاسألوهن من وراء حجاب) عام فى جميع النساء كما ترى ، إذ لو كان حكمه خاصاً بأزواجه صلى الله عليه وسلم ، لما حذر الرجال هذا التحذير البالغ العام من الدخول على النساء ، وظاهر الحديث التحذير من الدخول عليهن ولو لم تحصل الخلوة بينهما ، وهو كذلك ، فالدخول عليهن ، والخلوة بهن كلاهما محرم تحريماً شديداً بانفراده ، كما قدمنا أن مسلماً رحمه الله أخرج هذا الحديث فى باب تحريم الخلوة بالأجنبية ، والدخول عليها فدل على أن كليهما حرام . وقال ابن حجر فى فتح البارى فى شرح الحديث المذكور : إياكم والدخول ، بالنصب على التحذير ، وهو تنبيه المخاطب على محذور ليتحذر عنه كما قيل : إياك والاسد ، وقوله : إياكم : مفعول لفعل مضمر تقديره : اتقوا .

وتقدير الكلام اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء ، والنساء أن يدخلن عليكم ، ووقع فى رواية ابن وهب ، بلفظ : لا تدخلوا على النساء ، وتضمن منع الدخول منع

الخلوة بها بطريق الأولى . انتهى محل الغرض منه . وقال البخارى رحمه الله فى صحيحه : باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن . وقال أحمد بن شبيب : حدثنا أبى عن يونس ، قال ابن شهاب عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها .

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة : أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى، فاختمرن بها . انتهى من صحيح البخارى . وقال ابن حجر فى الفتح فى شرح هذا الحديث : قوله : فاختمرن : أى غطين وجوههن ، وصفة ذلك أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر ، وهو التقنع . قال الفراء : كانوا فى الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ماقدامها فأمرن بالاستتار . انتهى محل الغرض من فتح البارى . وهذا الحديث الصحيح صريح فى أن النساء الصحابيات المذكورات فيه فهمن أن معنى قوله تعالى : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يقتضى ستر وجوههن ، وأنهن شققن أزرهن ، فاختمرن أى سترن وجوههن بها امتثالا لأمر الله فى قوله تعالى : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) المقتضى ستر وجوههن ، وبهذا يتحقق المنصف: أن احتجاب المرأة عن الرجال وسترها وجهها عنهم ثابت فى السنة الصحيحة المفسرة لكتاب الله تعالى ، وقد أثنت عائشة رضى الله عنها على تلك النساء بمسارعتهن ، لامتثال أوامر الله فى كتابه . ومعلوم أنهن مافهمن ستر الوجوه من قوله : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) إلا من النبى صلى الله عليه وسلم لأنه موجود وهن يسألنه عن كل ما أشكل عليهن فى دينهن ، والله جل وعلا يقول : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين

الناس ما نزل إليهم) فلا يمكن أن يفسرنها من تلقاء أنفسهن . وقال ابن حجر فى فتح البارى : ولابن أبى حاتم من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم عن صفية ما يوضح ذلك،ولفظه : ذكرنا عند عائشة نساء قريش وفضلهن فقالت : إن لنساء قريش لفضلا ، ولكن والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها ، مامنهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رءوسهن الغربان . انتهى محل الغرض من فتح البارى . ومعنى معتجرات مختمرات كما جاء موضحاً فى رواية البخارى المذكورة آنفاً ، فترى عائشة رضى الله عنها مع علمها ، وفهمها وتقاها أثنت عليهن هذا الثناء العظيم ، وصرحت بأنها مارأت أشد منهن تصديقاً بكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . وهو دليل واضح على أن فهمهن لزوم ستر الوجوه من قوله تعالى : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) من تصديقهن بكتاب الله وإيمانهن بتنزيله ، وهو صريح فى أن احتجاب النساء عن الرجال وسترهن وجوههن تصديق بكتاب الله وإيمان بتنزيله كما ترى ، فالعجب كل العجب ممن يدعى من المنتسبين للعلم أنه لم يرد فى الكتاب ولا السنة ، ما يدل على ستر المرأة وجهها عن الأجانب، مع أن الصحابيات فعلن ذلك ممتثلات أمر الله فى كتابه إيماناً بتنزيله ، ومعنى هذا ثابت فى الصحيح كما تقدم عن البخارى ، وهذا من أعظم الأدلة وأصرحها فى لزوم الحجاب لجميع نساء المسلمين كما ترى.

وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره . وقال البزار أيضاً : حدثنا محمد بن المثنى حدثنى عمرو بن عاصم : حدثنا همام ، عن قتادة ، عن مورق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة

ربها وهى فى قعر بيتها » ورواه الترمذى عن بندار ، عن عمرو بن عاصم به نحوه اهـ منه .

وقد ذكر هذا الحديث صاحب مجمع الزوائد . وقال رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله موثقون ، وهذا الحديث يعتضد بجميع ما ذكرنا من الأدلة ، وما جاء فيه من كون المرأة عورة : يدل على الحجاب لازوم ستر كل ما يصدق عليه اسم العورة .

ومما يؤيد ذلك : ما ذكر الهيثمى أيضاً فى مجمع الزوائد عن ابن مسعود : قال إنما النساء عورة ، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها من بأس فيستشرفها الشيطان فيقول : إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه . وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال : أين تريدين فتقول : أعود مريضاً أو أشهد جنازة ، أو أصلى فى مسجد ، وما عبدت امرأة ربها ، مثل أن تعبده فى بيتها ؟ ثم قال : رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات اهـ منه . ومثله له حكم الرفع إذ لا مجال فيه .

ومن الأدلة الدالة على ذلك الأحاديث التى قدمناها ، الدالة على أن صلاة المرأة فى بيتها خير لها من صلاتها فى المساجد . كما أوضحناه فى سورة النور فى الكلام على قوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) الآية . والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً . وفيها ذكرنا كفاية لمن يريد الحق .

فقد ذكرنا الآيات القرآنية الدالة على ذلك ، والأحاديث الصحيحة الدالة على الحجاب ، وبينا أن من أصرحها فى ذلك آيه النور مع تفسير الصحابة لها ، وهى قوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقد أوضحنا غير بعيد تفسير الصحابة لها ، والنبى صلى الله عليه وسلم موجود بينهم ينزل عليه الوحى ، بأن المراد

بما يدخل فيه ستر الوجه وتغطيته عن الرجال ، وأن ستر المرأة وجهها عمل بالقرآن قالته عائشة رضى الله عنها .

وإذا علمت أن هذا القدر من الأدلة على عموم الحجاب يكفى المنصف ، فسنذكر لك أجوبة أهل العلم ، عما استدل به الذين قالوا بجواز إبداء المرأة وجهها ويديها ، بحضرة الأجانب .

فمن الأحاديث التى استدلوا بها على ذلك حديث خالد بن دريك عن عائشة رضى الله عنها : أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها ، وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه » وهذا الحديث يجاب عنه بأنه ضعيف من جهتين .

الأولى : هى كونه مرسلا ، لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة ، كما قاله أبو داود ، وأبو حاتم الرازى كما قدمناه فى سورة النور .

الجهة الثانية : أن فى إسناده سعيد بن بشير الأزدى مولاهم ، قال فيه فى التقريب : ضعيف ، مع أنه مردود بما ذكرنا من الأدلة على عموم الحجاب ، ومع أنه لو قدر ثبوته قد يحمل على أنه كان قبل الأمر بالحجاب .

ومن الأحاديث التى استدلوا بها على ذلك حديث جابر الثابت فى الصحيح قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة يوم العيد ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ، ولا إقامة ، ثم قام متوكئا على بلال فأمر بتقوى الله ، وحث على طاعته ، ووعظ الناس ، وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء ، فوعظهن وذكرهن فقال « تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم . فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين فقالت : لم يا رسول الله ؟ قال : لأنكن تكثرن الشكاة ،

وتكفرن العشير. قال فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين فى ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن» اهـ . هذا لفظ مسلم فى صحيحه . قالوا : وقول جابر فى هذا الحديث سفعاء الخدين يدل على أنها كانت كاشفه عن وجهها ، إذ لو كانت محتجبة لما رأى خديها ، ولما علم بأنها سفعاء الخدين . وأجيب عن حديث جابر هذا : بأنه ليس فيه ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم رآها كاشفة عن وجهها، وأقرها على ذلك ، بل غاية ما يفيده الحديث أن جابراً رأى وجهها ، وذلك لا يستلزم كشفها عنه قصداً ، وكم من امرأة يسقط خمارها عن وجهها من غير قصد ، فيراه بعض الناس فى تلك الحال كما قال نابغة ذبيان :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتنـــاولته واتقتنـا باليـد

فعلى المحتج بحديث جابر المذكور ، أن يثبت أنه صلى الله عليه وسلم رآها سافرة ، وأقرها على ذلك ، ولا سبيل له إلى إثبات ذلك . وقد روى القصة المذكورة غير جابر ، فلم يذكر كشف المرأة المذكورة عن وجهها ، وقد ذكر مسلم فى صحيحه ممن رواها غير جابر أبا سعيد الخدرى، وابن عباس ، وابن عمر، وذكره غيره عن غيرهم . ولم يقل أحد ممن روى القصة غير جابر أنه رأى خدى تلك المرأة السفعاء الخدين ، وبذلك تعلم أنه لا دليل على السفور فى حديث جابر المذكور . وقد قال النووى فى شرح حديث جابر هذا عند مسلم وقوله : فقامت امرأة من سطة النساء . هكذا هو فى النسخ سطة بكر السين ، وفتح الطاء المخففة . وفى بعض النسخ : واسطة النساء . قال القاضى معناه : من خيارهن ، والوسط العدل والخيار قال : وزعم حذاق شيوخنا أن هذا الحرف مغير فى كتاب مسلم، وأن صوابه من سفلة النساء ، وكذا رواه ابن أبى شيبة فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، وفى رواية لابن أبى شيبة : امرأة ليست من علية النساء ، وهذا ضد التفسير الأول ويعضده قوله بعده : سفعاء الخدين هذا كلام القاضى ،

وهذا الذى أدعوه من تغيير الكلمة غير مقبول ، بل هى صحيحة ، وليس المراد بها من خيار النساء كما فسره به هو ، بل المراد : امرأة من وسط النساء جالسة فى وسطهن . قال الجوهرى وغيره من أهل اللغة : يقال: وسطت القوم أوسطهم وسطا وسطة أى توسطتهم . اهـ منه . وهذا التفسير . الأخير هو الصحيح ، فليس فى حديث جابر ثناء البتة على سفعاء الخدين المذكورة ، ويحتمل أن جابراً ذكر سفعة خديها ليشير إلى أنها ليست ممن شأنها الافتتان بها ، لأن سفعة الخدين قبح فى النساء . قال النووى : سفعاء الخدين : أى فيها تغير وسواد . وقال الجوهرى فى صحاحه : والسفعة فى الوجه : سواد فى خدى المرأة الشاحبة ، ويقال للحمامة سفعاء لما فى عنقها من السفعة ، قال حميد بن ثور :

من الورق سفعاء العلاطين باكرت فروع أشاء مطلع الشمس أسحما

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : السفعة فى الخدين من المعانى المشهورة فى كلام العرب : أنها سواد وتغير فى الوجه ، من مرض أو مصيبة أو سفر شديد - ومن ذلك قول متمم بن نويرة التميمى يبكى أخاه مالكا :

تقول ابنة العمرى مالك بعدما أراك خضيبا ناعم البال أروعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتنى ولوعة وجد تترك الخد أسفعا

ومعلوم أن من السفعة ما هو طبيعى كما فى الصقور ، فقد يكون فى خدى الصقر سواد طبيعى ، ومنه قول زهير بن أبى سلمى :

أهوى لها أسفع الخدين مطرق ريش القوادم لم تنصب له الشبك

والمقصود : أن السفعة فى الخدين إشارة إلى قبح الوجه ، وبعض أهل العلم يقول : إن قبيحة الوجه التى لا يرغب فيها الرجال لقبحها ، لها حكم القواعد اللاتى لا يرجون نكاحا .

ومن الأحاديث التى استدلوا بها على ذلك ، حديث ابن عباس الذى قدمناه

قال : أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس رضى الله عنهما، يوم النحر خلفه على عجز راحلته ، وكان الفضل رجلا وضيئا فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطفق الفضل ينظر إليها ، وأعجبه حسنها فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم ، والفضل ينظر إليها ، فأخلف بيده ، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها ، فقالت : يا رسول الله : إن فريضة الله فى الحج على عباده ، أدركت أبى شيخا كبيرا . الحديث قالوا : فالإخبار عن الخثعمية بأنها وضيئة يفهم منه أنها كانت كاشفة عن وجهها .

وأجيب عن ذلك أيضا من وجهين :

الأول : الجواب بأنه ليس فى شىء من روايات الحديث ، التصريح بأنها كانت كاشفة عن وجهها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رآها كاشفة عنه ، وأقرها على ذلك بل غاية مافى الحديث أنها كانت وضيئة، وفى بعض روايات الحديث: أنها حسناء ومعرفة كونها وضيئة أو حسناء لا يستلزم أنها كانت كاشفة عن وجهها ، وأنه صلى الله عليه وسلم أقرها على ذلك ، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد ، فيراها بعض الرجال من غير قصد كشفها عن وجهها كما أوضحناه فى رؤية جابر سفعاء الخدين . ويحتمل أن يكون يعرف حسنها قبل ذلك الوقت لجواز أن يكون قد رآها قبل ذلك وعرفها . ومما يوضح هذا أن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما الذى روى عنه هذا الحديث لم يكن حاضراً وقت نظر أخيه إلى المرأة ، ونظرها إليه لما قدمنا من أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمه بالليل من مزدلفة إلى منى فى ضعفة أهله، ومعلوم أنه إنما روى الحديث المذكور من طريق أخيه الفضل ، وهو لم يقل له : إنها كانت كاشفة عن وجهها ، واطلاع الفضل على أنها وضيئة حسناء لا يستلزم السفور قصدا لاحتمال أن يكون رأى وجهها ،

وعرف حسنه من أجل انكشاف خمارها من غير قصد منها ، واحتمال أنه رآها قبل ذلك وعرف حسنها .

فإن قيل : قوله إنها وضيئة ، وترتيبه على ذلك بالفاء ، قوله : فطفق الفضل ينظر إليها . وقوله : وأعجبه حسنها ، فيه الدلالة الظاهرة على أنه كان يرى وجهها ، وينظر إليه لإعجابه بحسنه .

فالجواب : أن تلك القرائن لا تستلزم استلزاماً ، لاينفك أنها كانت كاشفة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رآها كذلك ، وأقرها لما ذكرنا من أنواع الاحتمال ، مع أن جمال المرأة قد يعرف ، وينظر إليها لجمالها وهي مختمرة وذلك لحسن قدها وقوامها ، وقد تعرف وضاءتها وحسنها من رؤية بنانها فقط كما هو معلوم ، ولذلك فسر ابن مسعود (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) بالملاءة فوق الثياب كما تقدم . ومما يوضح أن الحسن يعرف من تحت الثياب قول الشاعر :

طافت أمامة بالركبان آونة يا حسنها من قوام ما ومنتقبا

فقد بالغ فى حسن قوامها ، مع أن العادة كونه مستوراً بالثياب لامنكشفاً .

الوجه الثانى : أن المرأة محرمة وإحرام المرأة فى وجهها وكفيها ، فعليها كشف وجهها إن لم يكن هناك رجال أجانب ينظرون إليها ، وعليها ستره من الرجال فى الإحرام ، كما هو معروف عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرهن ولم يقل أحد أن هذه المرأة الخثعمية نظر إليها أحد غير الفضل بن عباس رضى الله عنهما ، والفضل منعه النبي صلى الله عليه وسلم من النظر إليها ، وبذلك يعلم أنها محرمة لم ينظر إليها أحد فكشفها عن وجهها إذا لإحرامها لا لجواز السفور .

فإن قيل : كونها مع الحجاج مظنة أن ينظر الرجال وجهها إن كانت سافرة لأن الغالب أن المرأة السافرة وسط الحجيج ، لا تخلو ممن ينظر إلى وجهها من الرجال .

فالجواب : أن الغالب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الورع وعدم النظر إلى النساء ، فلا مانع عقلا ولا شرعاً ، ولا عادة من كونها لم ينظر إليها أحد منهم ، ولو نظر إليها لحكى كما حكى نظر الفضل إليها ، ويفهم من صرف النبي صلى الله عليه وسلم بصر الفضل عنها ، أنه لاسبيل إلى ترك الأجانب ينظرون إلى الشابة ، وهى سافرة كما ترى ، وقد دلت الأدلة المتقدمة على أنهـا يلزمها حجب جميع بدنها عنهم .

وبالجملة ، فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء فى الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب ، مع أن الوجه هو أصل الجمال ، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية وداع إلى الفتنة ، والوقوع فيما لاينبغى . ألم تسمع بعضهم يقول :

قلت اسمحوا لى أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعـــد ذاك تقوم

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك ولقد صدق من قال :

وما عجب أن النساء ترجلت ولـكن تأنيث الرجال عجاب

مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة

أعنى آية الحجاب هذه

اعلم أنه لايجوز للرجل الأجنبى أن يصافح امرأة أجنبية منه .

ولا يجوز له أن يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها .

والدليل على ذلك أمور :

الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه قال « إنى لا أصافح النساء » الحديث . والله يقول : (لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة) فيلزمنا ألا

نصافح النساء اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، والحديث المذكور قد قدمناه موضحاً في سورة الحج في الكلام على النهي : عن لبس المعصفر . مطلقاً في الإحرام ، وغيره للرجال . وفي سورة الأحزاب في آية الحجاب هذه .

وكونه صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء وقت البيعة دليل واضح على أن الرجل لا يصافح المرأة ، ولا يمس شيئا من بدنه شيئا من بدنها ، لأن أخف أنواع اللمس المصافحة ، فإذا امتنع منها صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي يقتضيها وهو وقت المبايعة ، دل ذلك على أنها لا تجوز ، وليس لأحد مخالفته صلى الله عليه وسلم ، لأنه هو المشرع لأمته بأقواله وأفعاله وتقريره .

الأمر الثاني : هو ماقدمنا من أن المرأة كلها عورة يجب عليها أن تحتجب ، وإنما أمر بغض البصر خوف الوقوع في الفتنة ، ولاشك أن مس البدن للبدن ، أقوى في إثارة الغريزة ، وأقوى داعياً إلى الفتنة من النظر بالعين ، وكل منصف يعلم صحة ذلك .

الأمر الثالث : أن ذلك ذريعة إلى التلذذ بالأجنبية ، لقلة تقوى الله في هذا الزمان وضياع الأمانة ، وعدم التورع عن الريبة ، وقد أخبرنا مراراً أن بعض الأزواج من العوام ، يقبل أخت امرأته بوضع الفم على الفم ويسمون ذلك التقبيل الحرام بالإجماع سلاماً ، فيقولون سلم عليها يعنون قبلها ، فالحق الذي لاشك فيه التباعد عن جميع الفتن والريب ، وأسبابها ومن أكبرها لمس الرجل شيئاً من بدن الأجنبية ، والذريعة إلى الحرام يجب سدها كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :

سد الذرائع إلى المحرم حتم كفتحها إلى المنحتم

قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة أن يقول للناس الذين يسألونه عن الساعة (إنما علمها عند الله) ومعلوم أن : إنما صيغة حصر .

فمعنى الآية : أن الساعة لا يعلمها إلا الله وحده .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هـذه الآية الكريمة ، جاء واضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الآية .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الخمس المذكورة فى قوله : (إن الله عنده علم الساعة) الآية . هى المراد بقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وكقوله تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مراساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وقوله تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها) وقوله تعالى : (إليه يرد علم الساعة) الآية . وفى الحديث : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن الساعة التى هى القيامة لعلها تكون قريبا ، وذكر نحوه فى قوله فى الشورى : (وما يدريك لعل الساعة قريب) ، وقد أوضح جل وعلا اقترابها فى آيات أخر كقوله : (اقتربت الساعة) الآية . وقوله (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) . وقوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

تقدمت الآيات الموضحة له مراراً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه عرض الأمانة ، وهى التكاليف مع مايتبعها من ثواب وعقاب ، على السماوات والأرض والجبال ، وأنهن أبين أن يحملنها ، وأشفقن منها : أى خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه ، وهذا العرض والإباء ، والإشفاق كله حق ، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكا يعلمه هو جل وعلا ، ونحن لانعلمه ، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها ، وأبت وأشفقت أى خافت .

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة ، فمن الآيات الدالة على إدراك الجمادات المذكور قوله تعالى فى سورة البقرة فى الحجارة (وإن منها لما يهبط من خشية الله) فصرح بأن من الحجارة مايهبط من خشية الله ، وهذه الخشية التى نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو تعالى .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) الآية . ومنها قوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع ، الذى كان يخطب عليه النبى صلى الله عليه وسلم لما انتقل بالخطبة إلى المنبر ، وهى فى صحيح البخارى وغيره .

ومنها : ماثبت فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنى لأعرف حجراً كان يسلم علىفى مكة» وأمثال هذا كثيرة ، فكل ذلك المذكور فى الكتاب والسنة ، إنما يكون بإدراك يعلمه الله ، ونحن لا نعلمه . كما قال تعالى : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ولو كان المراد بتسبيح الجمادات، دلالتها على خالقها لكنا نفقهه ، كما هو معلوم وقد دلت عليه آيات كثيرة .

وقولهُ تعالى فى هذه الآية الكريمة (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وأن الضمير فى قوله : (إنه كان ظلوماً جهولا) راجع للفظ الإنسان مجرداً عن إرادة المذكور منه الذى هو آدم :

والمعنى : أنه أى الإنسان الذى لايحفظ الأمانة كان ظلوماً جهولا : أى كثير الظلم والجهل ، والدليل على هذا أمران .

أحدهما : قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان فى حمل الأمانة المذكورة إلى معذب ومرحوم فى قوله تعالى بعده متصلا به (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما) فدل هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان ، هو المعذب والعياذ بالله ، وهم المنافقون ، والمنافقات ، والمشركون ، والمشركات،دون المؤمنين والمؤمنات. واللام فى قوله : ليعذب : لام التعليل وهى متعلقة بقوله : وحملها الإنسان .

الأمر الثانى: أن الأسلوب المذكور الذى هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ

دون اعتبار المعنى التفصيلى معروف فى اللغة التى نزل بها القرآن ، وقد جاء فعلا فى آية من كتاب الله ، وهى قوله تعالى : (ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا فى كتاب) ، لأن الضمير فى قوله : ولا ينقص من عمره : راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلى . كما هو ظاهر ، وقد أوضحناه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) وبينا هناك أن هذه المسألة هى المعروفة عند علماء العربية بمسألة عندى درهم ونصفه : أى نصف درهم آخر كما ترى . وبعض من قال من أهل العلم إن الضمير فى قوله : (إنه كان ظلوماً جهولا) عائد إلى آدم ، قال المعنى : أنه كان ظلوما لنفسه جهولا : أى غراً بعواقب الأمور ، وما يتبع الأمانة من الصعوبات ، والأظهر هو ما ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ .

قد ذكرنا ما هو بمعناه من الآيات فى أول سورة الفاتحة فى الكلام على قوله (الحمد لله رب العالمين) .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه يعلم ما يلج فى الأرض ، أى ما يدخل فيها كالماء النازل من السماء ، الذى يلج فى الأرض ، كما أوضحه بقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) الآية .

وقوله : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) الآية ، فهو جل وعلا ، يعلم عدد القطر النازل من السماء إلى الأرض ، وكيف لا يعلمه من خلقه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ويعلم أيضا ما يلج فى الأرض من الموتى الذين يدفنون فيها ، كما قال جل وعلا (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) وقال (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) والكفات من الكفت : وهو الضم ، لأنها تضمهم أحياء على ظهرها ، وأمواتا فى بطنها ، ويعلم أيضا ما يلج فى الأرض من البذر كما قال تعالى (ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وكذلك ما فى بطنها من المعادن وغير ذلك .

قوله (وما يخرج منها) أى من الأرض كالنبات ، والحبوب والمعادن ، والكنوز ، والدفائن وغير ذلك ، ويعلم ما ينزل من السماء من المطر ، والثلج ، والبرد ، والرزق وغير ذلك ، وما يعرج : أى يصعد فيها أى السماء كالأعمال الصالحة، كما بينه بقوله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وكأرواح المؤمنين وغير ذلك كما قال تعالى (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) الآية .

وقال تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) ، وما ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه يعلم جميع ما ذكره فى سورة الحديد فى قوله (يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منهما وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على كمال إحاطة علم الله بكل شىء فى أول سورة هود ، فى الكلام على قوله تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) الآية ، وفى مواضع أخر متعددة .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: أن الكفار أنكروا البعث ، وقالوا: لا تأتين الساعة : أى القيامة ، وأنه جل وعلا أمر نبيه أن يقسم لهم بربه العظيم أن الساعة سوف تأتيهم مؤكداً ذلك توكيداً متعددا .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث

جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وقوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم) وقوله تعالى (ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا)وقوله تعالى عنهم (وما نحن بمبعوثين وما نحن بمنشرين) والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، وما ذكره جل وعلا من أنه أمر نبيه بالإقسام لهم على أنهم يبعثون ، جاء موضحاً فى مواضع أخر .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة : هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابعة لهن مما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى): ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين)والثانية هذه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) والثالثة : فى سورة التغابن وهى قوله تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم) . الآية .

وقد قدمنا البراهين الدالة على البعث بعد الموت من القرآن فى سورة البقرة، وسورة النحل وغيرهما .

وقد قدمنا الآيات الدالة على إنكار الكفار البعث ، وما أعد الله لمنكرى البعث من العذاب فى الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وفى مواضع أخر . وقوله : قل بلى لفظة بلى قد قدمنا معانيها فى اللغة العربية بإيضاح فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وقد بيناها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : لا يعزب : أى لا يغيب عنه مثقال ذرة ، ومنه قول كعب بن سعد الغنوى :

أخى كان أما حلمه فمروح عليه وأما جهله فمعزيب

يعنى أن الجهل غائب عنه ليس متصفا به . وقرأ هذا الحرف نافع وابن عامر : عالم الغيب بألف بعد العين ، وتخفيف اللام المكسورة ، وضم الميم على وزن فاعل . وقرأه حمزة والكسائى : علاَّم الغيب بتشديد اللام وألف بعد اللام المشددة وخفض الميم على وزن فعال . وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم عالم الغيب كقراءة نافع وابن عامر : إلا أنهم يخفضون الميم وعلى قراءة نافع ،

وابن عامر : بضم الميم من قوله : عالم الغيب ، فهو مبتدأ خبره جملة (لا يعزب عنه) الآية . أو خبر مبتدأ محذوف أى هو عالم الغيب .

وعلى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم عالم الغيب بخفض الميم فهو نعت لقوله ربى : أى قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم ، وكذلك على قراءة حمزة ، والكسائى : علاَّم الغيب . وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير الكسائى : لا يعزُب عنه بضم الزاى من يغرب ، وقرأه الكسائى بكسر الزاى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ .

لم يبين هنا نوع هذا العذاب ، ولكنه بينه بقوله فى الحج (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) وقوله : معاجزين : أى مغالبين ، ومسابقين يظنون أنهم يعجزون ربهم ، فلا يقدر على بعثهم وعذابهم ، والرجز العذاب كما قال (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا) الآية ، وقرأ هذا الحرف ابن كثير ، وأبو عمرو : معجّزين بلا ألف بعد العين مع تشديد الجيم المكسورة . وقرأه الباقون بألف بعد العين ، وتخفيف الجيم ، ومعنى قراءة التشديد أنهم يحسبون أنهم يعجزون ربهم ، فلا يقدر على بعثهم وعقابهم .

وقال بعضهم : أن معنى معجزين بالتشديد : أى مثبطين الناس عن الإيمان وقرأ ابن كثير ، وحفص من رجز أليمٌ : بضم الميم من قوله : أليم على أنه نعت لقوله : عذاب . وقرأ الباقون : أليم بالخفض على أنه نعت لقوله : رجز .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَالضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار البعث ، وتكذيب الله لهم في ذلك قدم موضحا في مواضع كثيرة ، من هذا الكتاب في البقرة والنحل وغيرهما .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (إذا مزقتم كل ممزق) أي تمزقت أجسادكم وتفرقت وبليت عظامكم ، واختلطت بالأرض . وتلاشت فيها . وقوله عنهم (إنكم لفي خلق جديد) أي البعث بعد الموت وهو مصب إنكارهم قبحهم الله ، وهو جل وعلا يعلم ما تلاشى في الأرض من أجسادهم ، وعظامهم كما قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

مادلت عليه هذه الآية الكريمة من توبيخ الكفار ، وتقريعهم على عدم تفكرهم ونظرهم إلى مابين أيديهم ، وما خلفهم من السماء والأرض ، ليستدلوا بذلك على كمال قدرة الله على البعث ، وعلى كل شيء ، وأنه هو المعبود وحده جاء موضحاً في مواضع أخر، كقوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي

وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . وقوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) . وقوله تعالى : (وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة .

وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية : قال عبد بن حميد ، أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر عن قتادة (أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) قال : إنك إن نظرت عن يمينك ، أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أمرين :

أحدهما : أنه إن شاء خسف الأرض بالكفار، خسفها بهم لقدرته على ذلك.

والثانى : أنه إن شاء أن يسقط عليهم كسفاً من السماء فعل ذلك أيضاً لقدرته عليه .

أما الأول الذى هو أنه لو شاء أن يخسف بهم الأرض لفعل ، فقد ذكره تعالى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) ، وقوله تعالى : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الآية . وقوله تعالى (لولا أن من الله علينا لخسف بنا) . وقوله تعالى فى الأنعام : (أو من تحت أرجلكم) الآية .

وقوله هنا : (أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) قد بينا فى سورة بنى إسرائيل أنه هو المراد بقوله تعالى عن الكفار (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) الآية . وقرأه حمزة والكسائى : إن يشأ يخسف بهم الأرض ، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء بالياء المثناة التحتية فى الأفعال الثلاثة . أعنى يشأ . ويخسف . ويسقط ، وعلى هذه القراءة فالفاعل ضمير يعود إلى الله تعالى أى إن يشأ هو أى الله يخسف بهم الأرض ، وقرأ الباقون بالنون الدالة على العظمة فى الأفعال الثلاثة أى إن نشأ نحن إلخ . وقرأ حفص عن عاصم : كسفاً بفتح السين ، والباقون بسكونها والكسف بفتح السين القطع ، والكسف بسكون السين واحدها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه آتى داود منه فضلا تفضّل به عليه ، وبين هذا الفضل ، الذى تفضل به على داود فى آيات أخر كقوله تعالى : (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وقوله تعالى : (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقوله تعالى : (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) . وقوله تعالى (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وقوله تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) . وقوله تعالى : (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) . وقوله تعالى : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ يٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة له مع إيضاح معنى أوبى معه فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾.

قد قدمنا الآيات التى فيها إيضاحه ، مع بعض الشواهد وتفسير قوله : (وقدر فى السرد) فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (وعلمناه صنعة لبوس لكم) . وفى النحل فى الكلام على قوله تعالى : (وسرابيل تقيكم بأسكم).

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ .

قد بينا الآيات التى فيها إيضاح له فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله : (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض) الآية . مع الأجوبة عن بعض الأسئلة الواردة ، على الآيات المذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ قُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين).

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قدقدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر فى الكلام ، على قوله تعالى عنه (لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) الآية ، وفى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، وقوله (ولقد صدق) قرأه عاصم ، وحمزة والكسائى بتشديد الدال والباقون بالتخفيف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ الآية .

قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر ، فى الكلام على قوله تعالى : (إلا عبادك منهم المخلصين) وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يقبل منها شفاعة) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ .

أمر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار : (من يرزقكم من السماوات والأرض) أى يرزقكم من السماوات بإنزال المطر مثلا ، والأرض بإنبات الزروع والثمار ونحو ذلك . ثم أمره أن يقول : الله : أى الذى يرزقكم من السماوات والأرض هو الله ، وأمره تعالى له صلى الله عليه وسلم بأن يجيب بأن رازقهم هو الله يفهم منه أنهم مقرون بذلك ، وأنه ليس محل نزاع .

وقد صرح تعالى بذلك ، فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) الآية ، وإقرارهم بربوبيته تعالى يلزمه الاعتراف بعبادته وحده ، والعمل بذلك .

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لذلك فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار . إنهم وإياهم ليس أحد منهم مسئولا عما يعمله الآخر ، بكل كل منهم مؤاخذ بعمله ، والآخر برىء منه .

وأوضح هذا المعنى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) ، وقوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) إلى قوله : (لكم دينكم ولى دين) وفى معنى ذلك فى الجملة قوله تعالى : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) . وكقوله تعالى عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة أن يقول

لعبدة الأوثان : أروني أوثانكم التي ألحقتموها بالله شركاء له في عبادته ، كفراً منكم ، وشركا وافتراء . وقوله : أروني الذين ألحقتم به شركاء ، لأنهم إن أروه إياها تبين برؤيتها أنها جماد لا ينفع ولا يضر ، واتضح بعدها عن صفات الألوهية . فظهر لكل عاقل برؤيتها بطلان عبادة مالا ينفع ولا يضر ، فإحضارها والكلام فيها ، وهي مشاهدة أبلغ من الكلام فيها غائبة ، مع أنه صلى الله عليه وسلم يعرفها ، وكما أنه في هذه الآية الكريمة أمرهم . أن يروه إياها ليتبين بذلك بطلان عبادتها، فقد أمرهم في آيات أخرى أن يسموها بأسمائها لأن تسميتها بأسمائها يظهر بها بعدها عن صفات الألوهية ، وبطلان عبادتها لأنها أسماء إناث حقيرة كاللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، كما قال تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إناثا) الآية ، وذلك في قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) .

والأظهر في قوله : أروني الذين ألحقتم به في هذه الآية : هو ماذكرنا من أن الرؤية بصرية وعليه فقوله : وشركاء حال ، وقال بعض أهل العلم : إنها من رأى العلمية، وعليه فشركاء مفعول ثالث لأروني. قال القرطبي: يكون أروني هنا من رؤية القلب فيكون شركاء مفعولا ثالثاً أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت في خلق شيء ، فبينوا ما هو وإلا فلم تعبدونها اهـ محل الغرض منه . واختار هذا أبو حيان في البحر المحيط . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : كلا ردع لهم ، وزجر عن إلحاق الشركاء به . وقوله : بل هو الله العزيز الحكيم :أي والمتصف بذلك هو المستحق للعبادة، وقد قدمنا معنى العزيز الحكيم بشواهده مرارا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وفى غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى : إلا كافة للناس ، استشهد به بعض علماء العربية على جواز تقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف كما أشار له ابن مالك فى الخلاصة بقوله :

وسبق حال ما بحرف جر قد أبوا ولا أمنعه فقد ورد

قالوا : لأن المعنى : وما أرسلناك إلا للناس كافة : أى جميعاً أى أرسلناك للناس ، فى حال كونهم مجتمعين فى رسالتك ، وممن أجاز ذلك أبو على الفارسى وابن كيسان ، وابن برهان ، ولذلك شواهد فى شعر العرب ، كقول طليحة ابن خويلد الأسدى :

فإن تك أذواد أصبن ونسوة فلن يذهبوا فرغا بقتل حبال

وكقول كثير :

لئن كان برد الماء هيمان صاديا إلى حبيبا إنهـا لحبيب

وقول الآخر :

تسليت طرا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندى

وقول الآخر :

غافلا تعرض المنيـة للمر ء فيدعى ولات حين إباء

وقوله :

مشغوفة بك قد شغفت وإنما حم الفراق فما إليك سبيل

وقوله :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئا فمطلبها كهلا عليه شديد

فقوله فى البيت الأول فرغا : أى هررا حال وصاحبه المجرور بالباء الذى

هو بقتل، وحبال اسم رجل . وقوله فى البيت الثانى : هيمان صاديا حالان من ياء المتكلم المجرورة بإلى فى قوله : إلىَّ حبيبا . وقوله فى البيت الثالث : طرا حال من الضمير المجرور بعن فى قوله : عنكم ، وهكذا وتقدم الحال على صاحبها المجرور بالحرف منعه أغلب النحويين .

وقال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى :(وماأرسلناك إلا كافة للناس) إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم ، لأنها إذا شملتهم ، فإنها قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم .

وقال الزجاج : المعنى : أرسلناك جامعاً للناس فى الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالا من الكاف ، وحق الثاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية ، والعلامة ، ومن جعله حالا من المجرور متقدما عليه فقد أخطأ ، لأن تقدم حال المجرور عليه فى الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوى له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثانى ، فلا بدله من ارتكاب الخطأين .اهـ منه .

وقال الشيخ الصبان فى حاشيته على الأشمونى : جعل الزمخشرى . كافة صفة لمصدر محذوف أى رسالة كافة للناس ، ولكن اعترض بأن كافة مختصة بمن يعقل وبالنصب على الحال كطرا ، وقاطبة. انتهى محل الغرض منه ،وماذكره الصبان فى كافة هو المشهور المتداول فى كلام العرب ، وأوضح ذلك أبوحيان فى البحر ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك) الآية. وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَئْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ .

ذكرنا بعض الآيات التى فيها بيان له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وبيناه فى مواضع أخر من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

جاء موضحا فى مواضع أخر كقوله تعالى : (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل) وقوله (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم) وقوله (ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) وأوضحنا ذلك فى سورة قد أفلح المؤمنون فى الكلام على قوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ماجاء أمة رسولها كذبوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (ويوم نحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) .

وله تعالى : ﴿ وَمَا ءَاتَيْنَـٰهُمْ مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات التى بمعناه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه أهلك الأمم الماضية لما كذبت رسله ، وأن الأمم الماضية أقوى ، وأكثر أموالا وأولاداً ، وأن كفار مكة عليهم أن يخافوا من إهلاك الله لهم بسبب تكذيب رسوله صلى الله عليهم وسلم ، كما أهلك الأمم التى هى أقوى منهم ، ولم يؤتوا : أى كفار مكة معشار ما أتى الله الأمم التى أهلكها من قبل من القوة ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) وقد قدمنا بعض الكلام على هذا فى سورة الروم فى الكلام على قوله تعالى : (وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة المؤمنون فى الكلام على قوله تعالى : (أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ .

قد قدمنا الآيات التى بمعناه فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) فى معرض بيان حجج الظاهرية فى دعواهم منع الاجتهاد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون بالله ، وأن ذلك الإيمان لاينفعهم لفوات وقت نفعه ، الذى هو مدة دار الدنيا جاء موضحاً فى آيات كثيرة .

وقد قدمنا الآيات الدالة عليه فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الآية . وفى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) ، وفى غير ذلك من المواضع . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أنى تدل على

كمال الاستبعاد هنا ، والتناوش : التناول ، وقال بعضهم : هو خصوص التناول السهل للشيء القريب .

والمعنى : أنه يستبعد كل الاستبعاد ويبعد كل البعد ، أن يتناول الكفار الإيمان النافع فى الآخرة بعد ما ضيعوا ذلك وقت إمكانه فى دار الدنيا ، وقيل الاستبعاد لردهم إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ، والأول أظهر ، ويدل عليه قوله قبله (وقالوا آمنا به) ومن أراد تناول شيء من مكان بعيد لا يمكنه ذلك . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ الآية

الألف واللام فى قوله : الحمد لله للاستغراق : أى جميع المحامد ثابت لله جل وعلا ، وقد أثنى جل وعلا على نفسه بهذا الحمد العظيم ، معلماً خلقه فى كتابه : أن يثنوا عليه بذلك ، مقترناً بكونه فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا ، وذلك يدل على أن خلقه للسماوات والأرض ، وما ذكر معه يدل على عظمته ، وكمال قدرته ، واستحقاقه للحمد لذاته لعظمته وجلاله وكمال قدرته مع مافى خلق السماوات والأرض ، من النعم على بنى آدم فهو بخلقهما مستحق للحمد لذاته ، ولإنعامه على الخلق بهما ، وكون خلقهما جامعا بين استحقاق الحمدين المذكورين ، جاءت آيات من كتاب الله تدل عليه أما كون ذلك يستوجب حمد الله لعظمته وكماله ، واستحقاقه لكل ثناء جميل فقد جاء فى آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى فى أول سورة الأنعام (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) الآية . وقوله فى أول سورة سبأ (الحمد لله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض) الآية . وقوله تعالى فى أول سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) وقد قدمنا أن قوله : رب العالمين بينه قوله تعالى : (قال فرعون ومارب العالمين ، قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) . وكقوله تعالى: (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) وقوله (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) .

وأما استحقاقه للحمد على خلقه بخلق السماوات والأرض ، لما فى ذلك من

إنعامه على بنى آدم فقد جاء فى آيات عن كتاب الله ، فقد بين تعالى أنه أنعم على خلقه ، بأن سخر لهم ما فى السماوات ومافى الأرض فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (وسخر لكم مافى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه) . وقوله تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الآية . وقوله تعالى : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى تسخير مافى السماوات لأهل الأرض فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (جاعل الملائكة رسلا) قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج ، فى الكلام على قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فاطر السموات والأرض) أى خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما على غير مثال سابق .

وقال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية الكريمة : قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت لا أدرى ما فاطر السماوات والأرض : حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها أى بدأتها .

قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ الآية .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن مايفتحه للناس من رحمته

وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم ، لا يقدر أحد كائنا من كان أن يمسكه عنهم ، ومايمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائنا من كان أن يرسله إليهم ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين والرحمة المذكورة فى الآية عامة فى كل مايرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوى والأخروى ، كفتحه لهم رحمة المطر ، كما قال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) .

وقوله تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) . وقوله تعالى : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته) الآية ، ومن رحمته إرسال الرسل ، وإنزال الكتب كقوله تعالى : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) كما تقدم إيضاحه فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا) الآية .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلاراد لفضله) . وقوله تعالى : (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) الآية . وقوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) و (ما) فى قوله تعالى : (مايفتح الله) وقوله : و(ما يمسك) شرطية ، وفتح الشىء التمكين منه وإزالة الحواجز دونه والإمساك بخلاف ذلك .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

الاستفهام فى قوله (هل من خالق غير الله) إنكارى فهو متضمن معنى النفى .

والمعنى : لاخالق إلا الله وحده ، والخالق هو المستحق للعبادة وحده .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه) وفى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون) وفى غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (يرزقكم من السماء والأرض) يدل على أنه تعالى هو الرازق وحده ، وأن الخلق فى غاية الاضطرار إليه تعالى .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى (أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) وقوله (فابتغوا عند الله الرزق) .

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

ماتضمنته هذه الآية الكريمة من تسليته صلى الله عليه وسلم ، بأن مالاقاه من قومه من التكذيب لاقاه الرسل الكرام من قومهم قبله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) وقوله تعالى: (مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في مواضع من هذا الكتاب المبارك كقوله تعالى في الكهف (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) وفي الكهف في الكلام على قوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) الآية . وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

ماتضمنته هذه الآية الكريمة من أن إحياءه تعالى الأرض بعد موتها المشاهد في دار الدنيا برهان قاطع على قدرته على البعث ، قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والأنبياء وغير ذلك ، وقد تقدمت الإحالة عليه مراراً .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن من كان يريد العزة فإنها جميعها لله وحده ، فليطلبها منه وليتسبب لنيلها بطاعته جل وعلا ، فإن من أطاعه أعطاه العزة فى الدنيا والآخرة ، أما الذين يعبدون الأصنام لينالوا العزة بعبادتها، والذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ، فإنهم فى ضلال وعمى عن الحق ، لأنهم يطلبون العزة من محل الذل .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله تعالى : (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً) وقوله تعالى : (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم) . وقوله تعالى : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله) الآية وقوله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) والعزة : الغلبة والقوة ، ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يحتمى إذ الناس إذ ذاك من عزيزا

أى من غلب استلب ، ومنه قوله تعالى (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى وقوى على فى الخصومة .

وقول من قال من أهل العلم : إن معنى الآية : من كان يريد العزة أى يريد أن يعلم لمن العزة أصوب منه ماذكرنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الآية .

وقد تقدم بعض الكلام عليه فى سورة النحل مع إعراب السيئات .

وقد قدمنا فى مواضع أخر أن من مكرهم السيئات كفرهم بالله وأمرهم أتباعهم به ، كما قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) وكقوله تعالى : (ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسرا) والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

قد تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد وكل شىء عنده بمقدار) مع بيان الأحكام المتعلقة بالآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ .

قد قدمنا بعض الكلام عليه فى آخر سورة الأحزاب ، فى الكلام على قوله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) وفى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ .

تقدم إيضاحه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

قد تقدم الكلام عليه مع بسط أحكام فقهية تتعلق بذلك فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) .

وتقدم فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) .

أن قوله فى آية فاطر هذه (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها) دليل قرآنى واضح على بطلان دعوى من ادعى من العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لايخرجان إلا من البحر الملح خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم ، فى الكلام على قوله تعالى : (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وفى غيره من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

بين جلا وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه غنى عن خلقه ، وأن خلقه مفتقر إليه : أى فهو يأمرهم وينهاهم لا لينتفع بطاعتهم، ولاليدفع الضر بمعصيتهم، بل النفع فى ذلك كله لهم ، وهو جل وعلا الغنى لذاته الغنى المطلق .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة مع كونه معلوماً من الدين بالضرورة ، جاء فى مواضع كثيرة ، من كتاب الله كقوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم) الآية .وقوله تعالى: (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد)وقوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) إلى غير ذلك من الآيات .

وبذلك تعلم عظم افتراء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقد هددهم الله على ذلك بقوله (سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) .

قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الجواب عن بعض الأسئلة الواردة على الآية فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) ووجه الجمع بين أمثال هذه الآية وبين قوله تعالى: (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ونحوها من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: أن إنذاره صلى الله عليه وسلم محصور فى الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، وهذا الحصر الإضافى، لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار، كأنه هو والذى لم ينذر سواء بجامع عدم النفع فى كل منهما.

وهذا المعنى جاء موضحا فى آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى: (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) الآية. وقوله: (إنما أنت منذر من يخشاها) ويشبه معنى ذلك فى الجملة قوله تعالى: (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وقد قدمنا معنى الإنذار وأنواعه موضحا فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى: (فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

قد قدمنا إيضاحه بالآيات فى أول سورة هود فى الكلام على قوله تعالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

الأحياء هنا المؤمنون والأموات الكفار ، فالحياة هنا حياة إيمان والموت موت كفر .

وهذا المعنى جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فقوله : أو من كان ميتا : أى موت كفر فأحييناه حياة إيمان ، وكقوله تعالى : (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فيفهم من قوله : من كان حياً ، أى وهى حياة إيمان أن الكافرين الذين حق عليهم القول ليسوا كذلك ، وقد أطبق العلماء على أن معنى قوله : (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله) أن المعنى والكفار يبعثهم الله .

وقد قدمنا هذا موضحاً بالآيات القرآنية فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما جاء فى سماع الموتى فى سورة النمل ، فى الكلام على قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الروم فى الكلام على قوله تعالى : (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) الآية ، وبينا

هناك دلالة الآيات على أنه جل وعلا هو المؤثر وحده ، وأن الطبائع لا تأثير لها إلا بمشيئته تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (إلى قوله) ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام على هذه الآية ، مع نظائرها من آيات الرجاء استطراداً ، وذكرنا معنى الظالم والمقتصد والسابق ، ووجه تقديم الظالم عليهما بالوعد فى الجنات فى سورة النور فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ولباسهم فيها حرير) قد قدمناه مع الآيات المماثلة . والمشابهة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى :

﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) ، وفى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى :(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له وشواهده العربية فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يٰسٓ ﴾ .

التحقيق أنه من جملة الحروف المقطعة فى أوائل السور ، والياء المذكورة فيه ذكرت فى فاتحة سورة مريم فى قوله تعالى : كهيعص . والسين المذكورة فيه ذكرت فى أول الشعراء والقصص . فى قوله : طسٓمٓ وفى أول النمل فى قوله طس وفى أول الشورى فى قوله تعالى (حم عٓسٓق) .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قد بينا أن موجب التوكيد لكونه من المرسلين ، هو إنكار الكفار لذلك فى قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) .

قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

لفظة ما فى قوله تعالى : ما أنذر آباؤهم قيل نافية وهو الصحيح ، وقيل موصولة ، وعليه فهو المفعول الثانى لتنذر . وقيل مصدرية .

وقد قدمنا دلالة الآيات على أنها نافية وأن مما يدل على ذلك ترتيبه بالفاء عليه قوله بعده : فهم غافلون ، لأن كونهم غافلين يناسب عدم الإنذار لا الإنذار

وهذا هو الظاهر مع آيات أخر ، دالة على ذلك كما أوضحنا ذلك كله فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى:(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا).

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الظاهر أن القول فى قوله : لقد حق القول على أكثرهم ، وفى قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وماخلفهم وحق عليهم القول) الآية . وفى قوله تعالى : (قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) الآية.وفى قوله تعالى : (ويحق القول على الكافرين).وقوله تعالى (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والكلمة فى قوله تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وفى قوله تعالى : (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أن المراد بالقول والكلمة أو الكلمات على قراءة ، حقت عليهم كلمات ربك بصيغة الجمع،هو قوله تعالى : (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما دلت على ذلك آيات من كتاب الله تعالى : كقوله تعالى فى آخر سورة هود : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى فى السجدة (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

وقوله تعالى : فى أخريات ص : (قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لقد حق القول على أكثرهم) يدل على أن أكثر الناس من أهل جهنم ، كما دلت على ذلك آيات كثيرة

كقوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) .

وقد قدمنا الكلام على هذا فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية .

وبينا بالسنة الصحيحة فى أول سورة الحج : أن نصيب النار من الألف تسعة وتسعون وتسعمائة ، وأن نصيب الجنة منها واحد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

الأغلال : جمع غل وهو الذى يجمع الأيدى إلى الأعناق ، والأذقان : جمع ذقن وهو ملتقى اللحيين ، والمقمح بصيغة اسم المفعول ، هو الرافع رأسه . والسد بالفتح والضم : هو الحاجز الذى يسد طريق الوصول إلى ما وراءه .

وقوله : (فأغشيناهم) أى جعلنا على أبصارهم الغشاوة ، وهى الغطاء الذى يكون على العين يمنعها من الإبصار ، ومنه قوله تعالى : (وعلى أبصارهم غشاوة) وقوله تعالى : (وجعل على بصره غشاوة) . وقول الشاعر وهو الحارث بن خالد بن العاص :

هويتك إذ عينى عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

والمراد بالآية الكريمة : أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة

فى علم الله المذكورين فى قوله تعالى(لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) صرفهم الله عن الإيمان صرفا عظيما مانعاً من وصوله إليهم ، لأن من جعل فى عنقه غل ، وصار الغل إلى ذقنه ، حتى صار رأسه مرفوعاً لا يقدر أن يطأطئه ، وجعل أمامه سد ، وخلفه سد وجعل على بصره الغشاوة لاحيلة له فى التصرف ، ولا فى جلب نفع لنفسه ، ولا فى دفع ضر عنها ، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية من كونه جل وعلا يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فى علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه ، جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) وقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وقوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) وقوله تعالى (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) وقوله تعالى(ومن يضلل الله فلا هادى له) وقوله تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) .

وقوله تعالى : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) وقوله تعالى : (وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) . وقوله تعالى (الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب وكذلك الأغلال فى الأعناق، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم ،أن جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان ، ووصول الخير إلى القلوب أن الله إنما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم ، لتكذيب

الرسل ، والتمادى على الكفر ، فعاقبهم الله على ذلك ، بطمس البصائر والختم على القلوب والطبع عليها ، والغشاوة على الأبصار ، لأن من شؤم السيئات أن الله جل وعلا يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشر ، والحيلولة بينه وبين الخير جزاه الله بذلك على كفره جزاء وفاقا .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة كقوله تعالى : (بل طبع الله عليها بكفرهم) فالباء سببية ، وفى الآية : تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم ، وكقوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) ومعلوم أن الفاء من حروف التعليل : أى فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك ، وقوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . وقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقوله تعالى (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وقد دلت هذه الآيات على أن شؤم السيئات يجر صاحبه إلى التمادى فى السيئات ، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك ، أن فعل الخير يؤدى إلى التمادى فى فعل الخير ، وهو كذلك كما قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم : أن قول من قال من أهل العلم : إن معنى قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) أن المراد بذلك الأغلال ، التى يعذبون بها فى الآخرة كقوله تعالى (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل ، يسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون) خلاف التحقيق ، بل المراد بجعل الأغلال فى أعناقهم وما ذكر معه فى الآية هو صرفهم عن الإيمان والهدى فى دار الدنيا كما أوضحنا

وقرأ هذا الحرف . حمزة ، والكسائى ، وحفص ، عن عاصم : سداً بالفتح فى الموضعين ، وقرأه الباقون بضم السين ، ومعناهما واحد على الصواب . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

تقدم إيضاحه مع نظائره من الآيات فى سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أربعة أشياء .

الأول : أنه يحيى الموتى مؤكدا ذلك متكلماً عن نفسه بصيغة التعظيم .

الثانى : أنه يكتب ماقدموا فى دار الدنيا .

الثالث : أنه يكتب آثارهم .

الرابع : أنه أحصى كل شىء فى إمام مبين . أى فى كتاب بين واضح ، وهذه الأشياء الأربعة جاءت موضحة فى غير هذا الموضع .

أما الأول منها : وهو كونه يحيى الموتى بالبعث فقد جاء فى آيات كثيرة من كتاب الله تعالى .

كقوله تعالى (قل بلى وربى لتبعثن) وقوله تعالى (قل إى وربى إنه لحق) . وقوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدمناها بكثرة فى سورة البقرة وسورة النحل فى الكلام على براهين البعث وقدمنا الإحالة على ذلك مراراً .

وأما الثانى منها : وهو كونه يكتب ماقدموا فى دار الدنيا فقد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . وقوله تعالى: (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) . وقوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) الآية . وقوله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا فى سورة الكهف .

وأما الثالث منها : وهو كونهم تكتب آثارهم فقد ذكر فى بعض الآيات أيضاً .

واعلم أن قوله : وآثارهم فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء .

الأول منهما : أن معنى ماقدموا ما باشروا فعله فى حياتهم ، وأن معنى آثارهم : هو ماسنوه فى الإسلام من سنة حسنة أو سيئة ، فهو من آثارهم التى يعمل بها بعدهم .

الثانى : أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها من فعل الخير ، وكذلك خطاهم إلى الشر ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « يابنى سلمة دياركم تكتب آثاركم » يعنى خطاكم من بيوتكم إلى مسجده صلى الله عليه وسلم .

أما على القول الأول فالله جل وعلا قد نص على أنهم يحملون أوزار

من أضلوهم وسنوا لهم السنن السيئة كما فى قوله تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية . وقوله تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) .

وقد أوضحنا ذلك فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية ، وذكرنا حديث جرير ، وأبى هريرة فى صحيح مسلم فى إيضاح ذلك .

ومن الآيات الدالة على مؤاخذة الإنسان بما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلالة . قوله تعالى (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) بناء على أن المعنى بما قدم مباشراً له ، وأخر مما عمل به بعده مما سنه من هدى أو ضلال) . وقوله تعالى (علمت نفس ماقدمت وأخرت) على القول بذلك .

وأما على التفسير الثانى : وهو أن معنى آثارهم خطاهم إلى المساجد ونحوها ، فقد جاء بعض الآيات دالا على ذلك المعنى كقوله تعالى (ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) لأن ذلك يستلزم أن تكتب لهم خطاهم التى قطعوا بها الوادى فى غزوهم .

وأما الرابع : وهو قوله تعالى : (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) فقد تدل عليه الآيات الدالة على الأمر الثانى ، وهو كتابة جميع الأعمال التى قدموها بناء على أن المراد بذلك خصوص الأعمال .

وأما على فرض كونه عاما فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا)وقوله تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شىء) بناء على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، وهو أصح القولين . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن الكفار (وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون) قد بين أنهم قد قالوا ذلك فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء) الآية ، وقد بين تعالى أن الذين أنكروا إنزال الله الوحى كهؤلاء أنهم لم يقدروه حق قدره : أى لن يعظموه حق عظمته ، وذلك فى قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى: (وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وذكرنا بعض الكلام عليه فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (قالوا اطيرنا بك وبمن معك) الآية .

قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وما يتعلق بها من الأحكام فى سورة هود

فى الكلام على قوله تعالى : (وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله : فطرنى معناه : خلقنى وابتدعنى، كما تقدم إيضاحه فى أول سورة فاطر.

والمعنى : أى شىء ثبت لي يمنعنى من أن أعبد الذى خلقنى ، وابتدعنى ، وأبرزنى من العدم إلى الوجود ، ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الذى يخلق هو وحده ، الذى يستحق أن يعبد وحده ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة من كتاب الله .

وقد قدمنا إيضاح ذلك فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون) وفى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

الاستفهام فى قوله تعالى : أأتخذ : للانكار، وهو مضمن معنى النفى : أى لا أعبد من دون الله معبودات ، إن أرادنى الله بضر لاتقدر على دفعه عنى ، ولا تقدر أن تنقذنى من كرب .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم فائدة المعبودات من دون الله جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله تعالى: كقوله تعالى (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل

هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)وقوله تعالى(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) وقوله تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) الآية . وقوله تعالي (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقوله تعالى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقولة تعالى فى هذه الآية الكريمة (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً) أى لا شفاعة لهم أصلا حتى تغنى شيئاً ، ونحو هـذا أسلوب عربى معروف ، ومنه قول امرىء القيس :

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطى جرجرا

فقوله : لا يهتدى بمناره : أى لا منار له أصلا حتى يهتدى به ، وقول الآخر :

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

أى لا أرنب فيها ، حتى تفزعها أهوالها ، ولا ضب فيها حتى ينجحر : أى يتخذ حجراً .

وهذا المعنى هو المعروف عند المنطقيين بقولهم : السالبة لا تقتضى وجود الموضوع . كما تقدم إيضاحه .

قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

بين جل وعلا أن العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون غير مكتفين بتكذيبه ، بل جامعين معه الاستهزاء .

وقوله تعالى فى هذه الآية : الكريمة (مايأتيهم من رسول) نص صريح فى تكذيب الأمم لجميع الرسل لما تقرر فى الأصول ، من أن النكرة فى سياق النفى إذا زيدت قبلها من ، فهى نص صريح فى عموم النفى ، كما هو معروف فى محله .

وهذا العموم الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات أخر ، وجاء فى بعض الآيات إخراج أمة واحدة عن حكم هذا العموم بمخصص متصل ، وهو الاستثناء .

فمن الآيات الموضحة لهذا العموم قوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) وقوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) إلى قوله (فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون) .

وقد قدمنا الكلام على هذا فى سورة قد أفلح المؤمنون ، فى الكلام على قوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه) الآية .

وقدمنا طرفاً من الكلام عليه فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) الآية .

وأما الأمة التى أخرجت من هذا العموم فهى أمة يونس، والآية التى بينت ذلك هى قوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . وقوله

تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) والحسرة أشد الندامة ، وهو منصوب على أنه منادى عامل فى المجرور بعده ، فأشبه المنادى المضاف .

والمعنى : ياحسرة على العباد تعالى واحضرى فإن الاستهزاء بالرسل هو أعظم الموجبات لحضورك .

قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ — إلى قوله — أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا أن إحياء الأرض المذكور فى هذه الاية ، برهان قاطع على البعث فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع وأوضحنا فى المواضع المذكورة ، بقية براهين البعث بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ .

ذم جل وعلا فى هذه الآية الكريمة الكفار بإعراضهم عن آيات الله .

وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية جاء فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى أول سورة الأنعام (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) الآية . وقوله تعالى فى آخر يوسف (وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وقوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وقوله تعالى (وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون) وأصل الإعراض مشتق من العرض بالضم ، وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشىء يوليه بجانب عنقه صاداً عنه .

قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة النفخة الأخيرة ، والصور قرن من نور ينفخ فيه الملك نفخة البعث ، وهى النفخة الأخيرة ، وإذا نفخها قام جميع أهل القبور من قبورهم ، أحياء إلى الحساب والجزاء .

وقوله (فإذا هم من الأجداث) جمع جدث بفتحتين ، وهو القبر ، وقوله : ينسلون : أى يسرعون فى المشى من القبور إلى المحشر ، كما قال تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) وقال تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) الآية . وكقوله تعالى : (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) الآية . وقوله : (مهطعين إلى الداع) أى مسرعين مادى أعناقهم على أشهر التفسيرين ، ومن إطلاق نسل بمعنى أسرع .

قوله تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) وقول لبيد :

عسلان الذئب أمسى قاربا برد الليـــل عليه فنسل

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن أهل القبور يقومون أحياء عند النفخة الثانية ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) . وقوله تعالى : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) ، وهذه الصيحة هى النفخة الثانية كقوله تعالى : (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) أى الخروج من القبور وقوله تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) والزجرة : هى النفخة الثانية . والساهرة : وجه الأرض ، والفلاة الواسعة ، ومنه قول أبى كبير الهذلى :

يرتدن ساهرة كأن جميمها وعميمها أسداف ليل مظلم

وقول الأشعث بن قيس :

وساهرة يضحى السراب مجللا لأقطارها قد حببتها متلثما

وكقوله تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) وقوله تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وهذه الدعوة بالنفخة الثانية ، وقوله تعالى: (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الروم ، فى الكلام على قوله تعالى: (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان . لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث) الآية .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحداً) وأوضحنا فيه التفصيل بين النظم الوضعية، وفى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ .

قوله : جبلا كثيراً . أى خلقاً كثيراً كقوله تعالى : (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون الشيطان أضل خلقاً كثيراً من بنى آدم جاء مذكوراً فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى قد استكثرتم أيها الشياطين ، من إضلال الإنس، وقد قال إبليس: لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، وقد بين تعالى أن هذا الظن الذى ظنه بهم من أنه يضلهم جميعاً إلا القليل) صدقه عليهم ، وذلك فى قوله تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) كما تقدم إيضاحه .وقرأ هذا الحرف نافع وعاصم : جبلا بكسر الجيم والباء ، وتشديد اللام وقرأه ابن كثير وحمزة

والكسائى : جبلا بضم الجيم، والباء وتخفيف اللام، وقرأ أبو عمرو وابن عامر : جبلا بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام ، وجميع القراءات بمعنى واحد أى خلقا كثيرا .

قوله تعالى : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من شهادة بعض جوارح الكفار عليهم يوم القيامة ، جاء موضحا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة النور (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وقوله تعالى فى فصلت (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) الآية . وقد قدمنا الكلام على هذا فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) .

وبينا هناك أن آية يس هذه توضح الجمع بين الآيات كقوله تعالى عنهم : (ولا يكتمون الله حديثا) مع قوله عنهم (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ونحو ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ننكسه فى الخلق أى نقلبه فيه ، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده ، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال، ويرتقى من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل

قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق، فجعلناه يتناقص حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبي فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، وأصل معنى التنكيس : جعل أعلا الشيء أسفله .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) الآية. وقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) الآية على أحد التفسيرين ، وقوله تعالى فى الحج (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) وقوله تعالى فى النحل: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا) وقوله تعالى فى سورة المؤمن (ثم لتكونوا شيوخا) .

وقد قدمنا الكلام على هذا فى سورة النحل وقرأ هذا الحرف عاصم ، وحمزة: ننكسه بضم النون الأولى ، وفتح الثانية وتشديد الكاف المكسورة من التنكيس : وقرأه الباقون بفتح النون الأولى ، وإسكان الثانية ، وضم الكاف مخففة مضارع نكسه المجرد وهما بمعنى واحد . وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر : أفلا تعقلون بتاء الخطاب ؟ وقرأه الباقون : أفلا يعقلون بياء الغيبة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) وذكرنا الأحكام المتعلقة بذلك هناك .

قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النمل ، فى الكلام على قوله تعالى (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء)الآية . وفى سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) .

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ — إلى قوله — وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة والنحل مع بيان براهين البعث .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وبينا هناك أن الآيات المذكورة لاتنافى مذهب أهل السنة فى إطلاق اسم الشىء على الموجود دون المعدوم ؟ وقد قدمنا القراءتين وتوجيههما فى قوله . كن فيكون هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

أكثر أهل العلم على أن المراد بالصافات هنا ، والزاجرات ، والتاليات : جماعات الملائكة ، وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون ، وذلك فى قوله تعالى عنهم : (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون) ومعنى كونهم صافين : أن يكونوا صفوفا متراصين بعضهم جنب بعض فى طاعة الله تعالى ، من صلاة وغيرها . وقيل : لأنهم يصفون أجنحتهم فى السماء ، ينتظرون أمر الله ، ويؤيد القول الأول حديث حذيفة الذى قدمنا فى أول سورة المائدة فى صحيح مسلم : وهو قوله صلى الله عليه وسلم « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء » ، وهو دليل صحيح على أن الملائكة يصفون كصفوف المصلين فى صلاتهم ، وقد جاء فى بعض الآيات ما يدل على أنهم يلقون الذكر على الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به كقوله تعالى : (فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا) ، فقوله : فالملقيات ذكرا كقوله هنا : فالتاليات ذكرا ، لأن الذكر الذى تتلوه تلقيه إلى الأنبياء كما كان جبريل ينزل بالوحى ، على نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه على الجميع ، وقوله : عذرا أو نذرا : أى لأجل الإعذار والإنذار ، أى بذلك الذكر الذى تتلوه وتلقيه ، والإعذار : قطع العذر بالتبليغ .

والإنذار قد قدمنا إيضاحه وبينا أنواعه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : (ألمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) وقوله في هذه الآية : (فالزاجرات زجرا) الملائكة تزجر السحاب ، وقيل تزجر الخلائق عن معاص الله بالذكر الذي تتلوه ، وتلقيه إلى الأنبياء .

وممن قال بأن الصافات والزاجرات والتاليات في أول هذه السورة الكريمة هي جماعات الملائكة : ابن عباس ، وابن مسعود ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد وقتادة ؛ كما قاله القرطبي وابن كثير وغيرهما ، وزاد ابن كثير وغيره ممن قال به : مسروقا والسدي والربيع بن أنس ، وقد قدمنا أنه قول أكثر أهل العلم .

وقال بعض أهل العلم : الصافات في الآية الطير تصف أجنحتها في الهواء . واستأنس لذلك بقوله تعالى : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن) الآية . وقوله تعالى : (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) الآية .

وقال بعض العلماء : المراد بالصافات جماعات المسلمين يصفون في مساجدهم للصلاة ، ويصفون في غزوهم عند لقاء العدو ، كما قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .

وقال بعض العلماء أيضاً المراد بالزاجرات زجراً ، والتاليات ذكراً : جماعات العلماء العاملين يلقون آيات الله على الناس ، ويزجرون عن معاص الله بآياته ، ومواعظه التي أنزلها على رسله .

وقال بعضهم : المراد بالزاجرات زجرا : جماعات الغزاة يزجرون الخيل ،

لتسرع إلى الأعداء ، والقول الأول أظهر وأكثر قائلا ، ووجه توكيده تعالى قوله : (إن إلهكم لواحد) بهذه الأقسام ، وبإن واللام هو أن الكفار أنكروا كون الإله واحداً إنكاراً شديداً وتعجبوا من ذلك تعجباً شديداً ، كما قال تعالى عنهم : (أجعل الآلهة إلهاً واحدا إن هذا لشيء عجاب) ، ولما قال تعالى : (إن إلهكم لواحد) أقام الدليل على ذلك بقوله : (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) ، فكونه خالق السماوات والأرض الذى جعل فيها المشارق والمغارب ، برهان قاطع على أنه المعبود وحده .

وهذا البرهان القاطع الذى أقامه هنا على أنه هو الإله المعبود وحده ، أقامه على ذلك أيضا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة البقرة : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ، فقد أقام البرهان على ذلك بقوله بعده متصلا به : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

وقال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة فى الصفات ؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود كقوله :

يا لهف زيابة للحارث الـ صابح فالغانم فالآئب

كأنه قيل : الذى صبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها فى التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل ، واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك كقوله : رحم الله المحلقين فالمقصرين ، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة فى الصفات .

فإن قلت : فعلى أى هذه القوانين هى فيما أنت بصدده ؟

قلت : إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات فى التفاضل ، وإن ثلثته فهى للدلالة على ترتب الموصوفات فيه .

بيان ذلك : أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة ، وجعلتهم جامعين لها فعطفها بالفاء يفيد ترتبا لها فى الفضل ، إما أن يكون الفضل للصف ، ثم للزجر ثم للتلاوة . وإما على العكس ، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة . وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر ، فقد أفادت ترتب الموصوفات فى الفضل أعنى أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل ، والتاليات أبهر فضلا أو على العكس ، وكذلك إذا أردت بالصافات الطير ، وبالزاجرات كل ما يزجر عن معصية ، وبالتاليات كل نفس تتلو الذكر ، فإن الموصوفات مختلفة . انتهى كلام الزمخشرى فى الكشاف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : كلام صاحب الكشاف هذا نقله عنه أبو حيان ، والقرطبى وغيرهما ، ولم يتعقبوه ، والظاهر أنه كلام لا تحقيق فيه ، ويوضح ذلك اعتراف الزمخشرى نفسه بأنه لا يدرى ما ذكره : هل هو كذا أو على العكس ، وذلك صريح فى أنه ليس على علم مما يقوله ، لأن من جزم بشىء ثم جوز فيه النقيضين دل ذلك على أنه ليس على علم مما جزم به .

والأظهر الذى لا يلزمه إشكال أن الترتيب بالفاء لمجرد الترتيب الذكرى والإتيان بأداة الترتيب لمجرد الترتيب الذكرى فقط ، دون إرادة ترتيب الصفات أو الموصوفات أسلوب عربى معروف جاء فى القرآن فى مواضع ، وهو كثير فى كلام العرب .

ومن أمثلته فى القرآن العظيم قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدريك

حما القعبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا) الآية ، فلا يخفى أن ثم حرف ترتيب وأن المرتب به الذى هو كونه من الذين آمنوا لا ترتب له على ما قبله إلا مطلق الترتيب الذكرى ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء) الآية ، كما لا يخفى أن الترتيب فيه ذكرى .

وقد قدمنا الكلام على هذا فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) . ومن أمثلة ذلك فى كلام العرب قوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقوله تعالى : فى هذه الآية الكريمة : (ورب المشارق) ، لم يذكر فى هذه الآية إلا المشارق وحدها ، ولم يذكر فيها المغارب .

وقد بينا فى كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] : وجه اختلاف ألفاظ الآيات فى ذلك. فقلنا فيه فى الكلام على قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب) ما لفظه أفرد فى هذه الآية الكريمة المشرق والمغرب، وثناهما فى سورة الرحمن فى قوله تعالى : (رب المشرقين ورب المغربين) وجمعهما فى سورة سأل سائل فى قوله تعالى: (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) وجمع المشارق فى سورة الصافات فى قوله تعالى : (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) .

والجواب : أن قوله هنا : ولله المشرق والمغرب المراد به جنس المشرق والمغرب ، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون ، وكل مغرب من مغاربها التى هى كذلك كما روى عن ابن عباس وغيره .

قال ابن جرير فى تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : وإنما معنى ذلك : ولله المشرق الذى تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذى تغرب فيه كل يوم .

فتأويله إذا كان ذلك معناه : ولله ما بين قطرى المشرق وقطرى المغرب إذا كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذى بعده ، وكذلك غروبها . انتهى منه بلفظه .

وقوله : (رب المشرقين ورب المغربين) يعنى مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، ومغربهما كما عليه الجمهور ، وقيل : مشرق الشمس والقمر ومغربهما .

وقوله : (برب المشارق والمغارب) أى مشارق الشمس ومغاربها كما تقدم . وقيل : مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها) الآية . وقرأ هذا الحرف السبعة غير عاصم وحمزة ، بإضافة زينة إلى الكواكب أى بلا تنوين فى زينة ، مع خفض الباء فى الكواكب . وقرأه حمزة وحفص عن عاصم : بتنوين زينة ، وخفض الكواكب على أنه بدل من زينة . وقرأه أبو بكر عن عاصم : بزينة الكواكب بتنوين زينة ، ونصب الكواكب ، وأعرب أبو حيان الكواكب على قراءة النصب إعرابين .

أحدها : أن الكواكب بدل من السماء فى قوله تعالى : (إنا زينا السماء) .

والثانى : أنه مفعول به لزينة بناء على أنه مصدر منكر ، كقوله تعالى : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ﴾ الآية .

والأظهر عندى : أنه مفعول فعل محذوف تقديره أعنى الكواكب على حد قوله فى الخلاصة :

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزما

قوله تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ — إلى قوله — شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع) الآية فى سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ .

ذكر فى هذه الآية الكريمة برهانين من براهين البعث ، التى قدمنا أنها يكثر فى القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث .

الأول : هو المراد بقوله : (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) لأن معنى فاستفتهم : استخبرهم والأصل فى معناه : اطلب منهم الفتوى : وهى الإخبار بالواقع فيما تسألهم عنه أهم أشد خلقا أى أصعب إيجادا واختراعاً ، أم من خلقنا من المخلوقات التى هى أعظم وأكبر منهم ، وهى ما تقدم ذكره من الملائكة المعبر عن جماعاتهم بالصافات ، والزاجرات ، والتاليات ، والسماوات والأرض ،

والشمس والقمر ، ومردة الشياطين كما ذكر ذلك كله فى قوله تعالى (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد) .

وجواب الاستفتاء المذكور الذى لا جواب له غيره هو أن يقال : من خلقت يا ربنا من الملائكة، ومردة الجن والسماوات، والأرض ، والمشارق ، والمغارب ، والكواكب ، أشد خلقاً منا ، لأنها مخلوقات عظام أكبر ، وأعظم منا فيتضح بذلك البرهان القاطع على قدرته جل وعلا على البعث بعد الموت ، لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر كالسماوات والأرض ، وما ذكر معهما قادر على أن يخلق الأصغر الأقل كما قال تعالى (لخلق السماوات الأرض أكبر من خلق الناس) أى ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر ، كخلق الإنسان خلقاً جديدا بعد الموت . وقال تعالى (أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) وقال تعالى فى النازعات موضحا الاستفتاء المذكور فى آية الصافات هذه (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم) .

وقد علمت أن وجه العبارة بمن التى هى للعالم فى قوله تعالى (أم من خلقنا) عن السماوات والأرض والكواكب هو تغليب ما ذكر معها من العالم كالملائكة على غير العالم ، وذلك أسلوب عربى معروف .

وأما البرهان الثانى : فهو فى قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) لأن من خلقهم أولا من طين ، وأصله التراب المبلول بالماء لا يشك عاقل فى قدرته على خلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا ترابا ، لأن الإعادة لا يعقل أن تكون أصعب من البدء والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية . وقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذين البرهانين وغيرهما ، من براهين البعث فى سورة البقرة والنحل والحج وغير ذلك .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (من طين لازب) اللازب : هو ما يلزق باليد مثلا إذا لاقته ، وعبارات المفسرين فيه تدور حول ما ذكرنا ، والعرب تطلق اللازب واللاتب واللازم ، بمعنى واحد ، ومنه فى اللازب قول على رضى الله عنه :

تعلم فإن الله زادك بسطة وأخلاق خير كلها لك لازب

وقول نابغة ذبيان :

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

فقوله : ضربة لازب : أى شيئا ملازما لا يفارق ، ومنه فى اللاتب قوله :

فإن يك هذا من نبيذ شربته فإنى من شرب النبيذ لتائب

صداع وتوصيم العظام وفترة وغم مع الإشراق فى الجوف لاتب

والبرهانان المذكوران على البعث يلقمان الكفار حجراً فى إنكارهم

البعث المذكور بعدهما قريباً منهما فى قوله تعالى (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون فإنما هى زجرة واحدة فإذاهم ينظرون) .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائى : عجبت بالتاء المفتوحة وهى تاء الخطاب ، المخاطب بها النبى صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة والكسائى : بل عجبت بضم التاء وهى تاء المتكلم ، وهو الله جل وعلا .

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما بحكم الآيتين .

وبذلك تعلم أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائى فيها إثبات العجب لله تعالى ، فهى إذاً من آيات الصفات على هذه القراءة .

وقد أوضحنا طريق الحق التى هى مذهب السلف فى آيات الصفات ، وأحاديثها فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (ثم استوى على العرش) فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الروم ، فى الكلام على قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث) الآية

قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

المراد بالذين ظلموا الكفار كما يدل عليه قوله بعده (وما كانوا يعبدون من دون الله) .

وقد قدمنا إطلاق الظلم على الشرك فى آيات متعددة كقوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) . وقوله تعالى : (والكافرون هم الظالمون) . وقوله تعالى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فسر الظلم بالشرك فى قوله تعالى : (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) . وقوله تعالى : (وأزواجهم) جمهور أهل العلم منهم : عمر وابن عباس ، على أن المراد به أشباههم ونظراؤهم ، فعابد الوثن مع عايد الوثن ، والسارق مع السارق ، والزانى مع الزانى ، واليهودى مع اليهودى ، والنصرانى مع النصرانى ، وهكذا وإطلاق الأزواج على الأصناف مشهور فى القرآن ، وفى كلام العرب كقوله تعالى : (والذى خلق الأزواج كلها) الآية . وقوله تعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) ، وقوله تعالى : (فأخرجنا به أزوجاً من نبات شتى) الآية . وقوله تعالى : (ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجامنهم) إلى غير ذلك من الآيات .

فقوله تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى اجمعوا الظالمين وأشباههم ونظراءهم ، فاهدوهم إلى النار ليدخلها جميعهم ، وبذلك تعلم أن قول من قال : المراد بأزواجهم نساؤهم اللاتى على دينهم خلاف الصواب . وقوله

تعالى (وما كانوا يعبدون من دون الله) أى احشروا مع الكفار الشركاء التى كانوا يعبدونها من دون الله ليدخل العابدون والمعبودات جميعاً النار كما أوضح ذلك بقوله تعالى : (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم واردون ، لوكان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون) ، وقد بين تعالى أن الذين عبدوا من دون الله من الأنبياء ، والملائكة ، والصالحين كعيسى وعزير خارجون عن هذا ، وذلك فى قوله تعالى : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) إلى قوله : (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) ، وأشار إلى ذلك فى قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وقالوا أ آلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الآية .

وقوله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) الآية .

وقوله تعالى : فى هذه الآية الكريمه (فاهدوهم) من الهدى العام : أى دلوهم وأرشدوهم إلى صراط الجحيم أى طريق النار ليسلكوها إليها ، والضمير فى قوله تعالى فاهدوهم : راجع إلى الثلاثة : أعنى الذين ظلموا ، وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله .

وقد دلت هذه الآية أن الهدى يستعمل فى الإرشاد والدلالة على الشر ، ونظير ذلك فى القرآن قوله (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) ولذلك كان للشر أئمة يؤتم بهم فيه كقوله تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُلُونَ ۝ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) ، وبينا هناك وجه الجمع بين الآيات فى نحو قوله تعالى (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) ، وقوله تعالى : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، مع قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم) الآية .

وقوله هنا (وقفوهم إنهم مسئولون) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع التعرض لإزالة إشكالين فى بعض الآيات المتعلقة بذلك ، فى سورة قد أفلح المؤمنون فى الكلام على قوله تعالى : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات المبينة للمراد بالقول الذى حق عليهم فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) الآية ، وماذكره جل وعلا عنهم من أنهم قالوا : إنه لما حق عليهم القول الذى هو : (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فكانوا غاوين أغووا أتباعهم لأن متبع الغاوى فى غيه ، لابد أن يكون غاوياً مثله ، ذكره تعالى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة القصص (قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) الآية ، والإغواء الإضلال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية أن الضالين والمضلين ، مشتركون فى العذاب يوم القيامة ، وبين فى سورة الزخرف أن ذلك الاشتراك ليس بنافعهم شيئاً ، وذلك فى قوله تعالى : (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) وبين فى مواضع أخر أن الأتباع يسألون الله ، أن يعذب المتبوعين عذاباً مضاعفاً لإضلالهم إياهم ، كقوله تعالى : (حتى إذا داركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار قال لكل ضعف) الآية . وقوله تعالى (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً) .

وقد قدمنا الكلام على تخاصم أهل النار وسيأتى إن شاءالله له زيادة إيضاح فى سورة ص فى الكلام على قوله تعالى : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار).

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الآية .

بين جلا وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن ذلك العذاب الذى فعله بهؤلاء المعذبين المذكورين فى قوله تعالى : (إنا لذائقون أى العذاب الأليم) . وقوله تعالى : (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) أنه يفعل مثله من التعذيب والتنكيل بالمجرمين ، والمجرمون جمع مجرم ، وهو مرتكب الجريمة وهى الذنب الذى يستحق صاحبه عليه التنكيل الشديد ، ثم بين العلة لذلك التعذيب ، لأنها هى امتناعهم من كلمة التوحيد التى هى لا إله إلا الله إذا طلب منهم الأنبياء وأتباعهم أن يقولوا ذلك فى دار الدنيا . فلفظة إن فى قوله تعالى : (إنهم كانوا

إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) من حروف التعليل ، كما تقرر فى الأصول فى مسلك الإيماء والتنبيه .

وعليه فالمعنى : كذلك نفعل بالمجرمين لأجل أنهم كانوا فى دار الدنيا إذا قيل لهم (لا إله إلا الله يستكبرون) أى يتكبرون عن قبولها ولا يرضون أن يكونوا أتباعا للرسل .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون ذلك هو سبب تعذيبهم بالنار ، دلت عليه آيات كقوله تعالى مبينا دخولهم النار : (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير) وقوله تعالى : فى ذكر صفات الكفار وهم أهل النار (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) .

قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ .

قد قدمنا تفسيره مع ذكر الآيات الدالة على معناه فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) وبينا هنا كلام أهل العلم

فى نجاسة عين خمر الدنيا دون خمر الآخرة وأن ذلك يشير إليه قوله تعالى : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .

ذكر جلا وعلا فى هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة .

الأولى : أنهن قاصرات الطرف ، وهو العين أى عيونهن قاصرات على أزواجهن ، لاينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن وا كتفائهن بهم .

الثانية : أنهن عين ، والعين جمع عيناء ، وهى واسعة دار العين ، وهى النجلاء .

الثالثة : أن ألوانهن بيض بياضاً مشرباً بصفرة ، لأن ذلك هو لون بيض النعام الذى شبههن به ، ومنه قول امرىء القيس فى نحو ذلك :

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها غير الماء نمير المحلل

لأن معنى قوله : كبكر المقانات البياض بصفرة ، أن لون المرأة المذكورة كلون البيضة البكر المخالط بياضها بصفرة ، وهذه الصفات : الثلاث المذكورة هنا ، جاءت موضحة فى غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة ، فبين كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى فى ص : (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة ، وذلك معروف فى كلام العرب ، ومنه قول امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الأتب منها لأثرا

وذكر كونهن عينا فى قوله تعالى فيهن : وحور عين ، وذكر صفا

ألوانهن وبياضها فى قوله تعالى: (كأمثال اللؤلؤ المكنون) . وقوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) : وصفاتهن كثيرة معروفة فى الآيات القرآنية .

واعلم أن الله أثنى عليهن بنوعين من أنواع القصر :

أحدهما : أنهن قاصرات الطرف ، والطرف العين ، وهو لا يجمع ولا يثنى لأن أصله مصدر ، ولم يأت فى القرآن إلا مفرداً كقوله تعالى : (لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) . وقوله تعالى : (ينظرون من طرف خفى) : ومعنى كونهن قاصرات الطرف هو ما قدمنا من أنهن لا ينظرن إلى غير أوزاجهن بخلاف نساء الدنيا .

والثانى من نوعى القصر : كونهن مقصورات فى خيامهن ، لا يخرجن منها كما قال تعالى لأزواج نبيه صلى الله عليه وسلم : (وقرن فى بيوتكن) ، وذلك فى قوله تعالى : (حور مقصورات فى الخيام) ، وكون المرأة مقصورة فى بيتها لا تخرج منه من صفاتها الجميلة ، وذلك معروف فى كلام العرب ومنه قوله :

من كان حرباً للنسـ ـاء فإننى سلم لهنه
فإذا عثرن دعوننى وإذا عثرت دعوتهنه
وإذا برزن لمحفـل فقصارهن ملاحهنه

فقوله : قصارهن يعنى المقصورات منهن فى بيوتهن اللاتى لا يخرجن إلا نادراً ، كما أوضح ذلك كثير عزة فى قوله :

وأنت التى حببت كل قصيره إلى وما تدرى بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

والحجال : جمع حجلة : وهى البيت الذى يزين للعروس ، فمعنى قصيرات

الحجال : المقصورات فى حجالهن . وذكر بعضهم أن رجلا سمع آخر ، قال : لقد أجاد الأعشى فى قوله :

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لاريث ولا عجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها
ولا تراها لسر الجار تختتل

فقال له : قاتلك الله ، تستحسن غير الحسن هذه الموصوفة خراجة ولاجة ، والخراجة الولاجة لا خير فيها ولا ملاحة لها ، فهل لاقال كما قال أبو قيس ابن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها قيزنها وتعتل من إتيانهن فتعذر

قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالقرآن فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أن الكفار فى النار يأكلون من شجرة الزقوم ، فيملئون منها بطونهم ، ويجمعون معها شوبا من حميم . أى خلطاً من الماء البالغ غاية الحرارة ، جاء موضحا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى الواقعة : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم فمالؤن منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم) ، وقوله شرب الهيم ، الهيم : جمع أهيم وهيماء وهى الناقة مثلا التى أصابها الهيام ، وهو شدة العطش بحيث لايرويها كثرة شراب الماء فهى تشرب كثيراً من الماء ، ولا تزال مع ذلك فى شدة العطش . ومنه قول غيلان ذى الرمة :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها

وقوله تعالى فى الواقعة : (فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم) يدل على أن الشوب أى الخلط من الحميم المخلوط لهم بشجرة الزقوم المذكور هنا فى الصافات ، أنه شوب كثير من الحميم لا قليل .

وقال أبو عبد الله القرطبى فى تفسير هذه الآية : لشوبا من حميم . الشوب : الخلط ، والشوب والشوب لغتان ، كالفقر والفقر ، والفتح أشهر . قال الفراء شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشىء يشوبهما شوبا وشيابة انتهى منه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ .

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار الذين أرسل إليهم نبينا

صلى الله عليه وسلم ، ألفوا آباءهم ضالين : أى وجدوهم على الكفر ، وعبادة الأوثان ، فهم على آثارهم يهرعون : أى يتبعونهم فى ذلك الضلال والكفر ، مسرعين فيه ، جاء موضحا فى غيرهذا الموضع كقوله تعالى عنهم : (قالوا حسبنا ما ألفينا عليه آباءنا) وقوله عنهم (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) وقوله عنهم : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) . وقوله عنهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) الآية ، ورد الله عليهم فى الآيات القرآنية معروف كقوله تعالى : (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقوله : (أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) وقوله تعالى : (قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباء كم)

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فهم على آثارهم) أى فهم على اتباعهم ، والاقتداء بهم فى الكفر والضلال ، كما قال تعالى عنهم : (وإنا على آثارهم مقتدون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : يهرعون ، قد قدمنا فى سورة هود أن معنى يهرعون : يسرعون ويهرولون ، وأن منه قول مهلهل :

فجاءوا يهرعون وهم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

وقد قدمنا الآيات التى بمعناه فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) . وفى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية.

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ .

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية ، وتفسيره فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ — إلى قوله تعالى — ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .

اعلم أولا أن العلماء اختلفوا فى هذا الغلام الذى أمر إبراهيم فى المنام بذبحه ، ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحى ، ثم لما باشر عمل ذبحه امتثالا للأمر ، فداه الله بذبح عظيم ، هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ وقد وعدنا فى سورة الحجر ، بأنا نوضح ذلك بالقرآن فى سورة الصافات ، وهذا وقت إنجاز الوعد .

اعلم وفقنى الله وإياك . أن القرآن العظيم قد دل فى موضعين ، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أحدهما فى الصافات ، والثانى فى هود

أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهى واضحة جداً من سياق الآيات ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى

أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين) قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى: (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فدل ذلك على أن البشارة الأولى شىء غير المبشر به فى الثانية لأنه لايجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه بإسحاق ، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه بإسحاق، فهو تكرار لافائدة فيه ينزه عنه كلام الله ، وهو واضح فى أن الغلام المبشر به أولا الذى فدى بالذبح العظيم ، هو إسماعيل ، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك .

وقد أوضحنا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الآية . أن المقرر فى الأصول أن النص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إذا احتمل التأسيس والتأكيد معا ، وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه .

ومعلوم فى اللغة العربية ، أن العطف يقتضى المغايرة، فآية الصافات هذه دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق ، ويستأنس لهذا بأن المواضع التى ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه فى كلها بالعلم لا الحلم ، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم .

وأما الموضع الثانى الدال على ذلك الذى ذكرنا أنه فى سورة هود فهو قوله تعالى: (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) ، لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب ، فكيف

يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه ، وهو صغير ، وهوعنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب .

فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ماذكرنا ، فلا ينبغى للمنصف الخلاف فى ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

اعلم أن قصة الذبيح هذه تؤيد أحد القولين المشهورين، عند أهل الأصول فى حكمة التكليف، هل هى للامتثال فقط ،أو هى مترددة بين الامتثال والابتلاء ، لأنه بين فى هذه الآية الكريمة أن حكمة تكليفه لإبراهيم بذبحه ولده ليست هى امتثاله ذلك بالفعل ، لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً وإنما حكمة تكليفه بذلك مجرد الابتلاء والاختبار ، هل يصمم على امتثال ذلك أولا ، كما صرح بذلك فى قوله تعالى : (إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم) فتبين بهذا أن التحقيق أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال ، والابتلاء . وإلى الخلاف المذكور أشار فى مراقى السعود بقوله :

للامتثال كلف الرقيب فموجب تمكنا مصيب
أو بينه والابتلا ترددا شرط تمكن عليه انفقدا

وقدأشار بقوله : فموجب تمكنا مصيب . وقوله : شرط تمكن عليه انفقدا، إلى أن شرط التمكن من الفعل فى التكليف ، مبنى على الخلاف المذكور ، فمن قال : إن الحكمة فى التكليف هى الامتثال فقط اشترط فى التكليف التمكن من الفعل، لأنه لاامتثال إلا مع التمكن مع الفعل،ومن قال إن الحكمة مترددة بين الامتثال والابتلاء ، لم يشترط التمكن من الفعل، لأن حكمة الابتلاء تتحقق مع عدم التمكن من الفعل كما لايخفى ، ومن الفروع المبنية على هذا الخلاف أن

تعلم المرأة بالعادة المضطردة أنها تحيض ، بعد الظهر غداً من نهار رمضان ، ثم حصل لها الحيض بالفعل ، فتصبح مفطرة قبل إتيان الحيض ، فعلى أن حكمة التكليف الامتثال فقط ، فلا كفارة عليها ، ولها أن تفطر ، لأنها عالمة بأنها لاتتمكن من الامتثال ، وعلى أن الحكمة تارة تكون الامتثال وتارة تكون الابتلاء ، فإنها يجب عليها تبييت الصوم ، ولا يجوز لها الإفطار إلا بعد مجيء الحيض بالفعل ، وإن أفطرت قبله كفَّرت . وكذلك من أفطر لحمى تصيبه غداً ، وقد علم ذلك بالعادة فهو أيضاً ينبغي على الخلاف المذكور .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : (قال لاينال عهدي الظالمين) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا منته عليهما في غير هذا الموضع ، كقوله في طه : (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى) لأن من سؤاله الذي أوتيه إجابة دعوته في رسالة أخيه هارون معه ، ومعلوم أن الرسالة من أعظم المنن .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله : وقومهما يعني بني إسرائيل .

والمعنى : أنه نجى موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم ، وهو ما كان يسومهم فرعون وقومه من العذاب ، كذبح الذكور من أبنائهم وإهانة الإناث ، وكيفية إنجائه لهم مبينة في انفلاق البحر لهم ، حتى خاضوه سالمين ، وإغراق فرعون وقومه وهم ينظرون .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى: (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وقدمنا تفسير الكرب العظيم فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى فى قصة نوح (فاستجبنا له ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) .

قوله تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ .

بين جل وعلا أنه نصر موسى وهارون وقومهما على فرعون ، وجنوده ، فكانوا هم الغالبين : أى وفرعون وجنوده هم المغلوبون ، وذلك بأن الله أهلكهم جميعاً بالغرق ، وأنجى موسى وهارون وقومهما من ذلك الهلاك ، وفى ذلك نصر عظيم لهم عليهم وقد بين جل وعلا ذلك فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ .

الكتاب هو التوراة كما ذكره فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) وقوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء) وقوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) وقوله تعالى: (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا بعض الكلام على ذلك فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وإنها لبسبيل مقيم) . وفى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى: (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

تسبيح يونس هذا ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام المذكور فى الصافات ، جاء موضحا فى الأنبياء فى قوله تعالى: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) .

وقد قدمنا تفسير هذه الآية وإيضاحها فى سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ .

ما ذكره فى هذه الآية الكريمة من إيمان قوم يونس وأن الله متعهم إلي حين ، ذكره أيضا فى سورة يونس فى قوله تعالى(فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ — إلى قوله — مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة النحل فى الكلام على قوله : تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) إلى قوله تعالي (ساء مايحكمون) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام على ما فى معناه من الآيات فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأتباعهم منصورون دائما على الأعداء بالحجة والبيان ، ومن أمر منهم بالجهاد منصور أيضا بالسيف والسنان ، والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) . وقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وقوله تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم) .

وقد قدمنا أيضاح هذا بالآيات القرآنية فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) الآية . وسيأتى له إن شاء الله زيادة إيضاح فى آخر سورة المجادلة .

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) ، وذكرنا بعض الكلام على ذلك فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى (أثم إذا ما وقع آمنتم به) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ختم هذه السورة الكريمة بالسلام على عباده المرسلين ، ولا شك أنهم من عباده الذين اصطفى مع ثنائه على نفسه بقوله تعالى : (والحمد لله رب العالمين) معلما خلقه أن يثنوا عليه بذلك ، وما ذكره هنا من حمده هذا الحمد العظيم ، والسلام على رسله الكرام ، ذكره فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة النمل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) الآية . ويشبه ذلك قوله تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

انتهى الجزء السادس من هذا الكتاب المبارك ويليه إن شاء الله تعالى الجزء السابع ، وأوله سورة ص . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

لـكتاب « أضواء البيان » ، ولمؤلفه العلامة الـكبير سماحة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجـكنى الشنقيطى منزلتهما التى لا تنكر فى تفسير القرآن الـكريم .

ذلك أن الأسلوب الذى اتبع فى تصنيف هـذا الـكتاب الفريد ؛ أسلوب رائع دقيق ؛ التزم فيه مؤلفه — أجزل الله له المثوبة والأجر — إيضاح آيات القرآن الـكريم بآيات القرآن الـكريم ، وما يبيّنها أو يفصلها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وهل هناك منهج أسلم وأحـكم وأعلم من هذا المنهج .

ولهذا ؛ فقد خلا تفسيره من الحشو والدخيل والإسرائيليات التى ناء بحملها كثير من كتب التفسير الأخرى . .

وإنه ليسرّ — مطبعة المدنى — أن تـكون هى المطبعة المختارة لطبع هذا السفر العظيم ، الذى تعتزّ به جمهرة المعارف الإسلامية أيّمـا اعتزاز .

بارك الله فى الشيخ العظيم . .

وبارك الله فى كتابه الـكريم .

وأعاننا على متابعة الجهاد والمجهود ، حتى يتم الـكتاب على خير ما نرجو له ، من دقة وجمال وإتقان . . والله ولى التوفيق ؟ .

مدير المطبعة

محمود على صبيح المدنى

غرة محرم سنة ١٣٩٢ م
١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ هـ

فهرس

الجزء السادس من أضواء البيان

ص	الموضوع
٣	سورة النور
٥	(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والآيات التى تخصص عمومها، وفى البحث قول بعضهم بالتخصيص بالقياس .
٧	مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة المسألة الأولى دلت على رجم الزانى آيتان من كتاب الله إحداهما منسوخة التلاوة باقية الحكم ، والثانية باقية التلاوة والحكم ، وفى البحث الأدلة على نسخ تلاوة إحداهما مع بقاء حكمها مع ذكر لفظها المنسوخ .
١١	استنباط ابن حجر نسخ تلاوة آية الرجم هذه وعدم اتجاهه عندنا .
١١	بحث فى نسخ بعض أحكام الآية دون بعضها .
١٣	الآية الباقية التلاوة والحكم الدالة على الرجم هى قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله) ، وإيضاح ذلك .
١٣	فروع تتعلق بهذه المسألة : الأول فى أن الرجم لايكون إلا على من أحصن مع تفسير الإحصان .
١٤	الفرع الثانى فى الإجماع على الرجم بعد الإحصان وعدم الالتفات إلى من خالف فيه .
١٤	الفرع الثالث فى الإجماع على ثبوت الرجم بشهادة أربعة عدول على الزنى الصريح وأدلة ذلك ، وفى البحث أنه إن شهد بذلك ثلاثة حدوا حد القذف وإبطال القول بعدم حدهم .

ص	الموضوع
١٥	عدم قبول شهادة العبيد فى الزنى
١٥	اختصاص شهادة الزنى بالذكور وعدم قبول النساء فيها .
١٥	عدم قبول شهادة الكفار بالزنى على المسلمين والاختلاف فى قبول شهادة الكافر على مثله ومناقشة الأدلة فى ذلك .
١٨	الفرع الرابع : فى اختلاف أهل العلم فى اشتراط اتحاد المجلس لشهادة شهود الزنى ومناقشة أدلة الفريقين مع الترجيح لما يظهر رجحانه .
٢٠	تنبيه يتضمن اشتراط مالك كون شهور الزنى شاهدين على فعل واحد .
٢١	مشهور مذهب مالك : وجوب تفرقة شهود الزنى عند الأداء وأداء كل واحد شهادته من غير حضور الآخرين وفى البحث لفظ أداء الشهادة على الزنى وأن النظر إلى عورة الزانيين يجوز لهم لأنه وسيلة لإقامة حد إن كانوا أربعة .
٢١	يندب عند المالكية سؤال كل واحد من شهود الزنى بانفراده عن كيفية الزنى هل المرأة وقت زناها على شقها الأيمن أو الأيسر أوقفاها ، وفى أى وقت وفى أى ناحية من نواحى البيت ، فإن اختلفوا بطلت شهادتهم لتبين كذبهم .
٢٢	يستأنس لما ذكرنا عن المالكية بما قدمنا من قصة سليمان وداود فى سورة الأنبياء .
٢٢	كل ما يثبت به الرجم يثبت به الجلد .
٢٢	الفرع الخامس : فى كلام أهل العلم فيما لو شهد عليه بالزنى أربعة . وقال اثنان منهم فى موضع كذا أو وقت كذا . وقال الآخران فى موضع كذا أو وقت كذا غير موضع ووقت الآخرين ، وفى البحث الكلام على شهادة اثنين أنه زنى بامرأة بيضاء وشهادة اثنين آخرين على أنه زنى بامرأة سوداء .
٢٣	كلام أهل العلم فيما لو شهد اثنان أنه زنى بها فى زاوية من البيت وشهد آخران أنه فعل بها ذلك فى زاوية أخرى وتفاصيل أقوالهم فى ذلك ، وفى البحث اختلاف الشهود فى الزمن وتفصيل ذلك ، وترجيحنا لما يظهر رجحانه من ذلك .

ص	الموضوع
٢٤	الفرع السادس : فى كلام أهل العلم فيما لو شهد اثنان زنى بها فى ثوب أبيض أو ثوب خز مثلا وشهد آخران أنه فعل بها ذلك فى ثوب أحمر أو ثوب كتان مثلا ، وترجيحنا لما يظهر رجحانه من ذلك .
٢٥	الفرع السابع : فى كلام أهل العلم فيما لو شهد اثنان أنه زنى بها مكرهة وشهد آخران على أنه فعل بها ذلك طائعة ، وتفاصيل أقوالهم فى حكم حد المرأة والرجل والشهود وترجيحنا لما يظهر رجحانه من ذلك .
٢٧	الفرع الثامن: فى كلام أهل العلم فيما لو شهد أربعة على امرأة بالزنى وشهد لها أربع نسوة أنها عذراء لم تزل بكارتها بمزيل . وفى البحث ما لو شهد أربعة على رجل بالزنى أنه مجبوب أو على امرأة به قثبت أنها رتقاء .
٢٨	المسألة الثانية : فى الإجماع على ثبوت الزنى بالإقرار ، وذكر أقوال أهل العلم هل يشترط تكرر الإقرار أربعا أولا ، ومناقشة أدلة الفريقين ، واستظهارنا ما يظهر رجحانه .
٣٢	فروع تتعلق بهذه المسألة . الأولى : الظاهر اشتراط تصريح المقر بالزنى تصريحاً ينفى كل احتمال ودليل ذلك .
	وفى البحث التعريض للزانى بالستر على نفسه واستغفار الله .
٣٣	الفرع الثانى : فى أقوال أهل العلم فيمن شهد عليه أربعة بالزنى وأقر بذلك على نفسه مرة واحدة أو أربع مرات ثم رجع عن إقراره .
٣٣	الفرع الثالث : فى كلام أهل العلم فيمن أقر بزنى قديم أو شهدت عليه بينة بزنى قديم ومناقشة أدلتهم فى ذلك .
٣٤	الفرع الرابع : فى حكم من أقر بأنه زنى بامرأة سماها فكذبته ومناقشة أدلة الفريقين وترجيحنا لما يظهر رجحانه من ذلك .
٣٧	الفرع الخامس: فى حكم إقرار المكره .
٣٧	المسألة الثالثة :فى كلام أهل العلم فى حمل المرأة هل يثبت عليها به الزنى. ومناقشة أدلة الفريقين مع ترجيح ما يظهر رجحانه .

ص الموضوع
٤٠ فروع تتعلق بهذه المسألة الأول فى ظهور الحمل بامرأة غريبة ليست من أهل ذلك البلد إن ادعت أن حملها من زوج فى بلدها .
٤٠ الفرع الثانى فى حكم دعوى الحامل الإكراه على الزنى
٤١ الفرع الثالث : فى كلام بعض المالكية فى حكم من تزوجت فأتت بولد لأربعة أشهر وقد ادعت أنها أحست بيل بين فخذيها قبل العقد وقد وجدها زوجها عذراء .
٤١ المسألة الرابعة : فى أقوال أهل العلم فى الزانى المحصن هل يجمع له بين الجلد والرجم أو يرجم فقط مع مناقشة الأدلة وترجيح ما يظهر رجحانه .

٤٨ فروع تتعلق بهذه المسألة : الأول فى حكم من ظن أنه بكر فجلد ثم ظهر بعد الجلد أنه محصن .
٤٩ الفرع الثانى : فى أن الزانية لا ترجم حتى تضع حملها وتفطمه أو يوجد من يكفله .
٤٩ الفرع الثالث : فى كلام العلماء فى المرجوم هل يحفر له أولا ؟ ومناقشة أدلتهم وترجيح ما يظهر رجحانه

٥٣ الفرع الرابع : فى أقوال أهل العلم فيمن يبدأ بالرجم ، ومناقشة أدلتهم وترجيح ما يقتضى رجحانه .

٥٩ الفرع الخامس : فى كلام أهل العلم فى المرجوم إذا هرب أثناء الرجم وتفصيل ذلك ، وترجيح ما يظهر رجحانه

٦٠ المسألة الخامسة : فى جلد البكر مائة . وأقوال أهل العلم : هل يغرب سنة مع مناقشة الأدلة وترجيح ما يظهر رجحانه
٦٥ فروع تتعلق بهذه المسألة . الأول فى كلام أهل العلم فى تغريب النساء ومناقشة أدلتهم وترجيح ما يظهر رجحانه
٦٦ الفرع الثانى : فى تغريب العبيد واستظهار ما يظهر .
٦٧ أظهر القولين أنه لابد فى التغريب من مسافة القصر وأنه لا يسجن فى محل التغريب وتغريب الغريب إلى محل غير بلده
٦٧ المسألة السادسة : فى حكم من أقر أنه أصاب حداً ولم يعينه .

ص الموضوع
٦٨ المسألة السابعة : فى حكم رجوع الزانى المقر بالزنى أو رجوع البينة قبل تمام الحد أو بعده واستظهار ما يظهر .
٧٠ تنبيه : يتضمن الإحالة فيما سبق على حكم من زنى ببهيمة وعقوبة اللواط ومن زنى مرات قبل الحد ، وفى البحث استواء الأمة المحصن وغيرها فى جلد الخمسين .
٧١ (الزانى لا ينكح إلا زانية) الآية ، وما فيه بيان لذلك من الآيات .
٧٢ مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة فى حكم تزوج العفيف للزانية كعكسه مع مناقشة الأدلة .
٨٢ فروع تتعلق بهذه المسألة : الأول فيمن تزوجها يظنها عفيفة ثم زنت .
٨٣ الفرع الثانى فى حكم نكاح الحامل من الزنى .
٨٣ الفرع الثالث : فى حكم نكاح الزانية للعفيف أو عكسه بعد توبة الزانى من زناه .
٨٤ الفرع الرابع : فيما يعامل به الزانية إن تزوجها على القول بجواز ذلك .
٨٤ الأظهر اختيار ذات الدين والعفاف .
٨٥ (والذين يرمون المحصنات إلى قوله : غفور رحيم) والآيات التى فيها بيان لذلك .
٨٩ مسائل تتعلق بهذه الآية . الأولى فى أنه لا فرق بين قذف الذكر للأنثى وعكسه ، وقذف الذكر للذكر أو قذف الأنثى للأنثى .
٨٩ المسألة الثانية : فى الكلام فى الاستثناء بعد متعاطفات هل يرجع لجميعها أو لا ؟
٩٢ المسألة الثالثة : فى حكم من قذف إنسانا بغير الزنى أو نفى النسب
٩٢ المسألة الرابعة : فى قدر جلد العبد إذا قذف حراً ، مع مناقشة الأدلة واستظهار ما يظهر .
٩٣ حكم قذف الحر للعبد بالزنى .
٩٤ المسألة الخامسة : فى حكم التعريض بالقذف ومناقشة الأدلة وترجيح ما يظهر رجحانه .
٩٩ المسألة السادسة : فى الكلام فى قذف المسلم الكتابى أو الكتابية وعكسه .
١٠٠ المسألة السابعة : فى حكم من قال لقاذف : صدقت هل هو قاذف معه ؟

الموضوع ص

١٠٠ حكم مالو قال لرجل : أخبرنى فلان أنك زنيت .
١٠٠ المسألة الثامنة : فى حكم من قذف رجلا بالزنى ثم زنى الشهود عليه قبل أن يحد القاذف .
١٠١ المسألة التاسعة : فى حكم من قال لرجل : يامن وطئ بين الفخذين .
١٠١ المسألة العاشرة : لا يقام حد القذف إلا إذا طلبه المقذوف .
١٠١ إن امتنع الزوج عن أيمان اللعان حد .
١٠٢ كلام أهل العلم فيما لو عفا عن المقذوف بعد الطلب هل يسقط الحد أو لا ؟ وفى البحث الكلام فى حد القذف هل هو حق لله أو للآدمى ، وما يترتب على ذلك .
١٠٣ المسألة الحادية عشر : فى حكم مالو شهد عليه أربعة بالزنى ولم يعدلوا ، وفى البحث حكم رجوع بعض الشهود بعد رجم الزانى بشهادتهم واستظهار ما يظهر رجحانه .
١٠٤ المسألة الثانية عشرة فيمن قذف شخصاً يظنه عبداً فإذا هو حر . وفى البحث حكم قذف أم الولد .
١٠٤ المسألة الثالثة عشرة : فى حكم من قذف جماعة بكلمة أو كلمات أو كرر القذف لواحد واستظهار ما يظهر رجحانه .
١٠٨ المسألة الرابعة عشرة : فى حكم من قال لجماعة : أحدكم زان أو ابن زانية . وفى البحث حكم من قال : من رمانى فهو ابن الزانية فرماه رجل .
١٠٨ حكم مالو اختلف اثنان فقال أحدهما الكاذب : هو ابن الزانية .
١٠٨ حكم مالو قذف جميع أهل بلد بالزنى .
١٠٨ المسألة الخامسة عشرة : فى حكم من قال لرجل : أنت أزنى من فلان وفى الكلام بحث عربى .
١١٠ المسألة السادسة عشرة : فى حكم من رمى الملاعنة أو ولدها بالزنى
١١١ المسألة السابعة عشرة : فى حكم من قال لرجل : يازانية أو لامرأة يازانى .
١١٣ المسألة الثامنة عشرة : فى حكم من قذف إنسانا قد ثبت عليه الزنى سابقا .

ص	الموضوع
١١٣	المسألة التاسعة عشرة : فى تفصيل أحكام من كان مشركا أو مجوسيا ارتكب الفاحشة قبل إسلامه ثم قذفه رجل بعد أن أسلم .
١١٤	المسألة العشرون : فى حكم من قذف غير بالغ من الذكور والإناث واستظهار ما يظهر .
١١٥	المسألة الحادية والعشرون : فى حكم من قال لرجل : زنأت بالهمزة .
١١٦	المسألة الثانية والعشرون : فيمن نفى رجلا عن جده أو أمه أو قبيلته .
١١٨	المسألة الثالثة والعشرون فى أحكام كلمات متفرقة نحو : ياقرنان أو ياديوث أو ياكشخان إلخ . واستظهار ما يظهر .
١٢٢	المسألة الرابعة والعشرون : فيمن قذف محصنا بعد موته أو محصنة . وتفاصيل الأقوال فى ذلك واستظهار ما يظهر .
١٢٥	كلام أهل العلم فى المقذوف إذا كان يعلم أن القاذف صادق فيما رماه به هل تجوز له المطالبة بحده .
١٢٥	حكم من قذف أم النبى صلى الله عليه وسلم أو قذفه هو صلى الله عليه وسلم .
١٢٥	المسألة الخامسة والعشرون : فى حكم من قذف ولده واستظهار ما يظهر .
١٢٦	المسألة السادسة والعشرون : فى حكم من قتل أو أصاب حداً خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم هل يستوفى منه الحق فى الحرم مع مناقشة الأدلة واستظهار ما يظهر .
١٣١	(ويدرأ عنها العذاب إن تشهد أربع شهادات بالله) الآية . وما فيه بيان لذلك من الآيات .
١٣٣	مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة . الأولى فى أن اللعان لا يجب إلا بالقذف الذى يستوجب الحد وعدم اشتراط قوله : رأت عينى .
١٣٤	المسألة الثانية: فى الكلام فى شهادات اللعان هل هى أيمان أو شهادات ومناقشة الأدلة واستظهار ما يظهر .
١٣٨	المسألة الثالثة : فى عدم الاعتماد فى اللعان على ولادة المرأة البيضاء غلاماً أسود .
١٣٨	المسألة الرابعة : فيمن قذف امرأة بالزنى ثم تزوجها بعد القذف .

الموضوع

ص

١٣٩ المسألة الخامسة : فى حكم من قذف زوجته وأمها بالزنى .
١٣٩ المسألة السادسة : فى حكم من قذف زوجته بالزنى ثم زنت قبل اللعان .
١٤٠ المسألة السابعة : فيمن رمى زوجته اليائسة من الحمل أو الصغيرة .
١٤٠ المسألة الثامنة : فى حكم من نفى حمل زوجته هل يجوز لعانه قبل الوضع مع مناقشة الأدلة واستظهار ما يظهر .
١٤٢ المسألة التاسعة : فى تفصيل أحكام من قذف امرأته بعد أن طلقها ، وفى البحث الكلام على أنه لا لعان بعد انقضاء العدة إلا فى مسألة واحدة .
١٤٣ حكم من قذف امرأته ثم طلقها بعد القذف .
١٤٤ المسألة العاشرة : فى حكم من ظهر بامرأته حمل ولم يطلب اللعان إلى الوضع محتجا بطمعه أن ينفش الحمل فيكتفى مؤنة اللعان . وفى البحث ما لو سكت عن طلب اللعان بعد الوضع ثم طلبه بعد سكوته .
١٤٦ المسألة الحادية عشرة : فى حكم اللعان فى النكاح الفاسد وتفصيل ذلك .
١٤٦ حكم من ظهر بامرأته حمل وثبت زناها وأراد اللعان لنفى الحمل .
١٤٧ المسألة الثالثة عشرة : يفتقر اللعان إلى أربعة أشياء إلخ .
١٤٧ المسألة الرابعة عشرة : فى أن الزوج لا ينفى الولد باللعان إلا لموجب يقتضى ذلك .
١٤٧ المسألة الخامسة عشرة : فى الكلام على الزمن الذى يكون فيه الولد ان توأمين كعكسه وفى البحث أن التوأمين لا يمكن نفى أحدهما دون الآخر ، وفى البحث حكم نفى الولد باللعان بعد موته وتفصيل ذلك .
١٥٠ تنبيه فى توأمى الملاعنة هل يتوارثان كالشقيقين أو كالأخوين لأم ؟
١٥١ المسألة السادسة عشرة : والصواب السادسة عشرة : فى حكم من تزوج امرأة ثم رماها بزنى واقع قبل التزويج .
١٥٢ المسألة السادسة عشرة : فيما لو قال لامرأته : أنت طالق يازانيه ثلاثا
١٥٣ المسألة السابعة عشرة : فى تصديق المرأة للرجل فى نفية ولدها عنه .

ص الموضوع
١٥٢ المسألة الثامنة عشرة : فيمن قذف امرأته فطلبت حده فأقام شاهدين على إقرارها بالزنى .
١٥٣ المسألة التاسعة عشرة : فى حكم من شهد عليه اثنان أنه قذف امرأته وقذفهما أى الشاهدين معها وتفاصيل أحكام لها علاقة بذلك . وفى البحث شهادتهما على أبيهما بقذفه ضرة أمهما أو بطلاقه إياها .
١٥٤ المسألة العشرون : فى اختلاف اللغات أو الأزمنة فى القذف أو الإقرار به واستظهار ما يظهر .
١٥٥ المسألة الواحدة والعشرون : فيمن نفى حمل امرأته ثم وضعته بعد النفى وعدم لزوم لعان آخر .
١٥٥ المسألة الثانية والعشرون : فيمن قذف امرأته باللواط .
١٥٦ المسألة الثالثة والعشرون : فى حكم من ولدت امرأته ولداً لا يمكن أن يكون منه.
١٥٧ المسألة الرابعة والعشرون : فى تأبيد التحريم باللعان .
١٥٨ تنبيه : يتضمن الإحالة فى فرقة اللعان .
١٥٨ قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
قوله تعالى : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
١٦٢ فائدة : لا تحبط الكبائر الأعمال الصالحة .
١٦٢ الكلام على أرجى آية فى كتاب الله .
١٦٥ قوله تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) الآية والآيات التى بمعناها .
١٦٦ قوله تعالى : (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) الآية والآيات ، الموضحة لها .
١٦٦ قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .

ص الموضوع
١٦٩ مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة الأولى فى عدم جواز الدخول بلا إذن
١٦٩ المسألة الثانية : فى الاستئذان ثلاث مرات وكيفية الاستئذان
١٧٥ تنبيهات : الأول فيما إذا علم المستأذن أن أهل البيت سمعوه أو جهل ذلك
١٧٥ التنبيه الثانى فيما إذا تحقق أنهم لم يسمعوه
١٧٦ التنبيه الثالث : فى كون المستأذن لايقف مقابل الباب بل يولى الباب يمينه أو شماله
١٧٧ المسألة الثالثة : فى أن المستأذن إذا قيل له من أنت؟ يصرح باسمه أو كنيته ولا يقل أنا.
١٧٨ المسألة الرابعة : فى استئذان الرجل على أمه وأخواته وبنيه البالغين
١٨٠ المسألة الخامسة : فى أن الرجل لايستأذن على امرأته
١٨٠ المسألة السادسة : فى وجوب الرجوع إن قيل له ارجع
١٨١ المسألة السابعة : فى حكم من نظر من كوة ففقأ أهل المنزل عينه
١٨٤ المسألة الثامنة : فى الإرسال إلى شخص هل يحتاج معه إلى إذن بعد وصول المنزل
١٨٦ قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم - إلى قوله - ويحفظن فروجهن) والآيات التى فيها بيان لذلك
١٩٢ (ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) والآيات التى فيها بيان لذلك
١٩٨ فى الآية قرينة على أن تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ليس هو الصواب
١٩٩ معنى الزينة فى القرآن
٢٠١ تنبيه فى تفسير كثير من ألفاظ الحلى
٢٠٣ قوله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) والآيات التى فيها بيان لذلك
٢٠٦ تنبيهات : الأول فى معنى التوبة النصوح
٢٠٦ التنبيه الثانى : فى حل إشكال فى الندم وإشكال فى الإقلاع وفى الكلام بحث أصولى وكلامى .

٢١٤ (وأنكحوا الأيامى منكم) الآية وبعض الآيات التى فيها بيان مفهومه وفى البحث دلالة الآيات على أن التقوى سبب الرزق وهل العبد يملك ماله

٢١٩ (وليستعفف الذين لايجدون نكاحا) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك

٢١٩ (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) والآيات الموضحة لذلك

٢٢٠ (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك

٢٢٦ (يسبح له فيها بالغدو والآصال) الآية وبيان إحدى القراءتين بالأخرى مع آيات فيها بيان للآية

٢٢٧ مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة : الأولى فى الوقف على الآصال فى إحدى القراءتين دون الأخرى

٢٢٨ المسألة الثانية : فى مرجع الضمير فى قوله تعالى : (فيها) ، وفى الكلام بحث أصولى يتعلق بمفهوم اللقب

٢٢٩ المسألة الثالثة : فى بيان مفهوم قوله (رجال) وتكميل البيان بالسنة على ما شرطنا فى الترجمة والأدلة على أن صلاة النساء فى بيوتهن أفضل من صلاتهن فى المساجد والأمر بالإذن لهن إن طلبن الخروج لى المساجد

٢٣٥ تنبيه فى الجمع بين روايات حديث ابن عمر المتقدم

٢٣٥ المسألة الرابعة : فيما يشترط لخروج المرأة إلى المسجد

٢٣٨ المسألة الخامسة : فى كون صلاة النساء فى بيوتهن أفضل لهن من المساجد

٢٤٠ (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) والآيات التى فيها بيان لذلك

٢٤١ قوله تعالى : (ليجزيهم الله أحسن ماعملوا) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك مع ذكر متعلق الكلام .

٢٤١ (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك

٢٤٣ تنبيه : يتضمن إزالة الإشكال فى قوله : حتى إذا جاءه لم يجده شيئا

٢٤٤ (ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض والطير صافات) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك

ص الموضوع
٢٤٦ (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
٢٤٧ (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) والآيات التى فيها بيان لذلك .
٢٤٧ (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
٢٤٨ (لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) والآيات الموضحة لذلك
٢٥١ (لاتجعلوا دعاء الرسول) الآية وما يوضح ذلك من الآيات
٢٥٢ (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) الآية والآيات الموضحة لذلك
٢٥٥ (قد يعلم ما أنتم عليه) والآيات الموضحة لذلك .
٢٥٦ (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) والآيات الموضحة لذلك مع إعراب يوم
٢٦١ سورة الفرقان
٢٦١ (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) والآيات الموضحة لذلك وتفسير ما يحتاج إليه
٢٦٤ (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا) الآية والآيات الموضحة لذلك
٢٦٧ تنبيه فى حل إشكال فى قوله : (فقدره تقديرا)
٢٦٨ (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا) الآية والآيات الموضحة لذلك
٢٧٤ (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه) الآية والآيات الموضحة لذلك
٢٧٦ (وقال أساطير الأولين اكتتبها) الآية والآية الموضحة لذلك .
٢٧٨ (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام) الآية والآيات الموضحة لذلك
٢٨٠ (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٢٨٣ (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) الآية وما يماثلها من الآيات مع تفسير ما يحتاج إليه .
٢٨٥ (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) والآيات الموضحة لذلك
٢٨٧ (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) والآيات الموضحة لذلك
٢٨٨ مسألة : فى أن النار تبصر الكفار يوم القيامة
٢٩٠ (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) الآية والآيات الموضحة لذلك .

ص الموضوع

٢٩٢ تنبيه : يتضمن بحثا عربيا .

٢٩٤ (أذلك خير أم جنة الخلد ـ إلى قوله ـ وعدا مسئولا) والآيات الموضحة لذلك وفى البحث إزالة إشكال فى الآيات .

٢٩٧ (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ـ إلى قوله ـ وكانوا قوما بورا) والآيات الموضحة لذلك .

٣٠١ (فقد كذبوكم بما تقولون) والآيات الموضحة لذلك .

٣٠١ (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) والآيات الموضحة لذلك ؟

٣٠١ (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) والآيات الموضحة لذلك .

٣٠٣ (وقال الذين لا يرجون لقاءنا إلى قوله وعتوا عتواً كبيرا) والآيات الموضحة لذلك

٣٠٥ (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) الآية والآيات الموضحة لذلك

٣٠٧ (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) الآية والإحالة على بيانه سابقا .

٣٠٨ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .

٣١١ (ويوم تشقق السماء بالغمام) الآية والآيات الموضحة لذلك مع بيان القراءات .

٣١٢ (الملك يومئذ الحق للرحمن) الآية والآيات الموضحة لذلك .

٣١٣ (ويوم يعض الظالم على يديه) الآية والآيات الموضحة لذلك .

٣١٦ (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) واستنباط أن الترك فعل من الآية والآيات الموضحة لذلك البحث الأصولى .

٣٢٠ (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين) والآيات التى فيها بيان لذلك مع الإحالة على بعض البيان السابق .

٣٢١ (كذلك لنثبت به فؤادك) الآية والإحالة على البيان السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .

٣٢١ (الذين يحشرون على وجوههم) الآية والآيات الموضحة لذلك .

٣٢٣ (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ـ إلى قوله ـ فدمرناهم تدميرا) والإحالة على بيانه السابق

٣٢٣ (وقوم نوح لما كذب الرسل) الآية والإحالة على بيانه السابق .

ص	الموضوع
٣٢٣	(وعادا وثمودا وأصحاب الرسل) الآية والآيات الموضحة لذلك
٣٢٥	(وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا) ، والآيات الموضحة لذلك
٣٢٧	(ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) الآية والآيات الموضحة لذلك
٣٢٨	(وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) الآية وبعض الآيات التى فيها بيان له مع الإحالة على بيان سابق .
٣٢٩	(أرأيت من اتخذ إلهه هواه) الآية والآيات الموضحة لذلك مع تفسير ما يحتاج لتفسيره
٣٣١	(أم تحسب أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية والآيات التى بمعناها
٣٣٢	(وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا) الآية والآيات الموضحة لذلك
٣٣٥	(وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) وبعض الآيات المبينة لذلك مع الإحالة على بعض البيان السابق .
٣٣٥	(ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا) والآيات التى فيها بيان لذلك
٣٣٧	(ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٣٣٨	(وهو الذى مرج البحرين) الآية والآيات الموضحة لذلك
٣٤٠	(وهو الذى خلق من الماء بشرا) الآية ومايوضح ذلك من الآيات
٣٤١	مسألة فى حكم ابنة الرجل من الزنى هل له أن يتزوجها
٣٤٢	تنبيه يتضمن استنباط قتادة من الآية أن الصهر كالنسب فى التحريم والبحث فيه
٣٤٢	(ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٣	(وكان الكافر على ربه ظهيرا) والآيات الموضحة لذلك
٣٤٤	(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٤	(قل ماأسألكم عليه من أجر) الآية والإحالة على بيانه السابق
٣٤٤	(وتوكل على الحى الذى لايموت) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٤	(وكفى به بذنوب عباده خبيرا) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٤	(الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٤	(ثم استوى على العرش الرحمن) الآية والإحالة على بيانه السابق
٣٤٥	(وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن) الآية والآيات الموضحة لذلك

ص الموضوع
٣٤٦ (تبارك الذى جعل فى السموات بروجا) الآية والآيات الموضحة لذلك وفى البحث طرف من الكلام فى عدم الوصول إلى القمر
٣٤٩ (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض) الآية والإحالة على بيانه السابق
٣٤٩ (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) والإحالة على بيانه السابق
٣٤٩ (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما) والآيات الموضحة لذلك
٣٥٠ (والذين يقولون لربهم ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) الآية والآيات الموضحة لذلك مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .
٣٥١ (والذين أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية والآيات الموضحة لذلك مع بيان القراءات .
٣٥٣ مسألة فى بيان الآيات المذكورة أحد ركنى الاقتصاد والكلام على أصول الاقتصاد .
٣٥٦ (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وبعض الآيات الموضحة لذلك مع الإحالة على بيان سابق .
٣٥٧ (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) الآية والآيات الموضحة لمفهومها ومنطوقها مع تفسير ما يحتاج لتفسيره
٣٥٨ (أولئك يجزون الغرفة) الآية والآيات المبينة لذلك
٣٥٨ (ويلقون فيها تحية) الآية والإحالة على بيانه السابق .
٣٥٩ (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) والإحالة على بيانه السابق
٣٥٩ (قل مايعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم) الآية وأقوال أهل العلم فيها وما يشهد لها من قرآن واستظهار ما يظهر .
٣٦٥ سورة الشعراء .
٣٦٧ (لعلك باخع نفسك) الآية والإحالة على بيانه السابق
٣٦٧ (أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) ، والإحالة على بيانه السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .

ص الموضوع
٣٦٨ (وإذ نادى ربك موسى) الآية والإحالة على بيانه السابق
٣٦٨ (قال رب إنى أخاف أن يكذبون) الآية ، وما يوضح ذلك من الآيات
٣٦٨ (فأرسل إلى هارون) والإحالة على بيانه السابق
٣٦٩ (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) ، وما يوضح ذلك من الآيات
٣٦٩ (قال كلا فاذهبا بآياتنا) الآية ، وما يوضح ذلك من الآيات
٣٦٩ (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) ، والاحالة على بيانه السابق
٣٧٠ (قال ألم نربك فينا وليدا) الآية ، وما يوضح ذلك من الآيات
٣٧٠ (وفعلت فعلتك التى فعلت) الآية وما يوضح ذلك من الآيات مع تفسير قوله (وأنت من الكافرين) .
٣٧١ (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) ، وما يوضح ذلك من الآيات مع ذكر إطلاقات الضلال فى القرآن واللغة وبعض الشواهد العربية
٣٧٣ (ففرت منكم لما خفتم) والآيات الموضحة لذلك
٣٧٣ (فوهب لى ربى حكما) والإحالة على بيانه السابق
٣٧٤ (قال فرعون ومارب العالمين) والآيات الموضحة لذلك
٢٧٣ (قال أولو جئتك بشىء مبين قال فأت به) الآيات ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٤ (واتل عليهم نبأ إبراهيم) الآية ، والإحالة على بيانه السابق
٣٩٥ (فكبكبوا فيها هم والغاوون) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٥ (قالوا وهم فيها يختصمون) الآية ، وبعض الآيات الموضحة له مع الإحالة على بيانه السابق .
٣٧٦ (فما لنا من شافعين) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٦ (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٦ (كذبت قوم نوح المرسلين) الآيات ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٧ (قالوا أنؤمن لك) الآية ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٧ (وما أنا بطارد المؤمنين) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٧٧ (قال رب إن قومى كذبون إلى قوله : ثم أغرقنا بعد الباقين) والآيات الموضحة لذلك ، مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .

ص	الموضوع
٣٧٨	(كذب أصحاب الأيكة) الآية ، وبعض الآيات التى فيها بيان أن أصحاب الأيكة هم مدين .
٣٧٩	(واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين) ، وبعض الآيات التى بمعناها
٣٨٠	(وإنه لتنزيل رب العالمين) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٣٨١	(ولو نزلناه على بعض الأعجمين) الآية ، والإحالة على البيان السابق
٣٨١	(كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٨٢	(فيقولوا هل نحن منظرون) والآيات المبينة لذلك
٣٨٣	(أفبعذابنا يستعجلون) ، والإحالة على البيان السابق
٣٨٣	(أفرأيت إن متعناهم سنين) ، والإحالة على البيان السابق
٣٨٣	(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) ، والإحالة على البيان السابق
٣٨٣	(ذكرى وما كنا ظالمين) ، وبعض الآيات التى بمعناه ، مع الإحالة على البيان السابق ، وفى البحث إعراب ذكرى
٣٨٤	(إنهم عن السمع لمعزولون) ، والإحالة على بيانه السابق
٣٨٤	(فلاتدع مع الله إلها آخر) الآية ، وبعض الآيات التى بمعناه مع الإحالة على البيان السابق .
٣٨٥	(وأنذر عشيرتك الأقربين) ، والآيات التى فيها بيان لذلك .
٢٨٥	(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ، والإحالة على البيان السابق وفى البحث إيضاح معنى خفض الجناح وإضافته إلى الذل .
٣٨٨	(وتوكل على العزيز الرحيم) الآية ، والقرينة القرآنية المبينة له مع ذكر أوجه القراءة ، والإحالة على بعض البيان السابق
٣٨٩	(والشعراء يتبعهم الغاوون والآيات التى فيها بيان لذلك مع أوجه القراءة
٣٩٠	مسألتان الأولى فى الكلام على الحديث الصحيح فى ذم حفظ الشعر والثانية فى حكم ما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب الحد
٣٩٢	(وأنهم يقولون مالا يفعلون) والآية الموضحة لذلك مع تفسير مايحتاج لتفسيره
٣٩٢	(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية ، والإحالة على بيانه السابق

ص الموضوع
٣٩٣ (واذكروا الله كثيرا) وما يوضح ذلك من الآيات
٣٩٣ (وانتصروا من بعد ما ظلموا) والإحالة على بيانه السابق
٣٩٤ (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) والآيات الموضحة لذلك
٣٩٥ سورة النمل
٣٩٧ (هدى وبشرى للمؤمنين) والإحالة على بيانه السابق
٣٩٧ (إذ قال موسى لأهله) الآيات والإحالة على بيانه السابق
٣٩٧ (وورث سليمان داود) والإحالة على بيانه السابق
٣٩٧ (ألا يسجدوا لله) الآية ، وما فيه بيان لذلك من الآيات مع ذكر أوجه القراءة والتفسير على كل وجه ، وبعض الشواهد العربية
٤٠٥ تنبيهان الأول فى كون آية النمل هذه محل سجدة
٤٠٥ التنبيه الثانى فيما يحسن الوقف عليه فى القراءتين
٤٠٥ (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) والآيات الموضحة لذلك
٤٠٥ (ومن كفر فإن ربى غنى كريم) والآيات الموضحة لذلك
٤٠٦ (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا) الآية والآيات الموضحة لذلك
٤٠٦ (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) الآية ، والإحالة على البيان السابق
٤٠٦ (قالوا اطيرنا بك وبمن معك) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع تفسير مايحتاج لتفسيره ، وفى البحث معانى الفتنة .
٤٠٥ (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) الآية ، والإحالة على بيانه السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره ، وذكر أوجه القراءة .
٤١٠ (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم - إلى قوله - وكانوا يتقون) والآيات الموضحة لذلك مع ذكر أوجه القراءة
٤١٢ (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) والإحالة على بيانه السابق .
٤١٢ (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء) الآية والإحالة على البيان السابق

ص الموضوع
٤١٣ (قل لايعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله)الآية ، والإحالة على بيانه السابق .
٤١٣ (بل ادارك علمهم فى الآخرة) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع بيان أوجه القراءة .
٤١٥ (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) وبعض الآيات التى فيها بيان لذلك .
٤١٥ (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) ،والإحالة على البيان السابق
٤١٦ (إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء) الآية والآيات الموضحة لذلك وفى البحث مناقشة أدلة العلماء وترجيح مايرجح منها فى سماع الموتى وعدم سماعهم .
٤٣٩ (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) الآية ، والآيات التى فيها بيان عموم الحشر
٤٤٠ (حتى إذا جاء وقال أكذبتم بآياتى) الآية ، وبعض الآيات التى فيها بيان لذلك
٤٤٠ (ووقع القول عليهم بما ظلموا) الآية ، والآيات التى فيها بيان لذلك مع ذكر أوجه الجمع بين بعضها .
٤٤١ (أو لم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) ، والإحالة على بيانه السابق .
٤٤٢ (وترى الجبال تحسبها جامدة) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٤٤٣ (من جاء بالحسنة فله خير منها) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع إزالة إشكال فيها
٤٤٥ (وهم من فزع يومئذ آمنون) ، والآيات التى بمعنى ذلك مع ذكر أوجه القراءة
٤٤٥ (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع إزالة إشكال فيها .
٤٤٦ (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٤٤٧ (وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن) والإحالة على البيان السابق
٤٤٧ (ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) والآيات المبينة لذلك
٤٤٧ (وقل الحمد لله سيريكم آياته) الآية والآيات التى بمعنى ذلك .
٤٤٨ (وما ربك بغافل عما تعملون)، والآيات الموضحة لذلك مع ذكر أوجه القراءة
٤٤٩ سورة القصص .

ص الموضوع
٤٥١ (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا) الآية ، والآيات التى فيها بيان لذلك .
٤٥٢ (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) والآية المبينة لذلك وفى الكلام بحث بلاغى .
٤٥٥ (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا) الآيات ، والإحالة على البيان السابق
٤٥٥ (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) الآية والآية التى بمعنى ذلك مع تفسير ما يحتاج لتفسيره
٤٥٥ (إنك لاتهدى من أحببت) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٤٥٦ (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٥٦ (كل شىء هالك إلا وجهه) والآيات التى بمعنى ذلك
٤٥٧ (له الحكم وإليه ترجعون) ، والإحالة على البيان السابق .
٤٥٩ سورة العنكبوت .
٤٦١ (آلم أحسب الناس أن يتركوا) الآية والآيات الموضحة لذلك
٤٦٢ (أم حسب الذين يعملون السيئات) الآية والإحالة على البيان السابق .
٤٦٢ (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) والإحالة على البيان السابق .
٤٦٢ (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الآية ، والآيات التى فيها بيان بذلك .
٤٦٢ (ولئن جاء نصر من ربك) والآيات الموضحة لذلك .
٤٦٣ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٦٤ (فأنجيناه وأصحاب السفينة) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٤٦٤ (إن الذين تعبدون من دون الله) الآية ، والإحالة على البيان السابق
٤٦٤ (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٤٦٤ (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) الآية والآية التى فيها زيادة بيان لذلك .
٤٦٥ (وآتيناه أجره فى الدنيا) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٤٦٥ (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٦٦ (ولما أن جاءت رسلنا لوطا إلى قوله لقوم يعقلون) ، والإحالة على البيان السابق
٤٦٦ (وإلى مدين أخاهم شعيبا إلى قوله ـ جاثمين) والإحالة على البيان السابق
٤٦٦ (وعاداً وثمودا إلى قوله ومنهم من أغرقنا) والآيات الموضحة لذلك

ص الموضوع
٤٦٧ (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء - إلى قوله : إلا العالمون) والإحالة على البيان السابق .
٤٦٨ (اتل ما أوحى إليك من الكتاب) والإحالة على البيان السابق .
٤٦٨ (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) والإحالة على البيان السابق
٤٦٨ (ولا تجادلوا أهل الكتاب) الآية والإحالة على البيان السابق .
٤٦٨ (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) والإحالة على البيان السابق
٤٦٩ (ويستعجلونك بالعذاب - إلى قوله : وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) والإحالة على البيان السابق .
٤٦٩ (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة) والآيات الموضحة لذلك .
٤٧٠ (كل نفس ذائقة الموت) والآيات الموضحة لذلك .
٤٧٠ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) والإحالة على أنواع بيانه السابق .
٤٧٠ (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) الآية ، والآية التى فيها بيان لذلك .
٤٧٠ (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض - إلى قوله : بل أكثرهم لا يعقلون) والإحالة على البيان السابق .
٤٧١ (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) الآية ، والإحالة على بيانه السابق
٤٧١ (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٤٧١ (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٤٧٢ (وإن الله لمع المحسنين) والإحالة على البيان السابق
٤٧٣ سورة الروم .
٤٧٤ (وعد الله لا يخلف الله وعده - إلى قوله - وهم عن الآخرة هم غافلون) والآيات الموضحة لذلك من أوجه .
٤٧٧ تنبيه فى الكلام على فتنة الناس بعلم الكفار اليوم ظاهرا من الحياة الدنيا والتحذير من ذلك .
٤٧٩ (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) الآية والآيات الموضحة لذلك .

ص الموضوع
٤٨٢ (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٤٨٣ (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٤٨٤ (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) الآية ، والاحالة على بيانه السابق
٤٨٤ (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) الآية ، والإحالة على بيانه السابق
٤٨٤ (وكانوا بشركائهم كافرين) والاحالة على بيانه السابق
٤٨٥ (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) الآية والاحالة على بيانه السابق
٤٨٥ (ويحيى الأرض بعد موتها) الآية والإحالة على بيانه السابق .
٤٨٥ (ومن آياته أن خلقكم من تراب) الآية والإحالة على بيانه السابق .
٤٨٥ (من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) والإحالة على بيانه السابق
٤٨٦ (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم) الآية والآيات الموضحة لذلك وبعض الإحالة على بيانه السابق وفى البحث بيان إبطال تأثير الطبيعة مع ذكر أوجه القراءة .
٤٨٦ (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٤٨٧ (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٤٨٧ (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) الآية ، والاحالة على البيان السابق
٤٨٧ (وما آتيتم من ربا ليربوا) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٤٨٧ (يومئذ يصدعون) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٤٨٨ (فإنك لاتسمع الموتى - إلى قوله - فهم مسلمون) والإحالة على البيان السابق
٤٨٨ (الله الذى خلقكم من ضعف) الآية والآيات الموضحة لذلك مع ذكر أوجه القراءة
٤٨٩ (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٨٩ (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) الآية ، والآيات التى فيها بيان لذلك
٤٩٠ (ولاهم يستعتبون) ، والإحالة على البيان السابق .
٤٩٠ (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) والإحالة على البيان السابق .
٤٩١ (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) ، وبعض الآيات التى بمعناها مع الإحالة على بيان سابق .

ص الموضوع
٤٩٢ فائدة تتضمن إجابة على رضى الله عنه بهذه الآية لبعض الخوارج
٤٩٣ سورة لقمان .
٤٩٥ (آلم تلك آيات الكتاب الحكيم) الآية ، والإحالة على بيانه السابق
٤٩٥ (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٤٩٦ (خلق السماوات بغير عمد ترونها) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٩٦ (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٩٦ (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٤٩٧ (ولا تصعر خدك للناس) والإحالة على البيان السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره
٤٩٧ (ولا تمش فى الأرض مرحا) مع الإحالة على البيان السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .
٤٩٧ (واقصد فى مشيك) والاحالة على البيان السابق .
٤٩٨ (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) الآية ، والإحالة على البيان السابق
٤٩٨ (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) والإحالة على البيان السابق
٤٩٨ (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٩٨ (ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام) الآية والإحالة على البيان السابق
٤٩٨ (ما خلقكم ولا بعثكم) الآية والاحالة على البيان السابق
٤٩٩ (وإذا غشيهم موج كالظلل) والإحالة على البيان السابق .
٤٩٩ (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الآية والإحالة على البيان السابق
٥٠١ سورة السجدة .
٥٠٣ (أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك) الآية والإحالة على البيان السابق
٥٠٣ (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) الآية ، وبعض الآيات التى بمعناها مع إزالة إشكال فى الآيات .
٥٠٤ (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) الآية ، والآيات التى فيها زيادة بيان لذلك .
٥٠٦ (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم) الآية ، والإحالة على البيان السابق .

ص الموضوع

٥٠٦ (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) الآية والإحالة على البيان السابق .

٥٠٦ (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) الآية والإحالة على البيان السابق

٥٠٦ (ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) الآية والإحالة على البيان السابق

٥٠٧ (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) الآية والإحالة على البيان السابق

٥٠٧ (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) الآية والآيات الموضحة لذلك .

٥٠٩ (وانتظر إنهم منتظرون) والآيات التي بمعناه .

٥١٠ سورة الأحزاب .

٥١٣ (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين) الآية ، والإحالة على البيان السابق من جهتين .

٥١٣ (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن) الآية والآيات الموضحة لذلك وبيان أوجه القراءة .

٥١٥ مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة الأولى في حرمة الإقدام على الظهار

٥١٥ المسألة الثانية : في بيان العود الذي رتب الله عليه الكفارة في الآية مع إزالة إشكال في الآية .

٥١٩ المسألة الثالثة : في حكم مالو قال لامرأته: أنت على كظهر ابنتي أو أختي الخ . أو شبهها بعضو ممن ذكر غير الظهر.

٥٢٠ فرعان يتعلقان بهذه المسألة : الأول في حكم من شبه امرأته بظهر من تحرم تحريما مؤقتا كأخت زوجته واستظهار ما يظهر من أقوال أهل العلم في ذلك .

٥٢٢ الفرع الثاني : فيما لوقال لها أنت على كظهر ابني أو أبي إلخ وفي الكلام بحث أصولي .

٥٢٣ المسألة الرابعة : في أرجح الأقوال في تحريم الرجل امرأته .

٥٢٤ المسألة الخامسة : في حكم أنت عندي أو مني أو معي كظهر أمي .

٥٢٤ المسألة السادسة : في حكم ما لوقال لامرأته : أنت على كأمي إلخ واستظهار مايظهر من أقوال العلماء .

ص الموضوع
٥٢٥ المسألة السابعة : فى حكم من قال الحل على حرام إلخ .
٥٢٦ المسألة الثامنة : فى حكم من قال أنت على حرام كظهر أمى الخ .
٥٢٦ المسألة التاسعة : فى حكم من قال لامرأته أنت طالق كظهر أمى .
٥٢٦ المسألة العاشرة : فى حكم ما لو شبه عضوا من امرأته بظهر أمه .
٥٢٧ المسألة الحادية عشرة : فى حكم الظهار من الأمة .
٥٣١ مذاهب العلماء فى تحريم الرجل امرأته وترجيح ما يظهر رجحانه
٥٤٠ المسألة الثانية عشرة : فى حكم ظهار العبد والذمى .
٥٤٠ المسألة الثانية عشرة : فى حكم الظهار المؤقت وترجيح مايرجح من أقوال أهل العلم .
٥٤٢ المسألة الرابعة عشرة : فى حكم من قيد ظهاره بالمشيئة .
٥٤٣ المسألة الخامسة عشرة : فى حكم مالومات أحدهما أو طلقها قبل التكفير وفى البحث حكم مالو طلقها قبل التكفير ثم تزوجها .
٥٤٣ المسألة السادسة عشرة : فى حكم من ظاهر من نسائه بكلمة واحدة أو بكلمات وترجيح ما يظهر رجحانه من الأقوال. وفى البحث حكم تكرير الظهار من المرأة الواحدة .
٥٤٥ المسألة السابعة عشرة : فى أن كفارة الظهار هى المبينة فى قوله : (فتحرير رقبة مؤمنة ـ إلى قوله ـ فإطعام ستين مسكينا) .
٥٤٥ فروع تتعلق بهذه المسألة الأول فى كلام العلماء فى اشتراط الإيمان فى رقبة كفارة الظهار .
٥٤٨ الفرع الثانى : فى كلام العلماء فى اشتراط سلامة رقبة كفار الظهار من العيوب وتفاصيل ذلك .
٥٥٣ الفرع الثالث: فى حكم صورة كفارة الظهار .
٥٥٤ الفرع الرابع :فى تحقيق العجز عن العتق الموجب للانتقال إلى الصوم
٥٥٥ الفرع الخامس: فى حكم المظاهر الغنى الذى ماله غائب .

ص الموضوع
٥٥٥ الفرع السادس : فى حكم المظاهر الموسر إن لم يجد رقبة يشتريها وفى البحث حكم وجودها بأكثر من ثمن المثل .
٥٥٥ الفرع السابع : فى تتابع صوم شهرى الظهار وتفاصيل أحكام عدم التتابع .
٥٥٦ الفرع الثامن : فى حكم انقطاع تتابع الصوم لعذر .
٥٥٧ تنبيه فى حكم ما إذا لزم النساء صوم يجب تتابعه .
٥٥٧ الفرع التاسع : فى حكم جماع المظاهر فى الليل زمن صومه .
٥٥٩ الفرع العاشر : فى حكم جماع الصائم فى الظهار فى نهار الصوم ناسيا
٥٥٩ الفرع الحادى عشر : فى حكم من أبيح له الفطر بعذر من القول بأنه لايقطع حكم التتابع إن جامع فى أيام العذر هل يبطل تتبعه وفى البحث حكم تلذذ صائم الكفارة بما دون الجماع .
٥٦٠ الفرع الثانى عشر : فى الانتقال إلى الإطعام المذكور فى الآية ، وفى البحث بعض الأسباب المؤدية إلى العجز عن الصوم .
٥٦١ الفرع الثالث عشر : فى أنه لايجزىء فى الإطعام أقل من إطعام ستين مسكينا ومناقشة الأدلة فى ذلك .
٥٦٢ الفرع الرابع عشر : فى قدر الإطعام الذى يجب لكل مسكين ومناقشة الأدلة فى ذلك واستظهار ما يظهر .
٥٦٦ الفرع الخامس عشر : فى كيفية الإطعام وجنس الطعام ومستحقه
٥٦٧ فى أن طعام كفارة الظهار لايجب فيه التتابع .
٥٦٧ الفرع السابع عشر : فى حكم جماع المظاهر أثناء الإطعام واستظهار ما يظهر من أقوال العلماء فى ذلك .
٥٦٨ الفرع الثامن عشر : فى قول المرأة لزوجها : أنت على كظهر أبى ، واستظهار ما يظهر من أقوال العلماء فى ذلك .
٥٦٨ تنبيه : فى أقوال العلماء فيما يلزم المرأة فى قولها لزوجها : أنت على كظهر أبى ، واستظهار ما يظهر من أقوالهم فى ذلك .
٥٧٠ (وأزواجه أمهاتهم) والآيات التى فيها بيان لذلك .
٥٧١ مسألة فى كلام العلماء هل يقال لبنات أزواجه صلى الله عليه وسلم أخوات المؤمنين ، وهل يقال لإخوانهن أخوال المؤمنين واستظهار مايظهر .

ص الموضوع

٥٧١ (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) الآية والإحالة على البيان السابق
٥٧٢ (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم - إلى قوله - وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) والآيات المبينة لذلك .
٥٧٣ (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) الآية، والآيات التى فيها بيان لذلك
٥٧٣ (ولما رأى المؤمنون الأحزاب) الآية ، والآية الموضحة لذلك .
٥٧٤ (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٥٧٥ (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة) الآية والآية الموضحة لذلك .
٥٧٥ (ومن يقنت منكن لله ورسوله) الآية ، والآيات التى بمعنى ذلك
٥٧٧ (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) الآية ودلالة القرائن القرآنية على عدم خروج أزواجه صلى الله عليه وسلم من ذلك
٥٧٨ تنبيه فى الكلام على مرجع الضمير فى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) .
٥٨٠ تنبيه فى الكلام على اللام فى قوله ليريد ، وليذهب
٥٨٠ (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) والقرائن القرآنية على المراد منه
٥٨٣ (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) والآيات التى بمعنى ذلك
٥٨٣ (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) والآية المبينة لذلك
٥٨٤ (وإذا سألتموهن متاعا) الآية والقرينة القرآنية المبينة لذلك .
٥٨٦ بعض الآيات الدالة على الحجاب مطلقا .
٥٨٩ مبحث فى ما ينحل منه الفعل الصناعى .
٥٨٩ دليل أصولى آخر على عموم حكم آية الحجاب .
٥٩١ دليل آخر من القرآن على عموم وجوب الحجاب .
٦٠٢ مسألة فى منع مصافحة الرجال النساء .
٦٠٣ (يسألك الناس عن الساعة) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٠٤ (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٠٥ (إن الله لعن الكافرين - إلى قوله - لعنا كبيرا) والإحالة على البيان السابق .
٦٠٥ (إنا عرضنا الأمانة) الآية والآيات التى توضح ذلك .

ص الموضوع
٦٠٩ سورة سبأ
٦١١ (وله الحمد فى الآخرة) والإحاله على البيان السابق .
٦١١ (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها - إلى قوله - وهو الرحيم الغفور) والآيات الموضحة لذلك .
٦١٢ (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) الآية ، والآيات التى بمعنى ذلك .
٦١٤ (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة - إلى قوله - فى كتاب مبين) والآيات الموضحة لذلك مع ذكر أوجه القراءة .
٦١٥ (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك ، مع ذكر أوجه القراءة .
٦١٦ (قال الذين كفروا هل ندلكم - إلى قوله - والضلال البعيد) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦١٦ (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية والآيات الموضحة لذلك
٦١٧ (إن نشأ نخسف بهم الأرض) الآية ، والآيات التى فيها بيان لذلك مع ذكر أوجة القراءة .
٦١٨ (ولقد آتينا داود منا فضلا) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦١٨ (يا جبال أوبى معه والطير) والإحالة على البيان السابق .
٦١٩ (وألنا له الحديد) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦١٩ (ولسليمان الريح غدوها شهر) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦١٩ (ومن الجن من يعمل بين يديه - إلى قوله - وقدور راسيات) الآية والإحالة على البيان السابق.
٦١٩ (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) الآية والإحالة على البيان السابق مع ذكر أوجه القراءة .
٦٢٠ (وما كان له عليهم من سلطان) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٦٢٠ (قل ادعوا الذين زعمتم) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٠ (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٠ (قل من يرزقكم من السماوات والأرض) الآية والآيات التى فيها إيضاح لذلك
٦٢١ (قل لاتسألون عما أجرمنا) الآية والآيات الموضحة لذلك .

ص الموضوع
٦٢١ (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) الآية والآيات المشابهة لها فى المعنى .
٦٢٢ (وما أرسلناك إلا كافة للناس) الآية والإحالة على البيان السابق وفى الكلام بحث نحوى .
٦٢٤ (ولكن أكثر الناس لايعلمون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٥ (قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٥ (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون - إلى قوله - ونجعل له أندادا) الآيات والإحالة على البيان السابق .
٦٢٥ (وجعلنا الأغلال) الآية والآيات التى بمعناها .
٦٢٥ (وماأرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٢٦ (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا) الآية إلى قوله (وما أموالكم ولا أولادكم) ، والإحالة على البيان السابق .
٦٢٦ (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٦ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٧ (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٧ (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) الآية والآيات التى فيها إيضاح لذلك .
٦٢٧ (ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٧ (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٨ (قل جاء الحق ومايبدىء الباطل ومايعيد) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٢٨ (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٢٨ (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) الآية والإحالة على البيان السابق مع تفسير ما يحتاج إلى تفسيره .
٦٣١ سورة فاطر
٦٣٣ (الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا) الآية ، والآيات التى فيها إيضاح لذلك .
٦٣٤ (ما يفتح الله للناس من رحمة) الآية والآيات الموضحة لذلك .

ص الموضوع

٦٣٥ (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماوات والأرض) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .

٦٣٦ (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) الآية والآيات التى بمعنى ذلك .

٦٣٧ (إن الشيطان لكم عدو) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٣٧ (إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٣٧ (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٣٧ (والله الذى يرسل الرياح - إلى قوله - كذلك النشور) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٣٧ (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) الآية والآيات الموضحة لذلك

٦٣٨ (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) الآية وبعض الآيات التى فيها إيضاح ذلك مع الإحالة على بيان سابق .

٦٣٩ (والله خلقكم من تراب) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٣٩ (وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٣٩ (وما يعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا فى كتاب) الآية والإحالة على كلام سابق .

٦٤٠ (وما يستوى البحران هذا عذب فرات) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٤٠ (ومن كل تأكلون لحما طريا) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٤٠ (ويوم القيامة يكفرون بشركم) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٤٠ (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) الآية والآيات التى بمعنى ذلك

٦٤١ (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٤١ (ولاتزر وازرة وزر أخرى) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٤٢ (وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شىء) الآية والإحالة على البيان السابق

٦٤٢ (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) الآية والآيات الموضحة لذلك

٦٤٢ (وما يستوى الأعمى والبصير) الآية والإحالة على البيان السابق .

٦٤٢ (ومايستوى الأحاء والأموات) الآية والآيات الموضحة لذلك .

٦٤٣ (إن الله يسمع من يشاء) الآية والإحالة على البيان السابق .

ص الموضوع
٦٤٣ (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات ـ إلى قوله ـ كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) والإحالة على البيان السابق .
٦٤٤ (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا) الآية والإحالة على كلام سابق .
٦٤٥ (وهم يصطرخون فيها) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٤٥ (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٤٥ (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٤٥ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٤٧ سورة يس
٦٤٩ (يس) الآية والآيات التى بمعنى ذلك .
٦٤٩ (والقرآن الكريم إنك لمن المرسلين) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٤٩ (لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٥٠ (لقد حق القول على أكثرهم) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٥١ (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) الآية والآيات الموضحة لذلك مع تفسير مايحتاج لتفسيره ، وذكر أوجه القراءة .
٦٥٤ (إنما تنذر من اتبع الذكر) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٥٤ (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٥٧ (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) الآية والإحالة على السابق مع ذكر بعض الآيات التى فيها بيان لذلك .
٦٥٧ (قالوا إنا تطيرنا بكم) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٥٧ (اتبعوا من لايسألكم أجراً) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٥٨ (ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) الآية والإحالة على البيان السابق مع تفسير ما يحتاج لتفسيره .
٦٥٨ (أأتخذ من دونه آلهة) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٥٩ (يا حسرة على العباد) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٦١ (وآية لهم الأرض الميتة) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٦١ (وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٦١ (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) الآية والآيات التى فيها إيضاح لذلك .

ص الموضوع
٦٦٢ (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث) الآية والآيات الموضحة لذلك مع تفسير مايحتاج لتفسيره .
٦٦٣ (قالوا يا ويلنا من بعث لنا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٦٤ (ولقد أضل منكم جبلا كثيراً) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك مع ذكر أوجه القراءة .
٦٦٥ (تكلمنا أيديهم) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٦٥ (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) الآية والآيات الموضحة لذلك مع ذكر أوجه القراءة .
٦٦٦ (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٦٦ (لينذر من كان حيا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٦٧ (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٦٧ (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ـ إلى قوله ـ الخلاق العليم) والإحالة على البيان السابق .
٦٦٧ (إنما أمره إذا أراد شيئا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٦٩ سورة الصافات .
٦٧١ (والصافات صفا) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك
٦٧٦ (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) الآية والإحالة على البيان السابق مع ذكر أوجه القراءة .
٦٧٧ (وحفظا من كل شيطان مارد) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٧٧ (فاستفتهم أهم أشد خلقا) الآية والآيات الموضحة لذلك مع تفسير ما يحتاج إلى تفسيره .
٦٨٠ (بل عجبت ويسخرون) وبيان أن العجب من آيات الصفات على قراءة الآخرين مع الإحالة على البيان السابق .
٦٨٠ (وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨١ (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٨٣ (وقفوهم إنهم مسئولون) الآية والإحالة على البيان السابق .

ص الموضوع
٦٨٣ (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨٣ (فحق علينا قول ربنا) الآية والإحالة على البيان السابق مع ذكر بعض الآيات التى فيها بيان لذلك .
٦٨٤ (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
٦٨٤ (إنا كذلك نفعل بالمجرمين ـ إلى قوله ـ يستكبرون) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
٦٨٥ (ويقولون إنا لتاركوا آلهتنا) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨٥ (لافيها غول ولاهم عنها ينزفون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨٦ (وعندهم قاصرات الطرف عين) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٨٨ (إذ لك خير نزلا أم شجرة الزقوم) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨٨ (إنا جعلناها فتنة للظالمين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٨٩ (فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٨٩ (إنهم ألفوا آباءهم ضالين) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٦٩٠ (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩٠ (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩١ (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩١ (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ـ إلى قوله ـ بذبح عظيم) والآيات التى فيها إشارة إلى أن الذبيح إسماعيل .
٦٩٣ تنبيه يتضمن مسألة أصولية .
٦٩٤ (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩٤ (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٩٥ (وآتيناهما الكتاب المستبين) الآية والآيات التى فيها بيان لذلك .
٦٩٦ (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩٦ (فلولا أنه كان من المسبحين) الآية والآية التى فيها إيضاح ذلك .
٦٩٦ (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) الآية والإحالة على البيان السابق
٦٩٦ (فاستفتهم ألربك البنات) الآية والإحالة على البيان السابق .

ص الموضوع
٦٩٧ (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩٧ (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) الآية وبعض الآيات التي فيها إيضاح ذلك مع الإحالة على البيان السابق .
٦٩٨ (أفبعذابنا يستعجلون) الآية والإحالة على البيان السابق .
٦٩٨ (وسلام على المرسلين) الآية وبعض الآيات التي بمعنى ذلك .

استدراك

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٢	٩	فإنه ثابت	كأنه ثابت
١٤	١	صحتهما	صحتها
١٦	٦	وقيل شهادتهم	وقبل شهادتهم
١٧	٣	نص إليه	نص الله
١٨	٤	بسطان	بسطام
٢٠	١٢	إبطال الشهادة	إبطال لشهادة
٢١	١٠	لأن وسيلة	لأنه وسيلة
٢٤	٧	أحمر وشهد	أحمر أو شهد
٢٤	١٩	الآخر أن عليه	الآخران أن
٢٧	٥	لقد فيهما	لقذفهما
٢٧	١٠	طريقة واحدة	طريقه واحدة
٢٨	١١	ذلك به حتى	ذلك حتى
٢٨	٢٢	أن الزاني	أن الزنى
٣٢	٩	متلبساً	ملتبسا
٣٤	٩	شهاد البينة	شهادة البينة
٣٦	٢	هو ظاهر	هو الظاهر
٤٠	١٨	مستغيثة فمن	مستغيثة ممن
٤٤	١٨	جهينة غامد	جهينة وغامد
٤٨	١٤	عن أبن الزبير	عن أبي الزبير
٥١	١	للمرأه ون	للمرأة دون
٥١	٩	نثبت	تثبت
٥٦	١٣	زريق	رزيق
٥٩	٢١	وقد اختلف	فقد اختلف
٦٣	٧	التواتر	المتواتر
٦٣	٨	يرجم المتواتر	يرجح المتواتر
٦٤	٢	ولو كانوا	ولو كان
٧٠	٤	لاينقص	لا ينقض
٧٠	٥	وإنما ينقص	وإنما ينقض
٧١	١٣	ولا نستقضى	ولا نستقصى
٧١	١٤	شطى دجلة	بشطى دجلة
٧٢	٢١	وأنه جاء قد	وأنه قد جاء
٨٠	٢٠	المشرك	المشترك
٨٠	٢١	الباهرة	الباصرة
٨١	٢	وإذجار	وإذا جاز
٨١	٣	المشرو	المشترك
٨٢	٩	قوله : إن	قوله : أن
٨٢	١٩	بمنع	بمنع ذلك

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٨٧	٣	ببينة شهد له	بينة تشهد له
٩٠	١٤	ولم تخالف	ولم يخالف
٩١	٩	مستقى	مستحقى
٩٤	١٤	بالتعرض	بالتعريض
٩٧	١	قدر اللحم	غدر اللحم
٩٨	١٧	ثمرة وتمر	تمرة وتمر
٩٩	٥	المدكور	المذكور
٩٩	١٩	القذف	الحد
١٠١	٣	وتم شروطه	وتم بشروطه
١٠٦	٨	ترضى أن	ترضى إن
١٠٧	٢	قدف واحد	قدف واحدا
١١٠	١٢	من قوله	من فى قوله
١١١	٢	ولا رمى	ولا ترمى
١١٢	٢٢	المتلج	المتلاح
١١٣	١	المتلج	المتلاح
١١٤	٦	الحد اه اختلف	الحد ؟ اختلف
١١٨	١٧	مذهب مالك	فذهب مالك
١٢١	١	قال الرجل	قال لرجل
١٢١	١١	قال فى	وقال فى
١٢٣	١٠	فقذف غيره	فيقذف غيره
١٢٥	٢١	بهذا قال	وبهذا قال
١٢٧	١٧	عن طريق	من طريق
١٢٨	٣	والعترة إلا	والعترة إلى
١٢٩	٢	حين تكلم	حين تكلم
١٣٤	٥	ذلك يكفى	ذلك لا يكفى
١٣٨	٢٠	يلتقيان	يلتعمان
١٤١	١١	بالقاء	بالفاء
١٤٥	٤	تعريفه	تفريعه
١٤٥	١٧	بالقضا مجلسه	بانقضا مجلسه
١٤٦	١	عند رضى	عد رضى
١٤٧	٩	منه اه	اه منه
١٤٧	١٥	أن المحل	أن الحمل
١٤٨	١٦	ولا ينبغى	ولا ينتفى
١٤٨	١٨	ولا يحتاج	ويحتاج
١٤٩	٢١	إن السكون	إن السكوت
١٤٩	٢٢	أن له ينفيه	أن له أن ينفيه
١٥١	٢	أهل له لعانها	هل له لعانها

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٣	٢	قوله إن	قوله أن
١٥٣	٨	أبرأه	أبرآه
١٥٤	٢	بعض من	بعضه من
١٥٤	١٣	قذفها	قـذفها
١٥٥	٢٢	إنما	وإنما
١٥٦	٢٠	يلحفه	يلحقه
١٥٨	١٨	وبتوفيقه	بتوفيقه
١٦٠	١٢	لمه	ليمينه
١٦٠	١٧	منها عنه	منهيا عنه
١٦٦	٤	يعلم	لايعلم
١٦٨	٩	قوله	فقوله
١٦٩	١١	عن يسر	عن بسر
١٦٩	١٨	عن يسر	عن بسر
١٧٠	٢	عن يسر	عن بسر
١٧٣	١٩ و ٢٠	أن ويستأذن	أن يسلم ويستأذن
١٧٣	٢٢	وقال المحققون	وقاله المحققون
١٨٢	١٦	فى حجر	فى ججر
١٨٤	١٥	أولا يكتفى	ولا يـكتفى
١٨٥	١٧	أبا هرير	أبا هر
١٦٦	١١	إن كلام	اه كلام
١٨٨	٣	أى من	إلا من
١٨٩	١٧	ويغضض	ويغضضن
١٨٩	٢٠	إن شاء	إن نساء
١٩٠	١٧	فنظر إليها	ينظر إليها
١٩٥	١١	فى الحطر	فى الحظر
١٩٨	١	النظر تلك	النظر إلى تلك
١٩٨	٥	لقول من	كقول من
١٩٩	٢١	وأن ما فسروها	وأن من فسروها
١٩٩	٢٦	رواية	رؤية
٢٠٠	٢	وأطهرها	وأطهرها
٢٠١	٢	أسماء كثيرة	أسماء كثير
٢٠٣	١	اية المؤمنون	آية المؤمنون
٢٠٤	١٤	وللسا	وللسى
٢٠٦	٩	بذلك	بتلك
٢٠٧	٢	شرطه يعم	شرط يعم
٢٠٧	٧	فلكلهم	فـكلهم
٢٠٨	٢١	فإيمان	كإيمان
٢٠٩	١١	عرضياء	عرضيا
٢٠٩	١٤	فإيمان	كإيمان

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢١٢	٣	تفنى	تفنى
٢١٢	١٥	عمل إلى	عمل بها إلى
٢١٣	١١	عن انتهائه	عند انتهائه
٢١٤	١٤	تأيم	لئيم
٢١٤	١٧	أن تأثيم	أن تئيم
٢١٤	١٨	ومنه الثانى	ومن الثانى
٢١٤	١٩	وتتأيمى	وأن تتأيمى
٢١٥	٥	وتيأم	وتئيم
٢١٦	٩	وإنما يقوله	وأنما يقوله
٢١٦	١٤	وآية المذكورة	وآيةالنساء المذكورة
٢١٩	١	ملك لـ	ملك له
٢١٩	١٩	ما ذكرنا	من ذكرنا
٢٢٢	١٥	وشهادة	وبشهادة
٢٢٢	١٨	لبعض مثال	لبعض أمثال
٢٢٥	٨	بكسر الباء	بـكسر الياء
٢٢٥	٢٠	حرور	حدود
٢٢٦	١	حرور	حدود
٢٢٧	٤	لخصومه	لخصومة
٢٣٣	٦	بلالا	بلال
٢٣٥	١٤	لحديث	كحديث
٢٣٧	١٤	متغالى	متغالى
٢٥٣	٢٢	على إقضاء	على اقتضاء
٢٥٤	٥	وقبل الزلازل	وقيل الزلازل
٢٥٦	١٤	أشد وعيدا	أشد وعيد
٢٦١	٧	إنذار	إنذارا
٢٦٨	١٠	قدره	فقدره
٢٧٢	١٢	تنشر	تنشرها
٢٧٣	٦	ويرد فيها	وبرد فيها
٢٧٣	١٩	بهما من	بها من
٢٧٣	١٠	النصر بن الحرث العبدرى	النضر بن الحر العبدرى
٢٧٥	٢١	المهلك	الملك
٢٨٦	٩	ماتدرى	ماندرى
٢٨٦	١١	ماندرى	ما تدرى
٢٩٢	١٨	غدذا	غدا ذا
٢٩٢	٢٠	ما علم	فاعلم
٣٠٣	١٣	نؤمن لك حتى	نؤمن حتى
٣٠٣	١٣	وقالوا	قالوا
٣٠٤	١٩	وإذا قلتم	وإذ قلتم
٣٠٨	٨	ماذكروا واضحة	ما ذكر واضحة

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٣٢٤	١٨	والشر	وللشر
٣٢٦	٢٠	الآية	الأمة
٣٢٩	١٠	قال ابن عباس	قال : قال ابن عباس
٣٣٣	١٧	وهو مرفق	وهو مرتفق
٣٣٥	٥	جلى وعلى	جل وعلا
٣٣٦	٨	كفر النعمة	كفراً لنعمة
٣٤٩	٧	أولا	أولى
٣٥٢	٢	بل عدلا	بل عدلا
٣٥٣	٨	ليس يوجبه	ليس بوجيه
٣٥٣	١٣	لا ينقصه	لاينفعه
٣٥٤	١٨	وقال المكتسب	والمال المكتسب
٣٥٧	١١	عن إبصارهم	عن إبصاره
٣٥٩	١٧	مدعون	مدعوون
٣٥٩	١٨	مدعون	مدعوون
٣٦٠	٢	مضاف	مضافا
٣٧٣	٣	الفذى	القذى
٣٧٤	١٧	إن نـ	إن كنت
٣٧٦	٣	لايقبل فيها	لا يقبل منها
٣٧٧	٦	آمنوا أنهم	آمنوا إنهم
٣٧٧	٨	وأوضحنا بالآيات	وأوضحناه بالآيات
٣٨٢	١	فيها من زوجين	فيها من كل زوجين
٣٨٢	١٣	فقو عنهم	فقوله عنهم
٣٨٣	١١	يود أحدكم	يود أحدهم
٣٨٥	٢١	يخفض	يخفض
٣٨٦	٩	استعذبت	قد استعذبت
٣٨٦	١١	من الملام	من ماء الملام
٣٨٧	١٥	من المؤمنين عشيرتك	المؤمنين من عشيرتك
٣٨٨	٩	فيم بعد	فيمن بعد
٣٨٩	٨	أتباع الشيطان	اتباع الشيطان
٣٨٩	١٧	أحلام بل هو شاعر	أحلام بل افتراه بل هو شاعر
٣٩٠	١٥	أى الحديث	أن الحديث
٣٩٠	١٨	با القبيح	من القبيح
٣٩١	٥	وإنهم	وأنهم
٣٩٢	١	وأيم الله	وايم الله
٣٩٣	٥	وأمر به	أمر به
٣٩٤	٧	كثيرا جدا	كثيرة جدا
٣٩٤	٩	به وسيعلم	به لقوله وسيعلم
٣٩٤	١٠	ينقلبون	بينقلبون
٣٩٩	١١	إلا أنا	إلى أنا
٤٠٠	١٩	الهزلى	الهذلى
٤٠١	١	يقول الشماخ	بقول الشماخ
٤٠٣	١٢	قالوا أن	قالوا إن
٤٠٤	٣	فى اجتماع الحرفى المختلفين اللفظ	فى اجتماع الحرفين المختلفى اللفظ
٤٠٤	٦	باجتماع غير العاملين	فاجتماع غير العاملين
٤٠٤	٢١	من يكون	من أن يكون
٤٠٧	٢٠	إن أصل	أن أصل
٤٠٨	١	الذين فتنوا	إن الذين فتنوا
٤٠٨	٤	وإن لو استقاموا	وأن لو استقاموا
٤٠٨	١٢	مشمرك	شمرك
٤١١	١	قوم صالح وثمود	قوم صالح ثمود
٤١١	٥	مما نزل	ما نزل
٤١٠	١٧	قوله أمن جعل	وقوله أمن جعل
١١٤	٢٠	أن تدارك	أى تدارك
٤١٦	١٥	كما سمع	ما تسمع
٤١٩	٢٢	بعد	بعده
٤٢١	٥	تطلعه الصمم	تطلق الصمم
٤٢٢	١٣	أى سركم	أيسركم
٤٢٤	٩	كيف نكلم	كيف تكلم
٤٢٤	١٩	وابنه أنس	وابنه وأنس
٤٣٦	١٣	قال قال حدثنى	قال حدثنى
٤٤٠	١٢	اعتقادهم وقوله	اعتقادهم قوله
٤٤١	١٨	منزل حال	منزل على حال
٤٤١	٢٠	ذكر شيئا	ذكرنا شيئا
٤٤٤	٣	التى قدمها التى هى	التى قدمها التى هى
٤٤٤	١٤	منها أى منها أى من قبلها	منها أى من قبلها
٤٤٤	١٩	وتعبده بها فعبده بها فعله	وتعبده بها فعله
٤٤٥	٤	فلهم جزاء	فأولئك لهم جزاء
٤٤٦	١٩	لأن السيئة	بأن السيئة
٤٥٢	١	ذلك قوله	ذلك أن قوله
٤٥٤	٣	دائما ترتب على معلولها دائما ترتب رجاء	دائما ترتب رجاء

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٤٥٥	١٢	فى هذه الدنيا لعنة	فى هذه الدنيا لعنه
٤٦٢	١٩	المبين ذكر جل وعلا	المبين قوله تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ذكر جل وعلا
٤٦٥	١٧	إماما وقوله تعالى إن إبراهيم	إماما وقوله تعالى وإبراهيم الذى وفى وقوله تعالى إن إبراهيم
٤٦٦	١٤	فى الأرض وكانوا سابقين	فى الأرض وما كانوا سابقين
٤٧٠	٣	كل كل نفس	كل نفس
٤٧٦	١٥	والإنس لهم أعين	والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين
٤٧٧	٨	ويتبين	ويبين
٤٧٨	٥	المقصود على	المقصور على
٤٧٨	٧	النعيم الأبدى من أعمال	النعيم الأبدى والعذاب الأبدى من أعمال
٤٧٨	٨	وعدم نيل غايته	وعدم نيل غايته
٤٧٨	١٣	مقامه وسدمسده	مقامه ويسدمسده
٤٧٩	١٧	بلقاءى ربهم	بلقاء ربهم
٤٨٨	٨	فى الكلا دليلا	فى الكلام دليلا
٤٨٧	٤	وقد قدمنا	قد قدمنا
٤٨٨	٤	أعمالهم قوله تعالى إن تسمع	أعمالهم قوله تعالى فإنك لاتسمع الموتى إلى قوله إن تسمع
٤٨٨	٢٠	المخفوضة والمنصوب	المخفوضين والمنصوب
٤٩١	١٨	المعطوف	المعطوفات
٤٩٧	٠	جنى التغلبى	حنى التغلبى
٥١٣	٥	ولا تجعل	لا تجعل
٥١٧	١٤	التفكير	التكفير
٥١٩	٦	لما قالوا إنه	لما قالوا أنه
٥٢١	٤	لأنه مجرد قوله	لأن مجرد قوله
٥٢١	٢١	بحرمة	بمحرمة
٥٢٤	١	هذا الظاهر القرآن	هذا الظاهر القرآن
٥٢٥	٢	لقد فرض	قد فرض
٥٢٥	١	بظهرها	بظهرها
٥٢٦	٤	كظهر أمى	كظهر أمى
٥٢٦	١٨	أبأى عضو	أو بأى عضو
٥٢٧	١١	بعض الأم	بعضو الأم
٥٢٧	٢١	وعبد الله بن عمر وسعيد	وعبد الله بن عمرو وسعيد
٥٣٢	٩	فى أعلام الموقعين	فى إعلام الموقعين
٥٣٢	١٨	فى أعلام الموقعين	فى إعلام الموقعين
٥٣٤	١	فى أعلام الموقعين	فى إعلام الموقعين
٥٣٤	٩	فقد قال من القول والزور	فقد قال المنكرر من القول والزو
٥٣٥	٤	فهو مؤول	فهو مؤل
٥٣٥	٦	أنه نوى	أنه إن نوى
٥٣٥	٢١	ظاهر فى القرآن	ظاهر القرآن
٥٣٨	١	إحدى الامرين	أحد الأمرين
٥٣٨	٦	عطلقة	عطلقه
٥٣٩	٧	أن ينوى الطلاق	أن ينوى به الطلاق
٥٣٩	١	وجه اليمين	على وجه اليمين
٥٣٩	٦	المأخوذ	المأخوذة
٥٤٠	١٤	شهر	شهرا
٥٤٠	٢٢	ظاهرا	ظهارا
٥٤١	١١	تتابع	يتابع
٥٤٢	٥	الطريقة	الطريق
٥٤٢	١٠	الخراز	الخزاز
٥٤٤	٧	واحدة منهما	واحدة منها
٥٤٤	١٠	تجزئة كمارة	تجزئه كفارة
٥٥٢	٨	غالبا مافى	غالب مافى
٥٥٣	٩	إن اعتدياه	إن افتديا
٥٥٣	١٩	ولا يمنع	ومالا يمنع
٥٥٤	٢١	إن كانت	فإن كانت
٥٥٥	١٢	بثمن مثلها	بثمن مثلها
٥٥٥	١٦	يجب تتابعهما	يجب تتابعه
٥٥٥	١٧	صيام أيامهما	صيام أيامه
٥٥٥	١٧	تتابعها	تتابعه
٥٥٦	١٦	أفطر لفعله	أفطر بفعله
٥٥٨	١١	أفسدت ما مضى	أفسد ما مضى
٥٥٩	١	الأخير هو	الأخير الذى هو
٥٥٩	٢	بجماعة للمظاهر	بجاعه للمظاهر
٥٦٠	٦	ووجه ظاهر	ووجهه ظاهر
٥٦٠	٧	وهو طعام	وهو إطعام

ص	س	الخطأ	الصواب
٥٦٢	١٠	الرجوع عليه	الرجوع إليه
٥٦٤	٧	والفرق ستون	والعرق ستون
٥٦٧	١٨	الحكم معروف	والحكم كما هو
٥٦٩	٨	مختصرين من	مختصرين اهـ من
٥٧٣	١٥	أيدنها	أيدبها
٥٧٤	٢	الذين جاءهم	الذين جاءوهم
٥٧٥	٢	ضعفين وقد	ضعفين الآية قد
٥٧٥	١٠	يؤتها	يؤتيها
٥٧٦	١١	العدول عند	العدول عنه
٥٧٨	١٠	والحسن الحسين	والحسن والحسين
٥٧٩	١٧	فالغرض منها	فالعرض منها
٥٨٠	٨	للعلماء	وللعلماء
٥٨٢	٨	قال ابن كثير	وقال ابن كثير
٥٨٢	١٥	أشكاها زيدا	شكاها زيد
٥٤٧	١٤	إذا لم يقل	إذ لم يقل
٥٨٤	١٦	قد تعم معلولها	قد تعمم معلولها
٥٨٨	٤	هو مبنى	هو معنى
٥٩١	٥	المبيعات	المبايعات
٥٩٢	٢	الجلاليب	الجلابيب
٥٩٣	١٩	ليتحذر عنه	ليتحرز عنه
٥٩٦	١٣	لا مجال فيه	لامجال للرأى فيه

ص	س	الخطأ	الصواب
٥٩٦	١٧	وفيها ذكرنا	وفيما ذكرنا
٥٩٧	٢	قالته عائشة	كما قالته عائشة
٥٩٧	١	المرأة وجها	المرأة وجهها
٥٩٩	١	أدعوه	ادعوه
٥٩٩	٣	أوسطهم	أسطهم
٦٠٠	٣	حثعم	خثعم
٦٠٣	٥	يمس شيئا	يمس شيء
٦١٢	٩	ما ذكره	ما ذكر ذكره
٦١٩	١١	قدور راسيات	وقدور راسيات
٦٢٠	١٥	نبيه محمد	نبيه محمدا
٦٢١	١٠	بكل كل	بل كل
٦٢٢	٧	فى آيات أخرى	فى آية أخرى
٦٢٢	١٤	وشركاء حال	شركاء حال
٦٢٣	١٤	تسلت	تسليت
٦٢٣	٢١	هررا	هدرا
٦٢٤	٩	حق الثاء	حق التاء
٦٩٠	١٧	وقد قدمنا	قد قدمنا
٦٩٣	١٦	تملكنا مصيب	تمكنا مصيب
٦٩٣	١٩	مع الفعل	من الفعل
٦٩٤	٢	المضطردة	المطردة
٦٦٤	١٣	من سؤاله	من سؤله